برنار لازار

مُناهضة السَّاميَّة
تاريخها وأسبابها

ترجمة: د. ماري شهرستان

الأوائل
2004

العنوان الأصلي للكتاب باللُّغة الفرنسيَّة

BERNARD LAZARE

L' ANTISÉMITISME

SON HISTOIRE ET SES CAUSES

مُناهضة السَّاميَّة

تاريخها وأسبابها

الكتاب : مُناهضة السّامية تاريخها وأسبابها
تأليف: برنار لازار
ترجمة: د. ماري شهرستان
الإشراف الفنّي : يزن يعقوب
تصميم الغلاف : هلا خلوصي
الإخراج : دار الأوائل - سائد الرّاشد
التّدقيق العامّ : إسماعيل الكردي

الطّبعة الأولى: ***2004*** م

النّاشر : **الأوائل** للنّشر والتّوزيع والخدمات الطّباعيّة

سُوريّة . دمشق

الإدارة : ص . ب 3397 تلفاكس : 00963 11 2460063

التّوزيع : ص . ب 10181 هاتف : 00963 11 2248255

جوّال : 00963 93 411550 / 00963 93 418181

البريد الإلكتروني : alawael@scs-net.org
alawael@daralawael.com

موقع الدّار على الإنترنت : www.daralawael.com

موافقة وزارة الإعلام رقم 74728 تاريخ 2003/9/23

الفهرس

مُلاحظة مُدير المجموعة 7

برنار لازار الاسم الأصلي لازار برنار 9

الفصل الأوَّل: الأسباب العامَّة لمُناهضة السَّاميَّة التّميُّز المُطلق أو الانغلاق 13

الفصل الثّاني: مُناهضة اليهُوديَّة في التّاريخ القديم 26

الفصل الثّالث: مُناهضة اليهُود في التّاريخ المسيحي القديم

مُنذُ تأسيس الكنيسة حتَّى قسطنطين 38

الفصل الرابع: مُناهضة السَّاميَّة مُنذُ قسطنطين حتَّى القرن الثّامن 51

الفصل الخامس: مُناهضة اليهُوديَّة من القرن الثّامن حتَّى النّهضة (أو الإصلاح) 71

الفصل السّادس: مُناهضة اليهُوديَّة مُنذُ الإصلاح حتَّى الثَّورة الفرنسيَّة 93

الفصل السّابع: الأدب المُناهض لليهُوديَّة والأحكام السَّلَفيَّة 109

الفصل الثّامن: مُناهضة اليهُوديَّة الشَّرْعيَّة الحديثة 129

الفصل التّاسع: مُناهضة السَّاميَّة الحديثة وأدبها 146

الفصل العاشر: العِرْق La Race 160

الفصل الحادي عشر: القوميَّة ومُناهضة السَّاميَّة 176

الفصل الثّاني عشر: الرُّوح الثّوريَّة في اليهُوديَّة 194

الفصل الثّالث عشر: اليهُود والتَّحوُّلات في المُجتمع

الأسباب السِّياسيَّة والدِّينيَّة لمُناهضة السَّاميَّة 208

الفصل الرَّابع عشر: الأسباب الاقتصاديَّة لمُناهضة السَّاميَّة 228

الفصل الخامس عشر: مصير اللاَّساميَّة أو (مُناهضة السَّاميَّة) 244

قرؤوا فوصلوا ، لنقرأ حتَّى نصل

تنويهٌ هامٌّ

من أجل تواصُل أكثر مع السَّادة القُرَّاء ، فقد خَصَّصْنَا آخر (24) صفحة من هذا الكتاب لمنشورات الدَّار ؛ حيثُ يجد السَّادة القُرَّاء قائمة بمنشورات الدَّار ، ولمحة إلى كُلِّ كتاب أصدرتْهُ الدَّار .

هذه القائمة تُعطي انطباعاً عامَّاً عمَّا تنشُرُهُ الدَّار من آراء ، كما تُعطي لمحةً عامَّةً إلى الخطِّ الذي تنتهجُه الدَّار ، وهذا - بلا شَكٍّ - سيجعل التَّواصُل أسرع وأقرب وأصدق.

فنرجُو من السَّادة القُرَّاء قراءة هذه الصَّفحات بتأنٍّ وتدبُّر ، ونرجُو مُراسلتنا بمُلاحظاتكُم واستفساراتكُم عن الكُتُب التي تنشُرُها دارُ الأوائل .

مُلاحظة مُدير المجموعة

هل يجب أنْ أعترف؟ إنَّ اكتشاف هذا النّصِّ - بالنّسبة لي - أمر حديث ومُرتبط بالأبحاث المُثارة من ضرورة تعميق وفَهْم هذه المسألة اليهُوديَّة" المُعذَّبة التي اعتقدتُها حُلَّتْ - نهائيّاً - فيما مضى بالمُيُوعة النّظريَّة وفقدان القيَم الأخلاقيَّة التي تتعلّق بمُناهضة السَّاميَّة.

كنتُ أعتقد أنَّ المسألة اليهُوديَّة لم تَعُدْ موجودة إلاَّ بسبب الاستمرار الهامشي للأفكار السَّلَفيَّة القوميّة والكارهة الأجانب.

لكنَّ الأحداث الرّاهنة قادتني إلى إعادة طَرْح القضيَّة المُلائمة والمُتوافقة مع هذه الرُّؤية المُسيطرة حاليّاً.

إلاَّ أنَّه في إطار هذا التّفكير - الذي أصبح ضرورة - يُشكِّل كتاب برنار لازار مُساهمة أساسيَّة في وساعة مراجعه ومنهجيَّته. وإنَّ تغييب هذا النّصِّ وعدم معرفته تُشكِّل - بحَدِّ ذاتها - فضيحة.

إنَّ النُّسخة التي نُنتجها - اليوم - للجُمهُور في إطار مجموعة "لو بوي؛ أيْ لابندول" هي مُطابقة - تماماً - للنُّسخة الأصليَّة الصّادرة عام **1894**.

وبما أنَّ الغاية أوّلاً هي أنْ نُعطيه للقراءة والتّفكير، فلننتهز المُناسبة، ونُشير للقارئ إلى بعض الكُتُب التي تُؤمِّن عناصر للتّأمُّل والتّفكير في التّاريخ الأحدث وتطوُّرات مُناهضة السَّاميَّة؛ وهي تتمة لكتاب برنار لازار:

أبراهام ليون، المفهوم المادِّي للمسألة اليهُوديَّة، باريس **1980**، ماكسيم رودينسون. شعب يهُودي ومسألة يهُوديَّة، باريس **1981**.

مُوريس راجفو، يهُود في التّعاون U. G. I. F 1944 ـ 1941.

وللكاتب نَفْسه، كُنْ يهُوديّاً، واصمتْ! 1940 ـ 1930.

الفرنسيُّون الإسرائيليُّون في مُواجهة النّازيَّة، باريس 1981.

هذا التّوجيه المكتبي يجب ألاَّ يُفهَم فيه مُوافقة على كُلٍّ من هذه النُّصُوص، التي هي مُتناقضة أحياناً، لكنَّ الأمر هُو الإشارة إلى النُّصُوص التي هي غير معروفة تماماً، وتُؤمِّن كُلٌّ منها عناصر ضروريَّة ومُفيدة للتّفكير والملاحظة.

بيير غيُّوم
كانون الأوَّل 1981

برنار لازار

الاسم الأصلي لازار برنار

وُلد في نيم عام **1865**، في وسط عائلة يهُوديَّة مُستقرَّة في جنوب فرنسا مُنذُ عدَّة قُرُون. أتى برنار لازار شابّاً إلى باريس؛ ليُتمِّمَ دراساته. فهُو انجذبَ للآداب، فكتب - مع ابن عمِّه الشّاعر أفراييم مخائيل - الذي مات في سنِّ الرّابعة والعشرين - أُسطُورة دراماتيكيَّة في ثلاثة فُصُول؛ وهي "خطيبة كُورنت"؛ حيثُ أخذ منها كاتول مندس كُتيِّب بريزيس.

ثُمَّ أصدر مرآة الأساطير، مجموعة أبحاث فلسفيَّة، والمُباحثات السّياسيَّة والأدبيَّة مع (بُول آدم وهنري رينية وفيلغريفان).

وإصداره لكتاب: مُناهضة السَّاميَّة تاريخها وأسبابها"، عام **1894**، كان ردّاً على كُتُب إدوارد درُومون.

ثُمَّ - بعد ذلك بقليل - اندفع في الصّراع لمصلحة مُراجعة مُحاكمة المنفي إلى جزيرة الشّيطان، وأصدر كتاباً أعطى فيه إشارة للحملة الحقيقيَّة حول قضيَّة دريفوس (**1896**).

إنَّ إصدار هذا الكتاب أثار هجائيَّة حادَّة مع التّيَّارات المُناهضة للسَّاميَّة، وخُصُوصاً مع إدوارد درُومون الذي تصارع مع برنار لازار في مُناظرة.

فأصدر على التَّالي - مُناهضة ساميَّة وثورة عام **1895**.

وأصدر ضدَّ مُناهضة السَّاميَّة تاريخ حرب هجائيَّة **1896**، (وأُعيد نشرها **1898**) هذان النّصَّان مُتمِّمَان لهذا الكتاب الحالي.

أُعيد جَمْعها مع الوصيَّة غير المُعلنة لبرنار لازار، ومع شُهُود مُعاصرين في "ضدَّ مُناهضة السَّاميَّة" الذي نُشر عام 1983، في المجموعة نَفْسها.

هُناك مُقدِّمة تُركِّز على الهجائيَّات المُثارة في الأوساط اليهُوديَّة هذه المرَّة، وبإعادة نشر هذا الكتاب عام 1982، أعادوا الحقَّ للأُسطُورة الموجودة في هذه الأوساط التي - بحسبها - برنار لازار قد أنكر عمله الأصلي.

مرض برنار لازار مَرَضاً خطيراً وشديداً، ومات في باريس، في 2 أيلول عام 1903، كان عمره 38 عاماً.

وكان قد كَتَبَ في وصيَّته: "فيما يخصُّني أرغب إذا متُّ أنْ أُدفنَ بدُون احتفال ديني." تلا حاخامني القاديش على قبر هذا المُلحد.

وكتب كذلك:

أعمل مُنذُ عشرة سنوات على كتاب حول اليهُود، عُنوانه يجب أنْ يكون: (قُمامة أيُّوب) أو (دمال أيُّوب)، سوف تجدون مُلاحظاتي كُلَّها مُصنَّفة في صُندوقي.

وأعتقد أنَّه لو أحد من أصدقائي أراد أنْ يستعيد هذه التّصنيفات يستطيع أنْ يستخرج من هُنا كتاباً في التّأمُّلات الأساسيَّة حول اليهُود تاريخهم وذهنيَّتهم وفلسفيَّتهم. وإذا أراد ميرسون ولوسيان هير أنْ يقوما بهذه المهمَّة أكون لهما من الشّاكرين، ويكون ذلك أفضل ذكرى يُمكنهما أنْ يُقدِّماها في تذكاري.

مع ذلك، لم يتمَّ الإصدار إلاَّ عام 1928، بفضل صمُوئيل المُسمَّى أدموند برنار أحد أُخوة برنار لازار.

هذا الإصدار المُزوَّر (إذْ إنَّ كامل المخطوط لم يُنشر) قد نُفِّذَ دُون تعاون ومُشاركة لوسيان هيروميرسون مُخالفة لإرادة ثالثة عبَّر عنها برنار لازار عندما كَتَبَ: "أرجو من كُلِّ أفراد عائلتي أنْ يرفضوا كُلَّ الحقوق التي يُخوِّلها لهم القانون، وذلك رُضُوخاً لإرادتي القطعيَّة، وأنا كنتُ أعرف عطفهم لي لكي أعلم أنَّ رغبتي المُعبِّرة تكفي".

هذا لم يكن كافياً، لقد خُبِّئتْ هذه الوصيَّة عن الجُمهُور.

وصموئيل برنار الذي لا يُشارك التزامات برنار لازار الاشتراكيَّة الفوضويَّة نَصَّبَ نَفْسه "الحارس الأمين لفكْر النّبي". إعادة طبع مُناهضة السَّاميَّة تاريخها وأسبابها وَجَبَ أنْ تنتظر لعام 1934، وإخلاص "أندريه فونتايناس" إصدار كريس بباريس 1932 - مُقدِّمة أفونتاناس)
وفي عام 1983، ميري شيرشيفسكي (المعروفة باسم كارول ساندريل، وهي حفيدة صمُوئيل برنار والسّكرتيرة العامَّة لأصدقاء برنار لازار أقامت دعوى لإصدارات الاختلاف La Difference بُغية الحصول على خمسين ألف فرنك عن أضرار ومصالح الإدخال القسري، في كُلِّ نسخة من الكتاب المطبوع تحذير إلى القارئ تُعبِّر عن التّأويلات المُضلِّلة.

فَسَجَّلَتْ عريضة إشهار، أمام الأستاذ آتال كاتب عدل باريس فيها شهادات مدام فرانسواز جيرود الوزيرة السّابقة والسَّيِّد فيليب راغونو رفيق التّحرير.

فهُمْ الذين شهدوا للحقيقة، وكونهم بمثابة إشهاد عامٍّ، وعلى معرفتهم الشّخصيَّة أنَّ برنار لازار مات بدُون وصيَّة!..

وذلك بُغية تأسيس حقِّ الوراثة المزعوم لنسيبة وارثه بالحقِّ ضدَّ ناشر عمِّها، ثُمَّ زَعَمَتْ - سُدَى - أنَّها حصلت على الحجز القضائي لكتاب "ضدَّ اللاساميَّة" الذي وُجدت فيه للأسف، وانكشفت الوصيَّة الشّهيرة.

والمُراجع لمفاصله التّفسيريَّة للكتاب المُقدَّس، بدافع أنَّها الوريثة وهي الوحيدة لها الحقُّ في إذاعة الوصيَّة التي كانت مُنكرة.

لنُوقف ذلك، ونُعيد لبرنار لازار نَفْسَهُ؛ أيْ نُصُوصه للقُرَّاء.

بيير غيُّوم
تشرين الأوَّل 1985



الفصل الأوَّل:

الأسباب العامَّة لمُناهضة السَّاميَّة

التّميُّز المُطلق أو الانغلاق

إذا أردنا أنْ نكتب تاريخ مُناهضة السَّاميَّة كاملاً دُون أنْ ننسى أيّاً من بوادر هذا الشُّعُور مُتابعين المراحل المُختلفة والتّغييرات، يجبُ علينا أنْ نبدأ بتاريخ اليهُود مُنذُ الشّتات، أو - على الأصحّ - مُنذُ الأزمنة التي انتشروا فيها خارج الأراضي الفلسطينيَّة.

أينما حلَّ اليهُود واستوطنوا - وهُمْ مُتخلُّون عن كونهم أُمَّة جاهزة للدّفاع عن حُرِّيَّتها واستقلالها - نَمَتْ وانتشرتْ مُناهضة السَّاميَّة، أو بالأحرى؛ مُناهضة اليهُوديَّة، إذْ إنَّ مُناهضة السَّاميَّة هي كلمة أُسيء اختيارها، ولم يُبرِّرْ وُجُودها إلاَّ في زماننا هذا عندما أُريد توسيع هذا الصّراع اليهُودي مع الشُّعُوب المسيحيَّة وإعطاء مصدر عَمَل فعْله فلسفة وسبباً ما ورائيّاً أكثر منه مادِّيّاً.

ولو مُورِس هذا العداء وهذه الكراهيَّة ضدَّ اليهُود في زمن واحد وفي بلد واحد لكان من السّهل تبيان الأسباب المحدودة (الحصريَّة) لهذا الغضب: لكنَّ الواقع أنَّ هذا العِرْقَ كان هدفاً لكُرْه جميع الشُّعُوب التي عاش فيما بينها. لذلك؛ وبما أنَّ أعداء اليهُود ينتمون إلى أعراق وأُصُول مُختلفة ومُتنوعة جداً، وهُمْ يعيشون في (بُلدان) شديدة البُعْد الواحدة عن الأُخرى، محكومة بقوانين مُختلفة ومبادئ مُتعاكسة، وليس لديها لا العادات نَفْسها، ولا الأعراف نَفْسها، تُحرّكها ذهنيَّات مُتباعدة لا تسمح لها أنْ تحكم على الأشياء بشكل مُتماثل، وَجَبَ - إذاً - أنْ تكون الأسباب العامَّة لمُناهضة السَّاميَّة كامنة في اليهُود ذاتهم، وليس عند الذين يُحاربونهم.

هذا ليس معناه أنَّ مُضطهدي اليهُود كانوا - دوماً - على حقٍّ بلُجُوئهم إلى أقصى درجات الكراهيَّة، لكنْ؛ لنقل من حيثُ المبدأ إنَّ اليهُود أنفسهم قد تسبَّبوا - جُزئيّاً على الأقلِّ - في آلامهم.

أمام هذا الإجماع من التّظاهرات المُناهضة للسّاميَّة يُصبح من الصّعب الاعتقاد أنّها - ببساطة - حرب دينيَّة، كما كان يحصل غالباً، كما أنّه لا يجب أنْ نرى في الصّراع ضدَّ اليهُود صراعاً للتّعدُّديَّة ضدَّ الأُحاديَّة وصراع الثّالوث الأقدس ضدَّ يَهْوَه. إنَّ الشّعُوب التّعدُّديَّة مثل الشّعُوب المسيحيَّة لم تُحارب عقيدة الإله الواحد، إنَّما حاربت اليهُودي.

أيُّ فضائل وأيُّ مثالب استحقَّ اليهُودي من جرَّائها هذا البُغْضَ العالميَّ؟ لماذا أُهين وأُسيئتْ مُعاملته، وكُره على مَرِّ الأزمان، وبشكل مُتساوٍ من الإسكندريِّيْن ومن الرُّومان، من الفُرْس والعَرَب والأتراك، ومن الشّعُوب المسيحيَّة؟ لأنَّه أينما كان وحتَّى يومنا هذا كان اليهُودي كائناً غير اجتماعي.

- لماذا كان غير اجتماعي؟ لأنَّه كان إنساناً مُطلق التّحيُّز لأفكاره، وهذا التّحيُّز كان سياسيَّاً ودينيَّاً معاً، أو لنقلْ إنَّه كان مُستمسكاً بعقيدته السِّياسيَّة الدِّينْيَّة وبشريعته.

إذا لاحظنا - عبر التّاريخ - نجد أنَّ الشّعُوب المغلوبة تخضع لقوانين المُنتصرين، بينما هي تُحافظ على إيمانها ومُعتقداتها. إنَّها تستطيع ذلك بسهُولة، لأنَّ الفصل عندها واضحٌ جداً بين العقائد الدِّينيَّة الآتية من الإله والقوانين المَدَنيَّة الصّادرة عن المُشرِّعين، قوانين يُمكن تعديلها حسب الظُّرُوف دُون أنْ يخضع الإصلاحيُّون للحرمان الكَنَسي أو اللَّعنات الإلهيَّة: ما صنعه الإنسان، يستطيع الإنسان أنْ يُبدِّله.

وعندما كان المغلوبون يثورون ضدَّ المُجتاحين كان ذلك بدافع الوطنيَّة، وليس هُناك من دافع أو مُحرِّك آخر إلاَّ الرّغبة في استعادة أرضهم وحُرِّيَّتهم.

عدا هذه الانتفاضات القوميَّة؛ نادراً ما كانت الشّعُوب تُطالب بإعفائها من الخُضُوع للقوانين العامَّة. فإذا كانوا يحتجُّون فذلك كان ضدَّ إجراءات خاصَّة تضعهم في مصاف أدنى من المُحتلِّ. وفي تاريخ الاحتلال الرُّوماني نجد المُحتلِّين (أيْ الذين احتُلَّتْ أراضيهم) يخضعون لرُوما عندما كانت رُوما تفرض عليهم - بحزم وشدَّة - تشريعها الذي يحكم الإمبراطُوريَّة.

أمَّا بالنّسبة للشّعب اليهُودي؛ فكان الأمر مُختلفاً جداً.

في الواقع؛ وكما أشار لذلك سبينُوزا[1] لم تكن القوانين المُوحاة من الله إلى مُوسى[2] إلاَّ قوانين الحُكُومة الخاصَّة للعبرانيِّيْن" مُوسى نبيٌّ ومُشرِّع أضفى على قوانينه القضائيَّة

(1) تركتا تُوس تيُولُوجيك، بُولتيك، مُقدِّمة.

نَفْسَ صفة الفضيلة (للمُعتقدات) للقوانين الدِّينيَّة ؛ أيْ الوحي ، إنَّ يَهْوَه لم يقل للعبرانين فقط : "لن تعبدوا إلاَّ إلهاً واحداً ، ولن يكون لكم معبود (صنم) غيري" .

لكنَّه أمرهم بقواعد صحِّيَّة وأخلاقيَّة ، كما أنَّه لم يُشر ـ فقط ـ إلى الأرض التي يجب أنْ تتمَّ عليها الأضاحي وبدقَّة ، لكنَّه ـ أيضاً ـ قد حدَّدَ الطّريقة والنُّظُم التي بموجبها سوف تُحكَم هذه الأراضي .

كُلُّ قانون من هذه القوانين إنْ كان زراعيّاً أو مَدَنيّاً أو وقائيّاً إلهيّاً أو أخلاقيّاً له السُّلطة والملكة والعُقُوبة نَفْسها ، بشكل أنَّ هذه المجموعة القانونيَّة تُشكِّلُ وحدة حزمة قاسية لا يُستطاع خَرْقها تحت طائلة التّدنُّس .

في الحقيقة والواقع ؛ إنَّ اليهُودي كان يعيش تحت سيطرة مُعلِّم واحد هُو يَهْوَه الذي لا يستطيع أحدٌ أنْ يغلبه أو يقاتله ، ولم يكن يعرف إلاَّ شيئاً واحداً : الشّريعة ؛ أيْ مجموعة القواعد والأحكام التي أعطاها يَهْوَه في يوم من الأيَّام إلى موسى ، شريعة إلهيَّة مُمتازة ، كفيلة بأنْ تقود الذين يتَّبعونها إلى الخيرات الأبديَّة : قانون كامل ، وقد تلقَّاه ـ فقط ـ الشّعب اليهُودي .

بهذه الفكْرة وهذا الفهم للتّوراة ؛ لم يكن باستطاعة اليهُودي أنْ يتقبَّل قوانين الشُّعُوب الغريبة : ولا حتَّى مُجرَّد التّخيُّل والتّفكير بأنْ يراها مُطبَّقة . لم يكن باستطاعته أنْ يتخلَّى عن القوانين الإلهيَّة ، الأزليَّة ، الصّالحة ، العادلة ، ليتَّبع قوانين بشريَّة ناقصة ومحكومة ـ قدراً ـ للزّوال والإلغاء . لو استطاع أنْ يشترك في هذه التّوراة ، لو أنَّه رتَّب القوانين المَدَنيَّة من جهة ، والأوامر الدِّينيَّة من جهة أُخرى ! لكنَّ المجموع كان له طابع قُدسي ، وأخذها بالمُجمل ، هُو الذي يُؤدِّي إلى سعادة الشّعب اليهُودي ، هذه القوانين المَدَنيَّة التي تُلائم أُمَّة ، ولا تُلائم مُجتمعات ، لم يشأ اليهُود تركها عندما دخلوا في الشُّعُوب الأُخرى ، ورغم أنَّ هذه القوانين فقدت مُبرِّر وُجُودها خارج أُورشليم فهي بقيت ـ بالنّسبة للعبرانيِّيْن ـ واجبات دينيَّة كانوا قد تعهَّدوا بإتمامها حسب وثيقة قديمة مع الأُلُوهيَّة .

وكذلك أينما حلَّ اليهُود ، وأقاموا مُستوطنات ، وأينما رُحِّلوا ، لم يطلبوا السّماح لهم بمُمارسة ديانتهم فقط ، لكنْ ؛ طلبوا ـ أيضاً ـ السّماح لهم بألاَّ يخضعوا لأعراف وعادات الشُّعُوب التي يعيشون في وسطها ، وبأنْ يتركوهم يُحكَمون بقوانينهم الخاصَّة بهم .

---

(2) عندما أقول مُوسى مَنَحَ أو خَوَّلَ الحقَّ ليس للتّأكيد على أنَّ مُوسى قد وَضَعَ الشّرائع الموضوعة كُلَّها تحت اسمه ، إنَّما لأنَّهم نسبوا صياغتها له .

ففي رُوما، الإسكندريَّة، في أنطاكيَّة، وفي السّيرينايك (مدينة يُونانيَّة في أفريقيا) استطاعوا أنْ يتصرَّفوا بحُرِّيَّة.

لم يكونوا يُستدعَون إلى المحاكم[3] يوم السّبت، وحتَّى إنَّه سُمح لهم بأنْ يكون لهم محاكمهم الخاصَّة، وألاَّ يُحكموا بحسب قانون الإمبراطُوريَّة، عندما كان يصدف توزيع القمح يوم السّبت كانوا يحتفظون لهم به لليوم التّالي[4]. كانوا يستطيعون أنْ يكونوا أعضاء بلديَّة، وفي الوقت نَفْسه؛ كانوا معفيِّيْن من مُمارسات تُعاكس ديانتهم.[5]

كانوا يُديرون أنفسهم كما في الإسكندريَّة، فكان لهم قاداتهم، مجلس شُيُوخهم، عاملهم الرُّوماني؛ حيثُ لم يكونوا خاضعين لسُلطة البلديَّة. في كُلِّ مكان، وأينما حلّوا أصرَّوا على أنْ يبقوا يهُوداً، وكانوا يحصلون - دائماً - على امتيازات تسمح لهم بتأسيس دولة داخل دولة.

وفي حظوة هذه الامتيازات وهذه الإعفاءات وهذه الإبراءات الضّريبيَّة وجدوا أنفسهم - وبسُرعة - في وضع أفضل بكثير من مُواطني المُدُن التي يعيشون فيها. كانت لهم تسهيلات أكثر للتّنقُّل والمُتاجرة والإثراء، وبذلك؛ أثاروا غَيْرة وأحقاد الآخرين.

إذاً؛ كان لتعلُّق اليهُود بقانونهم سبباً أوّليّاً لنَبْذهم، حتّى لو أنَّهم جَنَوا من هذا القانون أرباحاً ومصالح قد تكون أثارت الغَيْرة والأحقاد، أو أنَّهم بذلك تفاخروا بامتياز (التّوراة)؛ توراتهم ليعدُّوا أنفسهم، وكأنَّهم فوق وخارج الشُّعُوب الأُخرى.

لو أنَّ اليهُود التزموا بالمذهب الموسوي الصّافي لاستطاعوا - بدُون أدنى شَكٍّ، في مرحلة من مراحل تاريخهم - أنْ يُعدِّلوا هذه الموسويَّة بطريقة يُبقون فيها على المُعتقدات الدِّينيَّة أو الماورائيَّة، وربَّما لو أنَّهم لم يكن لديهم كتاب مُقدَّس إلاَّ التّوراة لكانوا انصهروا في الكنيسة النّاشئة التي وجدت أوَّل أتباعها عند الصّدوقيِّيْن والآسينيِّيْن واليهُود الجُدُد أو أنصار اليهُود.

أمرٌ واحدٌ مَنَعَ هذا الانصهار، وحافظ على اليهُود بين الشُّعُوب هُو: إعداد التّلمُود، سيطرة وسُلطة الأحبار الذين علَّموا التّقاليد المزعومة.

---

(3) قانون تيود VII- II.I، 2 - قانون جوست 2IXTI.

(4) فيلون ليغات.

(5) قرارات سبتيم سيفير وكراكلاّ.

لكنَّ فعْل الأحبار هذا (الذي سوف نعود لبحثه لاحقاً) *جعل من اليهُود كائنـات مُتوحِّـشة غير اجتماعيَّة ومُتكبِّرة*؛ والتي قـال عنـها (اسـبينوزا) **Spinoza**[6] : "هـذا ليس مُدهشـاً أبـداً أنَّهم بعد أنْ تفرَّقوا وتشتَّتوا لسنين طويلة استمرّوا بدُون حكُومة، إذْ إنَّهم انفصلوا عـن جميـع الأُمـم الأُخـرى، لدرجـة أنـهم جلبـوا لنَفْسـهم كراهيَّـة كُـلِّ الشُّعُوب، ليـس ـ فقـط ـ بسـبب طُقُوسهم الخارجيَّة المُتنافرة مع طُقُوس الأُمم الأُخرى، إنَّما ـ أيضاً ـ بسبب علامة الختان".

هكذا كان يقول الأحبار، غاية الإنسـان على الأرض هـي معرفـة ومُمارسـة الشّريعة، ولا نستطيع مُمارستها كاملة إلاَّ إذا تهرَّبنا من القوانين غـير الصحيحـة. اليـهُودي الـذي كـان يتبع هذه التّعاليم كان ينعزل عن باقي البشـر: كـان ينقطـع ويتحصَّـن خلـف الأسـوار المُشـادة حول التّوراة **Esdras** و(الكتابات الأوَّليَّـة) الكَتَبَـة الأوَّلـين[7]، ثـمَّ الفرِّيسـيِّيْن، والتّلمُوديِّيْـن وَرَثَة الـ(**Esdras**) الذين شوَّهوا المذهب الموسوي الأوَّلي، وهُـمْ أعـداء الأنبيـاء. واليـهُودي لم ينعزل ـ فقط ـ وهُو رافض الخُضُوع للتّقاليد التي تُقيم علاقات بين سُكَّان البلد الذي يعيش فيه، لكنَّه ـ أيضاً ـ كان يدحض أيَّ علاقة مع هؤلاء السُّكَّان أنفسـهم. فـإلى عـدم اجتماعيَّتـه أضاف انغلاقه الخاصَّ جداً **exclusivisme** وتفرُّده.

فبدُون الشّريعة، وبدُون اليهُود لكي يُمارسونها، لم يكن ليكون هُناك عـالم، لكـان الله أدخله في العدم، ولن يعرف العالمُ السّعادةَ إلاَّ عندما يخضع لسُلطة هذه الشّريعة العالميَّة؛ أيْ لسيطرة اليهُود.

وبالتّالي؛ فإنَّ الشّعب اليهُودي هُو الشّعب المُختـار مـن الله كحـامل ومُستودَع لإرادتـه ورغباته، إنَّه الوحيد من بين الشُّعُوب الذي عقدت معه القُدرة الإلهيَّة عـهداً، فـهُو المُختـار والمُنتقى من الرَّبِّ.

وعندما أغوت الحيَّة حوَّاء (حسب قول التّلمُود) فقد أفسدَتْهَا بسُمِّها. أمَّا اليـهُود؛ فقـد تخلَّصوا من هذا الشَّرِّ بتلقِّيهم الوحي في سيناء.

أمَّا الشُّعُوب الأُخرى؛ فلم تستطع الشّفاء والتّخلُّص من ذلك حتَّـى لـو أنَّ لديـها ملاكـاً حارساً لكُلِّ شعب، ولنُخبتهم الحافظة، فإنَّ اليهُود هُمْ تحت رعاية عين يَهْوَه نَفْسه.

---

(6) اسبينوزا ـ تراكتايتُوس ـ لاهوت وسياسة، فصل III.

(7) سوفيريم Les Dibres Sopherim.

إنَّها الابن المُفضَّل للأزلي، والوحيد الذي له الحقُّ بحُبِّه ورعايته وحمايته الخاصَّة، والبشر الآخرون هُمْ درجة أقلّ، وتصنيفهم يقع تحت العبرانيِّيْن.

فهُمْ ليس لهم حقٌّ إلاَّ بتعطُّف الكَرَم الإلهي؛ إذْ إنَّ الأرواح اليهُوديَّة هي - فقط - سليلة الإنسان الأوَّل. أمَّا الخيرات المُرسلة للأُمم؛ فهي - في الواقع - مُلْكُ اليهُود، وها هُو يسُوع نَفْسه يُجاوب المرأة الفينيقيَّة "دعي البنين أوَّلاً يشبعون؛ لأنَّه ليس حسناً أنْ يُؤخذ خُبز البنين، ويُطرَح للكلاب". (8)

هذا الإيمان بقَدَرهم، وهذا الانتقاء نمَّى عند اليهُود كبرياء شديدة؛ فأصبحوا ينظرون إلى غير اليهُودي بازدراء، وغالباً بكراهيَّة، عندما تتداخل الأُمُور الإلهيَّة الدِّينيَّة بالأُمُور الوطنيَّة.

وعندما كانت تُتهدَّدُ القوميَّةَ اليهُوديَّةَ كُنَّا نرى تحت حُكْم **Jean Hycran** (حنَّا هيكران) الفرِّيسيِّيْن يُعلنون أنَّ أرض الشُّعُوب الغربيَّة نجسة، ومُعاشرة اليهُود لليُونان نجاسة. ولاحقاً؛ اقترح (الشّمانين) **les Schamaites** في مجمع كَنَسي إقامة فَصْل كامل بين اليهُود والوَثَنيِّيْن، فأصدروا مجموعة من الأوامر والنّواهي تُسمَّى الأشياء الثّمانية عشر التي سادت رغم مُقاومة (الهلِّيْن) لها. كما أنَّه في مجالس أنطيُوخُوس **Autiochus Sidétès** بدؤوا يتكلَّمون عن انغلاق اليهُود الاجتماعي؛ أيْ "التّحيُّز التّامّ، والانقطاع للعيش - فقط - في وَسَط يهُودي بدُون أيِّ اتِّصال كان مع الوَثَنيِّيْن المُشركين، والرّغبة الشّديدة الفائقة لجَعْل هذه الاتِّصالات أصعب فأصعب، حتَّى تُصبح مُستحيلة" (9). ونرى أمام أنطيُوخُوس إبيفاو الكاهن الكبير **Ménélaus** ينتقد القانون: "تعليم بُغْض الجنس البشري، مَنْع الجُلُوس إلى طاولة الغُرباء وغَمْرهم بالرّحب والسّعة".

لو أنَّ هذه التّوصيات والنّواهي فَقَدَتْ سُلطتها عندما زالت الأسباب التي أوجدتْها، والتي هي مُبرَّرة نوعاً ما، لكان الألم والضّرر أقلَّ بكثير، وليس بهذه الحدَّة. لكنَّنا نجدها تعود إلى الظُّهُور في التّلمُود، وسُلطة الأحبار أعطتْهَا تصديقاً من جديد. وعندما توقَّف الصّراع بين الصّدوقيِّيْن والفرِّيسيِّيْن، وعندما انتصر هؤلاء، أصبحت هذه الاتِّجاهات لها قُوَّة القانون، فأصبحت تُدَرَّسُ، وساهمت في ازدياد انغلاق اليهُود إلى الحدِّ الأقصى.

---

(8) مرقس VII، 27.

(9) ديرنبورغ: جَغرافيَّة فلسطين.

هُناك ـ أيضاً ـ خشية من الرِّجس (النّجاسة) أبعدت اليهُودَ عن العالم، وجعلت انعزالهم أشدَّ وأقسى. بالنّسبة للنّجاسة؛ كان الفرِّيسيُّون لهم أفكار مُتشدِّدة إلى حَدِّ التّطرُّف. وبحسب وُجهة نظرهم؛ فإنَّ أوامر ونواهي التّوراة لم تكن كافية لكي تحفظ الإنسان من الخطيئة. فكما أنَّ أدنى مُلامسة تُلوِّث أوعية الأضاحي، فقد توصّلوا لاعتبار أنّهم قد يتدنّسوا أو يتلوّثوا هُمْ أنفسهم عند الاتِّصال بالغَيْر، ومن هذا الخوف وهذه الخشية تولّد عددٌ لا يُحصى من القواعد والقوانين التي تتعلّق بالحياة اليوميَّة: قواعدُ للثّياب، المسكن، الغذاء، وكُلُّها صيغت بهدف جعل اليهُود يتجنَّبون النّجاسة وخَرْق الحُرُمَات، لكنَّها ـ هُنا أيضاً ـ تبقى لها خُصُوصيَّة يُؤخَذ بها في دولة مُستقلَّة أو في مدينة، لكنْ؛ هُناك استحالة أنْ يتبعها الإنسان في بلد أجنبي. لأنّها تفرض على الذين يلتزمون بها ضرورة الهُرُوب من المُجتمع غير اليهُودي، وبالتّالي؛ العيش مُنعزلين مُناهضين لأيِّ تقارب.

أمَّا الفرِّيسيُّون والرَّبَّانيُّون؛ فقد ذهبوا إلى أبعد من ذلك. فهُمْ لم يكتفوا بحفظ الجسد، بل بحثوا في حفظ الفكْر، وقد برهنت لهم التّجربة خُطُورة المُستوردات الهلِّينيَّة أو الرُّومانيَّة، وأسماء كبار الكَهَنَة المُتهلينين مثل: جاسون، مينيلاوس، إلخ، وذكر الرَّبَّانيِّيْن في الأزمنة التي استطاع فيها الذّكاء اليُوناني استمالتهم عندما اجتاحوا جُزءاً من اليهُود. وهُمْ يعرفون أنَّ حزب الصّدوقيِّيْن مثل الإسكندريِّيْن، ومثل كُلِّ الذين يُؤكِّدون أنَّ: "الأحكام الشَّرْعيَّة الواردة ـ بشكل صريح ـ في الشّريعة المُوسويَّة هي ـ فقط ـ الإلزاميَّة. الباقي كُلُّه النّاتج عن التّقاليد المحلِّيَّة أو الصّادرة لاحقاً ليس لها صفة التّقييد المُلزم[10]. فَتَحْتَ التّأثير اليُوناني؛ وُلدت الكُتُبُ والقرارات التي هيَّأت للمسيح، واليهُود المُتهلينون؛ مثل فيلون وأريستوبول وغيرهم ـ مثل كُلِّ وَرَثَة الأنبياء ـ قادوا الشُّعُوب إلى المسيح، ونستطيع القول ـ أيضاً ـ إنَّ المُوسويَّة الحقيقيَّة بعد أنْ تنقَّت وكبرت (تصعَّدت) من قبَل إشَعْيَا وإرْمِيَا وحزقيال، وبعد أنْ توسَّعت ـ أيضاً ـ عالميّاً من قبَل اليهُود المُتهلينين كانت استطاعت أنْ تقود اليهُود إلى المسيحيَّة، لولا أنَّ الفرِّيسيَّة والتّلمُوديَّة لم تكن هُنا لحَصْر جُمُوع اليهُود في أحكام صارمة ومُمارسات طَقْسيَّة ضيِّقة.

وقد عَظَّمَ ومَجَّدَ الحُكَماء قانونهم فوق كُلِّ الأشياء، وذلك لحماية شعب الله وحفظه من التّأثيرات السَّيِّئة. فأعلنوا أنَّ دراسته ـ فقط ـ يجب أنْ تشغل اليهُودي، وبما أنَّ الحياة

---

(10) غريتس ـ تاريخ اليهُود، ص469.

بأكملها تكاد لا تكفي لمعرفة وتعميق كُلِّ دقائق وإفتاءات ورُوح هذا القانون، مَنَعوا دراسات العُلُوم الدُّنيويَّة واللُّغات الأجنبيَّة: "نحنُ لا نُحبِّذ الذين يتعلَّمون لُغات عديدة فيما بيننا"، هكذا صَرَّحَ (جُوزف) Joséphe.[11]

كما أنَّهم لم يكتفوا بعد ذلك باحتقارهم، بل لجؤوا إلى حرمانهم وفَصْلهم عن الطّائفة. هذا الفصل لم يكن كافياً للرَّبَّانيِّين. إنْ لم يُوجد أفلاطُون؛ أليس لليهُودي التّوراة؟ أولا يستطيع أنْ يسمع صوت الأنبياء؟ وبما أنَّهم لم يستطيعوا مَنْعَ الكتاب المُقدَّس اختصروه، وجعلوه تابعاً للتّلمُود[*]: وأعلن الحُكَمَاء: الشّريعة هي الماء، الـ Michna (مشنا) هي الخمر". وعُدَّتْ قراءة التّوراة أقلَّ فائدة وأقلَّ نَفْعاً للخلاص من قراءة (مشنا)، إلاَّ أنَّ الحاخامات لم يُفلحوا مرَّة واحدة في قَتْل حُبِّ الاستطلاع في اليهُود. لقد لزم لذلك قُرُون عديدة، ولم ينتصروا إلاَّ في القرن الرّابع عشر، بعد أنْ ذهب وزال كُلُّ الذين أرادوا إحياء لليهُوديَّة بالفلسفة الأجنبيَّة مثل: ابن إسرا - بيشاي ابن ميمُون - بيدارشي - جُوزف كاسبي - ليفي بن جيرسون - ابن فيلون، وكثيرون غيرهم.

وبعد أنْ ضغط آشر بن جيشيل على مجمع الحاخامات في برشلونة، ودفعهم إلى حرمان وفَصْل كُلِّ الذين يهتمُّون بالعُلُوم الدُّنيويَّة. وبعد أنْ أوشى شالم R.Schalem في (مُونت بيلييه) إلى الدُّومينيكان بـ le More Nebouchim بعد أنْ أُحرق هذا الكتاب الذي يُمثِّل أعلى مُستوى للتّعبير عن فكْر ابن ميمُون، بعد هذا كُلِّه؛ انتصر الحاخامات[12]، لقد وصلوا إلى مُبتغاهم، واقتطعوا اليهُود من مُجتمع الشُّعُوب.

لقد جعلوا من هذه الطّائفة وحيدة مُنعزلة مُتوحِّشة، مُتمرِّدة على كُلِّ قانون، عدائيَّة لكُلِّ أُخُوَّة، ومُغلقة على كُلِّ فكْرة جميلة أو نبيلة أو كريمة. لقد جعلوا منها أُمَّة بائسة

---

(11) ضدَّ اليهُود، 9XX.

(*) للتّوسُّع في هذا الموضوع؛ يُراجَع كتاب (مفاهيم تلمُوديَّة نظرة اليهُود إلى العالم) للباحث عبد المجيد همُّو، دار الأوائل، دمشق، ط1، 2003.

(12) كان للفكْر اليهُودي بعض الإضاءات في القرن الخامس عشر والقرن السّادس عشر. لكنَّ اليهُود الذين أنتجوا ذلك قد اتَّخذوا جانب الصّراع بين الفلسفة والدِّين، فلم يكن لهم أيُّ تأثير على إخوانهم في الدِّين، وهذا لا يُبرهن عن شيء ضدَّ الذّهنيَّة التي يُدخلها الحاخامات إلى عُقُول المجموع. على أيِّ حال؛ لا نجد في هذا الزّمن إلاَّ مُعلِّقين بدُون أهميَّة، وأطباء ومُترجمين، لكنْ؛ لم يكن هُناك أفكار كبيرة ولا عُقُول تُظهر وُجُوب الانتظار بمجيء سبينوزا، لنجد يهُودياً قادراً - فعلاً - على إعطاء أفكار كبيرة، ونعرف كيف عامل الكنيس سبينورا.

وصغيرة، قاسية وساخطة بفعْل الانعزال: فسد عقلها بفعْل التّربية الضّيّقة، وخرُبت مناقبيّتها بالكبرياء[13] غير المُبرَّر.

وقد تصادف هذه التّحوُّل في الذّهنيَّة اليهُوديَّة وانتصار الأحبار العقائديِّين مع بداية الاضطهادات الرّسميَّة.

حتَّى هذه الحقبة لم يكن هُناك إلاَّ تعبيرات جادَّة عن كراهيَّات محلِّيَّة، لكنْ؛ بدُون تنكيدات مُنظَّمة. فمع انتصار الأحبار؛ شُوهد بزُوغ المحاجر، أماكن عزل اليهُود (**ghettos**) والطَّرْد، واندلاع المذابح. يُريد اليهُود أنْ يعيشوا وحدهم لذلك؛ فلننفصلْ عنهم. إنَّهم يكرهون ويزدرون عقليَّة الشُّعُوب التي يعيشون في وسطها: فالشُّعُوب تطردهم. هُمْ يحرقون: فنحرق لهم التّلمُود، ونحرقهم هُمْ أنفسهم.[14]

ويبدو أنَّه لم يبقَ شيء فاعل - أيضاً - ليفصل اليهُود عن باقي البشر فَصْلاً تامّاً، وجَعْلهم موضوع سُخرية وكراهية. فهُناك سبب آخر أُضيف للأسباب التي ذكرناها: وطنيَّة اليهُود القويَّة الصّامدة وغير المحدودة، والتي لا يُمكن السّيطرة عليها.

بطبيعة الحال؛ كُلُّ الشُّعُوب تعلَّقت بالأرض التي وُلدت فيها.

فمنهم - وإنْ هُزِموا وغُلبوا من قبَل المُنتصر المُستعمر، وأُجبروا على النَّفْي أو العُبُوديَّة - يبقون مُخلصين لذكرى لطيفة لمدينتهم المنكوبة أو وطنهم الضّائع، لكنْ؛ لم يعرف الشّعب مثل اليهُود هذا الحماس والتّمجيد القومي الوطني، أمَّا اليُوناني الذي هُدمت مدينته؛ فهُو يستطيع أنْ يبني في مكان آخر وطناً يُباركه الأجداد. والرُّوماني الذي يُنفى يأخذ معه تماثيل: لم تكن أثينا ولا رُوما الوطن الصُّوفي كما كانت (أُورشليم).

(**13**) الذي يتكلَّم عنه أغوجار أمولون والهجَّاءون في العُصُور الوُسْطى لا يعني إلاَّ كبرياء اليهُود الذين يعتقدون - دوماً - أنَّهم الشّعب المُختار. هذا التّعبير ليس له المعنى الذي يُعطيه إيَّاه مُناهضو السَّاميَّة الحديثون الذين هُمْ ليسوا مُؤرِّخين على سويَّة.

(**14**) قد تعترض بذلك على القوانين الرُّومانيَّة والنّواهي القوطيَّة وقوانين المجامع والمُؤتمرات، لكنَّ هذه التّدابير كُلَّها تأتي من التّبشير اليهُودي، وليس إلاَّ في القرن الثّالث عشر تمَّ عَزْل وتفريق اليهُود عن المسيحيِّين بشكل جذري ورسمي، وذلك بالمحاجر والإشارات المُذلَّة، عمامات، جبب... انظر "أوليس روبير"، الإشارات المُذلَّة في العُصُور الوُسْطى، باريس **1981**.

أُورشليم كانت حارسة الهيكل الذي يحوي الكلام الإلهي(*).

كانت مدينة المعبد الوحيد، المكان الوحيد في العالم؛ حيثُ يُمكن عبادة الإله بشكل فعلي، وتُقدَّم له الأضاحي، ولم تُبنى دُور للعبادة للدّيانة اليهُوديَّة إلاَّ بعد زمن طويل جداً، وفي مُدُن أُخرى من اليهُوديَّة أو اليُونانيَّة أو إيطاليا: وفي هذا الدّور كان يُقتصَر على قراءة الشّريعة ومُناقشات دينيَّة، ولم تُعرف عَظَمَة يَهْوَه وأُبَّهته إلاَّ في أُورشليم؛ المعبد المُختار. أمَّا في الإسكندريَّة؛ فقد بُني معبد، فَعَدُّوه شيئاً من الهرطقة، وفي الحقيقة؛ كانت الاحتفالات التي تُقام فيه خالية من أيِّ معنى؛ لأنَّه كان يجب أنْ تتمَّ في المعبد الحقيقي؛ أيْ في أُورشليم وقد قال القدِّيس **Chrysostome** بعد شتات اليهُود وبعد تهديم مدينتهم: يُضحِّي اليهُود بكُلِّ أماكن الأرض إلاَّ؛ حيثُ يُسمح بالتّضحيَّة؛ أيْ أُورشليم.

كما أنَّ هواء فلسطين بالنّسبة للعبرانيِّيْن هُو الأفضل، فهُو كافٍ ليجعل الإنسان عالماً[15]، وصفاؤه ونقاؤه فعَّال؛ بحيثُ إنَّ أيَّ إنسان يعيش خارج حُدُوده يُصبح وكأنَّه ليس له إله[16]. لذلك؛ يجب ألاَّ يعيش أحدهم في مكان آخر، والتّلمُود يُحرِّم الذين يأكلون الحمل الفصحي في بلد أجنبي.

يهُود الشّتات كُلُّهم كانوا يُرسلون ضريبة لتدبير المعبد في أُورشليم.

وكانوا يأتون مرَّة في حياتهم لزيارة المدينة المُقدَّسة، كما حصل - لاحقاً - للمُحمَّديِّيْن (المُسلمين) عندما يذهبون إلى مكَّة.

وبعد مماتهم كانوا يُنقلون إلى فلسطين، وكانت المراكب التي ترسو على الشّاطئ كثيرة جداً، مُحمَّلة بتوابيت صغيرة كانوا ينقلونها على ظهر الجمال.

ففي أُورشليم فقط، وفي البلد الذي وهبهُ اللهُ للأجداد، تبعث الأجساد من الموت، هُنا - فقط - يقوم ويستيقظ الذين آمنوا بيَهْوَه، وحفظوا شريعته، وأطاعوا كلامه على صياح

(*) هذه هي عقيدة اليهُوديَّة، والتي يُؤمن بها اليهُود فقط، دُون سائر الدِّيانات السَّماويَّة الأُخرى، هذا على فَرَض أنَّ الدِّيانة اليهُوديَّة الحاليَّة هي ديانة سماويَّة، وللمزيد من التَّوسُّع في هذا الموضوع؛ يُراجَع كتابا (ما بين مُوسى وعزرا كيف نشأت اليهُوديَّة) و(اليهُوديَّة بعد عزرا وكيف أُقرَّت) للباحث عبد المجيد همُّو، دار الأوائل، دمشق، ط1، 2003.

(15) تلمُود - بافا - باترا 2، 158.

(16) تلمُود - كيتُوفُوت 2، 110.

الأبواق الأخيرة ليمثلوا أمام الرَّبِّ. لن تكون لهم قيامة إلاَّ هُنا، وفي السّاعة المحدودة، وأيُّ أرض أُخرى غير التي يرويها نهر الأُردن الأصفر هي أرض حقيرة عفنة من جراء الشِّرْك، ومحرومة من الله.

عندما مات الوطن، وعندما مسحت الأقدار المُعاكسة اليهُود بوساطة العالم، وعندما زال المعبد في اللَّهيب، وعندما احتلَّتْ الأوثانُ الأرضَ المُقدَّسة جداً استمرَّ النّدم على مرِّ الأيَّام الماضية في نَفْس اليهُود.

لقد انتهى كُلُّ شيء، فهُمْ لن يستطيعوا - بعد الآن في يوم الغُفران - مُشاهدة الكبش الأسود يحمل خطاياهم إلى الصّحراء، ولا رُؤية الحمل ليلة الفصح، ولا تقدمة ضحاياهم إلى الهيكل: وبما أنَّهم محرومون من أُورشليم خلال حياتهم فلن يُحملوا إليها بعد موتهم.

أمَّا الورعون المُتديِّنون؛ فكانوا يعتقدون أنَّ الله لن يترك أولاده. فنشأت أساطير ساذجة دعمت المنفيِّيْن. فيُقال - مثلاً - إنَّه قُرب قبر اليهُود الذين يموتون في المنفى يفتح يَهْوَه كُهُوف طويلة تسري من خلالها الجُثث، لتصل إلى فلسطين. بينما الوَثَني الذي يموت هُناك في (فلسطين) قُرب الهضاب المُقدَّسة فهُو يخرج من الأرض المُختارة؛ لأنَّه غير جدير بأنْ يبقى فيها؛ حيثُ ستحصل القيامة.

وهذا كُلُّه لم يكن ليكفيهم، فهُمْ لم يقتنعوا بالذّهاب مرَّة واحدة إلى أُورشليم برحلة حجٍّ حزينة يبكون تجاه الجُدران المُتهدِّمة، غير شاعرين بآلامهم، لدرجة أنَّ كثيراً منهم يدهسون أنفسهم بحوافر الحصان، ويُقبِّلون الأرض؛ وهُمْ يئنُّون. فهُمْ يعتقدون أنَّ الله والمدينة السّعيدة لم تتخلَّ عنهم. وكانوا يصرخون: "صِهيَوْن؛ هل نسيت أولادك التُّعساء الذين يئنُّون في العُبُوديَّة؟

فهُمْ كانوا ينتظرون ربَّهم أنْ يُعيدَ بناء الجُدران المُتهدِّمة بيمينه القادرة. وكانوا يأملون بنبيٍّ أو مُصطفى يُعيدهم إلى الأرض الموعودة.

وكم من مرَّة شُوهدوا - عبر القُرُون - تاركين منازلهم وثرواتهم ليتبعوا مسيحاً دجَّالاً مُدَّعياً أنَّه سيقودهم إلى أرض الميعاد المرجوَّة، فتركوا البُيُوت والثّروات، رغم أنَّهم كانوا موضع انتقاد لما عُرف عنهم من تعلُّق بخيرات الدُّنيا.

لقد كانت أعدادهم بالأُلُوف؛ أولئك الذين تركوا أنفسهم يُذبحون بانتظار اليوم السّعيد.

عند التّلمُوديِّين؛ مشاعر الحماس هذه والبُطُولات الدِّينيَّة قد تحوَّلت. فأخذ الحُكَماء يُعلِّمون إعادة بناء إمبراطُوريَّة اليهُود، ولكي تحيا أُورشليم من أنقاضها أرادوا أنْ يحفظوا شعب اليهُودي نقيّاً، منعوه من الاختلاط، وأقنعوه بفكْرة أنَّه نقي أينما كان، حتَّى وسط أعداء يُمسكونه أسيراً.

كانوا يقولون لتلامذتهم: لا تزرع الأرض الأجنبيَّة، سوف تزرع عن قريب أرضك، لا ترتبط ولا بأرض، إذْ - بذلك - تُصبح خائناً لذكرى وطنك. لا تخضع ولا للملك، بما أنَّك ليس لك سَيِّد غير رَبِّ الأرض المُقدَّسة يَهْوَه. لا تضيعَ وسط الأُمم، فأنتَ تُهدِّدُ خلاصك، وبذلك؛ لن ترى ضياء يوم القيامة. احفظ نَفْسك كما لو أنَّكَ خرجت الآن من منزلكَ، وسوف تأتي السّاعة التي سترى فيها هضاب الأجداد من جديد، هذه الهضاب سوف تُصبح مركز العالم، العالم الذي سوف يخضع لك.

ومع ذلك؛ فإنَّ كُلَّ هذه المشاعر المُتنوِّعة التي ساهمت في تكوين السّيطرة اليهُوديَّة وحفظ طابع الشّعب، والتي سمحت له بالنُّمُو والتّطوُّر بأصالة قادرة وعالية، لكُلِّ هذه الفضائل وكُلّ هذه المثالب التي أعطتها الذّهنيَّة الخاصَّة بها، وهذه الملامح الضّروريَّة لحفظ الأُمَّة، والتي سمحت بالوُصُول إلى عليائها، ولاحقاً؛ الدّفاع عن استقلاليَّتها بحيويَّة رائعة، كُلُّ ذلك ساهم على انغلاقهم بالكامل (عَزْل مُطلق)، وذلك كان عندما توقَّفوا عن تشكيل دولة.

هذا الانعزال صَنَعَ قوَّتهم، هكذا يُؤكِّد (دُعاة الدِّين).

(إذا أرادوا أنْ يقولوا إنَّ بفضله استمرَّ اليهُود، فإنْ ذلك صحيحاً) لكنَّنا إذا لاحظنا الظُّرُوف التي عاشوا فيها ضمن بقيَّة الشُّعُوب نجد أنَّ هذا الانعزال كان سبب ضعفهم، وإنَّهم استمرّوا في العيش حتَّى الأزمنة الحديثة كفرقة من منبوذين ومُضطهَدين وشُهداء.

على كُلِّ حال؛ ليس - فقط - بانعزالهم استمرّوا بهذه المُقاومة المُدهشة. لكنَّ تعاضدهم المُتميِّز الذي هُو نتيجة مصابهم ومُساندة بعضهم البعض. وفي يومنا هذا - أيضاً - نجدهم يشتركون في الحياة العامَّة في بعض البُلدان، تاركين مبادئهم الطّائفيَّة، لكنْ؛ يبقى هُناك التّعاضدّ والتّضامن الذي يمنعهم من الانصهار والزّوال، ويُضفي عليهم هذه المُميِّزات التي استغلُّوها تماماً.

هذا الاهتمام بالمصالح الاجتماعيَّة المَدَنيَّة الذي هُو سمة من سمات الطّابع العبراني كان له أثره على السُّلُوك اليهُودي، خُصُوصاً؛ بعدما غادروا فلسطين. وعندما قادوهم في مناحي دُون غيرها، سَبَّبَ لهم ذلك عداوات شديدة.

إنَّ رُوح اليهُودي مُزدوجة: هي صُوفيَّة وعقلانيَّة؛ تذهب صُوفيَّته من العبادة الرَّبَّانيَّة الصّحراويَّة إلى الأحلام الماورائيَّة للرّمزيَّة، أمَّا عقلانيَّته؛ فتظهر في حِكَم الكَهَنُوت، كما تظهر في تشريعات الأحبار (المُجادلات) وفي الجَدَل العقائدي اللاَّهوتي.

فإذا كان التّصوُّف يُؤدِّي إلى (فيلون) أو إلى (اسبينوزا)، فإنَّ العقلانيَّة تُؤدِّي إلى المُرابي، أو إلى وازن الذّهب. فهي تُولِّد التّاجر الجشع.

في الواقع؛ فإنَّ هاتَيْن الحالتَيْن للنَّفْسيَّة قد تجتمعان مع بعضهما؛ فاليهُودي نراه في العُصُور الوُسْطى يستطيع أنْ يفعل الجُزءين من حياته:

الأوَّل موهوب للحلم المُطلق، والثّاني للتّجارة الذّكيَّة.

ولا نتساءل عن حُبِّهم (عشقهم) للذّهب. هذا العشق كان مُفرطاً، لدرجة أنَّه أصبح المُحرِّك الوحيد لأعمال هذا العرْق، لدرجة أنَّه سَبَّبَ مُناهضة عنيفة وقاسية للسَّاميَّة. ويُمكن أنْ يقال إنَّه أحد الأسباب العامَّة.

وعلى العكس من ذلك؛ فهُو كان نتيجة لهذه الأسباب ذاتها، وسوف نرى ـ لاحقاً ـ أنَّ الانغلاق والوطنيَّة المُستمرَّة وكبرياء اليهُود هُو الذي دفعهم لتكوين المُرابي المكروه في العالم أجمع.

في الحقيقة؛ هذه الأسباب كُلُّها التي عددناها هي، وإنْ كانت عامَّة، لكنَّها ليست الوحيدة. سميَّتُهَا عامَّة؛ لأنَّها تتعلَّق بعنْصُرٍ ثابت هُو: اليهُودي. والواقع أنَّ اليهُودي ليس إلاَّ عاملاً واحداً من عوامل مُناهضة السَّاميَّة. فهُو يُثيرها بوُجُوده وحُضُوره، لكنَّه ليس وحده الفاعلَ والمُحدِّدَ لها. إنَّ السّمات الخاصَّة لمُناهضة السَّاميَّة هي سماتٌ تتبدَّل مع العُصُور والبُلْدان وأطباع الأُمم التي عاش اليهُود بينها، وحسب تُراثها، وعاداتها، وديانتها، وحُكُومتها، وفلسفتها. . سوف نُتابع هذه التّبدُّلات والاختلافات لمُناهضة السَّاميَّة عبر العُصُور حتَّى يومنا هذا، وهكذا سوف نرى إذا لم تزل الأسباب العامَّة موجودة في بعض البُلْدان، أو أنَّنا يجب أنْ نبحث عن الأسباب في مكان آخر.

الفصل الثّاني:

مُناهضة اليهُوديَّة في التّاريخ القديم

إنَّ مُناهضي السَّاميَّة الحديثين الذين يبحثون عن أسلافٍ لهم لا يتردَّدون - أبداً - في إعادة التّظاهرات الأوَّليَّة ضدَّ اليهُود إلى مصر القديمة.

وهُمْ يستعينون من أجل ذلك بمقطع من سفْر التّكوين[17] الذي يقول: "لم يكن المصريُّون يستطيعون أنْ يأكلوا مع العبرانيِّيْن؛ لأنَّهم - في نظرهم - نجاسة". ومن بعض آيات سفْر الخُرُوج[18]: "وها هُمْ أبناء إسرائيل يُشَكِّلون شعباً أكثر وأقوى منَّا. هيا؛ لنظهر ماهرين تجاهه، ولنمنعه من الازدياد".

إنَّه من المُؤكَّد أنَّ أبناء يعقُوب الذين دخلوا مصر في عهد الفرعون أفوبيس عُوملوا باحتقار شديد من قبَل المصريِّيْن؛ مثل إخوانهم الهكسوس الذين تُسمِّيهم النُّصُوص الهيرُوغليفيَّة بمرضى الجُذام (أو البرص)، وتُسمِّيهم بعض الوثائق الأُخرى[19] جُرح وطاعون. فهُمْ وصلوا إلى مصر في الوقت الحرج، الوقت الذي ظهر فيه شُعُور قوميٌّ حادٌّ تجاه المُحتلِّ الآسيوي المكروه بسبب قساوته، والذي أدَّى إلى حرب التّحرير والانتصار النّهائي لأحومس (1) واستعباد العبرانيِّيْن، مهما يكن الأمر؛ لا نستطيع أنْ نقرأ في هذه الأحداث البعيدة إلاَّ حوادث صراع بين المُسْتَعْمِر والمُسْتَعْمَر، إلاَّ إذا كُنَّا مُناهضين لليهُود بشكل وحشيٍّ فظيع.

لم يكن هُناك من مُناهضة حقيقيَّة للسَّاميَّة إلاَّ عندما غادر اليهُود وطنهم، وسكنوا كجاليات، مُستوطنين في بلاد أجنبيَّة، وأصبحوا على تماس مع الشُّعُوب الأصليَّة؛ شُعُوب ذات عادات وأعراق وديانات مُختلفة ومُتنافرة مع ما للعبرانيِّيْن.

---

(17) سفْر التَّكوين، 32، XLIII.

(18) سفْر الخُرُوج، I 8-10.

(19) تسجيلات أهميس، رئيس الملاَّحين، أورده ليدران، تاريخ الشّعب الإسرائيلي، ص 53.

ومُنذُ ذلك الحين؛ لم يُفوِّت مُناهضو السَّاميَّة أيَّ فُرصة إلاَّ وفعلوها، وكانت أوَّلـها في تاريخ هامان و **Mardochée**، هذه النّظريَّة قد تكون صحيحة، مع أنَّه مـن الصّعـب الاستناد إلى الحقيقة التّاريخيَّة لكتاب أستر، والجدير بالمُلاحظة؛ أنَّ كاتب الكتاب يقول ويضع في فم هامـان بعـض الاعتراضـات التـي سـوف يسـتخدمها لاحقـاً **Tacite** والكُتَّاب اللاَّتـين: (قـال هامـان **Aman** للمُعلِّم: يُوجـد فـي جميـع مُقاطعـات المملكـة شـعب مُشتَّتٌ، ووحـده بـين الشُّعُوب له قوانين مُختلفة عن جميع الشُّعُوب، ولا يأتمر بقوانين الملك) .[20]

وهجائيُّو القُرُون الوُسْطى والقرن السّادس عشر والسّابع عشر وعصرنا هـذا لـن يقولـوا غير ذلك.

لنفرض أنَّ قصَّة هامان **Aman** مُزوَّرة، وهذا مُحتمل، لكنَّه مـن المُؤكَّد أنَّ مُؤلِّـف كتاب أستر قد مزج ـ بمهارة فائقة ـ بعض الأسباب التي جعلت اليـهُود عُرضـة لكُره الأُمـم علـى مدى قُرُون طويلة.

لكنَّنا يجب أنْ نبحث في الأزمنة التي انتشر فيها اليهُود في الخـارج، لنستطيع أنْ نتيقَّـن من هذا العداء ضدَّهم، والذي يُسمُّونه في يومنا هذا بلفظة مُستهلكة مُناهضة السَّاميَّة.

بعض الأخبار تُرجع دُخُول اليهُود إلى العالم القديم في زمن الأسر الأوَّل.

فعندما أخذ نبوخذ نصر جُزءاً من اليهُود إلى بابل هَرَبَ كثيرٌ منهم إلى مصر، ليأمنوا من المُنتصر، ووصلوا إلى المُستعمرات اليُونانيَّة، هُناك أساطير تذكر أنَّه ـ فـي هـذه الفـترة ـ وصـل اليهُود إلى الهند والصّين.

أمَّا تاريخيَّاً؛ فإنَّ خُرُوج اليهُود وتفرُّقهم على الكُرة الأرضيَّة ابتدأ في القرن الرّابـع قبـل الميـلاد، فمُنـذُ 331، رَحَّـلَ الإسـكندر اليـهُود إلـى الإسـكندريَّة، وبطليمـوس رَحَّلَـهم إلـى سيرنيايك وسلوقس إلى أنطاكية.

وعندما وُلد يسُوع كانت المُستوطنات اليهُوديَّة مُزدهـرة فـي كُـلِّ مكـان، وفيـها وَجَـدَت المسيحيَّةُ أتباعَها الأوَّلين.

---

(20) أستر، **III**، **8**.

كان هُناك يهُود في مصر، في فينيقيا، في سُوريَّة، وفي كيليكيا، وُصُولاً إلى بيتينيا في بامفيليا، وفي سيليسيا، أمَّا في أُورُوبا؛ فهُمْ قد استقرّوا في Thessalie، في Beotie، في مقدونيا، والـPeloponèse، كُنتَ تجدهم في الجُزُر الكُبرى، في كريت، في قُبرص، وفي رُوما، وكما قال (سترابون) Strabon: ليس من السّهل أنْ تجد مكاناً على الأرض لم يستقبل هذا العِرْقَ؟

ولماذا بُغضَ اليهُود في الأصقاع جميعها؟

لأنَّهم لم يدخلوا المُدُن كمُواطنين أبداً، إنَّما كمُتميِّزين، كانوا يُريدون - قبل كُلِّ شيء - أنْ يبقوا يهُوداً؛ حتَّى بعدما غادروا فلسطين، ووطنهم بقي - دوماً - أُورشليم؛ أيْ المدينة الوحيدة التي يُمكن فيها عبادة الله، وتقدمة الذّبائح في معبدها، وكانوا يُشَكِّلون - أينما كانوا - نوعاً من الجُمهُوريَّات المُرتبطة باليهُوديَّة وبأُورشليم، وكانوا يُرسلون المال من جميع الأنحاء جميعها، يدفعون للكاهن الأكبر ضريبة خاصَّة "ديدراخم" لتدبير أُمُور المعبد.

بالإضافة إلى ذلك؛ كانوا ينفصلون عن السُّكَّان بطُقُوسهم وعاداتهم، وكانوا يعتبرون أرض الشُّعُوب الغريبة أرضاً غير طاهرة، وكانوا يسعون في كُلِّ مدينة إلى تشكيل نوع من الأراضي المُقدَّسة، كانوا يسكنون وحدهم في حارات خاصَّة، مُنغلقين على أنفسهم، مُنعزلين، يُديرون أنفسهم بالامتيازات التي كانت تُثير حَسَدَ مَنْ حولهم، كانوا يتزاوجون فيما بينهم، ولم يكونوا يستقبلون أحداً عندهم خوفاً من النّجاسة والتّلوُّث.

الغُمُوض الذي كانوا يُحيطون أنفسهم به كان يُثير فُضُول الآخرين وغضبهم في الوقت نَفْسه، كانت تبدو طُقُوسهم غريبة، وكانوا موضع سُخرية، وبما أنَّهم كانوا يجهلونهم كانوا يُحاربونهم، ويُشوِّهونهم.

وفي الإسكندريَّة؛ كانوا أكثر، وبحسب فيلون؛ كانت الإسكندريَّة مُقسَّمة إلى خمس حارات؛ اثنَتَيْن منها كان يسكنها يهُود، أمَّا الحُقُوق التي أعطاهم إيَّاها القيصر والتي حفظوها جيِّداً؛ كانت محفورة على عامُود، كان لديهم مجلس شُيُوخ يهتمُّ - بشكل خاصٍّ - بالأُمُور اليهُوديَّة، وكان يحكمهم والٍ رُوماني، وكانوا بنَّائي سُفُن وتُجَّار ومُزارعين، والأغلبيَّة كانت غنيَّة، تشهد لهم فخامة أبنيتهم وكُنُسهم، والبطالمة كلَّفوهم مهمَّة جباية الضّرائب.

هذا من أحد أسباب إثارة كراهيَّة الشّعب ضدَّهم، عدا ذلك، كانوا قد حصلوا على امتياز حصري للملاحة على النّيل، وتجارة القمح، وتموين الإسكندريَّة، وقد وسَّعوا تجارتهم إلى جميع مُقاطعات السّاحل المُتوسطي، فكسبوا بذلك ثروات طائلة، ومُنذُ ذلك الحين ظهرت الكراهية، وكبرت، وازدادت النّقمة والغضب ضدَّ هؤلاء المُحتكرين الأجانب الذين يُشَكّلون أُمَّة داخل أُمَّة، فقامت حركات شعبيَّة ضدَّهم بشكل مُتتال، وغالباً ما كانوا يُهاجمونهم بالضَّرْب، فدافع عنهم **Germanicus**.

كان المصريُّون ينتقمون منهم بالسُّخرية القاسية من عاداتهم الدِّينيَّة، وعلى عُزُوفهم عن الخنزير، وفي إحدى المرَّات، أخذوا أحد المجانين واسمه **Carabas**، وصاروا يطوفون به في الشّوارع وهُو مُزيَّن بتاج من وَرَق البُردي، وهُو يرتدي ثوباً مَلَكيّاً، وحيَّوه تحيَّة باسم ملك اليهُود، وفي حُكم الكاهن الأكبر في معبد هيليو بوليس جُسِّد البُغْضُ الشّعبي: عُدَّ اليهُود أحفاد الهكسوس المُغتصبين، وكان يقول: إنَّهم طردوا قبائل وجُذاميِّيْن بسبب دَنَسهم وكُفْرهم.

لكنَّ اليهُود لم يكونوا - فقط - عُرضة للعداوة الشّعبيَّة وحدها، بل كان ضدَّهم الرّواقيُّون والصُّوفيُّون، فاليهُود - بتحزُّبهم الضّمني - كانوا يحجبون الرّواقيِّيْن، وكان هُناك صراع نُفُوذ فيما بينهم؛ بسبب الاشتراك في مُعتقدهم بالوحدة الإلهيَّة، إلاَّ أنَّهم كانوا ضدَّ بعضهم البعض، وكان الرّواقيُّون يتَّهمون اليهُود بأنَّهم لا دينيِّيْن، والحقيقة؛ أنَّهم كانوا يعرفون الدّيانة اليهُوديَّة بشكل سيِّئ جداً إذا عدنا لأقوال **Posidonius** و**Molon** نراهما يقولان عنهم: (اليهُود يرفضون أنْ يعبدوا الآلهة، ولا يُوافقون - أبداً - أنْ ينحنوا أمام الأُلُوهيَّة الإمبراطُوريَّة، فهُمْ لديهم في هيكلهم رأس حمار يُبجِّلونه، وهُمْ أَكَلَةُ لُحُوم البشر: في كُلِّ عام يُسمِّنون رجلاً، ويُضحُّونه في غابة، ويقتسمون لحمه، ويُقسمون عليه أنْ يكرهوا الأجانب).

وحسب قول **Appollonuis Molon**: (إنَّهم أعداء الشُّعُوب جميعها، إنَّهم لم يخترعوا شيئاً مُفيداً، وإنَّهم أفظاظ).

أمَّا السّفسطائيُّون؛ فقد كرهوا اليهُود مثل الرّواقيِّيْن تماماً، لكنَّ أسباب كُرههم لم تكن دينيَّة، إنَّما كانت من نوع أدبي إذا صحَّ التّعبير، مُنذُ بطليموس وحتَّى أواسط القرن الثّالث أخذ اليهُود بتزوير نُصُوص لتُصبح سَنَداً لقضيَّتهم بهدف تقوية دعايتهم، فأشعار إشيل

وسُوفُوكل وأُوريبيد ووحـي أُورفي المزعـوم والـ **Stromata** لكيليمـانس الإسـكندري كُلُّـها كانت تجحد الإله الواحدَ والسّبت.

وزَوَّروا المُؤرِّخين، وأكثر من ذلك؛ كانوا يعزون لهم أعمالاً بأكملها، وبذلك أصـدروا تاريخ اليهُود تحت اسم هيكاته دابدير، وأهمُّ هذه الاختراعات كانت أقـداس إلهيَّـة مصنوعـة من قبَل اليهُود الإسكندريِّين، وفيها يتنبَّـؤون بالأزمنـة المُستقبليَّة؛ حيثُ سيأتي مَلَكُـوت الله الواحـد، وهُنـا وجـدوا أتباعـاً، فـإذا بـدأت هـذه التّنبُّـؤات فـي القـرن الثّـاني قبـل الميـلاد فإنَّ المسـيحيِّيْن الأوائـل قالوهـا أيضـاً، وقـد زعـم اليـهُود ـ أيضـاً ـ أنَّـهم هُـمْ أصحـاب الأدب والفلسفة اليُونانيَّة.

وفي شرح لأسفار مُوسى الخمسة الذي حفظه لنا أوسيب[21] جَـهدَ أريسـتوبول ليُبرهن كيف أنَّ أفلاطُون وأرسطُو قد وجدا أفكارهما الماورائيَّة والأخلاقيَّة في ترجمـة قديمـة لأسـفار مُوسى إلى اليُونانيَّة.

هذا الأُسلُوب في التّصرُّف بالأدب والفلسفة كـان يُزعـج اليُونـان بعُمـق، فعمـدوا إلـى الانتقـام، وأخـذوا يُشـيعون إشـاعات ضـدَّ اليـهُود مثـل مـانيتون، ونسـبوا أسـاطيرهم إلـى النُّصُوص التّوراتيَّة، وهذا ما أثار غَضَـبَ اليـهُود، وكذلـك اختـلاط اللُّغـات وعبـادة زيـوس آخذين من الحيوانات لُغتهم الوحيدة.

أمَّـا السّفسـطائيُّون؛ فقـد كـانوا مُمتعضـين جـداً مـن سُـلُوك اليـهُود، فـأخذوا يتكلَّمـون ضدَّهم في تعاليمهم، بحيثُ قام أحدهم ـ وهُو أبيون ـ بكتابة دراسة ضدَّ اليهُود، وأبيون هذا كان شخصيَّة غريبة جداً: فهُو كـان كذَّابـاً وثرثـاراً أكـثر مـن الـلاَّزم، مُتكبِّراً لدرجة أنَّ تيبير أسماه: **Cymbalum mundi**، كانت تبجُّحاته مشـهورة، كـان يُؤكِّـد (علـى قـول بلـين) إنَّـه يستطيع استحضار هُومير **Homère** بواسطة عشبة سحْريَّة.

وكان أبيون يُردِّدُ أنَّ مُوسى لم يكن سوى مُضلِّل وساحر خطير، وقوانينه لم تكن سوى ملعونة وخطيرة[22]، أمَّا بالنّسبة للسّبت؛ فإن اليهُود سمّوه هكذا، بسبب مـرض، وهُـو نـوع

---

(21) تهيئة إنجيليَّة.

(22) جُوزف ضدَّ أبيون I ـ II، فصل VI، الفصل السّادس.

من القرحة حين كان يُصيبهم في الصّحراء، وهذا المرض كان يُسمِّيه المصريُّون ساباتوزيم، يعني ألم الحوالب.

أمَّا فليون وجُوزف؛ فقد أخذا بالدّفاع عن اليهُود، وحاربا السّفسطائيِّيْن وأبيون.

لقد كان جُوزف في رَدِّه المُسمَّى ضدَّ أبيون "**le contre Appion**" قاسٍ جداً؛ إذْ قال: "أبيون عنده غباء الحمار، وصفاقة الكلب، وهُو إله من آلهة أُمَّته". أمَّا فليون؛ فهُو إذا تكلَّم عن أبيون في "رسالة إلى كايوس" هُو أنَّ أبيون قد أُرسل إلى رُوما لمُحاربة اليهُود أمام كاليكولا **Caligula** في الباقي فهُو يُفضِّل مُحاربة السّفسطائيِّيْن بشكل عامٍّ.

في "بحثه عن الزّراعة"؛ فهُو يُصوِّرهم بصُورة سوداء قاتمة، يُؤكِّد أنَّ مُوسى قد شبَّه السّفسطائيِّيْن بالخنازير. ورغم ذلك في كتابات أُخرى له يطلب من أتباعه عدم التّعرُّض لهم، لكي لا يحدث شغب، وأنْ ينتظروا - بصبر - هزيمتهم التي سوف تأتي عندما يُسيطر النُّفُوذ اليهُودي على الكُرة الأرضيَّة؛ أيْ الدّولة المُقدَّسة.

لم يسمعوا لأوامر فليون، وغلب الاستياءُ العامُّ في كُلِّ الأنحاء، حتَّى اندلع عصيان في الإسكندريَّة، ووقعت فيه مذبحة لليهُود الذين دافعوا عن أنفسهم بضراوة.[23]

أمَّا في رُوما؛ فقد أسَّسَ اليهُود جالية قويَّة نافذة وغنيَّة، وذلك في السّنين الأُولى للعصر المسيحي. لقد أتوا إلى المدينة في أعوام 139 ق.م، بعهد القُنصل بوبيليوس لينوس وكايوس كالبورنيوس، هذا؛ إذا صدق فاليرماكسيم.[24]

ومن المُؤكَّد أنَّ في عام 60 ق.م، أتى إلى رُوما سفارة من يهُود مكابي لكي يعقد اتِّفاقاً مع الجُمهُوريَّة، مفادهُ مُعاهدة تحالُف ضدَّ السُّوريِّيْن.

وفي عام 143 و139، سفارات أُخرى[25]. ومُنذُ ذلك الحين استقرَّ اليهُود في رُوما بعهد بُومبيوس **Pompée** أتوا بأعداد كبيرة. وفي عام 58، كانت تجمُّعاتهم قد أصبحت ضخمة. وكونهم مُشاغبين جداً وخطيرين جداً لعبوا دوراً سياسيّاً هاماً.

---

(23) فيلون.

(24) فاليرماكسيم 1، 2، 3.

(25) ماشاب: **VIII**، **11**، **17 - 32 - XIV - I - 3**.

لقد اعتمد عليهم القيصر أثناء الحُرُوب الأهليَّة، وأغدق عليهم نعماً كثيرة. لقد عفاهم حتَّى من الخدمة العسكريَّة. أمَّا في عهد أغسطس؛ فكانوا من أجلهم يُؤخِّرون توزيع القمح إذا صادف يوم السّبت.

كما أنَّ الإمبراطُور قد أعطاهم الحقَّ بجَمْع الضّريبة لإرسالها إلى فلسطين، وأسَّس في معبد أُورشليم ذبيحة مُستمرَّة لثور وحَمَلَيْن. وعندما سيطر (تيبر) **Tibère** على الإمبراطُوريَّة كان عدد اليهُود في رُوما **20.000** مُنظَّمين في مدارس.

كانت الكتلة الشّعبيَّة اليهُوديَّة تعيش مُنغلقة، عدا اليهُود الذين من العائلات الكبيرة مثل عائلة هيرود وأغريبا، فقد اندمجوا في الحياة العامَّة.

وعاش القسم الأكبر منهم في المنطقة الأكثر قذارة والأكثر تجاريَّة في روما: في **le Transtévère**. كانوا يُشاهَدون في عدَّة مناطق والسّيرك الكبير في منطقة ساحة مارس، خارج بوَّابة **Capène**، وعلى ضفاف نهر إيجيري قُرب الحقل المُقدَّس. كانوا يُمارسون التّجارة الخفيفة وتجارة الأشياء المُستعمَلة. وكان أشطرهم أهل باب **Capène** اليهُودي المُنغلق كان قد تَشكَّلَ؛ أيْ يهُودي المحجر.

الأسباب التي أثَّرت في الإسكندريَّة كانت نَفْسها في رُوما. هي - أيضاً - الامتيازات الفائقة لليهُود، وثروات بعضهم الكبيرة، وبذخهم الغريب، وتفاخرهم، آثار نقمة الشّعب ضدَّهم.

لكنْ؛ هُناك أسباب أُخرى زادت النّقمة سُوءاً على سُوء، وهي أسباب أعمق وأهمُّ؛ هي الأسباب الدِّينيَّة. ونستطيع أنْ نُؤكِّد أنَّ مُحرِّك وسبب مُناهضة السَّاميَّة الرُّوماني هُو دافع ديني رغم غرابة ذلك في الظّاهر.

إنَّ الدّيانة الرُّومانيَّة لم تُشبه - لا من قريب ولا من بعيد - التّعدُّديَّة الرّائعة والرّمزيَّة في اليُونان. فهي كانت طَقْسيَّة أكثر منها رُوحانيَّة. كانت تتألَّف من عادات مُرتبطة - بعُمق - بمُختلف أعمال الحياة العامَّة والحياة اليوميَّة.

كانت رُوما وآلهتها يُؤلِّفان جسداً واحداً، كانت عظمتها مُرتبطة بالتّقييد الصّارم للمُمارسات الدِّينيَّة القوميَّة. كان مجدها مُتعلِّقاً بتديُّن مُواطنيها. ويبدو أنَّ الرُّوماني مثل اليهُودي قد تلقَّى عهداً بينه وبين الآلهة؛ عهداً يجب تنفيذه بدقَّة وَوَرَع.

مهما حَدَثَ؛ يجب على الرُّوماني أنْ يكون مُقابل آلهته، فهُو إنْ تَرَكَ منزله؛ حيثُ يسكن، يذهب ليلقاه في ميدان رُوما، أو على الطُّرُقات العامَّة، في المجلس، وحتَّى في المُعسكرات؛ حيثُ يسهر على عظمة رُوما وقُوَّتها. في كُلِّ وقت وكُلِّ مُناسبة كانوا يُضحُّون.

كان المُحاربون والدِّبلوماسيُّون لا يتصرَّفون إلاَّ بوحي العرافة، والوظائف المدنيَّة كُلُّها أو العسكريَّة كانت مُلتزمة بالدِّين والكَهَانة، إذْ إنَّ القاضي لا يستطيع أنْ يقوم بمهامِّه إذا لم يكن يعرف طُقُوسه وأوامره وأحكام عقيدته.

هذه العقيدة هي التي دَعَمَتْ الجُمهُوريَّة لقُرُون عديدة، ودَعَمَتْ الإمبراطُوريَّة، وحُوفظ على أحكامها بغَيْرة شديدة. أمَّا عندما فَسَدَتْ وتبدَّلتْ، وعندما حُرِّمت التّقاليد، وعندما انتُهكت الأُسُسُ؛ غاب مجد رُوما، وبدأ نزاعها الأخير.

أمَّا هذه الدّيانة الرُّومانيَّة؛ فقد حافظت على نَفْسها مُدَّة طويلة بدُون أيِّ تبدُّل.

ومن المُؤكَّد أنَّ رُوما عرفت العقائد الأجنبيَّة: لقد شاهدت عَبَدَةَ إيزيس وأُوزيريس وعَبَدَةَ الأمِّ الكُبرى وعَبَدَةَ **Sabazios**. وهي، وإنْ قبلتْ استقبال هذه الآلهة في مجمع آلهتها بانتيون، لكنَّها لم تُعطهم موضعاً في الدّيانة القوميَّة.

هؤلاء الشّرقيُّون كُلُّهم كانوا مقبولين ومسموحاً بهم، وكان يُسمَح للمُواطنين أنْ يُمارسوا (الفأل) التّنجيم (أيْ الخُرافة) بشرط ألاَّ تكون مُؤذية، لكنْ؛ عندما تجد رُوما في عقيدة جديدة إمكانيَّة إفساد الرُّوح الرُّومانيَّة كانت تتصرَّف بدُون شفقة: مثلما حصل زمن مُؤامرة باشانال **Bacchanale** أو عند طرد الكَهَنَة المصريِّيْن.

كانت رُوما مُتحفِّظة تجاه الذّهنيَّة الغريبة. وكانت تخشى الارتباط بالمُجتمعات الدِّينيَّة. ولذلك؛ كانت تخشى من الفلاسفة اليُونان، حتَّى إنَّ مجلس الأعيان منعهم من الدُّخُول إلى المدينة عام 161، وذلك استناداً إلى تقرير الحاكم الشَّرْعي ماركوس بُومبُونيُوس **Pomponius**. ومُنذُ ذلك التّاريخ نستطيع أنْ نفهم مشاعر الرُّومان تجاه اليهُود.

فاليُونان والآسيويُّون والألمان والفرنسيُّون إذا حضروا إلى رُوما مع طُقُوسهم لم يكونوا يتوانوا أو يتردَّدوا بالانحناء أمام مارس **Mars du Palatin** وحتَّى أمام جُوبيتير لاتياريس **Latiaris Jupiter**.

كانوا يتقيَّدون بقوانين المدينة وآدابها وتُراثها الدِّيني إلى حَدٍّ بعيد. وعلى كُلِّ حال؛ فهُمْ لم يكونوا ضدَّها أبداً.

أمَّا بالنّسبة لليهُود؛ فقد كان الأمر مُختلفاً، فهُمْ قد جلبوا معهم ديانة صلبة غير مرنة، طقسيَّة ومُتعصِّبة، مثلها مثل الدّيانة الرُّومانيَّة. عبادتهم ليَهْوَه كانت تُلغي أيَّ عبادة أُخرى. فكانوا يرفضون حتَّى القسم للنُّسُور، إذْ إنَّ النَّسْرَ هُو شعار الفوج، وبذلك أزعجوا المُواطنين الآخرين.

وبما إنَّ إيمانهم الدِّيني كان مُختلطاً مع أحكام بعض القوانين الاجتماعيَّة فإنَّ اعتناق هذا الإيمان وجب أنْ ينتج عنه تبدُّلات في النّظام الاجتماعي. لذلك؛ قلقتْ رُوما والرُّومان من استيطان اليهُود عندهم؛ لأنَّ اليهُود كانوا يسعون - بنشاط قوي - لتبشير النّاس؛ أيْ جَعْلهم ينتقلون إلى اليهُوديَّة.

إنَّ الذّهنيَّة التّبشيريَّة لليهُود قد أكَّدها المُؤرِّخون جميعهم، وقد كان فيلون مُحقَّاً عندما قال: "إنَّ عاداتنا تكسب وتهدي إليها البرابرة والهيلِّينيِّين، القارة والجزيرة، الشّرق والغرب. وأُورُوبا وآسيا، الأرض كاملة من طرفها إلى نهايتها.

على كُلِّ حال؛ فإنَّ الشُّعُوب القديمة عند انحطاطها كانت مسحورة باليهُوديَّة بشكل عميق جداًّ، مسحورة بعقيدة الإله الواحد، بالأخلاق. لكنْ؛ كان هُناك كثير من النّاس الفُقراء قد جُذبوا للامتيازات المُعطاة لليهُود. هؤلاء اليهُود الجُدُد؛ أيْ المُهتدون كانوا مُنقسمين إلى قسمَيْن كبيرَيْن: المُهتدون الحقّ؛ وهؤلاء كانوا يقبلون الختان، وبذلك يدخلون إلى المُجتمع اليهُودي، ويُصبحون غُرباء بالنّسبة لعائلاتهم. أمَّا القسم الثَّاني - ويُسمّون مُهتدي الباب - ؛ فكانوا لا يخضعون للمُمارسات الضّروريَّة للدُّخُول إلى المُجتمع، لكنْ؛ كانوا يلتفُّون حوله.

هذا الإغراء في الدُّخُول كان يحدث عن قناعة وفَهْم، وأحياناً؛ بالعُنف، فاليهُود الأغنياء كانوا يهدون عبيدهم، وهذا كان يُسبِّبُ رُدُود فعل. وهذا كان السّبب الرّئيس بالإضافة للأسباب الثّانويَّة التي تكلَّمنا عنها: الثّروات، الأهمِّيَّة السِّياسيَّة، الموقع المُتميِّز.

ذلك كُلُّه أدَّى إلى تظاهرات ضدَّ اليهُوديَّة في رُوما.

أغلب الكُتَّاب اللاَّتين واليُونان مُنذُ زمن شيشرون شهدوا الحالة الذّهنيَّة القائمة هذه.

وشيشرون لمّا كـان تلميـذ أبُولُونيُوس مُولـون Apollonuins Molon ، فقـد ورث عنه حُجَجَهُ وأحكامه المُسبقة .

كان يجد اليهُودُ في طريقه : كانوا من حزب الشّعب ضدّ حـزب المجلس الـذي ينتمـي هُـو إليه . كان يخاف منهم ، وكان يتجنّب الكلام عنهم ، إذْ إنَّهم كانوا كُثُر من حولـه ، وفـي السّـاحة العامّة ، لكنْ ؛ في أحد الأيّام انفجر قائلاً : "يجب أنْ نُحارب خُرافاتهم الباطلة البربريَّة" ، وقد اتَّهمهم بأنَّهم أُمَّة مُتَّجهة إلى الشَّكِّ والمُؤامرة" ، وأنَّهم يزدرون روائع وعَظَمَة رُوما" . [26]

وحسـب رأيـه ؛ يجب أنْ نخشـى هـؤلاء النّـاس الذيـن ينفصلـون عـن رُومـا ، ويُوجِّـهون عيُونـهم نحـو المدينـة البعيـدة : أُورشـليم هـذه ، ويدعمونـهم حتَّـى بـآخر مَـنْ يجرُّونـهم مـن الجُمهُوريَّة . وكان ـ في الحقيقة ـ ينتقدهم ؛ لأنَّهم كانوا يُدخلون المُواطنين في طُقُوسهم السَّبْتيَّة .

هذا الاتِّهام الأخير تردَّد غالباً في كتابات النُّقَّاد الهجائيِّيْن والشُّعراء والمُؤرِّخين .

بالإضافة إلى أنَّ هذه الدّيانة اليهُوديَّة التي كـانت تُسعِد وتسحر الذيـن اعتنقوهـا ؛ فقـد كـانت تُنفِّر الآخريـن الذيـن لا يعرفونـها جيِّداً ، وينظـرون إليـها وكأنَّـها مجموعـة طُقُـوس لا معقولة وحزينة . اليهُود ليسوا سوى أُمَّة تتعلَّق بالخُرافة "مُتطيِّرة" هكذا قال بيرس Perse . [27]

أمَّـا أُوفيـد Ovide [28] ؛ فقـد قـال : يـوم سبتهم هُـو يـوم مُغـمٌّ ، إنَّـهم يعبـدون الخـنزير والحمار حسب قول بيترون Pétrone . [29]

أمَّا Tacite ؛ فهُو العارف بهم . فقد ردَّد أبياتاً هازئة هجائيَّة ضدَّ اليهُوديَّة وهـي لمانيتون وبُوزيدُونيُوس ، فيقول : اليهُود هُمْ أولاد الجُذاميِّيْن . إنَّـهم يُكرِّمـون رأس الحمـار ، وعندهـم طُقُوس سافلة ومُنحطَّة . ثُمَّ يُحدِّد اتِّهاماته ؛ وهي اتِّهامات الوطنيِّيْن نَفْسها :

كُلُّ الذين يعتنقون عقيدتهم يخضعون للختان ، وأوَّل التّعليمات التي يتلقَّونها هي كُـرْهُ الآلهة ، وجُحُود الوطن ، ونسيان الأب والأمِّ والأولاد .

---

(26) برُوفلاكُو ، Pro Flacco .

(27) V Sat .

(28) فنُّ الحُبِّ : 75 ، 76 .

(29) مُقتطفات شعريَّة .

وقال أيضاً: يَعُدُّ اليهُودُ دُنيوياً مادِّيّاً ما نَعُدُّه نحنُ مُقدَّساً.[30]

سويتون Suétone وجُوفينال ردَّدا المقولة نَفْسها:

وهذا هُو اللَّوم الأساسي: "عندهم مُعتقد خاصٌّ وقوانين خاصَّة، إنَّهم يكرهون ويحتقرون القوانين الرُّومانيَّة".[31]

وبلين Pline يُردِّد القول نَفْسه: "إنَّهم يزدرون الآلهة"[32]، أمَّا عند الفلاسفة؛ فهُناك أسباب أُخرى تداخلت.

أمَّا سينيك؛ فهُو رواقي (زينوني) كان على تنافس مع اليهُود، كما كان الرّواقيُّون في الإسكندريَّة. كان ينتقدهم لا لكُرههم للآلهة، إنَّما لتبشريهم الذي كان يُعيق انتشار العقيدة الرّواقيَّة. كما أنَّه صرَّح عن غضبه: "قال: بحزن؛ الرُّومان تبنّوا السّبت"[33] وعندما يتحدَّث عن اليهُود: هذه الأُمَّة السّيِّئة الحقيرة استطاعت أنْ تنشر مفاهيمها في العالم كُلِّه: أعطى المهزومون قوانين للمُنتصرين".[34]

الجُمهُوريَّة والإمبراطُوريَّة فكَّرتا مثل سينيك Senéque تماماً:

الاثنتان اتَّخذتا عدَّة مرَّات إجراءات لإيقاف الامتداد اليهُودي. وفي عام 22، اتَّخذ مجلس الشُّيُوخ الرُّوماني في عهد تيبير Tibère قراراً ضدَّ الخُرافات المصريَّة واليهُوديَّة. ورُحِّل أربعة آلاف يهُودي إلى سردينيا، حسب رواية (تاسيت).

أمَّا كاليكولا Caligula؛ فقد فَرَضَ عليهم التّنكيد. وشَجَّعَ تصرُّفات فلاكوس Flaccus في مصر، ونَزَعَ عن اليهُود امتيازاتهم التي أعطاهم إيَّاها القيصر. واقتحم كنيسهم، وسَلَبَهُ، وأصدر مرسوماً بأنَّه يُمكن أنْ يُعاملوا مثل سُكَّان مدينة مغلوبة.

---

(30) تاسيت ـ تاريخ 7، 4، 5.

(31) جُوفينال.

(32) تاريخ، XII :4.

(33) رسائل، XCV.

(34) من الخُرافات، XXXVI.

أمَّا دُوميتيان؛ فقد فَرَضَ علـهم ضريبـة؛ أيْ علـى اليـهُود وعلـى الذيـن يعيشـون حيـاة يهُوديَّة، آملاً أنَّه - بتطبيق الضّريبة - يُوقف فيها الاهتداء. وأنطون الورع **Antonin le Pieux** مَنَعَ اليهُود من ختان أولاد غير يهُود.

أمَّا مُناهضة اليهُوديَّة؛ فهي لم تقتصر - فقط - على رُوما والإسكندرية، بل في كُلِّ مكان وُجد فيه يهُود نجدها تحدث وتظهر: في أنطاكيـة حصلـت مذابـح كبيرة. فـي ليبيـا؛ حـرَّض كاليغولا السُّكَّان ضدَّهم. وفي إيونيا؛ اتَّفقت المُدُن اليُونانيَّـة علـى إجبـار اليـهُود علـى تحمُّـل النّفقات العامَّة وحدهم، أو أنْ يتراجعوا عن إيمانهم.

لكـنْ؛ مـن المُسـتحيل التّحـدُّث عـن الاضطـهادات اليهُوديَّـة دُون التّحـدُّث عـن الاضطهادات المسيحيَّة.

بقـي اليـهُود والمسيحيُّون - هـؤلاء الأخـوة الأعـداء - لفـترة طويلـة سـويَّة فـي البُغْـض، والأسباب نَفْسها التي جعلت من اليهُود مكروهين جعلت المسيحيِّيْن كذلك.

فتلامذة النّاصري حملوا إلى العالم القديم مبادئ الموت نَفْسها.

وإذا كان اليهُود يقولون بترك الآلهة ومُغادرة الـزّوج والأب والطّفـل والزّوجـة للمجـيء إلى اليهُود، فإنَّ يسُوع كان يقول: «ما جئت لأُوحِّد، لكنْ؛ لأُفرِّق».

والمسيحيُّون - أيضاً - لا ينحنون للنّسر ولا للآلهة. والمسيحيُّون مثل اليهُود كـان يعرفـون وطناً آخر غير رُومـا، وينسـون - أيضـاً - واجباتـهم المَدَنيَّـة مـن أجـل واجباتـهم الدِّينيَّـة، وفـي السّنين الأُولى للعصر المسيحي كانوا يجملـون الكنيـس والكنيسـة النّاشـئة فـي موقـع الرّفـض والنَّبْذ نَفْسها.

وعندما كانوا يطردون اليـهُود مـن رُومـا كـانوا - فـي الوقـت نَفْسـه - يطـردون المسـيحيِّيْن **(Chrestus)** [35] وأتباعهم. وكانوا يشرحون للعامِّ أنَّه يجب ألا يُخلط بينهم. وعندما بدأت المسيحيَّة تلقى الاستجابة رفضت ذرِّيَّة إبراهيم (يستطيع الله أنْ يجعل مـن هـذه الحجـارة أبنـاء لإبراهيم)...

---

(35) سويتون - كلود 25.

الفصل الثّالث:

مُناهضة اليهُود في التّاريخ المسيحي القديم
مُنذُ تأسيس الكنيسة حتَّى قسطنطين

الكنيسة هي بنت الكنيس، وُلدت منها، وتطوَّرت، وكبرت في ظلِّ المعبد، وما إنْ وُلدت حتَّى عارضت والدتها، وهذه هي النّتيجة الحتميَّة لوُجُود مبادئ مُتنافرة بينهما.

في القُرُون الأُولى من العصر المسيحي، وفي عُصُور التّبشير الرّسولي، خرجت المُجتمعات المسيحيَّة من المُجتمعات اليهُوديَّة كنُشُوء خلايا النّمل عن بعضها. وكانت بذرتهما الأُولى على التّربة نَفْسها.

وما كان للمسيح أنْ يُولَد لولا أنَّ اليهُود قد أقاموا بُيُوت صَلاتهم شرقاً وغرباً. وقد رأينا سابقاً انتشارهم في آسيا الصُّغرى، ومصر، والبلقان، وفي رُوما، وفي اليُونان، وفي إسبانيا.

ومع تبشيرهم المُستمرِّ وعظاتهم التي تدور حول التّصعيد الرُّوحي التي كانوا يُمارسونها على الشُّعُوب المُحيطة بهم شقّوا للمسيحيَّة طريقها، ومن المُؤكَّد أنَّ الفلاسفة قبلهم قد وصلوا إلى عقيدة الإله الواحد.

لكنَّ تعليم الفلاسفة كان محدوداً، لا يصل إلى عامَّة الشّعب والطّبقات الدُّنيا التي كان يكرهها الميتافيزيقيُّون.

اليهُود خاطبوا الصّغار والضُّعفاء، وضعوا في نُفُوسهم أفكاراً كانت حتَّى الآن غريبة عليهم. حملوا منها فكْرة الأنبياء ورُوح الأُخُوَّة والشّفقة والثّورة أيضاً. هذا الفكْر هُو الذي أثار الغضب الجائر للإرْميِّين والإشاعيِّين؛ أيْ أتباع إرْمِيَا وإشَعْيَا النّبي، في مُقابله اللُّطف والمحبَّة من هيليل **Hèllel**، وهذا هُو الذي ألهم يسُوع.

وكُلُّ هذه الشّريحة الهائلة من المُهتدين من اليهُود الجُدُد الذين يخافون الله كانت جاهزة لتقبل العقيدة الأوسع والأكثر إنسانيَّة ليسُوع، هذه العقيدة التي كانت الكنيسة العالميَّة تجهد لوأدها وتحويلها عن هدفها.

هؤلاء المُهتدون كان عددهم يتزايد باستمرار، في القرن الأوَّل قبل المسيح؛ لم يكن عندهم الأفكار القوميَّة المُسبقة لإسرائيل، وكانوا يتهوَّدون، لكنَّ عيُونهم لم تكن مُتَّجهة نحو القُدس، ونستطيع أنْ نقول إنَّ الوطنيَّة المُتصعِّدة لليهُود كانت تحدُّ من هدايتهم.

والرُّسُل - أو بعضهم - فصلوا - نهائيّاً - مُعتقدات اليهُود عن الفكْرة القوميَّة الضَّيِّقة، إلاَّ أنَّهم استندوا إلى العمل اليهُودي المُتمَّم سابقاً، وكسبوا إلى جانبهم مَنْ تلقَّى البذار اليهُودي، نُشر الرُّسُل في الكُنُس الموجودة داخل المُدُن التي كانوا يصلون إليها، ويذهبون حال وُصُولهم إلى أماكن العبادة، وهُناك كانوا يقومون بالدّعاية، ويحظون بمُساعديهم الأوائل، ثمَّ إلى جانب المُجتمع اليهُودي أسَّسوا المُجتمع المسيحي، مُكبِّلين النُّواة اليهُوديَّة الأوَّليَّة بكُلِّ الأغيار الذين كانوا يُقنعونهم، بدُون وُجُود الجاليات اليهُوديَّة لوَجَدَت المسيحيَّة صُعُوبات أكبر في الانتشار والتّأسيس.

وقد قلتُ ذلك سابقاً: إنَّ امتيازات اليهُود في المُجتمع القديم كانت كبيرة وعظيمة، وهذه الامتيازات مُحصَّنة تُؤمِّن لهم تنظيمات سياسيَّة وقضائيَّة حُرَّة وسُهُولة مُمارسة عقائدهم، بفضل هذه الامتيازات استطاعت الكنائس المسيحيَّة أنْ تتطوَّر، ولفترة طويلة كان يصعب على السُّلطة التّمييز بين الجمعيَّات المسيحيَّة والجمعيَّات اليهُوديَّة، التّمايز الذي كان يُوجد بين الدِّيانتَيْن لم يكن معروفاً عند السُّلطة الرُّومانيَّة، فلقد كانت تعتبر أنَّ المسيحيَّة مذهباً يهُوديّاً، لذلك استفادت من المُميِّزات نَفْسها، لذلك سُمح لهم بشكل غير مُباشر ومحميِّيْن من الإداريِّيْن الإمبراطُوريِّيْن وبشكل غير إرادي، كان اليهُود المُساعدون اللاَّواعيون للمسيحيَّة، بينما من جهة أُخرى؛ كانوا أعداءهم بقدر ما كانت أسباب العداوة كثيرة.

نحنُ نعرف أنَّ المسيح وعقيدته وجدوا الأتباع الأوائل بين الرّيفيِّيْن من الجليل المُحتقَرين من (المُتشدِّدين)؛ لأنَّهم خضعوا للتّأثيرات الأجنبيَّة الغريبة (عندما قيل: ماذا يُمكن أنْ يأتي جيِّداً من النّاصرة) هكذا كان يُقال: هؤلاء الجليليُّون ولو أنَّهم كانوا مُتعلِّقين جداً بالعادات والطُّقُوس اليهُوديَّة - لدرجة أنَّهم كانوا أكثر تشدُّداً من القدِّيسيِّيْن - لكنَّهم كانوا يجهلون الشّريعة، لذلك كانوا مكروهين من قبَل الحُكَماء المُتكبِّرين في اليهُوديَّة، هذا الاعتبار وقع

على تلاميذ المسيح الأوائل، الذين كان بعضهم من طبقات مُحتقَرَة شعبيَّة مثلاً، غير أنَّ أُصُول المسيحيِّين الأوائل هذه، وإنْ جَلَبَتْ لهم قلَّة الاعتبار من اليهُود، لكنَّها لم تكن تُثير بُغْضهم، من أجل ذلك كان يجب أنْ يكون هُناك أسباب أخطر؛ أوَّلها هي القوميَّة اليهُوديَّة.

بدأت المسيحيَّة بالتّطوُّر والانتشار في الوقت الذي حاولت فيه القوميَّة اليهُوديَّة أنْ تنزع نَفْسها من نيْر الرُّومان، وبما أنَّ مشاعرهم الدِّينيَّة كانت مطعونة ومُعاملتهم مُساءة من الرُّومان، شعُور اليهُود زاد من رغبتهم بالحُرِّيَّة والثّورة ضدَّ رُوما.

ولقد أثارت عصابات يهُوديَّة في الجبال اليهُوديَّة الشَّغَبَ، ودخلت إلى القُرى انتقاماً من رُوما؛ لأنَّها تُسيء لإخوانهم الذين يخضعون لسيطرة الإمبراطُوريَّة الرُّومانيَّة، وإنْ استطاعت أنْ تضرب الصّدوقيِّين بسبب تملُّقهم لوُلاة الرُّومان، إلاَّ أنَّها لم تستطع التّدبُّر مع تلامذة الذي قال: (أعطِ لقيصر...).

(فاليهُو / مسيحيُّون) كانوا مأخوذين بانتظار العهد المسيحي، وكانوا بدُون وطن، لم تكن نُفُوسهم تتأثَّر بفكْرة اليهُوديَّة الحُرَّة، ولو كان بعضهم (المُبصرين) مُشمئزِّين من رُوما، لكنْ؛ لم يكن عندهم ذلك الحماس لتلك (الأُورشليم) الأثيرة التي تُريد العصابات تحريرها.

وعندما ثار الجليل بكامله لمُناداة (جان دي جيشالا) بقي هؤلاء صامتين، وعندما انتصر أهل (أُورشليم) على (سيستيوس غالوس) لم يكترثوا (اليهُو / المسيحيُّون) لهذا الصّراع، وهربوا إلى أُورشليم، واجتازوا نهر الأُردن، والتجأوا إلى (بيلا)، وفي المعارك الأخيرة التي قادها بار جيورا (وجي شالا) وأتباعهم ضدَّ السّيطرة الرُّومانيَّة وفرَقها الحربيَّة (فسباسيان) (وتيتوس) فإنَّ تلامذة المسيح لم يُشاركوا أبداً، وعندما غرقت صِهْيَوْن في اللَّهب، دافنة كُلَّ آثار الأُمَّة الإسرائيليَّة لم يَمُتْ أيُّ مسيحي تحت الأنقاض.

وهذا يُوضِّح لنا كيف أنَّه في هذه الأزمنة العصيبة قبل وأثناء وبعد الثّورة كيف يُمكن أنْ يُعامل (اليهُود ـ والوَثَنيُّون المسيحيُّون) الذين كانوا يقولون مع القدِّيس بُولس: (يجب أنْ نخضع لسُلطة رُوما).

ومع هذا، النّقمة التي كانت تُثيرها الكنيسة النّاشئة أُضيف إليها: غضب الحاخامات ضدَّ التّبشير المسيحي.

وفي البدايات، كانت علاقات (اليهُو/ مسيحيِّين) مع اليهُود وُدِّيَّة، فالرُّسل وأتباعهم اعترفوا بقُدسيَّة الشّريعة القديمة، وكانوا يُمارسون الطُّقُوس اليهُوديَّة، ولم يكونوا ـ بَعْدُ ـ

قد وضعوا عبادة المسيح إلى جانب عبادة الإله الواحد، وبمُجرَّد أنْ تشكَّلت عقيدة أُلوهيَّة المسيح حُفر خندق بين الكنيسة والكنيس، اليهُوديَّة لا يُمكن أنْ تقبل تأليه إنسان، وأنْ تعترف أنَّ أحداً هُو ابن الله، هذه شتيمة، وبما أنَّ (اليهُو ـ مسيحيِّيْن) لم يكونوا قد غادروا المجتمع اليهُودي، فلقد كانوا خاضعين لنظامه، وهذا ما يُفسر جَلَدَ الرُّسُل والمهتدين الجُدُد، وقُتل أسطفان، وقُطع رأس الرَّسُول يعقُوب.

وبعد الاستيلاء على أُورشليم، وبعد تلك العاصفة التي جعلت اليهُوديَّة مُفرغة من البشر؛ لأنَّ أفضل أبنائها قد ماتوا في المعارك، أو حلبات مُصارعة الوُحُوش، أو في مناجم الرّصاص في مصر.

خلال الأسر الثّالث ـ وهذا ما يُسمِّيه اليهُود النَّفْي الرُّوماني ـ العلاقات اليهُو ـ مسيحيَّة، واليهُوديَّة توثَّقت أكثر. إسرائيل الوطن الميِّت التفَّ حول حُكَمائه (جابنة)؛ حيثُ كان يجتمع (السِّنهدرين) عوضاً عن صِهْيَوْن دُون نسيانه، والمهزومون تعلَّقوا ـ بشكل أضيق ـ بالشّريعة التي كان يشرحها الحُكَماء، ومن الآن فصاعداً؛ كُلُّ مَنْ يتعرَّض للشّريعة بالهُجُوم ـ وهي أصبحت أغلى شاهد عند اليهُود ـ يجب أنْ يُعَدَّ وكأنَّه من الأعداء الأشدّ خُطُورة من الرُّومان.

حارب الحُكَماء ـ إذاً ـ العقيدة المسيحيَّة التي كانت تصنع مُهتدين في رعاياهم وموقفهم يُفسِّر الكلمات المُرَّة التي قالها الإنجيليُّون ضدَّ الفريسيِّيْن، وذلك من فم المسيح، هؤلاء الحُكَماء ـ وكانوا يُدافعون عن إيمانهم الدِّيني ـ كانوا يتصرَّفون كما يتصرَّف كُلُّ دُعاة الأديان في الحُكُومات المُقدَّسة تجاه الذين يُريدون الإطاحة بهم، وتصرَّفوا بقليل من المنطق والذّكاء.

قال الحاخام (ترفون): يجب أنْ تُحرَق الأناجيل؛ لأنَّ الوَثَنيَّة هي أقلُّ خُطُورة على الدِّين اليهُودي من هذه الفرَق (اليهُو ـ مسيحيَّة) و (أُفضِّل أنْ أبحث لي عن ملاذ في معبد وَثَني عن أنْ أذهب إلى جمعيَّة يهُو ـ مسيحيَّة).

لم يكن وحده يُفكِّر بمثل هذا الأمر، فالحاخامات كُلُّهم كانوا يُدركون أيَّ خطر وضعت فيه (اليهُو ـ مسيحيَّة) اليهُوديَّة.

لم يكن هذا الغضب يُعبَّر عنه إلى الأغيار، لكنْ؛ إلى الذين يبحثون عن الخراف في عقر حظيرتهم، وإذا اتَّخذوا أيَّة إجراءات فقد كانت ضدَّ المُهتدين الجُدُد.

وقد أخذ بعض المُفسِّرين الجُدُد للتّلمُود في البحث ضمن المُناقشات والقرارات الحاخاميَّة لتلك الفترة عن أسلحة ضدَّ اليهُود تتَّهمهم بالكُره الأعمى لكُلِّ مَنْ لا يحمل إشارة إسرائيل، لكنْ؛ يبدو أنَّهم اتَّخذوا في بحثهم الطُّرُق العمليَّة اللاَّزمة كُلَّها، وربَّما لم يكونوا يملكون الإرادة الكافية.

(سنهدرين - جبنه) نَظَّم العلاقات بين اليهُود والمسيحيِّيْن الجُدُد، هُمْ (اليهُو - مسيحيُّون) هُمْ يهُود مُرتدُّون خَوَنَة للإله والشّريعة.

وأعلنوهم أدنى درجة من السّامريِّيْن والأغيار[*]، معهم ممنوع أيَّة علاقة. ولاحقاً - فقط - طُبِّقت هذه التّحريمات على مجموع المسيحيِّيْن عندما أصبحوا المُضطهدين، حتَّى إنَّ بعضهم مُثار من شدَّة الآلام والإذلال، طُبِّق عليهم ما يُطبَّق داخل التّلمُود على الغويم goïm؛ يعني الهيلّينيِّيْن في قيصريَّة وفلسطين الذين كانوا في صراع مُستمرٍّ ضدَّ اليهُود.

كانت دفاعات التّلمُود كُلُّها في البداية تستهدف اليهُومسيحيِّيْن، أراد الحاخامات أنْ يُحافظوا على مُؤمنيهم من العدوى المسيحيَّة. لذلك وضعوا الأناجيل في خانة كُتُب السِّحْر، واتَّخذ صُموئيل لو جون Samuel le jeune بأمر من البطرك كاماليل gamaliel إجراءً بأنْ أدخَلَ في الصّلوات اليوميَّة لعنةً ضدَّ اليهُومسيحيِّيْن بيركات هامينيم التي تقول لبعضهم إنَّ اليهُود يلعنون المسيح ثلاث مرَّات يوميّاً.

لكنْ؛ بينما كان اليهُود يبحثون عن الانفصال عن اليهُو - مسيحيِّيْن؛ كذلك وجَّهت حركة الكنيسة الكُبرى اتِّجاهها، وأجبرتها من جهتها إلى رفض اليهُوديَّة ودَفْعها بعيداً عنها.

لجأت المسيحيَّة إلى تَرْك الخُصُوصيَّة اليهُوديَّة، وكَسْر القُيُود الضَّيِّقة القديمة للشّريعة، حتَّى تتمكَّن من نَشْر العقيدة الجديدة، وكَسْب العالم إلى جانبها، حتَّى تُصبح الإيمان العالمي الكوني. كان ذلك عمل القدِّيس بُولس المُؤسِّس الحقيقي للكنيسة، هُو الذي وضع مبدأ الكَثْلَكَة ضدَّ العقيدة اليهُو - مسيحيَّة الضَّيِّقة المُتخلِّفة.

ونعلم أنَّ الصّراع كان حاداً وطويلاً بين هذَيْن الاتِّجاهَيْن في المسيحيَّة النّاشئة، والتي كان رمزاها بُطرُس وبُولُس.

(*) للتّوسُّع في موضوع اليهُود والأغيار؛ يُراجَع الكتابُ الهامُّ جداً (اليهُوديَّة والغَيْريَّة غير اليهُود في منظار اليهُوديَّة) لمُؤلِّفه الفرنسي ألبيرتو دانزول، ترجمة: د. ماري شهرستان، دار الأوائل، ط1، 2004.

كُلُّ التّبشير الرّسولي لبُولُس كان جهاداً طويلاً ضدَّ المُتهودين. وفي اليوم الذي أعلن فيه الرّسول أنَّه للمجيء إلى المسيح ليس هُناك من حاجة للمُرُور في الكنيس ولا إلى تقبُّل العلامة القديمة للعهد؛ وهي الختان، في ذلك اليوم قُطعت كُلُّ العلاقات التي كانت تربط الكنيسة المسيحيَّة بأمِّها، وربح المسيحُ الأُمم.

أمَّا المُتهوِّدون الذين كانوا يُريدون أنْ يكونوا للمسيح، وفي الوقت نَفْسه أنْ يتقيَّدوا بالسَّبت والفصح؛ فكانت مُقاومتهم بلا جدوى، كذلك ـ أيضاً ـ رفضهم لاهتداء الأغيار كان بلا فائدة بعد سفْريَّات بُولُس إلى آسيا الصُّغرى انتصرت القضيَّة الكاثُوليكيَّة. فأصبح خلف الرّسول جيش واجَهَ الفعليَّة اليهُوديَّة بالفعليَّة الهيلِّينيَّة وأنطاكية بأُورشليم.

انفصلت الكُتلة العُظمى من اليهُو ـ مسيحيِّيْن عن العقيدة الضَّيِّقة لُمجتمع أُورشليم الصّغير، ودمار المدينة المُقدَّسة دَفَعَهَا للتّشكيك في مدى فعاليَّة الشّريعة القديمة. كان ذلك لصالح الكنيسة بالنّسبة لتطوُّرها اللاَّحق. أمَّا التّهوُّد؛ فكان تسبَّبَ في موتها. ولو أنَّ المسيحيَّة سمعت للأُورشليميِّيْن لأصبحت فرقة يهُوديَّة صغيرة ومغمورة. لكنَّها كي تُصبح إيماناً للعالم وَجَبَ على المسيحيَّة أنْ تترك الخُصُوصيَّة اليهُوديَّة جانباً. في الواقع؛ لم يكن المُؤمنون الجُدُد من الأغيار ليُمارسوا الدِّيانة اليهُوديَّة، ويبقوا يُوناناً أو رُوماناً.

فالمسيحيَّة بتخلُّصها من اليهُو ـ مسيحيِّيْن والمُتهوِّدين وبقَطْعها كُلّ الرّوابط التي تصلها بأمِّها سمحت للشُّعُوب بالمجيء إليها، وأنْ يُحافظوا على ذاتيَّتهم. عوضاً عن أنْ يُجبرهم بُطرس والمُتهوِّدين على تبنِّي عادات إسرائيل، وفقدان جُزء من قوميَّتهم على حساب قُبُول قوميَّة الذين يهدونهم.

كما أنَّنا نرى ولادة شقَّيْن من الهرطقة في نهاية القرن الأوَّل، فيما كان في البداية يُسمَّى فرعاً من الكنيسة الأرثُوذكسيَّة هُما: الإبيونيَّة والإلكاسيَّة. فهُما تُشَكَّلتا بشكل طبيعي؛ لأنَّ الكُتلة الكبيرة من اليهُو ـ مسيحيِّيْن قبلت أفكار بُولُس، وتمثَّلت في الوَثَنِيَّة ـ المسيحيَّة. لم يبق إلاَّ مجموعة صغيرة من المُتهوِّدين العنيدين الذين كانوا في البدايات يُمثِّلون الأرثُوذكسيَّة المُتشدِّدة؛ فأصبحوا هراطقة عندما تبنَّت الكنيسة اتِّجاهاً جديداً. على كُلِّ حال؛ ذهنيَّتهم استمرَّت، وسوف نجدهم ـ لاحقاً ـ في النّاصريِّيْن. لكنْ؛ مُنذُ ذلك الحين أصبحوا أعداء الكاثُوليكيَّة، والكاثُوليكيَّة توجَّهت نحوهم، وحاربتْ اليهُوديَّةَ التي ينهلون منها قُوَّتهم.

وقد لجأت إلى مُحاربة الذّهنيَّة اليهُوديَّة في شكلَيْها، وذلك حتَّى تُؤمِّن سيادتها. الشّكل الأوَّل هُو الذي أشرنا إليه. الإيجابيَّة اليهُوديَّة المُعادية للتّشبيه (إعطاء صفة الله للإنسان) وإلى تأليه الأبطال. هذه الإيجابيَّة استمرَّت عبر العُصُور برغم كُلِّ شيء، لدرجة أنَّنا نستطيع أنْ نُسجِّل تاريخ التَّيَّار اليهُودي في الكنيسة المسيحيَّة، تاريخ يمتدُّ من الأبيونيَّة البدائيَّة إلى البرُوتستنتيَّة، مُتوقِّفاً عند المُوحِّدين **unitariens**، وعند الآريِّين **ariens**، وغيرهم.

الشّكل الثّاني ليس إلاَّ الشّكل الدِّيني التي تُمثِّله المعرفة الرُّوحيَّة الإسكندريَّة والآسيويَّة. فاليهُود الإسكندريُّون قد تأثَّروا بالأفلاطُونيَّة والفيثاغُوريَّة. ففليون كان سابقاً لأفلاطُون وبورفير **Porphyre** في هذا التّجديد الميتافيزيكي، فَفَسَّرَ اليهُودُ التّوراةَ بمُساعدة العقائد الهيلِّينيَّة. فنقَّبوا وبحثوا عن الأسرار التي فيها، فعبَّروا عنها بالرُّمُوز وطَوَّروها.

فانطلاقاً من الفكْرة الدِّينيَّة لوحدانيَّة الله وفكْر الإله الشّخصي؛ وصل يهُود الإسكندريَّة - ميتافيزيقياً - إلى فلسفة الحُلُول **pantheisme**. (الحُلُوليَّة - الأُحاديَّة - وحدة الوُجُود)، وإلى فكْرة الذّات الإلهيَّة، وإلى عقيدة الوُسَطاء بين المُطلق والإنسان، يعني الانبثاق، وإلى الدّهريِّين.

وعلى هذه الأُسُس اليهُوديَّة؛ أُضيفت مُساهمات الدّيانات الكلدانيَّة والفارسيَّة والمصريَّة التي كانت تتواجد جنباً إلى جنب في الإسكندريَّة. وبذلك عندها أُنتجت هذه المعارف في نَسَب الآلهة مُتعدِّدة جدّاً ومُتنوِّعة ودينيَّة بشكل جنُوني.

عندما وُلدت المسيحيَّة كانت الفلسفة اللاَّهوتيَّة المجوسيَّة موجودة قبلها. فقدَّمتْ لها الأناجيلُ عناصرَ جديدةً، ففكَّرتْ واعتمدتْ على حياة المسيح، كما فعلت سابقاً في العهد القديم. وعندما توجَّه الرُّسُل في بداياتهم للأغيار (من الأُمم) وذلك في تبشيرهم وجدوا أمامهم غنوصيِّين، وأوَّلهم الغنوصيُّون اليهُود، هؤلاء هُمْ الذين قابلهم بُطرُس في السّامريَّة في ملامح سمعان السّاحر. أمَّا بُولُس؛ فقد وجدهم أمامه في كُولُوسيا **colosse**، وإيفيزيا، وأنطاكية، وفي كُلِّ مكان؛ حيثُ حلَّ وحملَ معه إنجيله للتّبشير به، وربَّما كان على صراع مع **Cérinthe** سيرنتيا[36]. يُوحنَّا[37] نَفْسه حاربهم في سفْر الرُّؤيا، كان ضدَّ النّيقوليِّين؛ لأنَّهم "من كنيس الشّيطان".

---

(36) القدِّيس إيرينيه، II - 26.

(37) رُؤيا يُوحنَّا، II و III.

وبعد أنْ تفادت خطر التّقوقع في مُجتمع يهُودي عقيم أصبحت الكنيسة مُعرَّضة لخطر جديد هُو الغنوصيَّة، ولو قُدِّرَ لها، ونجحتْ، لكانت نتيجتها تفتيت الكنيسة إلى فِرَق صغيرة، ولكانت حطَّمتْ وحدتها.

ناشرو الدِّيانة المسيحيَّة كُلُّهم كان عليهم - إذاً - أنْ يُناضلوا ضدَّ الغنوصيَّة، ونجد آثار هذا الصّراع في رسائل القدِّيس بُولُس إلى الكُولُوسيِّيْن، وإلى الإيفزيِّيْن، وفي الرّسالة الثّانية لبُطرس وفي رسالة يهُوذا، وفي سفْر الرُّؤيا، لكنَّهم لم يكتفوا بمُلاحقة الذّهنيَّة اليهُوديَّة في الغنوصيَّة (المعرفة)، بل لاحقوها ولاحقوا المُيُول المُتيهُودة داخل الكنيسة، وحتَّى اليهُود أنفسهم حالما انتصرت الذّهنيَّة البُولُسيَّة على بُطرس، مُنذُ أعوام **182**، وبعد انتفاضة برقو قيبة، انفصل اليهُود عن المسيحيِّيْن بشكل نهائي، في عام **70**، كان اليهُو - مسيحيُّون غير مُبالين بمصير الأُمَّة اليهُوديَّة، وكان الأمر أسوأ في عهد هادُوريان، بينما كان هُناك خمسمائة ألف يهُودي يتجاوبون مع ابن النّجمة، والفِرَقُ الرُّومانيَّة تتراجع أمامه، بينما وَجَبَ أنْ يكون هُناك أفضل قائد في الإمبراطُوريَّة لمُحاربة هذه الحفنة من سُكَّان اليهُوديَّة الذين يُحاربون رُوما من أجل حُرِّيَّتهم، وأنَّ آخر أمل ضعيف لإسرائيل قد تلاشى مع آخر قلعة لها؛ وهي بيثار **(Bethar)**، وآخر مُحرِّر لها هُو بارقو قيبة.

وبينما أُخذت إجراءات تعسُّفيَّة رهيبة ضدَّ اليهُود، ومنعوهم من مُمارسة طُقُوسهم، وأنَّهم مَرَّروا بالمحراث فوق الأرض التي كانت عليها أُورشليم قائمة والتي زال اسمها، في تلك الأثناء وشى اليهُو - مسيحيُّون لحُكَّام المُقاطعات بأسامي اليهُود الذين يُمارسون شعائرهم في السِّرِّ، أو أنَّهم ينكبُّون على دراسة الشّريعة، من جهة أُخرى؛ قَتَلَ بارقو قيبة وجُنُوده عدداً كبيراً من اليهُو - مسيحيِّيْن، وذلك للوقاية من الخيانات المُحتملة، وحتَّى إنَّه أُخذت إجراءات لتمييز المسيحيِّيْن عن اليهُود، كانت الإثارة والعداء شديدَيْن من الجهتَيْن، وفي اليوم الذي أصبحت الكنيسة في أُورشليم هيلِّينيَّة - مسيحيَّة، وذلك بعد عام **131**، تمَّ الانفصال النّهائي.

أصبح اليهُود والمسيحيُّون أعداء لقُرُون عديدة، ومن جهة؛ فإنْ دَخَلَ الأغيار (من الأُمم) إلى المسيحيَّة فقد حملوا معهم كُلَّ البغض وكُلَّ الأحكام المُسبَقة السَّلَفيَّة لليُونان والرُّومان ضدَّ اليهُود، ومن جهة أُخرى؛ فإن اليهُو - مسيحيِّيْن حالما تركوا المُجتمع اليهُودي أصبحوا أكثر عداءً من الأُمم ضدَّ إخوانهم في إسرائيل.

نجد في كتابات الآباء الرّسوليّين انعكاساً لمُختلف العواطف، والرّغبة في فَصْل المسيحيَّة عن اليهُوديَّة، وبمُجرَّد أنْ تطوَّرت عقيدة أُلُوهيَّة المسيح أصبح اليهُود الشّعب الحقير من قَتَلَة الإله، وهذا لم يكن في البدايات، والكنيس لم يعد إلاَّ المرأة التي كانت خصبة فيما مضى، وذلك حسب تعابير هُوميلي كليمنتين في العظة الأخلاقيَّة الثّانية، واعتبروا أنَّ شريعة مُوسى ليست صالحة لليهُود الذين لم يفهموها، هكذا عُبِّر في رسالة برنابا التي كُتبت في عهد نيرفا (96)، والتي أعادت كتابة الأفكار الموجودة في أقدم المخطوطات الرّسوليَّة؛ يعني في عقيدة الرُّسُل الاثنَيْ عشر، والتي تعود[38] لأعوام 90، أمَّا بالنّسبة للتُّراث البُولُسي؛ فهُو يعود إلى القرن الثّاني بواسطة الرّسائل السّبع لإينياس الأنطاكي، والمُوجَّهة لكنائس رُوما ومانيتيريا وفيلادلفيا وأيفنيريا وسميرنا وترالس، وإلى الأسقف بُوليكارب، هذه الرّسائل السّبعة تُحارب - بشدَّة - التّهوُّد، وتُحاول أنْ تُحافظ على المُؤمنين في عقائدهم.

لكنْ؛ مُقابل هذه المظاهر العدائيَّة، لم يبقَ اليهُود مكتوفي الأيدي، فكانوا للمسيحيَّة المُنافسين الخطرين الذين يُخشى بأسهم، فمن جرَّاء انتقاداتهم تشكَّلت العقيدة، فهُمْ - بدقَّة تفسيرهم للتّوراة وصلابة منطقهم - أجبروا الحُكَماء المسيحيِّيْن على تحديد حُجَجهم، فعداؤهم كان يُزعج اللاّهوتيِّيْن: فمنهم - رغم انفصالهم عن اليهُوديَّة - كانوا يُريدون أنْ يجلبوا اليهُود إليهم، كانوا يعتقدون أنَّ انتصار المسيح لن يتمَّ إلاَّ عندما تعترف إسرائيل بقُدرة ابن الله، وهذا الاعتقاد استمرَّ بأشكال عديدة، ويبدو خلال العُصُور أنَّ الكنيسة لن تطمئنَّ على شريعة إيمانها إلاَّ عندما يهتدي الشّعب الذي خرج منه إلهها إلى عقيدة النّاصري، هذا الشُّعُور كان أقوى في قلب الآباء الأوَّلين منه عند بُوسويه (**Bossuet**) أو الصُّوريِّيْن الـ**Figuriste** (مذهب مَنْ كان يرى في التّوراة صُورة للأناجيل) للقرن السّابع عشر الذين كانوا يُناقشون دعوة اليهُود، كان يجب - إذاً - التّغلُّب على التّفسير اليهُودي للكتاب، ومن أجل ذلك استعارة أسلحته؛ أيْ التّوراة، حاولوا أنْ يُبرهنوا لليهُود أنَّ النُّبُوءات قد تحقَّقت، وأنَّ المسيح هُو نَفْسه الذي بَشَّرَ به إشَعْيا وداود، وحاولوا - أيضاً - أنْ يُبرهنوا لهم أنَّ العقائد المسيحيَّة موجودة في العهد القديم، واستخرجوا براهين لمصلحة الثّالوث الأقدس، وذلك من الأقوال الأوَّليَّة لسفْر التّكوين، أو من مُقابلة إبراهيم مع الملائكة الثّلاث.

---

(38) **Doctrina Duodecim Apostolorm 1887.**

العقيدة الرّسُوليَّة.

فخلال عدَّة قُرُون؛ لم يستخدم المُدافعون عن المسيح وأعداء اليهُود أيَّ وسائل أُخرى، واتَّجه المُبشِّرون والمُدافعون عن المسيحيَّة هذا النَّحْو، وترافقت اهتماماتهم التّبشيريَّة بعداءات عنيفة، وإنَّ رسالة ديُونييت **Diognète** التي حُفظت لنا في أعمال سان جوستان والتي كُتبت لتفنيد ودحض أخطاء أعداء المسيحيِّيْن يُمكن أنْ تُعَدَّ كأُولى الكتابات المُعادية لليهُود، والكاتب المجهول لهذه الرّسالة القصيرة يدعو الطّوائف اليهُوديَّة بالمُعتقدات الباطلة، وهُو يُحارب بشدَّة أفكار الألفيَّة لم تكن الدّوافع نَفْسها التي جعلت الكاتب المجهول - أيضاً - لكتاب «لشهادة الاثنَيْ عشر بطريرك»؛ إذْ إنَّه أراد وأعلن أنَّه يودُّ إهداء اليهُود وإقناعهم بامتياز كلام المسيح.

أكملُ المُبشِّرين لهذا العصر كان - بالتّأكيد - (جُوستان الفيلسوف) وحواره مع تريفون يبقي مثال هذا النّوع من الحرب الكلاميَّة، ولدينا مثال آخر لتفسير الفترة في جدال جازون ويابيكوس **Altercation de Jason et Papicus** لليُوناني أريستون دي بيلا **Ariston de Pella** حوار أُعيد إنتاجه في القرن الخامس بواسطة إيفا غريوس في جدال سيمون وتيوفيل، فجُوستان كان من السّامرة، ويعرف اليهُوديِّيْن جيِّداً، ويضع على فم تريفون كُلَّ الانتقادات للتّفسير اليهُودي للكتاب المُقدَّس، وتريفون هذا ليس إلاَّ الحاخام طرفون الذي ناضل - بشدَّة - ضدَّ التّبشير الإنجيلي، كما حاول أنْ يُقنعه بالاتِّفاق التّامِّ بين العهد القديم والعهد الجديد، مُحاولاً مُصالحة وحدانيَّة الله مع نظريَّة المسيح المُتجسِّد، في الوقت نَفْسه، وفي صدد ردِّه على انتقادات تريفون الذي يتَّهم المسيحيِّيْن بترك شريعة مُوسى، فهُو يُؤكِّد أنَّ هذه الشّريعة وُضعت - فقط - كشريعة مُهيَّأة، فجُوستان كان يُهاجم - على كُلِّ حال - المُيُول المُتيهودة بشكلَيْها: من جهة اليهُو - مسيحيَّة، ومن جهة أُخرى؛ الإسكندرانيَّة التي لا تُريد أنْ تعتقد بالكلمة الإلهيَّة إلاَّ كونها إشعاعاً مُؤقَّتاً للكائن الواحد، وقد مَزَجَ جُوستان إلى مُلاحظته إنذارات: لا تلعنوا ابنَ الله، هكذا كان يقول، لا تصغوا بدماثة إلى الفرِّيسيِّيْن، لا تهزؤوا بسُخرية من ملك إسرائيل، كما تفعلون ذلك كُلَّ يوم.[39]

وكان يُجيب على سُخرية اليهُود بتهكُّمات ضدَّ الحاخامين:

(عوضاً عن أنْ يشرحوا لكم معنى النُّبُوءات فإنَّ مُعلِّميكم ينحطُّون إلى مُستوى التّرهات: فهُمْ قلقون لمعرفة لماذا يُوجد إبل ذُكُور في تلك المنطقة أو في الأُخرى؟ لماذا هذه

---

(39) حوار مع تريفون (طرفون).

الكميَّة من الطّحين للقُربان؟ وهُمْ قلقون دينياً لمعرفة لماذا نُضيف ألفاً إلى اسم إبرهام البدائي وراء (rau) إلى اسم سارة، هذا هُو غرض دراسته.

أمَّا بالنّسبة للأشياء الأساسيَّة الأُخرى والجديرة بالتّفكير والتّأمُّل؛ فلا يجرؤون على أنْ يُكلِّموكم بها، ولا يُحاولوا شرحها، ويمنعوكم من سماعنا عندما نشرحها).[40]

هذا المطعن الأخير هامٌّ جداً يُشير إلى الطّابع الذي كان عليه الصّراع لكَسْب النُّفُوس، كَسْبٌ أرادت اليهُوديَّة أنْ تصنعه، وأخذ منها، وحَلَّ مكانها.

القرن الثّاني هذا أعظم فترة في تاريخ الكنيسة، فالعقيدة المُتردِّدة في القرن الأوَّل تشكَّلت وتحدَّدت، سار المسيح باتِّجاه الأُلُوهيَّة، ووصلها، وتمازجت غيبيَّاته وعبادته وعقيدته مع العقائد اليهُو - إسكندرانيَّة ومع نظريَّات فيلون حول كلام الله والميمرا الكلدانيَّة والمنطق اليُوناني، ولُدت الكلمة الإلهيَّة، وأخذت هُويَّتها مع الجليلي، فدراسات جُوستان التّبشيريَّة والإنجيل الرّابع يُظهران لنا العمل الكامل، أصبحت المسيحيَّة إسكندرانيَّة، وأقوى دُعاتها والمُدافعين عنها وخُطبائها حتَّى كانوا في ذلك الوقت فلاسفة مسيحيِّيْن من مدرسة الإسكندريَّة؛ جُوستان، وكاتب الإنجيل الرّابع، وكليمان.

وفي الوقت نَفْسه الذي جرى فيه هذا التّحوُّل العقائدي قويت فكْرة الكنيسة العالميَّة (الكونيَّة) والمُجتمعات المسيحيَّة الصّغيرة التي انفصلت عن التّجمُّعات اليهُوديَّة ارتبطت فيما بينها، وكُلَّما ازداد عددها قويت الرّوابط فيما بينها، وهذه العقيدة الواحدة الكاثُوليكيَّة تزامنت مع الانتشار المُتزايد للمسيحيَّة، لكنَّ هذا الانتشار لم يُمكن له أنْ يتمَّ في هُدُوء تامٍّ، فالتّبشير المسيحي كان مُوجَّهاً إلى جميع اليهُود في آسيا الصُّغرى، ومصر، والبلقان، وإيطاليا، والذين يُوجد فيما بينهم عُنْصُر «ضعيف الأرثُوذُوكسيَّة» (أيْ غير مُتشدِّد) عُنْصُر يهُودي مُتَهَلِّين، والذي تبحث عنه العقائد المسيحيَّة لربطه بها، كما أنَّ ناشري العقيدة كانوا يتوجَّهون للكتلة القلقة من الشُّعُوب والتي سبق لها وأصغت للكلمة اليهُوديَّة، فأصبح اليهُود شُهُود عيان بتدهور نُفُوذهم وتأثيرهم، وربَّما لآمالهم.

في الأحوال جميعها؛ كانوا يرون عقائدهم وإيمانهم مُهاجَمَيْن ومُحارَبَيْن من قبَل المُهتدين الجُدُد، فكانوا يشعرون بمشاعر الغضب ضدَّ المسيحيِّيْن، وهؤلاء - أيضاً - يشعرون

---

(40) حوار مع تريفون (طرفون).

بالغضب نَفْسه عندما يرون الحُكماء اليهُود يضعون الحواجز في وجه عملهم، الكُره والغضب - إذاً - كان مُتبادلاً، ولم يُكتف بالحنق والغضب الأفلاطُوني.

في البدايات؛ كان اليهُود - رسمياً - بوَضْع أفضل من المسيحيِّيْن، فالتّجمُّعات المسيحيَّة لم تكن تنعم بالاعتراف الشَّرْعي مثل التّجمُّعات اليهُوديَّة، بل كانوا يعتبرونهم ضدَّ القانون وخطراً على الإمبراطُوريَّة، أُسيئت مُعاملتهم، وهذا يُفسِّر مرحلة الألم التي مرَّت بها الكنيسة.

وهي لم تستطع في هذه الأيَّام السَّيِّئة أنْ تعتمد على نجدة مُنافستها الكنيس، حتَّى وإنْ في بعض المناطق؛ حيثُ كان الصّراع بين اليهُود والمسيحيِّيْن له طابع حادٌّ استطاع اليهُود أنْ يُشاركوا مُواطني المُدن الذين يجرُّون المسيحيِّيْن أمام الحاكم، وذلك كون اليهُود مُعترف بهم من قبَل السُّلطات الشَّرْعيَّة الرُّومانيَّة، وقد حازوا على حُقُوق مُكتسَبَة. ففي أنطاكيَّة مثلاً؛ حيثُ كان العداء حادَّاً وعنيفاً بين مُريدي الدِّيانتَيْن، فإنَّه من المُرجَّح أنْ يكون اليهُود مثل الوَثَنيِّيْن قد طالبوا بمُحاكمة وإعدام بُوليكارب **Polycarpe**، وأصبح من المُؤكَّد - لاحقاً - أنَّهم أشدُّ النّاس مُطالبةً بتقوية محرقة الأسقف (المُطران).

غير أنَّ الصّراع لم يكن واحداً في جميع الأماكن، ولم يكن دَمَويَّاً إلى هذا الحَدِّ، فكانت حرباً كلاميَّة شديدة اللّهجة، ولم تكن ذات أسلحة مُتعادلة، فوسيلة الهُجُوم والدّفاع كانت التّوراة، لكنَّ الحُكَماء المسيحيِّيْن لم يكونوا يعرفونها جيِّداً، كانوا يجهلون العبريَّة، فكانوا يستعملون ترجمة ستيفان **Stephane** والتي كانوا يُفسِّرونها بطريقة حُرَّة تماماً، حتَّى إنَّهم كانوا يلجؤون إلى دَعْم عقائدهم في مقاطع أدخلها ستيفان **Stephane** تزييفاً لمُتطلَّبات القضيَّة.

واليهُود من ذوي اللُّغة اليُونانيَّة لم يتردَّدوا بأنْ يفعلوا مثلهم بشكل أنَّ ترجمة ستيفان السّيِّئة المليئة بالمُتناقضات أصبحت صالحة لكُلِّ شيء، واليهُود هُمْ أوَّل مَنْ أراد أنْ يضع بين أيدي مُؤمنيهم نصَّاً مُنقَّحاً صافياً، وهذا ما أدَّى إلى نُشُوء التّرجمة اليُونانيَّة الدّقيقة والحَرْفيَّة للمُهتدي (أكيلاس) **Aquilas**صديق وتلميذ الحاخام أكيبا **Akiba**.

أمَّا المسيحيُّون؛ فشعروا بالحاجة نَفْسها، لكنْ؛ لاحقاً، وقدَّم أوريجين (سُداسيَّاته) التي يُوجد فيها ترجمة (أكيلاس) **Aquilas**.

كانت الحاجة مُلحَّة للمُبشِّرين المسيحيِّيْن الذين وجدوا أنفسهم مُقابل حاخامات شعروا أنَّهم بحالة حسَّاسة من تدنِّي المُستوى عنهم، وقد شعر بذلك (أُوريجون) **Origène** خلال مُناقشته مع الحاخام سيملاي حول الثّالُوث الأقدس، هذه المُناقشات بين الأحبار اليهُود والأحبار المسيحيِّيْن لم تكن نادرة، وقد شُوهد من بين هذه المُناقشات أحدها في قيصريَّة بين الحاخام أباهو (يتجادل) يتشاجر مع الطّبيب يعقُوب الميني حول الصُّعُود.

هذه المُناظرات التي استمرَّت خلال قُرُون طويلة لم تكن دائماً مُهذَّبة (أو دبلُوماسيَّة)، وإلى جانب الأساطير المُؤثِّرة المُحاكة حول المسيح أُحيكت أساطير مُشينة ذات طابع فضائحي، ولكي يحطُّوا من شأن أعدائهم لجأ اليهُود إلى مُهاجمة إلههم، فَمُقابل تأليه المسيح وضعوا قَصَصَ الجندي بانتيروس **Pantherus** ومريم المُطلَّقة قصَّة اختصَّ بها الفلاسفة المُعادين للمسيحيَّة، والتي رفضها أُوريجين في ضدَّ سيلز **Contre Celse** رادَّاً على الشّتائم بشتائم، فنشأ وسط هذه المعارك ما يُمكنني أنْ أُسمِّيه مُناهضة لاهوتيَّة لليهُوديَّة، مُناهضة فكْريَّة بحتة لليهُوديَّة، والتي مفادها رفض كُلّ ما يأتي من إسرائيل على أنَّه سيِّىء، وليس له قيمة.

ويُقدِّم لنا تيرتوليان **Tertullien** في مُؤلَّفه «العدوُّ اليهُودي» **De Adversus Judeos** شهادته على ذلك الشُّعُور، في هذا المُؤلَّف؛ فإنَّ المُندفع الحادَّ الإفريقي يُهاجم الطّهور الذي كما يقول: لا يتطابق مع الخلاص، لكنَّه علامة بسيطة لتمييز إسرائيل، وهُو يذهب إلى العبادة عندما يأتي المسيح إلى وضع طهارة الفكْر والرُّوح عوضاً عن الختان الجسدي، وحارب السّبت الزّمني، ووضع عوضاً عنه السّبت الأزلي.

لكنَّ مُناهضة اليهُوديَّة الخاصَّة هذه، والتي نجدها في كثير من الأعمال، منها أُوكتافيوس **Octavius** لمينوسيوس فيلليكس، وفي الوحدة الكاثُوليكيَّة لسيبريان دي قرطاج **Cyprien de Carthage**، وفي أعمال الشّاعر كُومُوديان ولاكتانس اختلط فيها الرّغبة في استمالة اليهُود وكسبهم لصفِّ وحقيقة الدّيانة، وبالتّالي؛ الطُّمُوح بجَعْل مُهتدين منهم، واختلط ذلك مع الجُهُود التي كانت تقوم بها الكنيسة للوُصُول إلى العالميَّة، ولم يكن باستطاعتها أنْ تكون من خلال القُرُون الثّلاثة الأُولى سوى نظريَّة. أمَّا مع قسطنطين وانتصار الكنيسة؛ سوف نرى كيف تحوَّلت وتحدَّدت مُناهضة اليهُوديَّة.

الفصل الرابع:

مُناهضة السَّاميَّة مُنذُ قسطنطين حتَّى القرن الثّامن

كان على الكنيسة أنْ تُناضل خلال ثـلاث قُرُون ضـدَّ كُلِّ الذين يربطـون عظمـة رُومـا بالعبادة القديمة للآلهة.

على أيِّ حال؛ فإن مُقاومة السُّلطة ومُقاومة الباباوات والفلاسفة لـم تكن لتستطيع أنْ تُوقف مسيرها، فالاضطهادات والكراهيَّات والغضب زاد مـن قُدرتـها على الانتشار، على كُلِّ حال؛ هي عرفت كيف تتوجَّه إلى ذوي الفكْر المُضطرب، مُتأرجحي الضّمير؛ حيثُ تُعطيهم فكْرة ويقيناً رُوحيّاً كان ينقصهم، بالإضافة لذلك، وفي تلك الأثنـاء، بـدأت الإمبراطُوريَّة الرُّومانيَّة الواسعة الأرجاء بالتّصدُّع، وعندها ـ أيضاً ـ كانت رُوما قد تنازلت عن كُلِّ سُلطة وكُلِّ نُفُوذ مُتلقِّية قياصرتها من يد الفرق، وكان يتهافت من كُلِّ بقاع المُقاطعات مُتنافسون على رُتبة القُنصل ظهرت الكنيسة الكاثُوليكيَّة وأعطت لهذا العالم الـذي في حالة نزاع وحدة كان يبحث عنها.

لكنَّها، وإنْ أعطته الوحـدة الفكْريَّة، فإنَّما حطَّمت له ـ في الوقـت نَفْسه ـ مُؤسَّساته وتقاليده وعاداته، ففي الواقع؛ كانت المناصب العامَّة في رُومـا والإمبراطُوريَّة مَدَنيَّة ودينيَّة في الوقت ذاته، فالقاضي والوالي كانا ـ أيضاً ـ كاهنَيْن، ولم يكن أيُّ شأن أو عمـل عـامٍّ يتمُّ بدُون طَقْس ديني، الحُكُومة كان نظامـها تيُوقراطي؛ أيْ حُكُومـة إلهيَّة يُشرف عليها رجال الدِّين. وينتهي بالتّرميز كاملاً في عبادة الأباطرة، وكُلُّ الذين كانوا يـودُّون الانسحاب من هذه العبادة كانوا يُعَدُّون وكأنَّهم أعداء لقيصر والإمبراطُوريَّة، وكانوا يُعاملونـهم على أنَّـهم مُواطنين سيِّئين غير صالحين، هذه المشاعر تُفسِّـر عـداء رُومـا الشّديد ضـدّ الدِّيانـات الشّرقيَّة وضدَّ اليهُود. وتُفسِّر ـ أيضاً ـ الإجراءات المُتخَّذة ضدَّ مُريدي يَهْوَه، والأنكى من ذلـك؛ أنَّـها القوانين الصّارمة التي مُورست ضدَّ عَبَدَة ميترا وسابزيُوس، وخُصُوصاً؛ ضدَّ المسيحيِّيْن؛ إذْ إنَّ هؤلاء لم يكونوا أجانب مثل اليهُود، إنَّما مُواطنون ثائرون.

كذلك انتصرت المسيحيَّة بفضل أسباب سياسيَّة، لذلك اضطُرَّت حتَّى تُثبِّت انتصارها وتُسيطر أنْ تتبنَّى كثيراً من الاحتفالات ومُمارسات رُوما القديمة، وعندما ازداد عدد المسيحيِّين وشكَّلوا حزباً ضخماً أُنقذوا ورأوا ضياء فجر النّصر؛ إذْ إنَّ الصّاعدين إلى العرش استطاعوا أنْ يستندوا إليهم لتمكين سُلطتهم.

وهذا ما جرى لقسطنطين، وهذا ما توقَّعه كُونستانس عندما كان آمر الفرق الغُولوازيَّة **Gauloise**.

فالكنيسة المُنتصرة ورثت رُوما، وورثت منها عجرفتها وامتيازها وكبرياءها، وبدُون فترة انتقال أو تمهيد من وضع المُضطَهَدة أصبحت مُضطهدة تتمتَّع بالسُّلطة نَفْسها؛ السُّلطة التي حاربتها قديماً، ماسكة بقبضتها الخُطُوط القنصليَّة، قضت على الفساد، وأدارت وقادت الفرق.

ففي الوقت الذي كان المسيح يستولي فيه على المدينة العظيمة، ويبدأ سُلطانه الكوني كانت اليهُوديَّة تُنازع في فلسطين.

كان أحبار طبريَّا عاجزين عن أنْ يُبقوا إلى جانبهم شباب اليهُوديَّة. والبطريرك اللاَّمع المُجِيد المُحترم جداً لم يعد لديه إلاَّ ظلال سُلطة. *أمَّا في بابل*؛ فقد ازدهرت المدارس اليهُوديَّة، وفيها كان مركز الحياة الفكْريَّة الإسرائيليَّة، وفي جميع الأنحاء؛ حيثُ حَلَّت المسيحيَّة وحَمَلَتْ معها تأثيرها وَجَبَ عليها أنْ تحسب حساب التّأثير اليهُودي، وأنْ تُحاربه حتَّى نهاية القرن الثّالث؛ حيثُ صار له أهمِّيَّة أقلّ بشكل مُباشر. في تلك السّاعة انطفأت الهرطقات اليهُوديَّة البحتة. هؤلاء النّاصريُّون، هؤلاء المسيحيُّون المُطهرون المُتعلِّقون بالشّريعة القديمة والذين يتكلَّم عنهم القدِّيس جيرُوم والقدِّيس إبيفان لم يبقَ منهم سوى حفنة من المُؤمنين النّاعمين اللاَّجئين إلى بيريه (حلب) وكوكبة في بتانيا، كانوا يتكلَّمون (السّريانيَّة ـ كلدانيَّة) وهُمْ بقايا الكنيسة الأُورشليميَّة البدائيَّة، لم يُمارسوا أيَّ نشاط؛ إذْ كانوا قد غرقوا وسط كنائس تتكلَّم اللُّغة اليُونانيَّة.

وإذا زالت وماتت (الفرقة الوسط) لكنَّهم كانوا يتيهوَّدون رغم ذلك. كان المسيحيُّون يرتادون الكنيس، ويحتفلون بالأعياد اليهُوديَّة، وكان النّزاع والشّجار حول موضوع الفُصْح لم يُغلَق بَعْدُ، فقسم كبير من كنائس الشّرق كان يرفض أنْ يحتفل ـ في الوقت نَفْسه ـ مع

اليهُود. وجب الانتظار إلى مجمع نيقية لتحرير المسيحيَّة من هذا الارتباط الأخير والضّعيف الذي كان يربطها بمهدها.

بعد السّنودس كُلُّ شيء انتهى - رسمياً - على الأقلّ، ومن وُجهة النَّظَر الأرثُوذُوكسيَّة بين الكنيسة والمعبد، لكنْ؛ كان يجب أنْ تُؤخذ قرارات أُخرى - أيضاً - مجمعيَّة لمنع المُؤمنين من التّقيُّد بالشّريعة القديمة، ولم يكن ذلك إلاَّ في أعوام **341**؛ حيثُ حصلت وحدة الاحتفال بالفُصْح عندما حَرَّمَ مجمع أنطاكية الرّبعيِّيْن **Quartodecimans**.

عندما تسلَّحت الكنيسة تحوَّلت وتبدَّلت مُناهضة اليهُوديَّة، في البداية؛ كانت لاهوتيَّة، فقط؛ مُناقشات، مُجادلات، ثمَّ تحدَّدت وتزايدت بشكل خطير، وأصبحت أكثر شراسة (لاذعة) وأكثر قساوة. وإلى جانب المنشورات الكتابيَّة أصبحنا نرى ظُهُور القوانين، ومع القوانين صار يحصل تظاهرات شعبيَّة.

كما أنَّ الكتابات تعدَّلت أيضاً. وخلال قُرُون الاضطهاد ازدهر التّبشير، ونشأ أدب بأكمله من الحاجة التي كان يُعانيها المسيحيُّون لإقناع مُنافسيهم.

فكانوا يتوجَّهون إمَّا لليهُود أو الوَثَنيِّين والأباطرة، وجميعهم: جوستان، أتيناغور - تاتيان، وأريستون دي بيللا، وميليتون، كانوا يجهدون ليُثبِتوا لقيصر أنْ ليس في عقائدهم خطراً على الشّأن العامِّ، وأنَّ باستطاعتهم أنْ يكونوا عناصر جيِّدة وبطاعة مُماثلة وأخلاقيَّة أعلى من الوَثَنيِّين، وذلك دُون أنْ يُضحُّوا للآلهة.

كما أنَّهم كانوا يُبرهنون لليهُود أنَّهم (أيْ المسيحيُّون) هُمْ المُخلصون الوحيدون للتُّراث (التّوارة) وأنَّهم يُتَمِّمُون النُّبُوءات، وأنَّ أقلَّ التّفاصيل في عقائدهم كان مُتوقَّعاً ومبشَّراً به في التّوراة.

والمسيحيَّة المُنتصرة لم تعد بحاجة لمُدافعين عن الدِّين: كان قيصر قد اقتنع، وسيريل الإسكندراني الذي كان يكتب مُؤلَّفاً ضدَّ جُوليان الأبوست، كان الأخير من المُدافعين عن الدِّين. أمَّا بالنّسبة لليهُود؛ وإنْ استمرّوا حتَّى يومنا هذا بالإظهار لها مدى تعنُّتها، لكنَّهم فعلوا ذلك بطريقة أقلّ مكراً وأقلّ إقناعاً، صاروا يُكلِّمونها كمُعلِّمين، ومُنذُ أواسط القرن الخامس؛ توقَّفت التّبشيرات المُدافعة عن الدِّين بشكل بحت، ولم تظهر إلاَّ لاحقاً مُتحوِّلة ومُعدَّلة.

لم يُحاولوا ـ فقط ـ أنْ يجلبوا اليهُود إلى المسيح. على كُلِّ حال؛ بضع سنوات من الجُهُود قد برهنت للاّهوتيِّين غُرُورَ عملهم وتفاهته، ومُدَّة ضعف حُججهم المُرتكزة ـ غالباً ـ على تفسير مزاجي للتّوراة، أو على بعض مُتناقضات التّرجمة الإسكندرانيَّة، لإقناع هؤلاء المتصلِّبين القُساة الذين يُفضِّلون سماع أحبارهم، ويتمسَّكون بإيمانهم كُلَّما كان مرفوضاً.

كانوا يمزجون الحُجَجَ بالشّتائم، وكان اليهُودي يُنظر إليه لا كمسيحي مُحتمل، إنَّما قاتل الإله بدُون ندم.

فكانوا يُسفِّهون هؤلاء الرّجال الذي كان صُمُودهم يُزعج، والذين بمُجرَّد وُجُودهم منعوا انتصار الكنيسة من أنْ يكون كاملاً. وجهدوا لينسوا الأُصُول اليهُوديَّة للمسيح والرُّسُل، وأنَّه في ظلِّ الكنيس نَمَتْ المسيحيَّة، وهذا النّسيان استمرَّ، وحتَّى الآن ـ أيضاً ـ في المسيحيَّة بأجمعها مَنْ يودُّ أنْ يعترف أنَّه ينحني أمام يهُودي فقير ويهُوديَّة مُتواضعة من الجليل؟ (لأنَّهم لم يعودوا يهُوداً) فالآباء والأساقفة والكَهَنَة الذين كان عليهم مُحاربة اليهُود كانوا يُعاملونهم بشكل سيِّئ جداً، فكان يشتمهم ويُسفِّههم هُوسيوس في إسبانيا، والبابا سيلفستر، وبُول أسقف القسطنطينيَّة، وأوسيب من قيصريَّة، وكانوا يُسمُّونهم: (طائفة شرِّيرة) بعضهم مثل غريفوار دي نيس بقوا في الأرضيَّة العقائديَّة، وانتقد اليهُودَ ـ فقط ـ؛ لأنَّهم غير مُؤمنين، ويرفضون أنْ يقبلوا شهادة مُوسى والأنبياء حول الثّالوث الأقدس والتّجسُّد، أمَّا سان أُوغُوستان؛ فهُو أكثر عُنفاً، ولمَّا كان قد أُثير غضبه من اعتراضات التّلمُوديِّيْن، فَسَمَّاهم المُزوِّرين، وأكَّد أنَّه يجب ألاَّ نبحث عن الدِّيانة في عمى اليهُود، فاليهُوديَّة لا يُمكن أنْ تخدم إلاَّ كعُنْصُر للمُقارنة لإظهار وبرهنة جمال المسيحيَّة.

أمَّا القدِّيس إمبرواز؛ فكان يُهاجمهم من جهة أُخرى، فكان يستعيد الحُجَج القديمة، الحُجَج التي خدمت ضدَّ المسيحيِّيْن الأوائل، واتَّهم اليهُود بأنَّهم يحتقرون القوانين الرُّومانيَّة.

أمَّا القدِّيس جيروم؛ فأكَّد أنَّ الرُّوح النّجسة قد استولت على اليهُود، وهُو الذي تعلَّم العبريَّة في مدرسة الحاخامات؛ كان يقول ـ وهُو يُفكِّر بدُون شَكٍّ بلعنة المينيِّيْن التي كان يُجرِّدها من معناها ـ: (يجب كُره اليهُود الذين يشتمون يسُوع المسيح في كنيسهم كُلَّ يوم).

والقدِّيس سيريل في أُورشليم كان يُسفِّه البطاركة اليهُود، زاعماً أنَّهم من عِرْق مُنحطٍّ.

لكنَّنا نجد هذه الإجراءات اللاَّهوتيَّة والحرب الكلاميَّة مُجتمعة فـي العظـات السِّتَّة التي تُليت في أنطاكية من قبَل جان كريزُوستُوم Jean Chrysostome ضـدَّ اليـهُود. وتحليـل هـذه العظـات يسـمح لنـا أنْ نعـرف أسـاليب المُناقشـة، والوضـع المُتبـادَل للمسيحيِّين، واليـهُود، والعلاقات الموجودة فيما بينهم.

وقال كريزُوستُوم في أوَّل خُطبة: اليهُود جُهَّلٌ، لا يفهمون شريعتهم، وبالتّـالي؛ فـهُمْ كُفَّار، إنَّهم بُؤساء كلاب نُخاعات عنيدة، شعبهم يُشبه قطيعاً من الحيوانات من الوُحُوش الضّارية، لقد رفضوا المسيح، فإذاً؛ هُمْ ليسوا صالحين إلاَّ للشَّرِّ، فكُنُسهم شبيهة بالمسارح، إنَّها كُهُوف لُصوص ومسكن الشّيطان.

وكونه مُضطراً للاعتراف أنَّ اليهُود لا يجهلون الآب، فيُضيف قائلاً: إنَّ ذلك قليـل بما أنَّهم صلبوا الابن، ورفضوا الـرُّوح القُدُس، وأنَّ نُفُوسـهم يسكنها إبليس، كمـا أنَّه يجب الاحتراز منهم، ويجب الانتباه والتّيقُّظ من المَرَض اليهُودي.

وكريزُوستُوم يُوبِّخ مُؤمنيه: لا ترتـادوا الكُنُس، يقـول صارخـاً: لا تتبعـوا السّـبت، ولا الصَّوم ولا الطُّقُوس اليهُوديَّة الأُخرى، إذا قابلتُمْ مُتيـهوداً أنـذروه مـن الـهلاك؛ إذْ إنَّكـم جيش المسيح، لا تَدَعوا أنفسكم عُرضة للتّغيُّر، سيكون ذلك أقصى الجُنُون، ماذا تستنتجون من مغارة رجال يُنكرون مُوسى والأنبياء؟ فإذا كانت العقائد اليهُوديَّة تُثير إعجابكم يجـب أنْ تروا العقائد المسيحيَّة خطـأ، العظـة الثّانيـة تُجـدِّدُ ـ أيضـاً ـ هـذه الانتقـادات اللاَّذعـة، وتُؤكِّـد هُمُوم التّأثير اليهُودي على كريزُوستُوم.

فيقـول: (خرافنـا مُحـاطين بالذّئـاب اليـهُود)، ثـمَّ يُكـرِّر: اهربـوا منـهم، واهربـوا مـن كُفْرهم، إنَّـها ليسـت مُجـادلات تافهـة التـي تفصلنـا عنـهم، بـل هُـو مـوت المسيح، فـإذا كُنتُم تعتقدون أنَّ اليهُوديَّة هي الحقُّ اتركوا الكنيسة، وإلاَّ اتركـوا اليهُوديَّـة، أ لا تعلمـون أنَّ اليـهُود يُضحُّـون فـي كُـلِّ منـاطق الأرض عـدا المكـان الوحيـد الـذي تُصبـح فيـه التّضحيـة ذات قيمـة ـ يعني: أُورشليم ـ ؟!.

أ تجهلون أنتم أنَّ هُنا ـ فقط ـ يستطيعون أنْ يحتفلوا بالفُصْح[41] ؟! هكـذا تقـول الشّـريعة، لا تلـتزموا ـ إذاً ـ بفصْحـهم الوَهْمـي، والعظـات الأربـع الأُخـرى هـي لاهوتيَّـة أكـثر، فاسـتعان

(41) سفْر تثنية الاشتراع، 12, XII.

كريزُوستُوم بشتائم الأنبياء، وَصَفَ اليهُود باللُّصوص، والقذرين، والفاسقين، والجشعين، البُخلاء، حائكي الخدع، قامعي الفُقراء، والذين زادوا الطّين بلَّة في جرائمهم بقَتْل يسُوع، فأعطى حُجَجاً لمُحاربة المُجادلات التي يبدو أنّها كانت ناشطة في أنطاكية، فأخذ يُمجِّد بالكنيسة، ويُبرهن أنَّ إسرائيل مُشتَّتة بسبب موت المسيح: ويستخرج من الأنبياء ومن النُّصُوص التّوراتيَّة البراهين على أُلُوهيَّة يسُوع، وينصح مُستمعيه ألاَّ يلجؤوا لخُطب هؤلاء اليهُود الذين يُسمُّون الصّليب دنس، والذين لا تُساوي دياناتهم شيئاً، وهي عديمة الفائدة للذين يعرفون الإيمان الحقَّ. . وأنهى خُطبته بكلمة واحدة: إنَّه لشيءٌ لا معقول أنْ نعمل مع الأشخاص الذين عاملوا الله بشكل مُذلٍّ، وأنْ نعبد المصلوب في الوقت نَفْسه.

عظات كريزُوستُوم هذه هي منهجيَّة وثمينة، نجد فيها الخُطَّة كُلَّها التي سوف يستعملها المُبشِّرون المسيحيُّون خلال قُرُون. هذا المزيج من الحُجَج والتّوبيخ، من الإقناع والشّتائم الذي بقي خاصّاً بالتّبشير المُضادِّ لليهُود نفهم دور الكَهَنَة في تطوُّر مُعاداة اليهُوديَّة التي كانت أوَّلاً دينيَّة؛ إذْ إنَّ مُناهضة اليهُوديَّة الاجتماعيَّة لم تأت إلاَّ لاحقاً في المُجتمع المسيحي، عندما نقرأ هذه العظات نحصل على لوحة غنيَّة وحيويَّة جداً للعلاقات اليهُوديَّة والمسيحيَّة في القرن الرّابع، علاقات استمرَّت طويلاً حتَّى القرن التّاسع تقريباً، لم يكن اليهُود بعد قد توصَّلوا إلى هذه النّظريَّة المُتميِّزة عن شخصيَّتهم وقوميَّتهم التي كانت عمل التّلمُوديِّين، فأُسلُوب حياتهم من وُجهة النّظر الخارجيَّة لم تكن مُختلفة عن الشُّعُوب التي كانوا يعيشون في وسطها، فكانوا يتداخلون في الحياة العامَّة في كُلِّ مكان من آسيا الصُّغرى كما في إيطاليا، في بلاد الغُول (فرنسا)، كما في إسبانية.

وكونهم بتماسٍّ مُستمرٍّ مع المسيحيِّيْن؛ أثَّروا فيهم، ولم يكونوا - بَعْدُ - قد اعتمدوا ذلك الانعزال الوحشي الذي طالب به أحبارهم لاحقاً، فكانوا يجلبون لعقيدتهم كثيراً ممَّنْ هُمْ قلقين وغير مُستقرِّين، فنشاطهم التّبشيري لم يكن قد مات، لكنَّهم لم يكونوا قد وعوا - بَعْدُ - أنَّهم قد أضاعوا - نهائيّاً - المملكة الأخلاقيَّة للعالم، فاستمرّوا بالنّضال.

فصاروا يُحرِّضون الوَثَنيِّين والمسيحيِّيْن على التّهوُّد، وكانوا يجدون أتباعاً، وعند الحاجة المُلحَّة كانوا يفعلون ذلك بالقُوَّة، ولم يكونوا يتردَّدون في ختان خَدَمهم، فكانوا الأعداء الوحيدين التي يُمكن للكنيسة أنْ تراهم في وجهها؛ إذْ إنَّ الوَثَنيَّة انطفأت بهُدُوء، ولم تترك في النُّفُوس إلاَّ بقايا أساطير بقيت حيَّة حتَّى يومنا هذا، وإذا كانت الوَثَنيَّة تعترض

عن طريق آخر فلاسفتها وآخر شُعرائها على انتشار المسيحيَّة، لكنَّها لم تكن تُحاول - اعتباراً من القرن الرّابع - إلى أنْ تكسب لصفِّها مَنْ يُمسكهم المسيح بروابطه.

أمَّا اليهُود؛ فلم يتنازلوا: فكانوا يعتبرون أنَّهم في مُستوى المسيحيِّيْن أنفسهم، يمتلكون الدِّيانة الحقَّة التي تصدر عن قناعات لا تهتزُّ، وفي صبيحة انتصارها لم يكن للكنيسة هذه الحركة التّصاعديَّة العالميَّة التي جرت لها لاحقاً، بل كانت لا تزال ضعيفة، مع أنَّها نافذة وقادرة، لكنَّ قادتها كانوا يطمحون لهذه العالميَّة، لذلك وَجَبَ - منطقيّاً - أنْ يعتبروا اليهُود وكأنَّهم ألدُّ أعدائهم، لذلك؛ وَجَبَ أنْ يفعلوا أيَّ شيء حتَّى يُضعفوا انتشارهم وتبشيرهم، فاتَّبَعَ الآباء عادةً قديمةً دُنيويَّةً: وفي هذه النّاحية من الصّراع نجدهم مُتوحِّدين ومعهم لاهوتيِّيْن، مُؤرِّخين أو كَتَبَة يُفكِّرون ويكتبون حول اليهُود مثل (كريزُوستُوم) و (إبيفان)، (ديُودُور دي تارس) تيُودُور دي مُوبسُويست، وتيُودُور دي سير، كُوزماس أينديا كابلُوست، أتناس السّينائي، وسينيسيُوس عن اليُونان، ومن بين اللاَّتين: هيليردي بواتيه برودنتيُوس، بُول أورز، أسُوبليس سيفر، جينا ديُوس فينالتُوس، فُورتُوناتُوس، إيزُودُور دي اشبيليا.

على كُلِّ حال؛ بعد مرسوم ميلانو، لم تعد مُناهضة اليهُوديَّة محدودة بمُشاجرات شفهيَّة أو كتابيَّة، ولم يعد الأمر نزاعاً بين مذهبَيْن مُحتقَرَيْن ومكروهَيْن في آن معاً.

أمَّا قسطنطين قبل اهتدائه؛ فلم يكن يُريد أنْ يُعطي امتيازات للمسيحيِّيْن أنفسهم، وقد اعترف بعد ذلك بمرسوم التّسامح؛ أيْ حقُّ كُلِّ إنسان بمُمارسة الدِّيانة الذي قَبلها.

فأصبح - بذلك - اليهُود بنَفْس سويَّة المسيحيِّيْن، فالبابوات الوَثَنيُّون وكَهَنَة يسُوع وبطاركة وأحبار إسرائيل تمتَّعوا بالمكرمات نَفْسها، وكانوا كُلُّهم معفيِّيْن من الرُّسُوم البلديَّة.

لكنْ؛ في عام 323، بعد هزيمة وموت ليسينُوس الذي كان يحكم الشّرق، أصبح قسطنطين مُنتصراً وسيِّد الإمبراطُوريَّة مدعوماً من جميع مسيحيِّي بُلدانه، فعاملهم مُعاملة المحظيِّيْن الكبار، ومُنذُ ذلك الحين تمتَّعت الكنيسة بدَعْم النُّفُوذ الإمبراطُوري لتمكين سيطرتها.

وأوّل استخدام لهذه السُّلطة كان في مُلاحقة أعدائها؛ فوجدت قسطنطين جاهزاً لخدمتها، فمن جهة؛ مَنَعَ الإمبراطُور التّأليه، وأغلق المعابد، ومَنَعَ التّضحيات، وحتَّى إنَّه أذاب التّماثيل الذّهبيَّة والفضيِّة للآلهة، وذلك حتَّى يُجمِّل الكنيسة، ومن جهة أُخرى؛ وافق على قَمْع التّبشير اليهُودي، وأعاد إلى التّطبيق قانوناً رُومانيّاً قديماً يمنع اليهُود فيه من ختان

خَدَمهم، وفي الوقت نَفْسه؛ حرمهم من قسمٍ كبيرٍ من امتيازاتهم التي كانوا يتمتَّعون بها، وأغلق في وجههم الدُّخُول إلى أُورشليم، ولم يسمح لهم بالدُّخُول إلى المدينة إلاَّ يوم ذكرى تهديم المعبد، ومُقابل ضريبة مدفوعة بالفضَّة.

وبإثقاله الضّرائب على اليهُود؛ شجَّع قسطنطين التّبشير المسيحي، ولم يُفوِّت المُبشِّرون فُرصَةً لشرح فوائد المعمُوديَّة على الإسرائيليِّيْن.

ومن أجل تشجيع المُتردِّدين الذين يخشون الانتقام من قِبَل بني ديانتهم، ويُحجمون عن الرِّدَّة خوفاً من سُوء المُعاملة، أصدر الإمبراطُور قانوناً يحكم فيه على اليهُود الذين يُلاحقون المُرتدِّين منهم بضربات الحجارة بالحَرْق[42]، غير أنَّه رغم عداوته الحادَّة، وربَّما المُصطَنَعَة ضدَّ اليهُود؛ إذْ إنَّنا لا نعرف إذا كان يجب علينا أنْ نقبل بصحَّة الرّسالة التي تُنسب له، والتي مضمونها عنيف جداً، فقسطنطين حاول حمايتهم ضدَّ الضّربات التي كان يُعيرها لهم مُرتدِّيهم أنفسهم، أمَّا مع خُلفائه؛ فإنَّ مثل هذه الإجراءات لم يُحافظ عليها.

فتأثير الكنيسة على الأباطرة[43] كان قويّاً جداً، أصبحت الدّيانة الكاثُوليكيَّة ديانة الدّولة، والعقيدة المسيحيَّة أصبحت العقيدة الرّسميَّة، وتزايدت أهمِّيَّة الأساقفة من يوم ليوم وحتَّى سُلطتهم، فأدخلوا في نُفُوس الحُكَّام مشاعر مُحرِّضة، وإذا كانت مُناهضة اليهُوديَّة قد تمظهرت بالكتابات، فمُناهضة اليهُوديَّة الإمبراطُوريَّة طُبِّقت بالقوانين، هذه القوانين بإلهام من الكنيسة ليس - فقط - ضدَّ اليهُود، لكنْ؛ أيضاً ضدَّ الهراطقة.

هذه كانت حقيقة، لدرجة أنَّه في القرن الرّابع - الذي كان خصباً بالهرطقات - أُقلقَ الأُورثُوذُوكس - أحياناً - عندما كان اللاَّهوتيُّون المُتهرطقون يقودون الأباطرة.

هذه القوانين الصّادرة كُلُّها في القرن الرّابع حتَّى القرن السّابع - أغلبها - كان مُوجَّهاً ضدَّ التّبشير اليهُودي، تجدَّدت الدّفاعات للذين يختنون المسيحيِّيْن[44]، وكانوا يحكمون على المُخالف بالنَّفْي الدّائم ومُصادرة الأملاك، ومنعوا اليهُود من أنْ يكون عندهم خَدَمٌ[45]

---

(42) قانون كُوديكس جُوستينيانُوس، 1: 8 - 3.

(43) أُوسيب.

(44) كُوديكس جُوستيتيانُوس.

(45) قانون تيُودُوزيان.

مسيحيُّون منعوهم من الزّواج بنساء مسيحيّات، كما منعوا اليهُوديّات من الزّواج بمسيحي، وكانت مثل هذه الزّيجات تُعَدُّ جرائم زنا.[46]

وقوانين أُخرى تُشجِّع الدّعاية والتّبشير بين اليهُود، إمّا مُباشرة بحماية المُرتدِّين[47] وذلك بمنع اليهُود من حرمان أبنائهم وأحفادهم[48] من الميراث عندما يهتدون، أو بشكل غير مُباشر بواسطة إجراءات إذلاليَّة، هذه الإجراءات الإذلاليَّة القامعة مضمونها ـ أوّلاً ـ حصر وتقليل امتيازات اليهُود، فاعتمدوا أنَّ المال الذي كان يُرسَلُ من قِبَل الإسرائيليِّين إلى فلسطين سوف يعود إلى الخزينة الإمبراطُوريَّة.[49]

ومنعوهم من مُمارسة الوظائف العامَّة[50]، فرضوا عليهم ضرائب للأديرة قامعة[51] وقاسية جداً، ألغوا لهم محاكمهم الخاصَّة[52]، لم تقف الإذلالات عند هذا الحَدِّ، فكانوا يُزعجون اليهُود حتَّى بمُمارسة عقيدتهم، فَنَظَّموا لهم أُسلُوب مُمارسة أتباع السّبت[53]، وأجبروهم على عدم الاحتفال بفصحهم قبل الفصح المسيحي، وقد ذهب جُوستينان إلى أبعد من ذلك إلى مَنْعهم من تلاوة الصّلاة اليوميَّة الشّيما **le Schema** التي تدعو الله ضدَّ الثّالوث.

كما أنَّه رغم العناية الإمبراطُوريَّة، فالكنيسة لم تكن حُرَّة بشكل مُطلق بتحرُكاتها في عهد قسطنطين، ورغماً عن التّحريمات التي وضعها الحاكم على الحُرِّيَّة الدِّينيَّة للوثَنيِّين واليهُود فقط، كان مُضطَرّاً لبعض التّغييرات، فَعَبَدَةُ الآلهة كانوا أكثر في عهده، ولم يكن يجرؤ على إثارة الثّورات الخطيرة، فاستفاد اليهُود من هذه التّردُّدات إلى حَدٍّ ما.

أمّا مع كُونستانس؛ فتغيَّر كُلُّ شيء، تعمَّد قسطنطين وهُو على فراش الموت بيد أُوسيب دي نيكُوميد، فهُو كان سياسيّاً استخدم المسيحيَّة كأداة.

---

(46) كُوديكس جُوستينيانُوس.
(47) قانون تيُودُوزيان.
(48) قانون تيُودُوزيان.
(49) كُوديكس جُوستيتيانُوس.
(50) كُوديكس جُوستيتيانُوس.
(51) جُوستينيان نُوفيل 45.
(52) كُوديكس جُوستيتيانُوس.
(53) كُوديكس جُوستيتيانُوس.

أمَّا كُونستانس؛ فقد كان أرثُوذكسيّاً، أرثُوذكسيّاً مُتعصِّباً وغير متُسامح مثل كَهَنَة ونُسَّاك عصره. معه أصبحت الكنيسة مُسيطرة، ومارست معظم سُلطتها مُنذُ ذلك الحين بالانتقام، ويبدو أنَّها جعلت مُضطهديها السّابقين يدفعون - غالباً - ثمن كُلِّ آلامها السّابقة.

وحالما تسلَّحتْ نسيت أهمَّ مبادئها الأساسيَّة، ووجَّهتْ ضدَّ مُنافسيها الذّراع المَدَني. فَلُوحق الوَثَنيُّون واليهُود بأشدَّ وأقسى ما يكون. وأُسيئت معاملة الذين يُضحُّون لنريوس تماماً مثل الذين يعبدون يَهْوَه. وسارت مُناهضة اليهُوديَّة بتناغم مع مُناهضة الوَثَنيَّة.

نُفي أحبار اليهُود من اليهُوديَّة، وهدَّدوهم بالموت إذا استمرّوا في تعاليمهم، وأجبروهم على مُغادرة طبريّا. وحتَّى على الهَرَب من فلسطين، وفي جميع مُقاطعات الإمبراطُوريَّة حَرَموهم من حُقُوق المُواطن الرُّوماني. وإلى القوانين؛ أُضيفت عدَّة إزعاجات أُخرى. وخلال إقامة الفرق الرُّومانيَّة في اليهُوديَّة التي كانت مُعَدَّة لتذهب وتُحارب ملك الفُرْس شابور الثّاني أخضعوهم لضرائب قاسية، وأجبروهم على دَفْع الجزية اليهُوديَّة وغيرها من الغرامات والمُخالفات الجديدة، وأجبروهم على خبز الخُبز للجُنُود خلال أيّام السّبت والأعياد. وخلال هذا الوقت؛ كان النُّسَّاك والأساقفة يتكلَّمون ضدَّ الوَثَنيِّيْن واليهُود عبر المُدُن، ويُحرِّضون الجماهير المسيحيَّة - بشدَّة - ضدَّهم، ويقودون عصابات مُتعصِّبة لمُهاجمة المعابد والكُنُس. وتحت حُكْم تيُودُور الأوَّل وأركاديُوس حرقوا الكُنُس في رُوما وكالينيكُوس، وفي ما بين النّهرَيْن..

وفي عهد تيُودُور الثّاني، في الإسكندريَّة؛ أثار سان سيريل الشّعب والنُّسَّاك، فدخلوا المدينة، فقتلوا اليهُود والوَثَنيِّيْن الذين قابلوهم، وقتلوا هيباتي **Hypathie**، خرَّبوا الكنيس، وأحرقوا المكتبات، وطردوا كُلَّ مَنْ هُو غير مسيحي رغم جُهُود الوالي أوريست **Oreste** الذي شجبه الإمبراطُور في أمنستار بالُقرب من أنطاكية. نَفَّذَ النّاسك سمعان العمل نَفْسه. وفي عهد زينون حصلت مشاهد مُماثلة في أنطاكية. تملَّكت المسيحيِّيْن ثورة تخريب حتَّى يخال للمرء أنَّهم يُريدون حتَّى إزالة ذكرى العالم القديم لتهيئة الحُكْم الهادئ اللَّطيف للمسيح.

أمَّا اليهُود؛ فلم يبقوا ساكنين تجاه أعدائهم، ولم يكونوا قد اكتسبوا - بَعْدُ - هذا التّصميم العنيد والمُؤثِّر الذي غيَّرهم فيما بعد. فكانوا يردُّون على المُحاضرات الحادَّة للكَهَنَة بمُحاضرات مثلها، وعلى الأفعال بالأفعال، وعلى التّبشير المسيحي فيما بينهم كانوا يردُّون

بتبشيرهم، ويُغمدون مُرتدِّيهم باللَّعنات، فصارت العظات الأكثر عُنفاً تدوي في الكُنُس. الواعظون اليهُود يصرخون ضدَّ Edom؛ أيْ ضدَّ رُوما، رُوما القياصرة التي أصبحت القوميَّات. ولم يكونوا ليكتفوا بأمكنة العظات، بل كانوا يُحرِّضون إخوانهم على الثّورة.

فأثناء حُكْم غالُوس ابن شقيق كُونستانس في المُقاطعات الشّرقيَّة أثار سيفُورس اليهُوديِّيْن في ثورة. وساعده في هذه الأعمال رجل باسل اسمه ناترُونا، وكان الرُّومان يُسمُّونه باتريسيُوس. "صرخ إسحق: ناترونا سوف يُحرِّرُنا من إدوم؛ أيْ رُوما، مثلما حَرَّرَنَا مردُوشه وأستر من الميديِّيْن Médes، ومثلما حَرَّرَنَا الحشمونيُّون من اليُونان".

فحملَ اليهُودُ السّلاحَ، لكنَّهم قُمعوا ـ بقساوة ـ من قبَل غاللُوس وجنراله أُورسيسينُوس. فَذَبَحوا النّساء والشُّيُوخ والأطفال، وحُطِّم نصف طبريَّا وليداً، كما أنَّ سيفُورس مُسحت مَسْحَاً، وامتلأت أقبية طبريَّا بالهاربين الذين اختبؤوا خلال أشهر هَرَبَاً من المُلاحقات والموت.

وفي عهد فُوكاس كان يهُود أنطاكية قد سئموا الاضطهادات والإيذاءات والمذابح، فهجموا ذات يوم على المسيحيِّيْن، وذبحوا البرطريرك أنسطاس السّينائي، وأصبحوا الأسياد في المدينة، فأرسل ضدَّهم فوكس جيشاً بقيادة كوتيس، فَرَدَّ في البدء اليهُودُ الفرقَ الإمبراطُوريَّة، ثمَّ أصبحوا عاجزين عن أنْ يُناضلوا ضدَّ الجحافل الكبيرة أكثر فأكثر التي أُرسلت إلى أنطاكية، فاضطُرُّوا للخُضُوع والاستسلام، فذُبحوا، وعُذِّبوا، ونُفوا. غير أنَّ خُضُوعهم لم يكن إلاَّ ظاهرياً. فكانوا ينتظرون الفُرصة ليستمرّوا في الكفاح.

فتوفَّرت لهم الفُرصة عندما أراد ملك الفُرْس Kosru ti كُوسرو الثّاني الانتقام من صهره مُوريس الذي اغتصب منه فوكس العرش، فسار باتِّجاه الإمبراطُوريَّة البيزنطيَّة، فالتحق به اليهُود، فاجتاح شربزار آسيا الصُّغرى رغم اقتراحات هرَقْل السِّلميَّة، والذي كان قد أنزل فوكس عن العرش، وضمَّ اليهُود المُحاربين في الجليل إلى جيشه. فكان بنيامين الطّبري رُوح الثّورة، فهُو الذي سَلَّحَ الثُّوّار، وهُو الذي قادهم. أراد اليهُود أنْ يستعيدوا فلسطين، ويُعيدوا الطّهارة إليها، الطّهارة التي نجَّستها العقيدة المسيحيَّة. فحرقوا الكنائس، ونهبوا أُورشليم، وهَدَّموا الأديرة، وحَرَّضوا، وأثاروا دمشق وجنوب فلسطين وجزيرة قبرص، وحتَّى إنَّهم حاصروا صُور، ثمَّ فكّوا عنها الحصار. وغدت اليهُوديَّة لمُدَّة أربعة عشرة عاماً كسيِّدة، فتهافت المسيحيُّون الفلسطينيُّون أفواجاً للدُّخُول في اليهُوديَّة.

أمَّا هرَقْل؛ فقدَّمهم عن الفُرْس الذين نكصوا بوُعُودهم عندما لم يُسلِّموا لهم المدينة المُقدَّسة أُورشليم، وهُمْ كانوا حُلفاءهم. فاتَّفق هرَقْل مع بنيامين الطّبري، ووعد اليهُود بعدم القصاص ومكاسب أُخرى. لكنْ؛ عندما استعاد الإمبراطُور مُقاطعاته ضدَّ كوسرو (هل هُو خسرو؟) فلجأ - بتحريض من النُّسَّاك والبطريرك وديست - إلى ذَبْح الذين استقبلهم. وبما أنَّه قد أقسم لليهُود بعدم إزعاجهم ثانيَّة، حَرَّرَهُ مُوديست من هذا القَسَم، وأسَّس - تكفيراً عن ذلك - صياماً صامه الموارنة والأقباط لفترة طويلة.

أمَّا اليهُود؛ فلم يكونوا سوى حفنة صغيرة، وتاريخهم في فلسطين انتهى، وأُغلِقَ. وعندما ألغى جُوليان المُرتدُّ القوانينَ النّاهية لقسطنطين وكُونستانس ضدَّ اليهُود أراد أنْ يُعيد بناء المعبد في أُورشليم، أمَّا المُجتمعات الإسرائيليَّة الأجنبيَّة؛ فبقيت صمَّاء لهذا النّداء الإمبراطُوري: فهي قد انفصلت عن القضيَّة القوميَّة بشكل فوري على الأقلِّ؛ فبالنّسبة ليهُود ذلك الزّمان فإنَّ إعادة بناء مملكة يهُوذا كانت مُرتبطة بحَدَث المسيح، ولا يُمكن لهم أنْ يتأمَّلوها من فيلسوف مُتوَّج. ماكان عليهم إلاَّ انتظار ملك السّماء الموعود، وهذه المشاعر استمرَّت لقُرُون.

عندما مات البطريرك الأخير جماليل السّادس اختفى شبح المملكة والقوميَّة اليهُوديَّة الذي كان موجوداً حتَّى الآن، ولم يبقَ لإسرائيل سوى قائد واحد في المنفى هُو حاخام بابل الذي مات في القرن الحادي عشر.

على كُلِّ حال؛ فإنَّ اليهُود - بحُكْم انتشارهم في العالم - شكَّلوا مُجتمعات غنيَّة ونافذة، فخلقوا لأنفسهم عدَّة أوطان من المصالح، وهذه المصالح كانت تربطهم في الأرض التي يعيشون فيها. لكنَّها لم تكن لتربطهم بشكل تامٍّ وكُلِّيٍّ؛ لأنَّ ديانتهم الاجتماعيَّة كانت تحفظهم في انعزال لعين، وهُمْ مُختلطون مع جميع الشُّعُوب، كانوا يتحمَّلون نتائج تنافرهم الدِّيني في كُلِّ بلد؛ حيثُ يُوجد ديانات مُحدَّدة وعقائديَّة.

نجد كذلك مُناهضة اليهُوديَّة تزدهر ليس - فقط - في البلاد الكاثُوليكيَّة، إنَّما - أيضاً - في بلاد فارس، وفي البلاد العَرَبيَّة.

ففي إيران وبابل كان اليهُود قد استقرّوا مُنذُ الأسر. وبعد خراب أُورشليم كثير منهم لجؤوا إلى هذا البلد الرّائع والخصب؛ حيثُ الأراضي الزّراعيَّة وُزِّعت عليهم، وعاشوا فيها

سُعداء برعاية السُّلطة الأرشيديَّة، فأسَّسوا المدارس في سُورة Sora ونهارديا وبومباديتا، وأهدوا كثيراً من النّاس. لكنْ؛ في مُنتصف القرن الثّالث انهارت السُّلالة الأرشيديَّة مع أرطبان التي كانت غير شعبيَّة وغير محبوبة، وأسَّس أردشير سُلالة السّاسانيِّيْن. كانت حركة قوميَّة ودينيَّة بالوقت نَفْسه، فالفُرْس الجُدُد الغبريُّون Guèbres، كانوا يكرهون الأرشديِّيْن المُتهلينين الذين تركوا عبادة النّار. فانتصار أردشير كان انتصاراً للمجوس الذين طغوا بقسوة ضدَّ المُتهلينين ومسيحيِّي Edesse، وضدَّ اليهُود، إذْ إنَّ في بلاد فارس ارتبطت مُناهضة اليهُوديَّة للمجوس بمُناهضة المسيحيَّة.

واضطُهدَ الأخوة الأعداء بالتّناوب، لكنَّ اليهُود كانوا أقوى وأكثر عدداً، ويُخشى منهم، لذلك كان عذابهم ومُعاناتهم أقوى في زمن الاضطرابات هذا. عدا عن أنَّ هذه الاضطهادات لم تكن ـ أبداً ـ طويلة الأمد. وبقي الإسرائيليُّون مُدَّة طويلة لا يزعجهم أحد، لكنَّهم تضايقوا في نهاية القرن الثّالث من قِبَل شابور الثّاني الذي جَلَبَ من أرمينيا إلى أصفهان 70.000 سجيناً يهُودياً.

وفي القرن الخامس والسّادس تحت حُكْم يزدجرد الثّاني وفيروسيس وكافاد؛ اتُّخذت بحقِّهم إجراءات قامعة بتحريض من المجوس. فمنعوا اليهُود من إقامة السّبت، وأغلقوا المدارس، وألغوا المحاكم اليهُوديَّة. وكان مزدك هُو سبب هذه الإذلالات، وذلك تحت حُكْم كافاد. فمزدك هُو مؤسِّس مذهب الزّنديك، فكان يُبشِّر بالشُّيُوعيَّة، فجَرَّدَ اليهُود والمسيحيِّيْن من نسائهم وثرواتهم. فثار اليهُود بقيادة الحاخام مارزوطرا الثّاني، وسجَّلتْ اليوميَّات الفارسيَّة أنَّهم انتصروا على أتباع المجوس، وأسَّسوا دولة عاصمتها ماهوزا؛ مدينة يسكنها الفُرْس الذين أصبحوا يهُوداً. بقيت هذه الدّولة سبع سنين حتَّى موت مارزوطرا الذي هُزم وقُتِل. ومُنذُ ذلك الحين عرفَ اليهُودُ في بلاد فارس تناوباً بين بين السّلام والاضطراب، فكانوا سُعداء تحت حُكْم كسرى أنوشروان وخسرو الثّاني، وتُعساء بحُكْم هُورميسراس الرّابع إلى اليوم الذي تعبوا فيه من هذا الوضع الضّعيف، فبالاتِّفاق وبالتّناغم مع المسيحيِّيْن في مملكة السّاسانيِّيْن ساعدوا عُمَر على الاستيلاء على عرش الفُرْس، مُساعدين ـ بذلك ـ على انتصار مُحمَّد والعَرَب، إلاَّ أنَّ اليهُود لم يكونوا لينعموا بالنّير الإسلامي.

إنَّ إقامتهم في العَرَبة، إذا استثنينا الأساطير التي تردُّ مجيئهم إلى يشُوع أو شاوول، فهي قد تعود إلى زمن الأسر وخراب المعبد الأوَّل؛ النُّواة الأُولى، كبرت باللاَّجئين الهاربين

من اليهُوديَّة إلى الجزيرة العَرَبيَّة إبَّان احتلال رُوما لفلسطين. وفي بدء العصر المسيحي؛ كان في الجزيرة العَرَبيَّة أربعة قبائل يهُوديَّة مركزها المدينة.

وفي القرن السّادس وتحت حكْم زوارة - دو - نُوَّاس كان اليمن بأكمله يهُودياً. بدأت المصاعب عندما انتقلت قبيلة من نجران بأكملها إلى المسيحيَّة، لكنَّها لم تكن طويلة الأمد؛ لأنَّ الانتشار المسيحي توقَّف في العَرَبة من قبَل مُحمَّد.

وعندما هاجر مُحمَّد من مكَّة؛ حيثُ أثارت دعوته العَرَب المُتعلقين بالتُّراث القديم ضدَّه، فلجأ إلى المدينة، ومثلما وَجَدَ الرُّسُل أتباعهم الأوَّلين بين المُهتدين الهيلِّينيِّيْن وَجَدَ مُحمَّد أتباعه بين العَرَب. كذلك الأسباب الدِّينيَّة نَفْسها سَبَّبَتْ كُرْهَ مُحمَّد وبُولُس. فكان اليهُود مُعارضين لدعوة الرّسول بُولُس، فأثقلوه بالسُّخرية، أمَّا مُحمَّد؛ فكان حتَّى تلك السّاعة مُستعدّاً أنْ يدخل معهم في تحالف، لكنَّه حاربهم - بعُنف - مُعتمداً سُورة شهيرة من القُرآن هي سُورة البقرة؛ سفَّههم فيها بقسوة(*).

لكنْ؛ عندما جمع النّبي حوله جيشاً من مُريديه لم يكتف بالرَّدِّ عليهم كلاميّاً، بل مشى بجيشه ضدَّ القبائل اليهُوديَّة، وانتصر عليهم.

غير أنَّ اليهُود نعموا تحت حُكْم العَرَب بحُرِّيَّة أكثر ممَّا تحت حُكْم المسيحيِّيْن(**). فمن جهة؛ لم تكن تشريعات عُمَر تُطبَّق بشكل قاس، من جهة أُخرى؛ فإنَّ الشّعب المُسلم كان عطوفاً معهم، رغم اختلاف الدِّين، حتَّى إذا استثنينا بعض مظاهر التّعصُّب. سوف نرى كذلك لاحقاً خلال التّوسُّع الإسلامي سوف يكون العَرَب وكأنَّهم مُحرِّرو اليهُود من الغرب(***).

(*) هذه وُجهة نظر المُؤلِّف، وللأسف، هُو يجتزئ من التّاريخ هُنا، ولا يُعدِّد الأسباب التي أدَّت إلى أنْ يتَّخذ الرَّسول الكريم هذه الإجراءات بحقِّ اليهُود؛ من خُرُوقات للاتِّفاقيَّات، ومن مُناصرة للأحزاب ضدَّ الرَّسول الكريم وصحبه المُسلمين، وهذا غريب من مُؤلِّف يدَّعي أنَّه يكتب بحياديَّة وعلميَّة، وقد شرح - مفصَّلاً - الأسباب التي دعت إلى مُناهضة اليهُوديَّة من قبَل غير العَرَب، فلماذا اجتزأ هُنا، ولم يُفصِّل أو يُعدِّد ولو بعض تلك الأسباب الهامَّة؟! (دار الأوائل).

(**) قبل سطر واحد، كما قبل عدَّة أسطر، أورد المُؤلِّف كلاماً مُناقضاً تماماً لما يقوله هُنا. (دار الأوائل).

(***) لقد استخدم المُؤلِّف - هُنا - جُملة (العَرَب وكأنَّهم مُحرِّرو اليهُود من الغرب). فلماذا عندما يرد ذكر العَرَب - بشكل حميد - في مُعظم الأبحاث التّاريخيَّة يتنصَّل المُؤرِّخون الغربيُّون من إعطاء أيِّ قطعيَّة في أحكامهم؟! (دار الأوائل).

مُنذُ انهيار الإمبراطُوريَّة الرّومانيَّة الهشَّة وهُجُوم البرابرة على العالم القديم خضعت ظُرُوف اليهُود الغربيِّيْن لكُلِّ التّقلُّبات، صحيح أنَّ القياصرة المساكين مثل أُوليبربُوس وغليسيريُوس، ويُوليُوس نيبُوس، ورومُولُوس أُوغُوستُول سقطوا، لكنَّ القوانين الرُّومانيَّة استمرَّت، ولو أنَّها لم تُطبَّق لفترات قصيرة على اليهُود، لكنَّها بقيت ـ دوماً ـ حيَّة استعملها الحُكّام الجرمان على مزاجهم.

من القرن الخامس حتَّى القرن الثّامن كانت سعادة وتعاسة اليهُود مُتعلِّقة بالقضايا الدِّينيَّة التي كانت خارجة عنهم. وتاريخهم ـ مع ما يُسمَّون بالبرابرة ـ مُرتبط بتاريخ الآريَّة وانتصارها وهزائمها. وطالما سادت العقائد الآريَّة عاش اليهُود في حالة جيِّدة نسبيّاً، إذْ إنَّ الكَهَنوت وحتَّى الحُكُومات الهرطُوقيَّة كانت تُحارب الأرثُوذُكسيَّة، واهتمامها بالإسرائيليِّيْن قليل جدّاً، إذْ لم يكونوا ـ بالنّسبة لهم ـ الأعداء الذين يجب إزالتهم.

أمَّا تيُودُوريك؛ فَشَذَّ عن القاعدة. فحالما استقرَّت الإمبراطُوريَّة الأستروقوط منعهم الملك من بناء الكُنُس، وحاول هَدْيهم، وذلك بدافع من وزيره كاسيدُور الذي لم يكن يحبُّ اليهُود، فكان يصفهم بالعقارب والحمير الوحشيَّة والكلاب والكركدن. لكنْ؛ رغم ذلك، حماهم ضدَّ الهجمات الشّعبيَّة، وأجبر مجلس الشُّيُوخ في رُوما على إعادة بناء الكُنُس التي أحرقها الشّعب الكاثُوليكي الثّائر ضدَّ الآري تيُودُوريك.

على كُلِّ حال؛ في إيطاليا وتحت السّيطرة البيزنطيَّة التي كانت مُزعجة جدّاً لهم، وتحت السّيطرة اللُّومبارديَّة غير المُبالية؛ إذْ إنَّ اللُّومبارديِّيْن ـ من آريِّيْن ووَثَنيِّيْن ـ كانوا يجهلون وُجُود اليهُود، حُوفظ على اليهُود من ثورة وغضب المُبشِّرين من الكَهَنَة البسيطيِّيْن ومُستمعيهم، وذلك بفضل رعاية السُّلطة البابويَّة التي أرادت أنْ تحتفظ بالكنيس كشاهد حيٍّ على انتصارها، وذلك عدا بعض الاستثناءات.

أمَّا في إسبانيا؛ فكان وَضْعُ اليهُود مُختلفاً تماماً. فهُمْ سكنوا شبه الجزيرة من عُصُور سحيقة في القدم؛ حيثُ استقرُّوا بشكل حُرٍّ. أمَّا عددهم؛ فقد ازداد في عهد فيسباسيان **Vespasien** وتيتوس **Titus** وهارديان خلال حُرُوب اليهُوديَّة وبعد الشّتات.

كانوا يمتلكون ثروات، وكانوا أغنياء أقوياء مُشرفين، وكان لهم نُفُوذ وتأثير كبير على الشّعب الذي يعيشون وسطه. والانطباع السّائد بأنَّ الشُّعُوب الإسبانيَّة استفادت من اليهُوديَّة

استمرَّ عدَّة قُرُون، وهذه الأرض كانت الأخيرة التي شهدت صراعاً مُسلَّحاً بين الفكْر اليهُودي والفكْر المسيحي.

كادت إسبانيا أنْ تُصبح يهُوديَّة مرَّات عديدة، وأنْ يكتب المرءُ تاريخَ هذا البلد حتَّى القرن الخامس عشر هذا يعني أنَّه يكتب تاريخَ يهُوده؛ لأنَّهم امتزجوا بأدبه وتطوُّره الفكْري والقومي والرُّوحي والاقتصادي بشكل صميميٍّ ومُتميِّز. فمُنذُ نشأتها الأُولى؛ حاربت الكنيسة المُيُول والتّبشير اليهُوديَّيْن في إسبانيا، ولم تجتزهم ـ نهائيّاً ـ إلاَّ بعد اثنَيْ عشر قرناً من الصّراع، حتَّى القرن السّادس تنعَّم اليهُود الإسبان بالسّعادة التّامَّة، كانوا سُعداء كما في بابل، ففي إسبانيا وجدوا وطناً آخر.

فهُنا؛ لم تَطَلْهُم القوانين الرُّومانيَّة والنّواهي الكنيسيَّة لمجمع إلفير[54] التي تمنع المسيحيِّيْن بأنْ يكون لهم علاقات معهم، فبقيت هُنا حبراً على ورق.

وضعهم لم يتغيَّر مع الاجتياح الفيزيقُوطي، وهؤلاء الآريُّون اكتفوا باضطهاد الكاثُوليك. تمتَّع اليهُود بنَفْس الحُقُوق المَدَنيَّة والسِّياسيَّة للمُحتلِّ، كما أنَّهم دخلوا في جيُوشهم، وأنشؤوا فرقاً يهُوديَّة حرست حُدُود البيرينيه، لكنْ؛ مع اهتداء الملك ريكارد تغيَّر كُلُّ شيء. فالكَهَنُوت ـ مُنتصراً ـ أزعج اليهُود بالاضطهادات والإذلالات، ومُنذُ ذلك الحين (589) بدأت ـ بالنّسبة لهم ـ الحياة الصّعبة.

فخضعوا لتشريعات قاسية وضيِّقة؛ تشريعات مُملاة بالتّدريج من قبَل المُلُوك الفيزيقُوطيِّيْن، ومُهيَّأة في عدَّة مجامع أُقيمت في إسبانيا. هذه القوانين المُتتالية تُوجد جميعها في مرسوم أصدره (راسيفيند) **Raceswinth 652**، ثُمَّ أُعيد تشديدها وتقويتها من قبَل إرفينك **Erwig** الذي صَدَّقها في المجمَّع الثّاني عشر في تُوليدُو[55] (680) فمنعوا اليهُود من مُمارسة الختان، وأنْ يُفرِّقوا بين المأكولات، وأنْ يتزوَّجوا أقرباءهم، حتَّى الجيل السّادس، وأنْ يقرؤوا كُتُباً يدينها الإيمان المسيحي.

---

(54) في القرن الرّابع عشر.

(55) الفيزيقُوط **Leges Visigolh**.

لـم يكـن يُسـمح لـهم بالشّـهادة ضـدّ المسـيحيّيْن ، ولا إقامـة دعـاوي قضائيَّـة ضدَّهــم ، ولا مُمارسة أيِّ وظيفة مَدَنيَّة .

هذه القوانين التي تشكَّلت شيئاً فشيئاً لـم تكـن تُطبَّـق دومـاً مـن قبَـل الأسـياد القُوطيّيْـن الذين كانوا يعيشون في استقلاليَّة نسبيَّة ، لكنَّ الكَهَنُوت ضاعف جُهُوده حتَّى يضمن التّطبيق الشّديد لها . هَدَفُ الأساقفة وكبار المسؤولين فـي الكنيسـة كـان الحُصُـول علـى هداية اليـهُود وقَتْل الرُّوح اليهُوديَّة في إسبانيا ، فقدَّمتْ لهم السُّلطة المَدَنيَّـة دَعْمَـهَا فـي ذلـك . كـان اليـهُود ـ لمرَّات عديدة ـ يُجبرون على الانتقاء بين النَّفْي أو المعمُوديَّة(*) . من هذه الفترة تشكَّلت طبقـة المارِان **Marranes** ؛ أيْ مسيحيُّون مُتهوِّدون ، والتي مزَّقتهم ـ لاحقاً ـ محاكم التّفتيش . حتَّى القرن الثّامن عاش اليهُود الإسبان في حالة من عـدم الاسـتقرار والتّعاسـة ، مُتأمِّلين بالرّعاية العابرة لبعض المُلُوك ؛ مثل سوينتيلا وفانيا . حتَّى أتـى طـارق بـن زيـاد الـذي حَرَّرهـم عندمـا حَطَّمَ المملكة الفيزيقُوطيَّة ، وذلك بمُساعدة اليهُود الذين بقوا في إسبانيا .

فبعد معركة كسيريز وهزيمة رُودريك (711) تنفَّس اليهُود الصُّعداء .

في الوقت نَفْسه ـ تقريباً ـ انفتحت لهم في فرنسا ظُرُوف أفضل ، فهُمْ قد أسَّسوا جاليات في بلاد الغُول **gaulle** في زمن الجُمهُوريَّة الرُّومانيَّة أو قيصر ، فـهُمْ قـد ازدهـروا ، مُسـتفيدين من وضعهم كمُواطنين رُومانيّيْن . وعندما أتـى البُوغُونـد والفرنـك وَضْعـهم لـم يتغـيَّر ، ولـم يُعاملـهم المُحتـلُّ بشـكل مُختلـف عـن الغُوليّيْـن ، وخضـع تاريخـهم لنَفْـس التّقلُّبـات ونَفْـس الإيقاع لتاريخهم في إيطاليا وإسبانيا ، فهُمْ أحـرار تحـت الحُكْـم الوَثَنـي أو الآري ، مقموعـين عندما تُسيطر الأرثُوذُكسيَّة .

أصدر **Sigismund** ملك البُورغُوند قوانين ضدَّهم حالما تمَّت هدايتـه إلـى الكاثُوليكيَّـة ، وأيَّدها خُلفاؤه .[56]

(*) نستطيع ـ هُنا ، وبكُلِّ ثقة ـ أنْ نُؤكِّد أنَّ المُسلمين لم يُجبروا أيَّ يهُوديٍّ أو مسيحيٍّ علـى اعتنـاق ديانتـهم الإسـلاميَّة ، فلم يحصل مثل هذا التَّخيير : النَّفْي ، أو العُبُوديَّة ، أو الإسلام لأيِّ يهُوديٍّ أو مسيحيٍّ . (دار الأوائل) .

(56) Lex Burgun Dionum .

أمَّا الفرنك؛ فكانوا يجهلون وُجُود اليـهُود، لذلـك انقـادوا للأسـاقفة، وبعـد كلُوفيـس بدؤوا ـ بشكل طبيعي ـ بتطبيق أحكام القانون اللاَّهوتي.

هذه الأحكام شُدِّدت وعُقِّدت من قبَل السُّلطة الكنيسيَّة التي أسندت إلى السُّلطة المَدَنيَّـة مهمَّةَ التّنفيذ وإطاعة الأوامر والقرارات. من القرن الخامس وحتَّى القـرن الثّـامن؛ فـإن جُـزءاً من القانون الكَنَسي المُتعلِّق باليهُود حُرِّر في (فرنسا) الغول في المجـامع التـي صـاغت القوانـين والتي عَزَّزَهَا وصَدَّقَهَا المُلُوك الميروفينجيان بمراسيمهم. كُلُّ اهتمامات الكنيسة خلال القُـرُون الثّلاثة هـذه يبـدو أنَّـها كـانت ـ فقـط ـ فَصْـل اليـهُود عـن المسيحيِّيْن، ومَنْـع تـهويد المُؤمنـين، وإيقاف التّبشير اليهُودي.

هذه التّشريعات التي أصبحت في القرن الثّامن صارمة جـدّاً بالنّسـبة لليـهُود والمُتـهوِّدين لم تُوضَع دفعة واحدة:

في البداية؛ مُنذُ مجمع فـان **Vannes 465** اكتفـى السّـنودس بالدّفاعـات الأفلاطُونيَّـة، فالكَهَنوت ـ في تلك الفترة ـ لم يكن يتمتَّع إلاَّ بسُـلطة ضعيفـة، ولـم يكـن يسـتطيع أنْ يُصـدر عقُوبات، إنَّما ـ فقط ـ اعتباراً من القـرن السّـادس وبفضـل دَعْـم القـادة الفرنـك؛ اسـتطاع أنْ يُؤسِّس عقُوبات تدرُّجيَّة تُطبَّق أوَّلاً على الكَهَنَة ـ فقط ـ الذين يُخالفون القرارات المجمعيَّة، ثُمَّ على المَدَنيِّيْن، لكنَّ هذه العقُوبات الكَنَسيَّة التي تتضمَّن الحرمان، وأحياناً؛ العصا للكَهَنَة لـم تصب إلاَّ المُؤمنين، أمَّا بالنّسبة لليهُود؛ فلم يتَّخذ السّنودس ضدَّهـم أيَّ إجـراء مُؤلـم، وهـذا ما سمح لكثيرين التّرسيخ والتّأكيد مُنتصرين ظاهريّاً لرعاية الكنيسة تجاه اليهُود.

هذا لم يكن أبداً، يجـب ألاَّ ننسـى ـ في الواقـع ـ أنَّ الكنيسـة[57] لـم يكـن يحـقُّ لـها أنْ تُشرِّع مَدَنيّاً، لكنَّ الأُسُس السّنودسـيَّة والمحظـورات والممنوعـات الكَنَسـيَّة والحيثيَّـات المُرافقـة كان لها تأثير كبير على السُّلطات السِّياسيَّة، بالإضافة إلى أنَّ السّـلك الكَـهَنوتي مـارس علـى مُلُوك القُوط تأثيراً مُباشراً وواضحاً، ونستطيع أنْ نُؤكِّـد أنَّ شـيدلبرت أو كلوتـير الثّـاني مثلاً أو

---

(57) اكتفت المجامع المسكونيَّة بفرض المعمُوديَّة للأطفال المُتَحدِّريـن من زواج مُختلط، وبحَلِّ الزّواج إذا لـم يقبـل الشّريك اليهُودي بالاهتداء. وكُلُّ يهُودي يُحاول أنْ يهدي خَدَمَـهُ يفقدهـم، ويُصبحـوا بحُكْـم المُصـادرين. مجمـع أورليان **533**. من توليدو **589** ـ كاليونيا **541** ـ ماكون **581** رنس **625**.

ريسيفيند أقرّوا القرارات الكَنَسيَّة، وأنَّ قراراتهم أُصدرت بتحريض من الأساقفة والكَهَنوت الذي لم يكتف بالتّأثير على مصدرَيْ الإجراءات الشّرْعيَّة، إنَّما هُو كان يُثير باستمرار الشُّعُوب التي لم تكن أرثذوكسيَّتها عديمة التّسامح ضدَّ اليهُود، فبقيادة كَهَنَتها هجمت الرّعيَّة ضدَّ الكُنُس، ووضعت اليهُود إمَّا أمام اختيار الموت أو النَّفْي أو المعمُوديَّة، على كُلِّ حال؛ يجب ألا نتصوَّر وضع اليهُود في تلك المرحلة بائساً جداً، فمن الجانب اليهُودي ومن الجانب المسيحي نُلاحظ خليطاً من التّسامح والتّعصُّب يُفسَّر إمَّا بالرّغبة المُتبادَلة ببناء المُهتدين، أو إمَّا ببعض الرِّعاية الدِّينيَّة المُتبادَلة، فكان اليهُود يُشاركون بالحياة العامَّة، والمسيحيُّون يأكلون على طاولتهم[58] فكانوا يتَّحدون فيما بينهم[59] ويُشاركون بالأحزان والأفراح وفي صراع الأحزاب، وهكذا نراهم في أرل **Arles** يتحالفون مع حزب الفيزيفُوت ضدَّ الأسقف سيزير **Cesaire**[60] ولاحقاً؛ يمشون في جنازة هذا الأسقف نَفْسه وهُمْ يصرخون **Voe! Voe!** كانوا زبائن الأسياد الكبار (كما تدلُّ على ذلك رسالتان من سيدوان أُبو لينير **(Sédoine Apoelinaire)**[61] الذين كانوا يُساعدونهم على التّخلُّص من النّواهي المُذلَّة، في كثير من المناطق كان الكَهَنَة يُعاشرونهم، وكثير من المسيحيِّين كانوا يأتون إلى الكُنُس، ويهُود كانوا يحضرون جلسات كاثُوليكيَّة خلال فترة قدَّاس الذين يتلقَّون التّعليم المسيحي، وكانوا يُقاومون ـ قدر الإمكان ـ ضدَّ الجُهُود المبذولة لهَدْيهم، جُهُود عديدة كانت ـ أحياناً ـ تترافق بأعمال عُنف رغم توصيات بعض الباباوات[62]، وكانوا يُعارضون ـ بجُرأة ـ اللاَّهوتيِّين الذين كانوا يُحاولون إقناعهم بنَفْس وسائل الآباء في العُصُور السّابقة، سوف نتكلَّم عن هذه المُجادلات عندما ندرس الأدب المُناهض لليهُوديَّة.

---

(58) مجمع فان 465 ـ مجمع إيباون 517.... .

(59) مجمع أورليانز 533، مجمع كليرمون 535.

(60) حياة القدِّيس سيزير.

(61) سيدوان أُبولينير **IV III**.

(62) فريجيدير "كرونيك" توردان بتحريض من الإمبراطُور هيراكليوس، أعطى داغوبير الخيار لليهُود بين الموت أو النَّفْي أو المعمُوديَّة. الأمر نَفْسه وَرَدَ من الملك القُوطي سيزيبوت. وشيبليبريك أجبر كثيراً من اليهُود على المعمُوديَّة، والأسقف أفيتوس أجبر اليهُود على الارتداد أو مُغادرة المدينة، وأساقفة آخرون استخدموا القُوَّة، ووجب تدخُّل البابا غريغوار لتخفيف الحماس: يجب ألاَّ يُجبَر اليهُود على العماد بالعُنف، لكنْ؛ باللُّطف، في رسائله إلى فيرجيل أسقف أرل وأسقف مرسيليا، لكنَّ سُلطة البابا لم تكن ـ دوماً ـ فعَّالة.

وهكذا؛ استطعنا أنْ نرى أنَّه خلال السّبع قُرُون الأُولى من العصر المسيحي كان لُمناهضة اليهُوديَّة أسباباً دينيَّة بحتة، وكانت مُقادة ـ فقط ـ من الكَهَنوت، أمَّا التّجاوزات الشّعبيَّة والقَمْع الشَّرْعي؛ يجب ألاَّ يُضلِّلونا، إذْ لم يكونوا أبداً عفويِّيْن، كان وراء ذلك مُلهَمين، وهُمْ الأساقفة والكَهَنَة، أو النُّسَّاك.

فقط؛ اعتباراً من القرن الثّامن، أُضيفت أسباب اجتماعيَّة إلى الأسباب الدِّينيَّة، وبعد القرن الثّامن؛ بدأت الاضطهادات الحقيقيَّة، فهي تصادفت مع تعميم الكاثُوليكيَّة، وتشكُّل الإقطاع، وأيضاً؛ مع التّبديل الفكْري والرُّوحي لليهُود؛ تغييرات تعود في مُعظمها إلى فعل التّلمُوديِّيْن والإفراط في مشاعر التّمييز عند اليهُود، سوف نشهد الآن هذا التّحوُّل الجديد لُمناهضة اليهُوديَّة.

الفصل الخامس:

مُناهضة اليهُوديَّة من القرن الثّامن
حتَّى النّهضة (أو الإصلاح)

في القرن الثّامن تمَّ تشكيل الكنيسة، وانتهى زمن الأزمات العقائديَّة، استراح الإيمان ولن تُفشله الهرطقة حتَّى زمن النّهضة، ترسَّخت الأولويَّة البابويَّة ومن الآن فصاعداً؛ قويَ التّنظيم الكَهَنُوتي، واتَّحد الطَّقْسُ مع العقيدة، وثَبُتَ الالتزام والحقُّ الشَّرْعي الكَنَسي، وازدادت أملاك الكنيسة، وفُرِضَت الضّريبة، وذُلِّلَ التّكوُّن الفدرالي للكنيسة المُقسَّمة إلى دوائر بإدارة ذاتيَّة، والحركة المركزيَّة لصالح رُوما بدأت ترتسم خُطُوطها عندما أسَّس الكوريلنجيُّون الحُكْم الزّمني للباباوات، أدَّتْ هذه الحركة إلى تكوُّن الكنيسة اللاَّتينيَّة الشّديدة التّنظيم، وأصبحت - بعد وقت قصير نسبيّاً - مركزيَّة مثل الإمبراطُوريَّة الرُّومانيَّة سابقاً، والتي احتلَّت مكانها في السُّلطة العالميَّة، وفي الوقت نَفْسه؛ توسَّعت المسيحيَّة، وانتشرت، واكتسبت البرابرة إلى صفِّها، وقد أعطى المُبشِّرون الأنكلُوساكسون المثلَ مُنذُ القدِّيس بُونيفاس **Boniface** والقدِّيس فيليبرُورد، لقد تبعهم النّاس، وقد بُشِّر بالإنجيل عند الألامان والفريزيِّيْن والسّاكسون والسّكانديناف والبُوهيميِّيْن والهنغار والرُّوس والفنديِّيْن **Wendes** والـ **Pomeraniens** والبروس والليتوانيِّيْن والفلنديِّيْن، وفي نهاية القرن الثّامن؛ كانت أُورُوبا قد أصبحت كُلُّها مسيحيَّة، وحيثُما انتشرت المسيحيَّة فبعدها مُباشرة استقرَّ اليهُود وتوطَّدوا في القرن التّاسع، أتوا من فرنسا إلى ألمانيا، ومن هُنا؛ تغلغلوا إلى بُوهيميا وهنغاريا وبُولُونيا؛ حيثُ تقابلوا مع دُفعة أُخرى من اليهُود القادمين من القُوقاز، وقد هدوا إلى اليهُوديَّة على طريقهم بعض الشُّعُوب التّتريَّة، وفي القرن الثّاني عشر استقرّوا في إنكلترا وبلجيكا، وأسَّسوا كُنُسهم في جميع البُلدان، ونظَّموا مُجتمعاتهم في هذه السّاعة الحاسمة؛ حيثُ خرجت القوميَّات من الفوضى؛ وحيثُ تشكَّلت الدُّول وقويت، فبقوا (أيْ اليهُود)

خارج هذه التّحرّكات التـي انصهرت فيـها وتفـاعلت الأعـراق الغالبـة والمغلوبـة، وارتبطـت بعضها، وفي قلب هذه الاتّحادات الصّاخبة بقوا مُتفرّجين غُرباء أعداء لكُلّ انصهار: هكـذا هُو شعب أزلي يُشاهد ولادة شعُوب جديدة، على كُـلّ حـال؛ لـم يكـن دورهـم غائبـاً، لقـد كانوا - بالتّأكيد - الخمائر النّاشطة في هذه المُجتمعات الآخذة في التّشكُّل.

وفي بعض البُلدان - مثل إسبانيا مثلاً - ارتبط تاريخهم بتاريخ شبه الجزيرة إلى حَدٍّ بعيد، لدرجة أنّه لا يُمكن لنا أنْ نُكوّن فكْرة أو نُقيّم تطوُّر الأُمّة الإسبانيّة بدُونهم.

ولكنْ؛ بالكتلة الهائلة من المُهتدين في هـذا البلـد، وبالدّعم الـذي يُقدّمونـه تباعـاً إلـى مُختلف الأسياد الحاكمين على الأرض قد أثّروا في تكوينها، فهُمْ فعلوا ذلـك مُحاولـةً منهم لإعادة أو جَلْب النّاس الذين يعيشون في وسطهم إليهم، وليس بصدد الانصهار فيـهم، غير أنّ تاريخ الماران **Marranes** [63] الإسبان هُو فريد من نوعه، على كُـلّ حـال؛ سـوف نجـد أنّ اليهُود لعبوا دوراً اقتصاديّاً في كُلّ مكان.

فهُمْ لم يخلقوا وضعاً اجتماعيّاً، لكنّهم ساهموا - بطريقة أو بأُخرى - إلى إقامتـه، ومـع ذلك؛ لم يستطيعوا أنْ يُعـامَلوا برعاية وعطـف فـي وسـط هـذه الكيانـات التـي سـاهموا فـي إنشائها، كان هُناك مانع رئيسي (أساسي)!!

كُـلُّ دول العُصُـور الوُسْـطى تكوّنـت مـن قبَـل الكنيسـة، ففـي رُوحـهم وكيانـهم تمثّلـوا الأفكار والعقائد الكاثُوليكيّة، إنّها الدّيانة المسيحيّة هي التي أعطت للشُّـعُوب العديـدة الذيـن تخرّجوا في قوميّات الوحدة التي كانت تنقصهم.

أمّا اليهُود الذين كانوا يُمثّلون العقائد المُعاكسـة؛ فلـم يسـتطيعوا إلاّ أنْ يُنـاهضوا الحركـة العامّة؛ إمّا بالتّبشير والإهداء أو حتّى بمُجرّد وُجُودهم.

وبما أنّ الكنيسة هي التي قادت هذه الحركـة فمـن الكنيسـة انطلقـت مُناهضـة اليهُوديّـة، نظريّاً وشَرْعيّاً، مُناهضة يهُوديّة شاركت فيها الحُكُومات والشُّعُوب، وحَدَثَت أسـباب أُخـرى أُضيفت، وعمّقت الموضوع، وجعلته أكثر خُطُورة، هذه الأسباب خُلقت مـن جـرّاء الوضـع الاجتمـاعي والدّيني واليـهُود أنفسـهم، لكنّـها بقيـت - دومـاً - ثانويّـة مُتعلّقـة بـهذه الأسـباب

---

(63) الماران: هُمْ المسيحيُّون المُتهوِّدون.

والبواعث المَدَنيَّة، أو للذّهنيَّة المسيحيَّة والذّهنيَّة اليهُوديَّة أو للدِّيانة الكاثُوليكيَّة الشُّمُوليَّة والعالميَّة إذا صحَّ القول؛ وإلى الدِّيانة اليهُوديَّة الخُصُوصيَّة الضيِّقة.

لقد حصل - في الواقع - الوضع نَفْسه الذي حصل في الماضي الوَثَني، وأخذ بعين الاعتبار التّغييرات الجارية، فبمُجرَّد أنَّهم أنكروا أُلُوهيَّة المسيح وضع اليهُود أنفسهم كأعداء للنّظام الاجتماعي، بما أنَّ هذا النّظام قد أُسِّس على المسيحيَّة تماماً كما في الماضي في رُوما كانوا هُمْ والمسيحيِّيْن أعداء لنظام اجتماعي آخر.

ففي وسط انهيار العالم القديم ووسط التّحوُّلات الجذريَّة التي نَتَجَتْ عنه؛ بقي هذا الشّعب (المُتعدِّد الوُجُود) أيْ الموجود في كُلِّ مكان من اليهُود كما هُو لم يتغيَّر، فهُو كان يزعم - كالعادة - أنَّه يُحافظ على تُراثه وعاداته وأعرافه، وفي الوقت نَفْسه؛ المُشاركة في جميع الفوائد والمِيِّزات التي كانت تُؤمِّنها الحُكُومات لأعضائها أو لمُواطنيها، هذه الدُّول كانت في البدايات مُختلطة غير مُتجانسة، ثُمَّ تجانست مع الوقت، فهُمْ ساروا نحو وحدة أوسع فأوسع، كانوا ينشدون - مُنذُ العُصُور الوُسْطى - إلى هذه المركزيَّة التي وصلوا إليها لاحقاً، لذلك؛ فهُمْ اتَّجهوا نحو مُحاربة العناصر الغريبة، غريبة قوميّاً وغريبة عقائديّاً، فهي إمَّا قد أتت من الخارج مثل العَرَب، أو بقيت في الدّاخل مثل اليهُود.

في هذه الفترة من التّاريخ اختلط الصّراع القومي مع الصّراع الدِّيني. ومع بربريَّة استمرار النّظام الإقطاعي لا يُمكن لهذا الصّراع إلاَّ أنْ يكون وحشيّاً كونه كان غريزيّاً أكثر منه عقلانيّاً، خُصُوصاً من جهة الشّعب، إذْ إنَّ الكنيسة - أو على الأقلِّ - البابويَّة والسّنوديَّة؛ أيْ الأساقفة (المجمع) كانوا يتصرَّفون بعقلانيَّة، طالما أنَّ هذه هي الأسباب الرّئيسيَّة سوف نرى كيف فعلت وبأيِّ أُسلُوب أثَّرت على المظاهر الفريدة والخُصُوصيَّة لمُناهضة اليهُوديَّة، ومن أجل ذلك يجب علينا أنْ نتكلَّم عن دور اليهُود التّجاري والمالي، عن فعْلهم وعن فكْرهم.

لقد تطوَّر نشاط اليهُود الغربيِّيْن في نهاية القرن الثّامن في إسبانيا، كانوا محميِّيْن من قبَل الخُلفاء، ومدعومين من قبَل شارلمان الذي أبطل تطبيق القوانين الميرُوفنجيَّة(*)

(*) من أجل التّوسُّع في هذا الموضوع؛ يُراجَع الكتاب الهامُّ جداً (الحُكْمُ بالسِّرِّ التّاريخ السِّرِّيُّ بين الهيئة الثُّلاثيَّة والماسُونيَّة والأهرامات الكُبرى مَنْ يحكم أمريكا والعالم سراً؟) للكاتب الأمريكي الشّهير جيم مارس، ترجمة: مُحمَّد مُنير إدلبي، دار الأوائل، دمشق، ط1، 2003.

Merovingieuns فوسَّعوا تجارتهم التي كانت ـ حتَّى الآن ـ محصورة في بَيْع العبيد، لذلك؛ فهُمْ كانوا في ظُرُوف جيِّدة بشكل خاصٍّ، لقد كانت مُجتمعاتهم بعلاقة مُستمرَّة وثابتة بعضها مع بعض، فكانت مُتَّحدة بالرّباط الدِّيني اللاَّهوتي لبابل، والتي كانت تعتبر نَفْسها تابعة له، وذلك حتَّى أُفُول (زوال) **(Exilareat)** القيادة السِّياسيَّة اليهُوديَّة هُناك، كما أنَّها اكتسبت تسهيلات كبيرة في تجارة التّصدير؛ حيثُ جمعت فيها ثروات طائلة، وإذا صدَّقنا الانتقادات اللاَّذعة لـ أغُوبار **Agobard** ولاحقاً؛ انتقادات ريغُور **Rigord** التي إذا بالغت في ثروة اليهُود يجب ـ مع ذلك ـ ألاَّ نُهملها، وكأنَّها غير جديرة بالثّقة.

وبالنّسبة لثراء اليهُود، خُصُوصاً في فرنسا وفي إسبانيا، فحتَّى القرن الرّابع عشر لدينا شهادات مُدوِّني الأخبار، وكُتَّاب الحوليَّات، وشهادة اليهُود أنفسهم، الذين كثير منهم كانوا يلومون أبناء طائفتهم على اهتمامهم الزّائد بخيرات العالم أكثر من عبادة يَهْوَه.

"عوضاً عن حساب القيمة العَدَديَّة لاسم الله، ـ قال أبُو لافيا القَبَالي ـ فإنَّ اليهُود يُفضِّلون عَدَّ ثرواتهم".

وبمجرَّد أنْ نتقدَّم إلى الأمام؛ نرى حقيقة ازدياد الاهتمام بالثّروة عند اليهُود، وتركيز وحَصْر كُلِّ نشاطهم العملي في تجارة نوعيَّة خاصَّة.

أريد أنْ أتكلَّم عن تجارة الذّهب، هُنا يُوجد حاجة للإصرار، لقد قالوا ـ غالباً ـ وكرَّروا أنَّ المُجتمعات المسيحيَّة هي التي أجبرت اليهُود ودَفَعَتْهُم إلى هذه الوظيفة كدائنين ومُرابين، والتي مارسوها لُمدَّة طويلة.

هذه هي نظريَّة مُحبِّي السَّاميَّة، من جهة أُخرى؛ يُؤكِّد مُناهضو السَّاميَّة أنَّ اليهُود يمتلكون استعدادات طبيعيَّة وعريقة في المال والأعمال، وهُمْ لم يفعلوا شيئاً، إلاَّ أنَّهم تبعوا مُيُولهم الطّبيعيَّة دُون أنْ يُفرض عليهم شيء، يُوجد في هذَيْن الزّعمَيْن قسط من الحقيقة وقسط من الخطأ، أو الأرجح هُناك مكان للنّقد والتّعليق والفَهْم.

في زمن ازدهارهم القومي كان لليهُود شأنهم شأن باقي الشُّعُوب طبقة من الأغنياء أبدت نَهَمَاً كبيراً للرّبح قاسية على المُتواضعين؛ مثلها مثل كُلِّ الرّأسماليِّين في كُلِّ العُصُور وكُلِّ الأُمم.

وكما أنَّ مُناهضي السَّاميَّة الذين يستخدمون مقاطع من إِشَعْيَا وإِرْمِيَا مثلاً لإثبات جَشَع اليهُود المُستمرِّ فهُمْ يقومون بعمل ساذج بفضل كلام الأنبياء؛ فهُم لا يستطيعون أنْ يُشاهدوا إلاَّ ما هُو تافه (طُفُولي) أيْ وُجُود ملاَّكين وفُقراء عند اليهُود، لكنْ؛ إذا دقَّقوا - بتجرُّد - في القوانين والأحكام اليهُوديَّة سيعترفون أنَّ التّشريع والأخلاق يأمران بألاَّ يأخذ الإنسان فائدة على القُرُوض (64)، وفي كُلِّ الأحوال؛ كان اليهُود أقلَّ السَّاميِّين تجارة، فتُجَّارهم أقلُّ بكثير من الفينيقيِّيْن والقرطاجيِّيْن. فقط؛ في عهد سُليمان دخلوا في علاقة مع باقي الشُّعُوب، وفي هذا الزّمان كان هُناك مجموعة مُقتدرة من الفينيقيِّيْن كانت تُمارس التّبادل في أُورشليم، على كُلِّ حال؛ فإنَّ موقع فلسطين الجَغْرافي لم يكن يسمح لسُكَّانه بالتّوجُّه في طُرُق تجاريَّة واسعة وكبيرة، غير أنَّه خلال الأَسْر الأوّل وعند الاحتكاك بالبابليِّيْن تشكَّلت طبقة من التُّجَّار، وهذه الشّريحة هي المُهاجرون الأوَّلون من اليهُود الذين استقرّوا في مصر بجالياتهم وفي السّيرينايك **Cyrenaique** وآسيا الصُّغرى، فشكَّلوا في جميع البُلدان التي استقبلتهم مُجتمعات ناشطة ثريَّة، وعند الشّتات الأخير؛ ذهبت مجموعات كبيرة من المُهاجرين، وتلاقت مع المجموعات الأوَّليَّة في المهجر التي سهَّلتْ لها إقامتها واستقرارها.

لشرح موقف اليهُود؛ ليس ضروريّاً اللُّجوء إلى نظريَّة العبقريَّة الآريَّة والعبقريَّة السَّاميَّة، على كُلِّ حال؛ نحنُ نعرف الجَشَعَ الرُّوماني الأُسطُوري والرُّوح التّجاريَّة اليُونانيَّة، واستغلال المُرابين الدَّائنين الرُّومان، لم يكن له حُدُود، كذلك نيَّتهم السَّيِّئة، لقد شجَّعهم على ذلك القانونُ الجائر للمَدين؛ قانون وليد قانون الطّاولات الاثنَيْ عشر التي تُعطي الدَّائن حقَّ قَطْع لحم من الجسم الحيِّ للّذي اقترض وأفلس ولا يستطيع السّداد، في رُوما الذّهب كان السَّيِّد المُطلق (65).

---

(64) لن تُقرض أبداً أخيك بفائدة؛ لا مال ولا قُوَّة ولا أيّ شيء. يُمكنك أنْ تدين الأجنبي النّوشري بالفائدة، سفْرتثنية الاشتراع 111، 19، 20 ×× النّوشري يعني الأجنبي الرَّحَّال في مُرُوره. أمَّا الأجنبي المُقيم؛ فهُو كير **Guer** - عندما يُصبح أخوك فقيراً، ويمدُّ يدَيْه المُرتجفَتَيْن سوف تدعمه، وحتَّى الأجنبي الـ"كير" القاطن في البلد، حتَّى يعيش معك. لا تأخذ منه لا فائدة ولا ربا. (الأحبار 25، 35) يَهْوَه: مَنْ هُو الذي سوف يسكن في معبدك؟ - الذي لا يُقرض ماله بفائدة (مزمور 15، 5) حتَّى لغير اليهُودي (هكذا يُضيف التّلمُود).

(65) تقول الكتابات العبرانيَّة عن "العطش الفظيع للذّهب وحُبِّ الرّبح؛ إنَّهما هُما اللّذان دَفَعَا اللاَّتين لغزو العالم".

أمَّا اليُونان؛ فكانوا أمهر وأجرأ رجال الأعمال؛ فكانوا مُنافسين للفينيقيِّيْن في تجارة الرِّقِّ، وفي القرصنة، وكانوا يعرفون مُمارسة الصّرف والتّأمين البَحْري، وقد أمر سُولُون **Solon** بالفائدة الفاحشة، ولم يحرم نَفْسه منها أبداً.

اليهُود مثلهم مثل أيِّ شعب آخر لم يتميَّزوا بشيء خاصٍّ عن باقي الشُّعُوب. ولو أنَّهم كانوا ـ في البدء ـ أُمَّة رُعاة ومُزارعين، لكنَّهم توصَّلوا ـ بالتّصوُّر الطّبيعي المحض ـ إلى تشكيل طبقات أُخرى فيما بينهم. وبما أنَّهم اتَّجهوا نحو التّجارة بعد الشّتات فهُمْ تبعوا قانوناً عامَّاً ينطبق على كُلِّ الجاليات.

في الواقع، لا يستطيع المُهاجر أنْ يعمل إلاَّ عاملاً حرفيَّاً أو تاجراً؛ عدا في حالة يُمكن فيها أنْ يستصلح أرض عذراء، إذْ إنَّ الحاجة المُهمَّة أو خدعة الرّبح تُرغمه على ترك أرض وطنه التي وُلد فيها، فاليهُود ـ إذاً ـ عندما وصلوا إلى البلاد الغربيَّة لم يتصرَّفوا بشكل مُختلف عن الهُولنديِّيْن أو الإنكليز بتأسيس مكاتبهم الماليَّة، على كُلِّ حال؛ فقد توصَّلوا ـ بسُرعة ـ للتّخصُّص في تجارة الذّهب التي لاموهم عليها مُنذُ ذلك الحين، وفي القرن الرّابع عشر؛ أصبحوا ـ قبل كُلِّ شيء ـ قبيلة من الصَّرَّافين والدّائنين.

فأصبحوا (مُموِّلي العالم) (أو مصرفيِّي العالم) فهُمْ الذين يُكلّفون بإنشاء بُنُوك التّسليف الشّعبي، وأصبحوا هُمْ الاسم ـ الدّائن للأسياد والبُرجوازيِّيْن الأغنياء، وهذا كان محتوماً (مُقدَّراً) كون الكنيسة عندها اعتبار خاصٌّ للذّهب، بالإضافة إلى الظُّرُوف الاقتصاديَّة التي سادت أُورُوبا اعتباراً من القرن الثّاني عشر.

اعتبرتْ العُصُورُ الوُسْطى الذّهبَ والفضَّةَ كعلامات لها قيمة خياليَّة تتغيَّر حسب رغبة الملك، الذي يستطيع أنْ يُحدِّد ويأمر قيمة صَرْفها على هواه. هذه الفكْرة هي وليدة القانون الرُّوماني الذي كان يرفض أنْ يُعامل الفضَّة على أنَّها سلعة. أمَّا الكنيسة؛ فهي قد ورثت هذه المبادئ الماليَّة ودعمتها مع الأحكام التّوراتيَّة التي تمنع القرض بالفائدة، وقد عاقبت ـ بقسوة مُنذُ بدايتها ـ المسيحيِّيْن، وحتَّى الكَهَنَة الذين كانوا يتبعون مثل المُرابين الذين كانوا يُقرضون بـ **24٪** فائدة أو حتَّى **48٪** وحتَّى **60٪** بينما كانت الفائدة الشَّرْعيَّة حوالي **12٪**.

أمَّا مُقرَّرات المجامع المسكونيَّة؛ فكانت واضحة وصريحة في هذا الموضوع. لقد تبعت عقيدة الآباء والقدِّيس كريزُوستُوم والقدِّيس أُوغستان: فَمَنَعَتْ القرضَ، وعاقبتْ ـ بقسوة ـ

الكَهَنَة والمَدَنِيِّين الذين كانوا يلجؤون إلى مُمارسة الرّبا والاستغلال. إنَّ حَزْمَهَا لـم يمنع الرّبا بشكل مُطلق، لكنَّها خَفَّفَتْ منه، وعدَّلَتْهُ؛ إذْ إنَّها كانت تَتَّهمه بالعار كعمـل شـائن. غير أنَّ الظُّرُوف الاجتماعيَّة جعلت من الرّبا أمراً لا يستطيع الإنسان أنْ يتجنَّبه، فالإقطاع كان قد جَرَّدَ القُرى من ثرواتها، ووسَّعَ أراضيه على حساب أراضي القرويِّيْن. وعندما زال (الرِّقُ) حلَّ الاستعباد الاقتصادي مكان الاستعباد الشّخصي، فاضطُرَّت مجموعة كبيرة من الفلاَّحين إلى التّشرُّد، وهذا ما يُفسِّر ظُهُور عصابات من المُتشرِّدين والشّحَّاذين واللُّصوص الذين ملؤوا طُرُقات فرنسا في القرن الرّابع عشر.

والقسم الآخر منهم خضعوا للرّواتب، أو أنَّهم أُحضروا كمُزارعين أو مُستأجرين للمزارع التي كانت ملكهم.

وفي الوقت نَفْسه - في القرنَيْن الثّاني عشر والثّالث عشر - تشكَّلت مهنة أرباب العمل والأُجراء، وتطوَّرت البُورجوازيَّة: ووُلدت القُوَّة الرّأسماليَّة. تحوَّلت التّجارة، وزادت قيمة الذّهب، وزاد القبولُ على الفضَّة وكبُر مع ازدياد الأهمِّيَّة التي اكتسبها النَّقْدُ.

إذاً؛ هذا من جهة الأغنياء، ومن جهة أُخرى؛ الفلاَّحون لـم يعودوا يملكون الأرض، وهُمْ خاضعون للضّريبة وقوانين العمل، وهُناك العُمَّال خاضعون للقوانين الرّأسماليَّة، وفوق ذلك كُلِّه هُناك حُرُوب مُستمرَّة، وثورات وأمراض ومجاعات. فإنْ كانت السّنة سيِّئة، والضّريبة أقسى، والمحصول نقص، وظهر الطّاعون، فإنَّ الفلاَّح والعامل والبُورجوازي الصّغير سوف يُضطَرُّ إلى الاستدانة (أيْ القرض) لذلك؛ وجب وُجُود دائنين. لكنَّ الكنيسة مَنَعَتْ الإقراض بالفائدة، وقد قرَّر رأس المال ألاَّ يبقى عاطلاً وغير مُنتج. وفي العُصُور الوُسْطى لا يستطيع رأس المال إلاَّ أنْ يكون تاجراً أو دائناً، إذْ إنَّ المال لا يستطيع أنْ يُنتج إلاَّ بهذه الطّريقة. وبما أنَّ القرارات الكَنيسيَّة لها تأثير وسطوة، فإنَّ قسماً كبيراً من الرّأسماليِّين المسيحيِّيْن لا يُريدون أنْ يدخلوا - بشكل مُباشر - بمُعارضة أو ثورة ضدَّ سُلطاتهم. فتشكَّلتْ طبقة المنبوذين (مُخالفي القانون) كانت البُورجوازيَّة وطبقة الأشراف هُما الشُّركاء المُموِّلون (!...) تألَّفت هذه الطّبقة من اللُّومبارديِّيْن والكوسيِّيْن؛ حيثُ كان الأمراء والأسياد يُقرضون بفائدة، ويجنون من ورائها أرباحاً ضخمة، إذْ إنَّ اللُّومبارديِّيْن كانوا يُقرضون بفائدة 10٪ بالشّهر الواحد، أو الغُرباء عديمي الذّمة؛ مثل مُهاجري التُّوسكان الذين

استقرّوا في الإستري الـ**Istriè** والذين مارسوا الرّبا لدرجة أنَّ الحُكُومة في تريست أوقفتْ في عام **1350** ، أيّ عمليَّة تنفيذ قَسْريَّة خلال ثلاث سنوات ، هذا لم يمنع المُستغلِّين المحلِّيِّيْن ، لكنْ ؛ كما قلتُ سابقاً : هؤلاء كانوا يجدون الموانع التي كانت الكنيسة تصفها ضدَّ عمليَّاتهم (مجمع ليون **1245** أراد أنْ يُلغي شهادة المُرابين) .

بالنّسبة لليهُود ؛ هذه الموانع لم تكن موجودة ؛ إذْ إنَّ الكنيسة لم يكن لها عليهم أيُّ تأثير أخلاقي ، فلم يكن باستطاعتها أنْ تمنعهم باسم العقيدة والمبدأ أنْ يُمارسوا التّبادل والصّرافة ، فاليهُود - في تلك الفترة - كانوا بأغلبيَّتهم ينتمون إلى طبقة التُّجَّار والرّأسماليِّيْن ، استفادوا من هذا الأمر ومن الوضع الاقتصادي للشُّعُوب التي يعيشون في وسطها .

فالسُّلطة الكَنَسيَّة شجَّعتهم في هذا الاتِّجاه عوضاً عن أنْ تردعهم ، وألْزَمَهُمْ البُرجوازيُّون المسيحيُّون بإعطائهم رُؤُوس أموال ، فتمَّ استخدامهم كرجال من قشٍّ (أيْ واجهة) وهكذا ؛ فإنَّ النّظرة الدِّينيَّة لوظائف رأس المال والفائدة والوضع الاجتماعي المُناهض لهذه النّظرة قادوا اليهُود في العُصُور الوُسْطى لُممارسة مهنة بغيضة ، لكنْ ؛ ضروريَّة . وفي الواقع ؛ هُمْ لم يكونوا سبب سلبيَّات الرّبا ، أمَّا الذي كان مسؤولاً عن ذلك ؛ فهُو الوضع الاجتماعي بذاته .

إذاً ؛ إنَّ الذي أدَّى باليهُود إلى هذا الوضع من دائنين برَهْن ، صرَّافين ومصرفيِّيْن ، هُوَ - جُزئيّاً - عوامل خارجيَّة عنهم وعن طبيعتهم ومزاجهم ، لكنَّ الحقَّ يُقال إنَّهم كانوا مُهيَّئين بفعل ظُرُوفهم كتُجَّار ، وهذه الظُّرُوف قد بحثوا عنها بكُلِّ تأكيد . فإذا كانوا هُمْ لم يزرعوا الأرض ، ولم يُصبحوا مُزارعين ، ليس لأنَّهم لم يكونوا ملاَّكين كما كان يُقال سابقاً . فالقوانين المانعة المُتعلِّقة بحقِّ اليهُود في التّملُّك لم تصدر إلاَّ بعد ذلك ؛ أيْ بعد استقرارهم بفترة طويلة ، لكنَّهم زرعوا مُمتلكاتهم بواسطة عبيدهم ، إذْ إنَّ وطنيَّتهم كانت تمنعهم من زَرْع أرض غريبة . هذه الوطنيَّة والفكْرة هي التي كانوا يربطونها بقُدسيَّة الوطن الفلسطيني .

والوَهْمُ والخيال الذي كانوا يحتفظون به حيّاً في قُلُوبهم وهُو إعادة إقامة هذا الوطن ، وهذا المُعتقد الخاصُّ الذي كان يجعلهم يعتبرون أنفسهم وكأنَّهم منفيُّون سوف يرون يوماً ما المدينة المُقدَّسة ؛ كُلُّ ذلك دفعهم إلى مُمارسة التّجارة أكثر من أيِّ أجنبي أو مُستوطن .

فبما أنَّهم تُجَّار؛ أصبحوا ـ بشكل حتميٍّ ومُستعلن ـ مُرابين بسبب الظُّرُوف التي فُرضت عليهم بالقوانين والظُّرُوف التي فرضوها هُمْ بذاتهم على أنفسهم. ولكي يتجنَّبوا الاضطهادات والإذلالات وَجَبَ عليهم أنْ يكونوا مُفيدين، وحتَّى ضروريِّيْن بالنّسبة لحُكَّامهم، للنُّبلاء الذين مصيرهم بيدهم، وللكنيسة التي كانوا خاضعين لها.

إذْ إنَّ النّبيل والكنيسة ـ رغم كُلِّ التّحريمات ـ كانوا بحاجة إلى الذّهب، هذا الذّهب كانوا يطلبونه من اليهُود.

الذّهب في العُصُور الوُسْطى أصبح المُحرِّك الكبير؛ الإله المُطلق. أفنى الكيميائيُّون حياتهم في البحث عن البلسم الذي يُكوِّنه، وفكْرة تملُّكه كانت تُلهب النُّفُوس، فباسمه كانت تُرتكب كُلُّ الشّنائع والتّعطُّش إلى الثّروات، سيطر على كُلِّ النُّفُوس. ولاحقاً؛ كان الأمر بالنّسبة لخُلفاء كُولُومبس وبيزار؛ فإنَّ السّيطرة على أمريكا هي السّيطرة على الذّهب. أمَّا اليهُود؛ فخضعوا هُمْ ـ أيضاً ـ تحت سحْر الذّهب العالمي، والذي خضع له رُهبان الهيكل، وكان وبالاً عليهم بسبب حالتهم النَّفْسيَّة وظُرُوفهم المَدَنيَّة.

ولكي يحصلوا على بعض الامتيازات البسيطة، أو بالأحرى، يستطيعون الصُّمُود والاستمرار، جعلوا من أنفسهم الوُسطاء الفُحشاء للذّهب. لكنَّ المسيحيِّيْن كانوا يبحثون عنه مثلهم تماماً. بالإضافة لذلك؛ كونهم كانوا مُهدَّدين ـ دوماً ـ بالطَّرْد، ودوماً مُخيِّمين ومُعرَّضين ليكونوا بدواً، فراهن اليهُود على الاحتمالات الخطيرة والسّلبيَّة للنَّفْي. فاضطُرّوا لتحويل ثروتهم؛ أيْ ما يملكون بشكل يسهل صرفها وتحويلها وإعطاؤها شكلاً مُتحرِّكاً (منقولاً)، وبذلك كانوا النّاس الأشدَّ نشاطاً في تطوُّر قيمة المال واعتباره كسلعة؛ حيثُ القرض، ولكي يُعالجوا المُصادرات الدّوريَّة والحتميَّة لجؤوا للرّبا.

إنَّ إنشاء اتِّحاد النّقابات والجمعيَّات المهنيَّة وتنظيماتها في القرن الثّالث عشر أرغم اليهُودَ ـ نهائيّاً ـ على الحالة التي وضعتهم فيها الظُّرُوف الاجتماعيَّة العامَّة والخاصَّة التي كانوا يخضعون لها ـ كُلُّ هذه الجمعيَّات كانت جمعيَّات دينيَّة ـ أخويَّات، لا يدخلها إلاَّ الذي ينحني أمام راية القدّيس الشّفيع، والاحتفالات التي كانت تُقام عند الدُّخُول في هذه المُنظَّمات كانت احتفالات دينيَّة، فلم يكن لليهُود مكانٌ فيها. فاستُثنوا منها. وكان هُناك مجموعة من الإجراءات تمنعهم من مُمارسة أيِّ نوع صناعة وأيِّ نوع تجارة؛ عدا تجارة السِّلع

الأسقاط الرّخيصة الثّمن، والسّلع الرّثاث (أيْ البالية). وكُلُّ الذين استطاعوا أنْ يـهربوا مـن هذه الأُمُور الإلزاميَّة فعلوا ذلك بامتيازات خاصَّة، دفعوا ثمنها غالياً جداً.

على كُلِّ حال؛ هذا لم يكن كُلَّ شيء، هُناك أسباب أُخرى أكثر خُصُوصيَّة أُضيفت إلى تلك التي عددتُهَا، وكُلُّها ساهمت في عـزل اليهُودي أكثر فأكثر إلى خارج المُجتمع، وإلى حَصْره داخل المنبذ (ghetto) وإلى تجميده خلف الآلة الحاسبة؛ حيثُ كان يزن الذّهب.

الشّعب اليهُودي أراد أنْ يكون قُوَّة قادرة، فهُوَ شعب نشيط حيوي مُتغطرس بلا حُدُود، كان يَعُدُّ نَفْسه أعلى من بقيَّة الأُمم. وعنده ميل غريزيٌّ إلى السّيطرة، وذلك بسبب أُصُوله ودينه ونوعيَّة العِرْق المُصفَّى (أو المُختار) التي نسبها ـ دوماً ـ لنَفْسه في جميع العُصُور، فهُو كان يعتقد نَفْسه فوق الجميع.

ولمُمارسة هذا النّوع من السُّلطة لم يكن لدى اليهُود إمكانيَّة اختيار الأساليب. فأعطاهم الذّهب سُلطة رَفَضَتْهَا ومَنَعَتْهَا عنهم كُلُّ القوانين السِّياسيَّة والدِّينيَّة.

فكان هُو الوحيد الذي يأملون به. وبما أنَّهم مَلَكوا الذّهب أصبحوا أسياد أسيادهم، فسيطروا عليهم، وكان الوسيلة الوحيدة لمُمارسة حيويَّتهم ونشاطهم.

ـ أ لم يستطيعوا أنْ يُظهروها بطريقة أُخرى؟

ـ بلى، وحاولوا، لكنْ؛ كان يجب عليهم أنْ يُكافحوا ويُجاهدوا ضدَّ ذهنيَّتهم الخاصَّة، فخلال سنين طويلة؛ كانوا المُفكِّرين، فاتَّجهوا للعُلُوم والآداب والفلسفة.

فكانوا عُلماء رياضيَّات. وعُلماء فَلَك، عملوا في الطِّبِّ ومدرسة مُونبلييه، فهُمْ، وإنْ لم يُؤسِّسُوها، لكنَّهم ساعدوا في تطوُّرها. فترجموا أعمال ابن رُشْد وأعمال عَرَب شرحوا أرسطُو. بيَّنوا الفلسفة اليُونانيَّة للعالم المسيحي، وعُلماء الغيب عندهم مثل ابن غابريُول Ibn gabriol وابن ميمُون كانوا أسياد علم الكلام scolasti' ques[66].

وكانوا ـ لسنين عديدة ـ أُمناء المعرفة؛ حيثُ حملوا مشعلها، ونقلوها إلى الغربيِّين مثل العُلماء القُدامى. وقد ساهموا ـ بشكل نشيط وفعَّال مع العَرَب ـ في ازدهار وتطوُّر الحضارة

(66) انظر مُونك: خليط الفلسفة اليهُوديَّة والعَرَبيَّة.

السَّاميَّة الرّائعة التي ظهرت في إسبانيا وجنوب فرنسا، هذه الحضارة بشَّرت وهيَّأت عصر النّهضة Le Renaissauce . مَنْ الذي أوقفهم في هذه المسيرة؟ هُمْ أنفسهم.

ولحماية اليهُود من التّأثيرات الخارجيَّة الضّارَّة - أيْ ضارَّة على كمال وسلامة الإيمان - جهد حُكَماؤهم إلى إبقائها - فقط - في دراسة القانون (الشّريعة)[67] . وبُذِلت جهُود في هذا الاتِّجاه مُنذُ عهد الميكابيِّين Machabeé في زمن كان الهيلينيُّون يُؤلِّفون حزباً كبيراً في فلسطين.

في البدء؛ مهزومين أو أنَّهم غير مسموع لهم: الجماعة التي كانت تُسمَّى بالظّلاميِّين (مُعارضين لتثقيف العامَّة) استمرّوا وتابعوا مهمَّتهم. أمَّا بالنّسبة للقرن الثّاني عشر؛ فإن التّعصُّب والتَّزمُّت اليهُودي ازدادا، والانعزال - أيضاً - زاد، وصار هُناك صراع بين مُؤيِّدي العُلُوم الدُّنيويَّة ومُنافسيهم، لكنَّهم يئسوا بعد موت ابن ميمُون، وانحلّوا نهائيّاً بانتصار الظّلاميِّين.

مُوسى بن ميمُون حاول في أعماله مُصالحة الإيمان والعلم، وخُصُوصاً في عمله دليل الضّالِّين[68] وكونه مُقتنعاً بأرسطُو؛ أراد أنْ يُوحِّد بين الفلسفة المَشَّائيَّة؛ أيْ الأرسطُوطاليسيَّة والمُوسويَّة. ودراساته حول طبيعة الرُّوح وأزليَّته، وجدت لها مُدافعين ومُعجبين حماسيِّين ومُشنَّعين مُتوحِّشين.

هؤلاء المُشنِّعون كانوا يلومونه أنَّه ضحَّى بالعقيدة من أجل الغيب، وأنَّه احتقر وأهمل المُعتقدات الأساسيَّة لليهُوديَّة: قيامة الموتى مثلاً. وفي الواقع؛ فإنَّ الميمُونيِّين - وخُصُوصاً في فرنسا وإسبانيا - كانوا يُهملون المُمارسات الطَّقْسيَّة والاحتفالات الدّقيقة للعبادة.

عقلانيُّون بشكل جريء؛ فسَّروا عجائب التّوراة بشكل مجازي، كما فعل - سابقاً - تلامذة فليون، وهربوا من طُغيان العُقُوبات الدِّينيَّة. وزعموا أنَّهم يُشاركون في الحركة الفكْريَّة في زمانهم، وأنَّهم امتزجوا في المُجتمع الذي يعيشون فيه دُون أنْ يتركوا مُعتقداتهم.

أمَّا مُنافسوهم؛ فكانوا يُشدِّدون على طهارة إسرائيل وطهارة عبادتها المُطلقة وطُقُوسها ومُعتقداتها. كانوا يرون في الفلسفة والعلم أخطر عدوٍّ مُميت لليهُوديَّة.

وأكَّدوا لو أنَّ اليهُود لم يتداركوا الأمر، وإذا لم يرموا بعيداً عنهم كُلَّ ما هُو غير الشّريعة المُقدَّسة فهُمْ - حتماً - سوف ينتهون ويذوبون بين الأُمم، من وُجهة نَظَرهم الضَّيِّقة

---

(67) انظر الفصل الأوَّل.

(68) دليل الضّالِّين (ترجمة مُونك).

والمُتعصِّبة لم يكونوا على خطأ؛ إذْ ـ بفضلهم ـ استمرَّ اليهُود في كُلِّ مكان مثل قبيلة غريبة مُحافظة غيورة على قوانينها وعاداتها قرَّرت الموت الفكْري والرُّوحي عن أنْ تموت فيزيائيّاً وطبيعيّاً؛ مثل موت الشُّعُوب السّاقطة.

وفي عام 1232، أطلق حاخامُ مُونبيليه سلمون اللعنةَ على كُلِّ الذين يقرؤون دليل الضّالّين، أو الذين ينغمسون في دراسة العُلُوم والفلسفة، كان ذلك مُؤشر بدء الصّراع. وكان الصّراع عنيفاً، هُنا وهُناك؛ تمَّ اللُّجوء إلى الأسلحة. ولجأ الحاخامات المُتعصِّبون إلى تعصُّب الدُّومينيكان، فوشوا عن دليل الضّالّين، وجعلوه يحترق في محاكم التّفتيش. كان ذلك عمل سلمون دي مُونبيليه **Salomon de Montpellier** الذي حدَّد انهيار الظّلاميِّيْن. لكنَّ هذه الهزيمة لم تُغلق الصّراع؛ إذْ إنَّه عاد في نهاية القرن مع دُون استوس دي لونيل يدعمه سلمون بن ادريت من برشلونة ضدَّ يعقُوب طيبون من مُونبيليه. وبتحريض من طبيب ألماني اشتربن يهيل تمَّ اجتماع سنودس من ثلاثين حاخاماً في برشلونة برئاسة بن ادريت، وحُرِّمَ كُلُّ الذين كانوا يقرؤون كُتُباً غير التّوراة والتّلمُود قبل خمسة وعشرين عاماً: "أمَّا التّحريم المُعاكس (أو المُضادُّ)؛ فقد أعلنه جاكوب تيبون، الذي دافع ـ بشجاعة وجُرأة ـ عن العُلُوم المدانة، وذلك كان هُو على رأس جميع الحاخامات في الأرياف، لكنْ؛ كُلُّ ذلك ذهب سُدىً: هؤلاء اليهُود البُؤساء الذين كان العالم بأجمعه يُقلقهم من أجل إيمانهم عَذَّبوا أبناء دينهم بشكل أشدَّ وأقسى ممَّا عَذَّبهم غيرهم سابقاً.

الذين كانوا غير مُبالين كانت لهم عُقُوبات فظيعة. أمَّا الذين يشتمون؛ فكانت تُقطع ألسنتهم. والنّساء اليهُوديَّات اللَّواتي كانت لهنَّ علاقات مع المسيحيِّيْن كان يُحكَم عليهنَّ بالتّشوُّه، كانت تُجدع أُنُوفهنَّ. ومع كُلِّ ذلك؛ كان أتباع تيبون يُقاومون. وإذا كان خلال القرن الرّابع عشر والخامس عشر في إسبانيا وفرنسا وإيطاليا لم يمت الفكْر اليهُودي تماماً، فذلك كان بفضلهم. كما أنَّ هؤلاء الرّجال مثل مُوسى ناربون وليفي دي بانيول والمُعلِّم ميراندول كما أصبح لاحقاً سبينوزا **Spinoza** كانوا معزولين.

أمَّا بالنّسبة لكتلة الشّعب اليهُودي؛ فكانت خاضعة ـ كُلِّيّاً ـ تحت نير الظّلاميِّيْن. فصارت مُنذُ تلك الفترة وصاعداً معزولة عن العالم، وأُغلق في وجهها كُلُّ أُفق. فلم يعد لديها ـ لتغذية ذهنها ـ إلاَّ التّفسيرات القليلة للتّلمُود، والمُناقشات العديمة الفائدة والتّافهة حول الشّريعة.

لقد كانت مُنحصرة ومخنوقة بالمُمارسات الطّقْسيَّة؛ مثل المُومياء المُقمَّطة بأربطتها: وقد سجنها قادتها ومُديروها في أضيق وأسوأ الزّنزانات. ومن هُنا؛ حصل انذهال مُخيف وسُقُوط انهياري شنيع للفكْر والمُفكّرين، ضَغْطُ الأدمغة وشَلُّها وجَعْلُها غير قابلة وغير صالحة لتقبُّل أيِّ فكْرة.

فمُنذُ ذلك الحين فصاعداً؛ صار اليهُودي لا يُفكِّر أبداً، وأيُّ حاجة له في التّفكير بما أنَّ له شريعة دقيقة مُفصَّلة من صُنْع المُشرِّع مُفتي الأُمم، وهي تستطيع أنْ تُجيب عن كُلِّ الأسئلة المُمكن طَرْحها، إذْ إنَّه كان ممنوعاً ومُحظَّراً على المُؤمن أنْ يتحرَّى عن المسائل التي لا تُشير إليها الشّريعة: التّلمُود.

ففي التّلمُود يجد اليهُودي كُلَّ شيء مُتوقَّعاً. العواطف، الانفعالات، أيّاً كان نوعها كانت مُسجَّلة. صيَغ صلوات مُجهَّزة تسمح بإظهارها. فالكتاب لم يترك مكاناً لا للعقل ولا للحُرِّيَّة؛ إذْ كانوا يُمنعُون - تقريباً - عندما يدرسون الجُزء الأُسطُوري والجُزء الوَعْظي الحكمي، لكي يُؤكّدوا ويُصرُّوا على الشَّرْع والطّقْس. بهذه التّربية؛ فَقَدَ اليهُودي إبداعه وفكْره، وضَعُفَتْ نَفْسيَّته. وكان التّلمُوديُّون ينتبهون - فقط - للأفعال الأفعال الخارجيَّة التي تُتَّمم بشكل آلي، وليس بهدف أخلاقي، فأضعفوا وجمَّدوا - بذلك - الرُّوح اليهُوديَّة، وبين العبادة والدِّين الذي بشَّروا به والنّظام الصّيني لطاحونة الصّلوات (أيْ الشّكل الغريب غير المفهوم) لايبقى إلاَّ الاختلاف الذي يفصل المُعقَّد عن البسيط. ولمَّا مارس القادةُ القَمْعَ والشِّدَّة عليهم نمّوا عند كُلِّ واحد منهم البراعة وذهنيَّة الاحتيال والمكر الضّروريَّيْن للهرب من شباك القبضة التي لا ترحم، فازدادت الإيجابيَّة الطّبيعيَّة عند اليهُود عندما قدَّموا لهم المثاليَّة الوحيدة التي هي السّعادة المادِّيَّة والشّخصيَّة، سعادة يُمكن لنا أنْ نتوصَّل إليها على الأرض إذا عرفنا أنْ نلتزم بألف قانون ثقافي. ولربح هذه السّعادة الأنانيَّة فاليهُودي الذي كانت المُمارسات المفروضة عليه تُخلِّصه من كُلِّ هَمٍّ وكُلِّ قلق كان مُقاداً - بشكل قَدَري حتمي - إلى البحث عن الذّهب، وذلك بسبب الظُّرُوف الاجتماعيَّة التي كانت تحكمه كما كانت تحكم كُلَّ البشر في تلك الفترة.

الذّهب وحده كان يُمكن أنْ يُؤمِّن له التّعويضات المَرَضيَّة التي كان يراها دماغه المحدود والمُتراجع، وذلك بدافع ذاتي منه ومن الذين يُحيطون به ومن قوانينه الخاصَّة والقوانين التي

فُرضت عليه ومن طبيعته الاصطناعيَّة، وفي الظُّرُوف كُلِّها توجَّه اليهُودي نحو الذّهب. فتهيَّأ ليكون الصَّراف والدّائن والمُرابي، الذي يحتكر أوّلاً المعدن الذي يربحه لرغباته وسرُوره، ثُمَّ - فقط - لمتعة اقتنائه. والذي هُو نَهِمٌ بأخذ الذّهب، أمَّا البخيل؛ فيحمده. وعندما أصبح اليهُودي هكذا تعقَّدت مُناهضة اليهُوديَّة، فتداخلت الأسباب الاجتماعيَّة بالأسباب الدِّينيَّة، وانضغام هذه الأسباب يُفسِّر شدَّة الاضطهادات التي عاناها اليهُود.

في الواقع؛ كان اللُّومبارديُّون والكورس - مثلاً - عُرضة لكراهية الشّعب، فقد كانوا مكروهين ومُحتقَرين، لكنَّهم لم يكونوا ضحايا لاضطهادات منهجيَّة مُتتالية. لكنْ؛ أنْ يقتني اليهُود ثروات فإنَّهم كانوا يجدون ذلك فظيعاً، خُصُوصاً بسبب صفتهم كيهُود. وكان المُعدَم المسكين الفقير يشعر تجاه المسيحي الذي يُجرِّده من ماله - وهُو مثل اليهُودي تماماً - بغضب أقلّ ممَّا يُبديه تجاه اليهُودي المغضوب؛ عدوِّ الله والبشر. فالجريء - وهُو ملعون - أصبح المُرابي، جابي الضّرائب، الشّخص الذي يُصادر، ولا يرحم، فبذلك؛ ازداد الاستياء بشكل خطير، وتعقَّدت الأُمُور من حقد المقموعين والمسحوقين. فالعقُول البسيطة لم تبحث عن الأسباب المُؤدِّيَّة الفاعلة (التي قصمت ظهر البعير) فاليهُودي كان هُو السّبب الظّاهر الفعلي للرّبا.

إنَّه - بالفوائد الضّخمة التي كان يأخذها - كان يُسَبِّبُ الفقرَ والشُّحَّ والبُؤس القاسي. إذاً؛ على اليهُودي وقعت كُلُّ العداوات. فالشّعب المُتألِّم لم تعد تهمُّه المسؤوليَّات. فهُو لم يكن اقتصاديَّاً ولا مُفكِّراً، كان يشاهد - فقط - أنَّ هُناك يداً ثقيلة تضربه. هذه اليد هي يد اليهُودي، فثار على اليهُودي. ولم يثر عليه إلاَّ - غالباً - عندما يُصبح مُنهكاً، وصبره قد نفد، كان يضرب كُلَّ الأغنياء بدُون تميز، قاتلاً اليهُودَ والمسيحيِّيْن.

وقد هَدَّم الرُّعاة الصّغار في غاسكون الـ **gascogne** والـ ميدي الـ **Midi** في فرنسا مائة وعشرين تجمُّع يهُودي، لكنَّ ذلك لم يَطَلْ اليهُود فقط، إنَّما قد اجتاحوا - أيضاً - القُصُور، وقتلوا النُّبلاء والذين يملكون الثّروات. وفي البرابان **Brabant** فإنَّ الفلاَّحين الذين حاصروا مكاناً لإقامة اليهُود لم يُوفِّروا - أبداً - أبناء دينهم. كذلك في بلاد الرّاين؛ عندما أثار مُلُوك الأرميلدر، فهُمْ لم يُجرّوا معهم - فقط - ذبَّاحي اليهُود[69] (كما يُسمَّون)، لكنْ؛ أيضاً قَتَلَة

(69) قَتَلَة اليهُود.

الأغنياء. لكنْ؛ من بين المسيحيِّين كان ـ فقط ـ الملاّكون هُمْ الذين يُعتدى عليهم ـ بعُنف ـ من الثّوار، أمَّا الفُقراء؛ فكانوا يُتركون، أمَّا اليهُود؛ فكانوا يقتلونهم فقيراً كان أم غنيّاً بدُون تمييز؛ إذْ إنَّهم ـ قبل كُلِّ شيء ـ كانوا مُذنبين كونهم يهُوداً قبل أيِّ جريمة أُخرى. غاضبين لكونهم قد سُرِقوا من قبَل الملاعين، هؤلاء الملاعين كونهم من عرْق أجنبي يُشَكِّلون شعباً خاصّاً، لذلك؛ لا شيء كان يَصُدُّ الثُّوَّار في غضبهم.

غير أنَّ الكتل الشّعبيَّة التي تضبطها السُّلطة والقوانين نادراً ما كانت تعتدي على عامَّة الرّأسماليِّين. كان يجب ـ لدَفْعهم للثّورة ـ تراكم فاحش من النّكبات. أمَّا ما يتعلَّق باليهُود؛ فغضبهم لم يكن ليتوقَّف، على العكس؛ كان يُشجَّع عليه. كان الأمر بمثابة أُلهية، فمن وقت لآخر؛ كان المُلُوك والنُّبلاء والبُرجوازيُّون يُقدِّمون لخدمتهم محرقة من اليهُود (holocauste). وهذا اليهُودي التّعيس استُخدِم خلال العُصُور الوُسْطى لهدفَيْن: استخدموه وكأنَّه علقة يتركونه ينتفخ ويمتلأ ذهباً، ثمَّ يُجبرونه أنْ يستفرغَ، أو إذا كانت الأحقاد الشّعبيَّة مُتطوِّرة جدّاً؛ فكانوا يلجؤون إلى تعذيب يُفيد الرّأسماليِّيْن المسيحيِّين الذين يدفعون بذلك إلى الذين يستنزفونهم ضريبة دم استرضائيَّة (مائدة تابوت العهد).

ومن حين لآخر؛ كان المُلُوك ـ استرضاءً لعناصر البُؤساء ـ يمنعون الرّبا اليهُودي، ويُلغون الدُّيون. لكنَّ ـ أغلب الأحيان ـ كانوا يتهاودون مع اليهُود، ويُشجِّعونهم، وذلك مُؤكّد لكي يجدوا يوماً فائدة بالمُصادرة أو للحُلُول مكانهم كدائنين، على أنَّ هذه الإجراءات كانت سياسيَّة محضة، فهُمْ كانوا يطردون اليهُود إمَّا لإعادة بناء اقتصادهم، أو لإثارة عرفان الصّغار الذين كانوا يُحرِّرونهم ـ جُزئيّاً ـ من حمل الدَّين الثّقيل، لكنَّهم كانوا يستدعونهم ـ ثانية ـ وبسُرعة؛ إذْ إنَّهم لم يكونوا ليجدوا جامعي ضرائب بأفضل منهم. على كُلِّ حال؛ فإنَّ القانون المُناهض لليهُود كما قُلنا سابقاً كان ـ غالباً ـ تفرضه الكنيسة على الممالك؛ إمَّا بواسطة النُّسَّاك أو الباباوات وأعضاء المجامع (السّنودس)، كما أنَّ الكَهَنوت النّظامي والكَهَنوت غير النّظامي، كانوا يتصرَّفون بناءً على قواعد مُختلفة.

كان النُّسَّاك يتوجَّهون للشّعب الذي كانوا معه على اتِّصال مُستمرٍّ. كانوا يعظون أوَّلاً ضدَّ (اليهُود) قاتلي الإله، لكنَّهم كانوا يظهرون أنَّ هؤلاء قَتَلة الإله مُسيطرين، بينما كان يجب أنْ ينحنوا باستمرار تحت نير المسيحيَّة.

كُلُّ هـؤلاء المُبشِّرين (الواعظين) أعطوا مساحة لعداوات الشّعب. فإذا كان اليهُود يملؤون (تسقيفاتهم (مخازن غلالهم) بالفاكهة، وبيت مُؤنتهم بالأطعمة وحقائبهم بالنُّقُود وصناديقهم بالذّهب، على قول بيير دي كلوني Pierre de Cluny [70] فهُمْ لم يفعلوا ذلك من عملهم في الأرض، ولا من خدماتهم في الحرب، ولا بمُمارسة أيِّ مهنة أُخرى مُفيدة وشريفة، لكنَّهم بغشِّ المسيحيِّيْن، وبشراء الأشياء بأسعار بخسة من اللُّصوص الذين سرقوها كانوا يزيدون من الغضب الذي لا يطلب إلاَّ أنْ يُعبِّر عن نَفْسه، وفي عِظاتهم وتبشيراتهم كان الجانب الاجتماعي هُوَ الذي يُسلِّطون الأضواء عليه. كانوا يُندِّدون ضدَّ الأُمَّة الدّنيئة التي تعيش من النَّهْب والسَّلْب، وإذا زادوا إلى شتائمهم بعض هُمُوم التّبشير، فكانوا يُبدون وكأنَّهم المُنتقمون قد أتوا لمُحاربة "وقاحة وبُخْل وقساوة اليهُود".

ولقد كانوا مسموعين. ففي إيطاليا؛ كان جان دي كابيسترانو "آفة اليهُود" فيه كان يُثير الفُقراء ضدَّ ربا اليهُود وقساوتهم، فقد تابع عمله في ألمانيا وبُولُونيا يجرُّ بعد ذلك عصابات من الصّعاليك البُؤساء والمُعدمين الذين كانوا يُكفِّرون عن آلامهم في المُجتمعات اليهُوديَّة. أمَّا بيرناردان دي فيلتر؛ فقد تبع هذا النّموذج، لكنَّه كان مهووساً بأفكار عمليَّة أكثر منها كتنظيم صدقات الورع لتحاشي جَشَع الدّائنين. فسافر عبر إيطاليا والتّيرول يُطالب بطَرْد اليهُود، مُسَبِّباً ـ بذلك ـ ثورات واضطرابات كان نتيجتها ذَبْح يهُود ترانت **Trente**.

المُلُوك والنُّبلاء والأساقفة لم يُشجِّعوا حملة النّظاميِّيْن هذه. في ألمانيا؛ كانوا يحمون اليهُود ضدَّ النّاسك رادُولف. في إيطاليا؛ كانوا ضدَّ إرشادات بير ناردان الذي كان يتَّهم الأُمراء بأنَّه اشتراهم يهيل دي بيز أغنى يهُودي في شبه الجزيرة.

في بُولُونيا؛ أَوقفَ البابا غريغوار الحادي عشر حملة صليبيَّة للدُّومينيكان جان ريسيفول.

كان للحكُومات كُلُّ المصلحة بقَمْع هذه الانتفاضات الجُزئيَّة؛ لأنَّها تعرف ـ بالتّجربة ـ أنَّ العصابات (الميِّتة من الجُوع) عندما ذبحت اليهُود ذبحت ـ أيضاً ـ الذين مثلهم يملكون ثروات كبيرة، والذين ينعمون بامتيازات فائقة، أو من الأسياد الكونيية والبارونات التي تُثقل سيطرتهم كثيراً على أكتاف المُشتركين، فالرُّعاة الصّغار والجاكيُّون ومُؤمنو أرملد

(70) بيير المُحترم أسقف كلوني (مكتبة الآباء اللاَّتين ـ ليون).

Armelder، ولاحقاً؛ ملاَّحو مُونتسر Mùnzer برهنوا أنَّ مسؤولي السُّلطة لم يكونوا على خطأ عندما خشوا؛ فهُمْ عندما يحمون اليهُود لدرجة مُعيَّنة فإنَّهم يحمون أنفسهم. أمَّا بالنِّسبة للكنيسة؛ فبقيت في مُناهضة اليهُوديَّة لاهوتيّاً، وهي مُحافظة قبل كُلِّ شيء وبشكل أساسي، مُتماشيَّة مع الأقوياء والأغنياء، فكانت تمتنع عن تشجيع غضب الشّعب.

أتكلَّم هُنا عن الكنيسة الرّسميَّة؛ الكنيسة الغنيَّة للكَهَنَة ذوي الدّخل القانوني؛ الكنيسة الواحدة والمركزيَّة التي تُدغدغ أحلامُهَا السّيطرة العالميَّة، كنيسة السّنودسيِّيْن؛ الكنيسة الشَّرْعيَّة؛ وليس كنيسة النُّسَّاك والكَهَنَة المغمورين التي كانت تثور بنَفْس غضب المُتواضعين البسيطة. لكنَّ الكنيسة كانت تتدخَّل - أحياناً - لصالح اليهُود عندما يكونون عُرضة لأحقاد الجماهير، فكانت تُحافظ على هذه الأحقاد وتُغذِّيها عندما تُحارب اليهُوديَّة، مع أنَّها لاتُحاربها بنَفْس الأسباب والدّوافع، فهي مُخلصة لمبادئها. كانت تُلاحق الذّهنيَّة اليهُوديَّة بكُلِّ أشكالها، لكنْ؛ بدُون فائدة، فكان مُستحيلاً عليها أنْ تتخلَّص منها؛ إذْ إنَّ هذه الذّهنيَّة اليهُوديَّة هي التي ألهمت عُصُورها الأُولى. فهي مُتشرِّبة بها كما تشرَّبت رمال الشّواطئ بالملح البَحْري الذي يطفو على السّطح، ومع أنَّها مُنذُ القرن الثّاني حاولت أنْ تتخلَّص من بداياتها، وأنْ تُبعد عنها كذكرى من ماضي تأسيسها الأوَّلي، لكنَّها استبقت السِّمة. ولمَّا هي كانت تُحاول أنْ تُحقِّق مُخطَّطها في الدُّول المسيحيَّة التي تُدار وتُحكَم من البابويَّة، فحاولت الكنيسة أنْ تُخفِّف كُلَّ العناصر المُعادية للمسيحيَّة، وبذلك؛ ألهمت الثّورة العنيفة الأُورُوبيَّة ضدَّ العَرَب، وصراع القوميَّات الأُورُوبيَّة ضدَّ المُحمَّديَّة كان صراعاً سياسيَّاً ودينيَّاً في آن واحد.

لكنَّ الخطر الإسلامي كان خطراً خارجيّاً، والأخطار الدّاخليَّة التي كانت تُهدِّد العقيدة كانت بنَفْس الخُطُورة بالنّسبة للكنيسة.

وحالما أصبحت قويَّة، وبلغت أقصى درجة لها في الكاثُوليكيَّة أصبحت تتحمَّل الهرطقة بصعُوبة، واعتباراً من القرن الثّامن؛ أصبحت التّشريعات ضدَّ الهراطقة أكثر صرامة. في الماضي؛ كان الأمر بسيطاً سليماً محدوداً بعقُوبات الحرمان الكَنَسيَّة، أمَّا بعد ذلك؛ استعانت بالسُّلطات الحديثة، وقد عاقبوا بقساوة الفُودوا الـ Vaudois والألبيجوا والـ Albigeois والبيغار والـ Beghards، الأُخوة الرُّسُل واللُّوسيفيريِّيْن.

ومحاكم التّفتيش التي أقامها البابا **Innocent** في القرن الثّالث عشر كانت التّعبير عن هذه الحركة. فمُنذُ ذلك الحين؛ أُقيمت محكمة خاصّة إلى جانبها السُّلطة المَدَنيَّة تخضع لقرارتها، كانت هي الحاكم الأوحد - الحاكم العديم الرّحمة تجاه الهرطقة - فاليهُود لم يبقوا خارج هذه التّشريعات. كانوا يُلاحقونهم، ليس لأنَّهم يهُود - إذْ إنَّ الكنيسة كانت تُريد أنْ تُحافظ عليهم كشاهد حيٍّ على انتصارها -، لكنْ؛ لأنَّهم كانوا يُحرِّضون على التّيهُّود؛ إمَّا مُباشرة أو بغير قصد لمُجرَّد وُجُودهم. أ ليس فلاسفتهم هُمْ الذين دفعوا الميتافيزيقيِّيْن مثل أموري دي بين ودافيد دي دينان بالإضافة إلى أنَّ بعض الهراطقة كانوا مُتيهُودين؟ فالبازاجيُّون **Les Pasagiens** في إيطاليا العُليا كانوا يتبعون شريعة مُوسى. الهراطقة في أُورليان **Orleans** كانت هرطقتهم يهُوديَّة.

وكان هُناك مذهب (**Albigeois** ألبيجوا) يُؤكِّد أنَّ عقيدة اليهُود هي أفضل من عقيدة المسيحيِّيْن.

وكان الهوسيُّون **Hussites** مدعومين من اليهُود، أمَّا الدُّومينيكان؛ فكانوا يعظون ضدَّ الهوسيِّيْن الـ **Hussites** واليهُود. والجيش الإمبراطُوري الذي كان يسير ضدَّ جان سيكا **Jean Ziska** قتل اليهُود في طريقه إلى إسبانيا؛ حيثُ كان الخليط اليهُودي والمسيحي كبيراً جداً. أُقيمت محاكم التّفتيش من قبَل غريغوار الحادي عشر الذي أعطاها دُسْتُوراً لمُراقبة الهراطقة. المُتيهوِّدون واليهُود والبربر (المُسلمون) الذين، ولو أنَّهم كانوا لا يتبعون الكنيسة، كانوا خاضعين للمكتب المُقدَّس؛ إذْ إنَّهم يُسبِّبون بكلامهم وكتاباتهم بتحويل الكاثُوليك لاعتناق إيمانهم. بالإضافة لذلك؛ كانت البابويَّة تُذكِّر المُلُوك في إسبانيا بالقرارات الكَنَسيَّة؛ إذْ إنَّ العادات القتلانيَّة التي حلَّت مكان القوانين القُوطيَّة قد أمَّنت لليهُود والمسيحيِّيْن والمُسلمين الحُقُوق نَفْسها.

هذه التّدابير الكَنَسيَّة كُلُّها قوَّت المشاهد المُعادية لليهُود عند المُلُوك وعند الشُّعُوب، فكانت أسباب مُولدة أبقت على حالة ذهنيَّة خاصَّة، زادت عليها الدّوافع السِّياسيَّة بالنّسبة للمُلُوك، والدّوافع الاجتماعيَّة بالنّسبة للشُّعُوب، فتعمَّمت مُناهضة اليهُوديَّة بفضلها، ولم تُعفى منها ولا طبقة اجتماعيَّة؛ إذْ إنَّ كُلَّ الطّبقات كانت تقودها الكنيسة أو تتبع عقائدها،

الجميع كان يعتقد أنَّه مُصابٌ من قبَل اليهُود، النُّبلاء كانوا مُصابين بثرواتهم، أمَّا البرُولتياريا والمهنيُّون والفلاَّحون، وباختصار الشّعب البسيط؛ كانت تخدشه الفائدة والرّبا.

أمَّا بالنّسبة للبُورجوازيَّة وفئة التُّجَّار والمُتعاملين بالمال؛ فوجدوا أنفسهم بتنافُس مُستمرٍّ مع اليهُود، والتّنافُس المُستمرُّ يُولِّد الكراهية والحقد، في القرن الرّابع عشر والخامس عشر؛ ترتسم خُطُوط الصّراع الحديث لرأس مال المسيحي ضدَّ رأس المال اليهُودي، والبُورجوازي الكاثُوليكي ينظر بعين الرّضا لقَتْل اليهُود، إذْ يُخلِّصه من مُنافس سعيد غالباً.

وهكذا كُلُّ شيء، والجميع أجمع على جَعْل اليهُودي العدوَّ العالمي والسّند الوحيد الذي وجده خلال هذه الفترة الفظيعة من القُرُون. كانت البابويَّة والكنيسة يدعمان الغضب الشّعبي، ولكنْ؛ يُريدان أنْ يحتفظا ـ بتأنٍّ ـ بهذا الشّاهد بامتياز للإيمان المسيحي، وإذا حافظت الكنيسة على اليهُود، لكنَّها عاقبتهم، ورتَّبتهم، فهي التي مانعت في إعطائهم وظائف عامَّة مُمكن أنْ يكون فيها لهم سُلطة على المسيحيِّيْن. وهي التي حرَّضت المُلُوك على اتِّخاذ إجراءات مُقيِّدة، فرضت عليهم فيها ارتداء علامات فارقة مثل القبَّة المُستديرة والطّاقيَّة، وحصروهم في مُجمَّعات معزولة قبلها اليهُود غالباً، وحتَّى إنَّهم بحثوا عنها لرغبتهم بالانفصال عن العالم والعيش مُنعزلين دُون الاختلاط بالأُمم، حتَّى يُحافظوا على سلامة مُعتقداتهم وعِرْقهم. ففي عدَّة أماكن؛ لم يكن للقرارات التي تأمر اليهُود بالبقاء مُنعزلين في حارات خاصَّة لها إلاَّ تكريس وتثبيت أُمُور كانت موجودة سَلَفاً، لكنَّ الدّور الأساسي للكنيسة كان في مُحاربة الدّيانة اليهُوديَّة عقائديّاً.

ويُضاف إلى ذلك المُحاولات العديدة، لكنَّها لم تكتف، فقد أصدرت قوانين ضدَّ الكُتُب اليهُوديَّة. وقد كان جُوستينيان قد مَنَعَ قراءة الميشنا (التّلمُود) في الكُنُس. ومن بعده لم يصدر أيُّ تشريع ضدَّ التّلمُود حتَّى سان لُوي. وبعد مُناظرة نيقُولا دُونان **Nicolas Donin** ويهيل دي باريز **yehiel de Paris** **(1240)** أمر غريغوار التّاسع بحَرْق التّلمُود. هذا الأمر أُعيد عام **(1244)** من قبَل إينُوسنت الرّابع ومن قبَل هُونُوريُوس الرّابع **(1286)** ومن قبَل **11** جان الثّاني والعشرين **(1325)**، ومن قبَل البابا الزّائف بونوا **Benoît** عام **(1415)**. على كُلِّ حال؛ نُقِّحت الصّلوات اليهُوديَّة، ومُنعوا من إقامة كُنُس جُدُد.

وقد شرحتْ القوانينُ المَدَنيَّة القرارات الكَنَسيَّة، واستأنستْ بها. مثل قوانين ألفُونس العاشر في كاستيليا وفي دُسْتُور des Siete partidas وقرارات سان لوي وفيليب الرّابع، وقرارات الأباطرة الألمان ومُلُوك بُولُونيا.

منعوا اليهُود من الظُّهُور في الأمكنة العامَّة في بعض الأيَّام، وفرضوا عليهم ضريبة مُرُور شخصيَّة، كما على ماشيتهم، وفي بعض الأحيان؛ منعوهم من الزّواج دُون إذن مُسبَق، وتُضاف إلى القوانين عادات مُذلَّة مثل عادات تُولُوز التي كانت تُخضع وكيل الدّائنين اليهُود إلى الإفلاس.

كانت الجماهير تشتمهم خلال أعيادهم وسبُوتهم، وتُدنِّس قُبُورهم، وعند الخُرُوج من خميس الأسرار والآلام كانت تُستباح بُيُوتهم للسَّلْب والنَّهْب.

هذا الإذلال والطَّرْد في كُلِّ مكان لم يكتفوا به مثلما فعل إدوار الأوَّل في إنكلترا (1287) وفيليب الرّابع وشارل السّادس في فرنسا (1394 ـ 1306) وفرديناد الكاثُوليكي في إسبانيا 1492، لكنَّهم لجؤوا إلى ذَبْحهم وقَتْلهم في جميع الأرجاء.

وعندما ذهبت الحملة الصّليبيَّة لتُحرِّر كنيسة القيامة، تهيَّؤوا للحرب المُقدَّسة بذبح اليهُود، وعندما كان الطّاعون الأسود أو الجُوع يجتاح البلاد كانوا يُقدِّمون اليهُود إلى المحرقة كقُربان للآلهة الغاضبة، وعندما كان يُصاب الشّعب باليأس والفقر والجُوع والانهيار كانوا يجنُّون وينتقمون من اليهُود الذين كانوا يُوهَبون كضحايا للتّكفير.

وقد صرخ بيير دي كلوني Pierre De Cluny: (ماذا يُفيدنا أنْ نذهب ونُحارب المُسلمين ونحنُ لدينا اليهُود فيما بيننا، واليهُود هُمْ أفظع من العَرَب المُسلمين؟).

ما العمل لمُكافحة الجائحة، إلاَّ في قتل اليهُود الذين يتآمرون مع الجُذاميِّيْن (المُصابين بالجُذام) لتسميم المياه؟

وهكذا أخذوا بإبادتهم في يُورك York ولُندُن، وفي إسبانيا، وبتحريض من سان فنسان فيرير وفي إيطاليا؛ حيثُ يعظ جان كاسبيسترانُو Jean Caspistrano، وفي بُولُونيا، وفي بُوهيميا، وفي فرنسا، وفي مُورافيا، وفي النّمسا، حرقوا منهم في استرا سبورغ، في

ماينس، وفي تروا في إسبانيا قُتل منهم أُلُوف في المحرقة، وفي أماكن أُخرى؛ بقروا بُطُونهم بالمعاول والمناجل، وقتلوهم كالكلاب، ومن المُؤكّد أنَّ الأنبياء الذين حكَموا على يهُوذا بحسب غضب الإله المُخيف كعقاب على جرائمه لم تكن أفظع من المآسي التي مُنيوا بها، وعندما نقرأ كتاب الشُّهداء للكاتب في القرن السّادس عشر هاكُوهين هذا المُؤرِّخ للشُّهداء الذين ذهبوا(*) مُمزَّقين بقُضبان الحديد إلى مكان التّعذيب وهُمْ يُصَلُّون في اللَّهب إلى أبطال Vitry الذين انتحروا بأنفسهم، فإنَّنا نشعر بحُزن عميق، أمَّا كتاب وادي الدُّمُوع الذي يُؤرِّخ للحزن؛ فله تأثير عظيم على المشاعر، وأمَّا كتاب دُمُوع الرّاعي **Les Larmes Du Pasteur De Chambrun** والذي يظهر فيه البرُوتستانتيُّون الفرنسيُّون المحظورون؛ لم يكن بمُستوى الأوَّل، أمَّا المُؤرِّخ العجوز؛ فقال: (لقد أسميتُهُ وادي الدُّمُوع، لأنَّه فعلاً حسب عُنوانه، أيُّ إنسان يقرؤه سوف يلهث، وسوف تسيل جُفُونه ويداه على كليتَيْه، سوف يقول: إلى متى يا إلهي؟!).

أيُّ أخطاء استحقَّت هذا العقاب المُريع؟ كم هُو قاتل حُزن هؤلاء البشر! في هذه السّاعات الحالكة كانوا يتراصُّون إلى بعضهم، ويشعرون بالأُخُوَّة، والرّابط الذي يربطهم قوي واشتدَّ أكثر فأكثر، لم يُمكن لهم أنْ يشتكوا ويتظلَّموا ويُعبِّروا عن أفراحهم الضّعيفة **إلاَّ** لبعضهم!

من هذه الكوارث الجماعيَّة وهذا النّحيب وُلدت أُخُوَّة قويَّة ومُتألِّمة، والوطنيَّة اليهُوديَّة القديمة تصعَّدت أكثر فأكثر.

هؤلاء المُهمَلين المُضطَهَدين في جميع أنحاء أُورُوبا، والذين كانوا يسيرون ووُجُوههم متَّسخة بالبُصاق، كان يُعجبهم أنْ يشعروا بإحياء صِهْيَوْن فيهم بهضابها الضّائعة، وأنْ يستحضروا ضفاف الأُردن الحبيبة وبُحيرات الجليل، وهي العزاء الكبير واللَّطيف.

فتوصَّلوا إلى تآخٍ كبير، ففي وسط الأنين والضُّغُوط حُملوا على أنْ يعيشوا فيما بينهم، وأنْ يتَّحدوا بشكل أضيق فأضيق، فهُمْ كانوا يعرفون أنَّ في أسفارهم سوف يجدون ملجأً آمناً عند اليهُودي، فإنْ انتابهم المَرَض وهُمْ على الطّريق، فقط؛ اليهُودي هُو الذي يُنقذهم

(*) إيميك ـ هبَّاقة، وادي الدُّمُوع، ترجمة: جُوليان سيه.

بأُخُوَّة، وإذا مات أحدهم بعيداً عن أهله، فاليهُود - فقط - هُمْ الذين يستطيعون أنْ يدفنوه حسب الطُّقُوس والصّلوات الاعتياديَّة على جُثمانه.

غير أنَّنا إذا أردنا أنْ نفهم - تماماً - وَضْع اليهُود في هذه العُصُور المُظلمة يجب أنْ نُقارنه بوضع الشّعب الذي يُحيط به، فالاضطهادات ضدَّ اليهُود قد تُمارس اليوم؛ لأنَّ طباعهم المُختلفة الاستثنائيَّة تجعلها أكثر إيلاماً.

في العُصُور الوُسْطى لم يكن العُمَّال والفلاَّحون أكثر سعادة، فاليهُود الذين أُصيبوا بهزَّات فظيعة مرّوا بحُقَب هادئة نسبيّاً، هذه الفترات لم تعرفها طبقة الخَدَم والعبيد.

كانت تُتَّخَذ إجراءات ضدَّهم، لكنْ؛ ألم تُتَّخذ هذه الإجراءات ضدَّ المُوريسك ال **Morsiques** أو الألبيجوا الـ **Albigeois** وضدَّ الهراطقة والبُؤساء، من القرن الحادي عشر حتَّى نهاية القرن السّادس عشر مرَّت السّنين رهيبة، واليهُود لم يُعانوا أكثر من الذين يعيشون فيما بينهم.

أمَّا هُمْ؛ فقد عانوا من أجل أسباب أُخرى، وتأثَّروا بشكل مُختلف، لكنْ؛ حينما أصبحت العادات أكثر لطافة وُلدت ساعات أكثر سعادة بالنّسبة لهم، وسوف نرى أيَّة تعديلات سوف تجلب لوَضْعهم الإصلاح والنّهضة **La Reforme Et La Renaissance**.

الفصل السّادس:

مُناهضة اليهُوديَّة مُنذُ الإصلاح حتَّى الثَّورة الفرنسيَّة

عندما أشرف فجر القرن السّادس عشر، وعندما مرَّت أوَّل نسمة حُرِّيَّة على العالم، لم يكن اليهُود سوى شعب أسير وخادم، كان معزولاً في حاراته الخاصَّة، والتي ساهمت أياديه الغبيَّة في زيادة حجم أسواره، فكانوا فد انسحبوا من المُجتمع البشري، والغالبيَّة يعيشون في حالة بائسة مُزرية ودنيئة، وكونهم هُمْ أنفسهم قد أغلقوا جميع الأبواب والنّوافذ التي يُمكن أنْ يتلقَّوا منها الهواء والضّوء، فَضمُر ذهنهم.

وعلى مدى فترة العُصُور الوُسْطى كُلِّها، وتحت تأثير الشُّعُوب المُحيطة بهم والتّشريعات الخاصَّة المُذلَّة، وتحت تأثير الفعل الفاسد والقاتل للتّلمُوديِّين، اكتسب اليهُود هذه السِّحنة الخاصَّة التي لم يفقدوها إلاَّ في أيَّامنا هذه، ولكنَّ كثيراً منهم احتفظوا بها حتَّى اليوم في بُولُونيا، ورُومانيا، وروُسيا، وهنغاريا، وبُوهيميا، وبعض أجزاء ألمانيا، سحنة جعلها الإذلال الاعتيادي دنيئة وحزينة، وجعلتها ظُرُوف المعيشة خائفة ومريضة، وجعل منها التّعليم الحاخامي المُتشبِّث ذات طابع خبيث، لكنَّ الألم قد رقَّاها، وأعطاها وميضاً من الحُزن الهادئ والخُضُوع الأليم.

عدد الذين استطاعوا أنْ ينجوا من هذا الانحطاط كان عدداً قليلاً ومحدوداً، واليهُود الذين استطاعوا أنْ يُحافظوا على عقُولهم حُرَّة ورُوحهم عزيزة كانوا أقلِّيَّة قليلة جداً، كانوا ـ على الأغلب ـ أطبَّاء، إذْ إنَّ الطّبَّ كان العلم الوحيد الذي أذن به التّلمُود، وفي الوقت نَفْسه؛ كانوا فلاسفة، وسوف نرى الدّور الذي لعبوه في إيطاليا خلال النّهضة، أمَّا الكتلة الشّعبيَّة؛ فكانت غير مُؤهَّلة إلاَّ للتّجارة والرّبا.

على كُلِّ حال؛ لم يكن لها أيُّ حقٍّ، أو أيُّ مقدرة، ولا أيُّ درب كان يُفتَح لها، وحتَّى الدُّرُوب النّادرة التي كان يُمكن لها أنْ تسلكها كانت تُغلَق وبيد حُكَمائها أنفسهم الذين

تحالفوا مع المُشرِّعين المسيحيِّين، هؤلاء في أعمالهم قد أخذوا مصادرهم من العقائد الكَنيسيَّة، هذه العقائد قد عبَّر عنها تُوما الأكويني Thomas d' Aquin بشكل مُوجز.

وقد قال السَّيِّد بحَزْم: اليهُوديُّ عَبْدٌ Judaei Sunt Servi.

والقانون لم يعتبرهم غير ذلك، في نهاية القرن الخامس عشر؛ أصبح اليهُودي عبداً في الغُرفة الإمبراطُوريَّة في ألمانيا، وفي فرنسا كان عبداً للملك والسَّيِّد الشّريف، لكنَّه أقلُّ من العبد ذاته، لأنَّ العبد كان يُمكن له أنْ يتملَّك، بينما في الواقع اليهُودي ليس عنده ملكيَّة، كان ـ على الأغلب ـ شيئاً، ولم يكن شخصاً، فالملك والسَّيِّد والأسقف أو الكاهن كان لهم حقُّ التّصرُّف بكُلِّ ما يخصُّ اليهُودي؛ أيْ كُلُّ ما يبدو أنَّه يملكه؛ إذْ إنَّ إمكانيَّة التّملُّك بالنّسبة له كانت وَهْميَّة تماماً.

كان يدفع الضّريبة حسب التَّيَّارات، كما أنَّه كان خاضعاً لضرائب ثابتة دُون المساس بالمُصادرات، وبينما كانت الكنيسة من جهتها تفعل كُلَّ ما بوسعها لاستمالة اليهُودي إليها كان البارونات وكبار الكَهَنة ـ من جهة أُخرى ـ يُجمِّدونه في وَضْعه، فإذا اهتدى فهُو يفقد مُمتلكاته لصالح السَّيِّد الشّريف الرّاغب في تعويض خسارته من الضّرائب (التي سوف لن يدفعها المُهتدي) وهكذا؛ فالمصلحة كانت تُمسك اليهُودي، وتُبقيه في سردابه، كان يُنظَر إليه كحيوان قذر ومُفيد أقلّ من كلب أو خنزير، لكنْ؛ مع ذلك يطاله رسم المُرُور، كان الملعون الأبدي، ويجوز عليه إنزال الضّربات التي تحمَّلها المسيح المصلوب في مُعسكر بيلاطس النّبطي.

وعندما ابتدأ القرن السّادس عشر؛ أُغلق في وجه اليهُود البلدُ الوحيدُ الذي كان باستطاعة اليهُود أنْ يزعموا أنَّ لهم فيه كرامة الإنسان، الاستيلاء على غرناطة والانتصار على مملكة المُسلمين حَرَمَ اليهُود من آخر ملجأ لهم، في يوم 2 كانون الثّاني 1492؛ حيثُ دخل Ferdinand وIsabelle إلى المدينة المُسلمة أصبحت إسبانيا كُلُّها مسيحيَّة.

حرب الإسبان المُقدَّسة ضدَّ الكُفَّار انتهت بالنّصر، أمَّا المُسلمون الذي بقوا؛ اضطُهِدوا بشكل قاسٍ، رغم وُعُود الأمان التي أُبرِمت لهم.

أثار هذا الانتصار التّعصُّب الدِّيني من جهة، والشُّعُور القوميَّ من جهة أُخرى، فأرادت إسبانيا المُتحرِّرة من المُسلمين أنْ تتخلَّص من اليهُود أيضاً، فطردهم الملك والملكة في

العام نَفْسه الذي سقط فيه بوعبديل، بينما ضاعفت محاكم التّفتيش إجراءاتـها القانونيَّـة تجاه المارانِ والمُوريسك.

غير أنَّه رغم الظُّرُوف المقيتـة التي وُضعـوا فيـها فـإنَّ زمـن الآلام الكبيرة كـان قـد ولَّـى بالنّسبة لليهُود.

بدؤوا ينـزلون من النّهضة التي صعـدوا إليـها بمشـقَّة، ولـو أنّـهم لـم يجـدوا ـ بَعْـدُ ـ الأمـان الكامل في الوُديان، إنَّما أصبحوا يُقابَلون إنسانيَّة أكثر ورحمة أكثر، أصبحت الطّباع أكثر لطافة في هذه الحقبة، وأصبحت النُّفُوس أقلَّ قساوة، واكتسب النّاسُ فعلاً معنى المخلوق الإنساني.

في هذا العصر؛ حيثُ تعاظمت الإفراديَّة، وأصبح الفَرْد مفهوماً بشكل أفضل، وبينمـا تطوَّرت الشّخصيَّة الإنسانيَّة في الوقت نَفْسه، أصبحت عطوفة أكثر بالنّسبة للآخر.

تأثَّر اليهُود بهذا الوضع النَّفْسي، فهُمْ كانوا مكروهين مثل الأوَّل، لكنَّـهم بُغضـوا بطريقـة أقلّ عُنفاً، أرادوا ـ أيضاً ـ أنْ يشدُّوهم إلى المسيحيَّة، لكنْ؛ بالإقناع، فطردوهــم ـ مـع ذلـك ـ من بعض المُدن وبعض البُلدان، فطردوهم من كُولونيا وبُوهيميا في القرن السّادس عشر.

ونقابات المهن اليدويَّة في فرانكفورت وفي فُورمـز والتـي كـان يقودهـا فنسـت فتميلـش أجبرتْهُم أنْ يغادروا المُدُنَ، لكـنْ؛ بحُكْم كونـهم عبيـد الغُرفـة الإمبراطُوريَّـة كـانوا محميِّيْـن ـ بشكل فعَّال ـ من قبَل الحاكم، وإنْ طردهم ليُوبُولد الأوَّل من فيينا، ولاحقاً ماري تريـز مـن مُورافيا **Moravie**، قرارات الطَّرْد هذه لم يكن لها إلاَّ أثر مُؤقَّت، ولـم يكـن لـها آثـار طويلـة الأمد، وعندما كان اليهُود يعودون إلى المُدن بعد مكرمة وتسـامح مـا، هُـمْ لـم يُعنَّفـوا بعدهـا أبداً، أمَّا مذابح فرانكُونيا مُورافيا ومحارق براغ؛ كانت استثنائيَّة فـي القـرن السّـادس عشـر، أمَّا عن الإبادات التي أمر بها **Chmielniki** شـميلنيكي فـي بُولُونيـا فـي القـرن السّـابع عشـر؛ فهي لم تَطَلْ اليهُود إلاَّ بطريقة غير مُباشرة.

مـن الآن فصـاعداً لـم يعـد هُنـاك اضطـهادات منهجيَّـة مُستمرَّة إلاَّ مـا يخـصُّ محــاكم التّفتيش التي استمرَّت في إسبانيا بمُمارسة عقُوباتها ضدَّ اليهُود الذين اهتـدوا، وفـي البرتغـال عندما أُدخلِت من قبَل البابـا كليمـان السّـابع **Clement7**، وبعـد رجـاء البابـا يُوحنَّـا الثّـالث، وبعد مذابح **1506**، وهُنا أوكلت محاكم التّفتيش إلى الفرنسيسكان الذين كانوا أقـلَّ وحشـيَّة من الدُّومينيكان الإسبان.

ومع ذلك؛ اليهُود لم يتغيَّروا، هكذا كانوا في العُصُور الوُسْطى، وهكذا هُمْ في **عصر الإصلاح**، ربَّما حتَّى نَفْسيَّاً وفكْريَّاً كانت الكتلة الشّعبيَّة اليهُوديَّة لحال أسوأ من الأوَّل، لكنْ؛ وإنْ هُمْ لم يتغيَّروا، لكنَّ المُحيطين بهم قد تغيَّروا.

أصبح النَّاس أقلَّ إيماناً، وبالتَّالي؛ أقلَّ كُرهاً للهراطقة، فلسفة ابن رُشْد قد هيَّأت تدهور الإيمان، هذا؛ ونعرف دور اليهُود في نشر الابن رُشْديَّة بشكل أنَّه كان يعملون لهم، غالبيَّة أتباع ابن رُشْد كانوا غير مُؤمنين، أو على الأقلِّ؛ كانوا يُهاجمون الدِّيانة المسيحيَّة، فكانوا هُمْ الأجداد المُباشرين لرجال النَّهضة، فبفضلهم تطوَّرتْ رُوح الشَّكِّ ورُوح البحث، فأتباع أفلاطُون في فلُورنس، وأرسطُو في إيطاليا، وأصحاب النَّزعة الإنسانيَّة في ألمانيا، هُمْ أتوا منهم، وبفضلهم ألَّف بُومبُونازُو دراساته حول خُلُود أزليَّة الرُّوح، وبفضلهم نما عند مُفكِّري القرن السَّادس عشر هذا الإيمان بوحدانيَّة الله الذي أدَّى إلى تدهور الكاثُوليكيَّة، فالنَّاس في تلك الفترة قد عُبِّئوا بهذه المشاعر، لم يستطيعوا أنْ يثوروا دينيَّاً ضدَّ اليهُودي، كان لديهم اهتمامات أُخرى، كان عليهم أنْ يُحاربوا سُلطتَيْن قويَّتَيْن قادرتَيْن: التَّجمُّد الفلسفي اللاَّهوتي والتَّفوُّق الرُّوماني.

فصراعات القُرُون السَّابقة، وانشقاق الغرب، وانهيار الأخلاق بين الكَهَنَة، وبَيْع الرُّتب الكَهَنوتيَّة، وبيع النِّعم السَّماوي والغُفران، ذلك كُلُّه أضعف الكنيسة، وقلَّص البابويَّة. فثاروا ضدَّها من جميع الأرجاء، وطالبوا بسُلطة المجمع الأعلى، وأصبحوا يُميِّزون بين الكنيسة الجامعة الكونيَّة المعصومة من الخطأ والكنيسة الرُّومانيَّة التي تُخطئ. فتشابك المَدَنيُّون والنّظاميُّون، وعَلَتْ الأصوات مُطالبة بالتَّغيير. يجب تهذيب الكَهَنَة، هكذا قال آباء السّنودس في فيينا (1311) بعدها؛ أعلنوا أنَّه يجب "إصلاح الرَّأس والأعضاء"، وكانت حركة الهوسيت والفريرو والفراتيسيل والبيجارد قد احتجَّتْ ضدَّ ثروات وفساد الكنيسة. لكنَّ البابويَّة كانت غير قادرة على إصلاحها. فأتى الإصلاح من خارجها وضدَّها.

أصحاب مذهب الفلسفة الإنسيَّة (الإنسانيَّة) كانوا على رأس ذلك. كُلُّ شيء كان يُبعدهم عن الكاثُوليكيَّة. فاليُونان عندما هربوا من الأتراك حملوا معهم كُنُوز الآداب **القديمة**. وكُولُومبُس باكتشافه العالم الجديد فَتَحَ لهم آفاق كانت مجهولة حتَّى الآن.

وجدوا هُنا أسباباً جديدة لمُحاربة اللاَّهوتيَّة المدرسيَّة الخادمة القديمة للكنيسة. **ففي إيطاليا**؛ أصبح أصحاب الفلسفة الإنسيَّة من أصحاب الشَّكِّ ووَثَنيِّيْن، فتحرَّروا، وهُمْ إمَّا يسخرون أو يتفلسفون حسب أفلاطُون. لكنْ؛ في ألمانيا حركة التّحرُّر التي ساهموا في خَلْقها أصبحت دينيَّة أكثر. لكي يُقنعوا المُدرِّسين اللاَّهوتيِّيْن أصبح الإنسيُّون لاهوتيِّيْن، وحتَّى يتسلَّحوا أكثر وأفضل ذهبوا إلى المصادر بذاتها:

فتعلَّموا العبريَّة، ليس كما الفيراندول، أو كما الطّليان، لكنْ؛ بشكل هواية، أو كحُبٍّ للعلم، لكنْ؛ لكي يجدوا البراهين والحُجَجَ ضدَّ مُنافسيهم.

خلال هذه السّنين التي تُنبئ بالإصلاح أصبح اليهُودي مُربِّي علم العبريَّة للعُلماء، وأعطاهم مبادئ وأسرار القبيلة بعد أنْ فَتَحَ لهم أبوابَ الفلسفة العَرَبيَّة. وزوَّدهم ضدَّ الكَثْلَكَة بالتّفسير المُخيف للتّوراة الذي كان الحاخامات قد قوُّوه وأغنوه خلال قُرُون. هذا التّفسير عرفت البرُوتستانتيَّة أنْ تستخدمه، ولاحقاً؛ عرف العقلانيُّون كذلك. وبصُدفة فريدة من نوعها، فاليهُود الذين أعطوا الإنسيِّيْن أسلحة عن قَصْد أو عن غير قصد أعطوهم السّبب لأوَّل معركة جدِّيَّة. فالصّراع مع أو ضدَّ التّلمُود هيَّأ للصّراع حول القُربان **Eucharistie**، افتُتح النّقاش في كُولونيا، كُولونيا مدينة محاكم التّفتيش عاصمة الدُّومينيكان. مرَّة أُخرى؛ فضح يهُودي مُهتد جُوزف بفيفركُورن التّلمُود إلى العالم المسيحي، وقد دعمه المُفتِّش الكبير هُوشتراتن، وقد حصل من الإمبراطُور ماكسيميليان على مرسوم يُخوِّله أنْ يفحص كُتُبَ اليهُود ومحتواها كُلَّه، وإتلاف التي تشتم التّوراة والإيمان المسيحي. لكنَّ اليهُود احتجَّوا إلى ماكسيميليان من أجل هذا القرار، ونجحوا بإيكال السُّلطات المُسندة إلى بفيفر كورن إلى أسقف النّاخب فيماينس. هذا الأسقف اتَّخذ كمُستشارين له حُكَماء وإنسيِّيْن من بينهم **Reuchlin**. رُوشلن هذا لم يكن يحمل وُدَّاً عظيماً لليهُود، حتَّى لقد هاجمهم. وعلى العُمُوم؛ كان يكره اليهُود. أمَّا التّلمُود؛ فكان يهتمُّ به - بدُون شَكٍّ - أكثر من محكمة التّفتيش وعُقُوباتها. فهُو حارب - بعُنْف - مشاريع بفيفر كُورن والدُّومينيكان، وأعلن أنَّه يجب المُحافظة على كُتُب اليهُود، وليس هذا فقط، فقد دعم فكْرة إنشاء كراسي عبريَّة في الجامعات.

واتَّهموا Reuchlin أنَّه ارتشى بذَهَب اليهُود. فردَّ بهجائيَّة رهيبة اسمها: مرآة العُيُون التي حُكم عليها بالحَرْق، ومُنذُئذ؛ نُسي اليهُود الذين هُمْ السّبب الأصلي للنّزاع، أمَّا الإنسيُّونن والدُّومينيكان؛ فبقوا وحدهم في السّاحة حاضرين، وهؤلاء الدّومينيكان هُزموا نهائيّاً: "برسائل الرّجال الظّلاميِّيْن"، وأدانهم الأسقف سبير Spire، وأهملهم البابا، الذي بعد بضع سنوات أعطى لطباعيِّي أنفير امتياز نَشْر التّلمُود.

لكنَّ العُصُور الحديثة اقتربت، والعاصفة التي كان يتنبَّأ لها كُلٌّ واحد وقعت على الكنيسة. نَشَرَ لُوثر(*) في فيتنبرغ نظريَّاته الخمس والتّسعين، وكان على الكاثُوليكيَّة أنْ تُدافع ليس - فقط - عن ظُرُوف كَهَنتها، إنَّما - أيضاً - كان يجب عليها أنْ تُناضل من أجل عقائدها الأساسيَّة. لفترة نسي اللاَّهوتيُّون اليهُودَ أنَّ الحركة التي انتشرت أخذت جُذُورها من مصادر عبريَّة. فالإصلاح في ألمانيا - مثله في إنكلترا - كان أنَّ المسيحيَّة عادت إلى المصادر اليهُوديَّة.

فانتصرت الرُّوح اليهُوديَّة مع البرُوتستانتيَّة. وكانت في بعض جوانبها عودة إلى عُصُور الإنجيليَّة. قسم كبير من الطّوائف البرُوتستانتيَّة كانوا نصف يهُود، ولاحقاً؛ أخذ البرُوتستانت يُبشِّرون بعقائد ضدَّ الثّالوث الأقدس؛ مثل ميشيل سيرفييه، وفي ترانسيلفانيا ازدهرت مُناهضة الثّالوث مُنذُ القرن السّادس عشر، وسيدليوس قد دعم امتياز اليهُوديَّة والوصايا العشر. أُهملت الأناجيل من أجل التّوراة وسفْر الرُّؤيا. وانصرف مدى تأثير هذَيْن الكتابَيْن على اللُّوثريِّيْن والكلفانيست، وخُصُوصاً على الإصلاحيِّيْن والثّوريِّيْن الإنكليز. هذا التّأثير استمرَّ حتَّى القرن الثّامن عشر، وساهم في صُنْع Les kakers والـ Methodistes والـ Piétistes وخُصُوصاً الألفيِّيْن ورجال المملكة الخامسة الذين حلّوا بالجُمهُوريَّة مع فينير في لُندُن، وتحالفوا مع جُون ليلبُورن.

حاولت البرُوتستانتيَّة في بدايتها أنْ تكسب اليهُود إلى صفِّها، وفي هذا المنحى؛ التّشابه بين لُوثر ومُحمَّد فريد من نوعه. كلاهما أخذا عقائدهما من المصادر العبريَّة(**)، والاثنان

(*) للتّوسُّع في موضوع اللُّوثريَّة وظُهُور البرُوتستانتيَّة؛ يُراجَع الكتابُ الهامُّ جداً (الماسُونيَّة والمُنظَّمات السِّرِّيَّة ماذا فَعَلَتْ؟ ومَنْ خَدَمَتْ؟) للباحث عبد المجيد همُّو، دار الأوائل، دمشق، ط1، 2003.

(**) تجدر الإشارة - هُنا - إلى أنَّ المُؤلِّف علمانيٌّ، كما تجدر الإشارة إلى أنَّه صرَّح - مرَّات عديدة - بأنَّه يكتب بحياديَّة وعلميَّة، فلنتأمَّل كلامه تأمُّلاً علميّاً، لنتبيَّن مدى صدق ما يقول. (دار الأوائل).

رغبا أنْ يُبرهنا عقائدهما الجديدة التي أنشؤوها من اليهُود. وليس هذا - فقط - الجانب **الأقلّ** غرابة في تاريخ هذه الأُمَّة. بينما اليهُودي مبغوض، مكروه، مُذَلٌّ، مُغطَّى بالبُصاق والطّين، مُلوَّث باللّعنات، يستشهد، ينسجن، ويُضرب، تنتظر منه الكَثْلَكَة الملك الأخير ليسُوع المسيح، فالكنيسة تتأمَّل وتُطالب بعودة اليهُود، هذه العودة سوف تكون - بالنّسبة لها - شهادة عاليَّة وقويَّة على حقيقة مُعتقداتها. كما أنَّ اللُّوثريّيْن والكالفينيست كانوا يُدْعَون اليهُود. ويبدو أنَّ هؤلاء كانوا مُقتنعين - تماماً - بعدالة قضيَّتهم، إذْ إنَّ أبناء يعقُوب أتوا إليهم، لكنَّ اليهُود كانوا دوماً، وظلّوا، الشّعبَ المهووس بالتّوراة، الشّعب ذا الرّأس القاسي، لا يقبل أيَّ أمر إلاَّ بإيعاز مُقاوم ومُخلص بشكل فظيع لربِّه وشريعته.

تبشير لُوثر ذهب سُدى، وأصدر النّاسك العصبيُّ المزاج هجائيَّة[71] رهيبة ضدَّ اليهُود، فكان يقول: اليهُود هَمَجٌ، وكُنُسهم هي حظائر للخنازير، يجب أنْ نحرقهم؛ لأنَّ مُوسى لو عاد إلى العالم سوف يفعل ذلك. إنَّهم يجرُّون الكلمات المُقدَّسة إلى الطّين، يعيشون في الفساد والحرام، إنَّهم حيوانات سيِّئة ضارَّة يجب طَرْدها مثل الكلاب المكلوبة (الثّائرة).

رغم هذا العُنف وهذه الإثارات ورغم المُجادلات العديدة التي جرت بين البرُوتستانت واليهُود، فهؤلاء لم تُسأ معاملتهم في ألمانيا، لم يكن لديهم الوقت للاهتمام بهم، فمن جهة؛ كان اللُّوثريُّون والكالفينيست يتشاحنون ويختلفون كثيراً فيما بينهم. والمُناقشات حول القُربان المُقدَّس، حول الحُلُول في الخُبز والنّبيذ، حول الثّالوث المُقدَّس، وطبيعة المسيح، شغلت عُقُولهم بشكلٍ كاف، وكانت المذاهب عديدة جداً: المُعارضين والكالفينست السّرّيِّيْن والتّعاونيِّيْن - **Synergistes, - Adiaphoristes ; Majoristes** إلخ.

وهذه المذاهب تتصارع فيما بينها، وامتصَّت كُلَّ نشاطاتهم، من جهة أُخرى؛ تغيَّرت الظُّرُوف الاجتماعيَّة والدِّينيَّة، وتغيُّرها كان لمصلحة اليهُود الذين رأوا أعداءهم تستحوذهم اهتمامات أُخرى.

مُنهَكين من البُؤس، مُبادين من الحرب، منكوبين، وقد تحوَّلوا إلى العُبُوديَّة، فريسة الفقر والجُوع، هكذا كان فلاَّحو القرن السّادس عشر، فهُمْ لم يثوروا ضدَّ اليهُود - فقط -

---

(71) اليهُود وأكاذيبهم، فيتنبرغ 1558.

الذين يُدينون النُّقُودَ، أو ضدَّ المسيحي المُرابي، لكنَّهم استهدفوا أعلى من ذلك، فهاجموا - أوَّل الأمر - طبقة الأغنياء، ثُمَّ الوضع الاجتماعي بأكمله. كانت ثورتهم عامَّة، بدأ بها - أوَّلاً - فلاَّحو البلاد المُنخفضة (هُولندة)، ثُمَّ ألمانيا. ففي كُلِّ الإمبراطُوريَّة كانوا قد أسَّسوا جمعيَّات سرِّيَّة؛ مثلاً الحذاء الاتِّحادي (فدرالي)[72] - كُونراد المسكين - الاتِّحاد الإنجيلي. وفي عام 1503، انتفض فلاَّحو سبير وضفاف الراين. في 1512، عصابات جُوس فريتس. في عام 1514، فلاَّحو فُورتنبرغ. 1515، فلاَّحو النّمسا وهنغاريا. 1524، فلاَّحو سواب. 1525، الألزاس وبالاتينا. الكُلُّ كان يسير صارخاً:

"في المسيح لا يُوجد سَيِّد ولا عبد"، انضمَّ إليهم أصحاب المهن اليدويَّة والفُرسان مثل كُوتز دي برليشنغن، كان على رأسهم، فقتلوا النُّبلاء، وحرقوا القُصُور والأديرة.

أمَّا مُونتسر؛ فقد ذهب أبعد من ذلك، فهُو لم يُحارب - فقط - البارونات والأساقفة والأغنياء ومُلُوك مُواب، لكنَّه حارب مبدأ السُّلطة ذاته: "ليس هُناك من سُلطة بعد الآن إلاَّ التي نقبلها ونختارها بحُرِّيَّة"، وفي بيان من اثنَيْ عشر مادَّة ألَّفها هُو أراد أنْ يُحرِّرَ الرِّقَّ، وعندما صعد إلى المقصلة بعد أنْ خسر معركة فرانكن هاوزن شهد أنَّه أراد أنْ (يُقيم المُساواة في المسيحيَّة، وأنَّ كُلَّ شيء يُصبح عاماً للجميع، ولكُلٍّ حسب حاجته).

تُرجمت الاثنَيْ عشر مادَّة إلى الفرنسيَّة، ووُزِّعت في اللُّورين؛ حيثُ ثار الفلاَّحون - أيضاً - في الوقت الذي أسَّس فيه **Scherding** هوتروغبرينيل جمعيَّات مُورافيا، وفي الوقت الذي انتشر فيه في سويسرا وبُوهيميا وهُولندا مذهب (تجديد المعمُوديَّة).

وفي أثناء هذه الحركة الرّائعة التي حرَّكت قسماً من أُورُوبا حتَّى أعوام 1535، تاركةً في كُلِّ الأنحاء آثاراً عميقة، توقَّف اليهُود عن أنْ يكونوا كَبْشَ فداء، ولم يَعُدْ الفُقراء يثورون ضدَّهم والبُؤساء والمعوزون.

هل كانوا سُعداء - أيضاً - في البلاد الكاثُوليكيَّة؟

نعم؛ لأنَّهم - أيضاً - لم يبقوا الأعداء الوحيدين والأساسيِّين للكنيسة، ولم تَعُدْ الكنيسة تخشاهم، والبرُوتستانت جعلوا اليهُود منسيِّين، فوُجُودهم هدَّدَ المفهوم القديم للدَّولة

---

(72) الحذاء الفدرالي.

الكاثُوليكيَّة، وهذا المفهوم المَدَني هُو الذي جَلَبَ لبرُوتستانت فرنسا وإيطاليا وإسبانيا اضطهادات مثيلة بالتي حَدَثَتْ لليهُود.

غير أنَّه بعد مجمع ترانت اهتمَّت البابويَّة الإصلاحيَّة ـ من جديد ـ باليهُود، فَتَرْكُ الأفكار الدِّينيَّة أدَّى في إيطاليا إلى تقارب بين بعض فئات اليهُود ومُختلف طبقات المُجتمع.

أوّلاً؛ الإنسيُّون الشُّعراء، كانوا يُعاشرون العُلماء والفلاسفة والأطبَّاء اليهُود، هذه الحالة الاجتماعيَّة بدأت في القرن الرّابع عشر؛ حيثُ رأينا أنَّ لدانت صديقاً يهُوديّاً **Manoello** ابن عمٍّ الفيلسوف **Romano**، واستمرَّت في القرن الخامس عشر والسّادس عشر.

فصار الألماني المُلِّم **Pic De La mirandole** إيلي الميديغو يُعلِّم الميتافيزيقيا عَلَنَاً في **Padoue** وفي فلورنس، أمَّا ليون العبري؛ فقد أصدر حواراته الأفلاطُونيَّة حول الحُبِّ، أمَّا الطَّبَّاعون اليهُود مثل العالم سُونسينُو؛ فقد كانوا على علاقة ثابتة مع أدباء الحقبة.

سُونسينُو هذا الذي كانت مكتبته مركزاً للمنشورات العبريَّة دخل في تنافس مع ألدي، وطَبَعَ لكُتَّاب يُونان **Hercule Gonzague** أسقف مُونتُو وتلميذ اليهُودي بُونبُونازُو دي بُولُونيا قبل رسائل جاكُوب مانتينُو الذي ترجم أعمال ابن رُشْد، بينما أُمراء آخرون شجَّعوا أبرهام دي بالم في عمله كمُترجم.[73]

وليس ـ فقط ـ فئة غير المُؤمنين والشَّكَّاكين، إنَّما ـ أيضاً ـ الهلنستيُّون واللاَّتينيُّون وعَبَدَةُ زيُوس وأفرُوديت، عملوا كذلك مع اليهُود، لكنْ؛ أيضاً الأسياد الأشراف والبُورجوازيُّون كانوا يفعلون الأمر نَفْسه، (قال الأسقف **Maiol** مايول[74]: يُوجد أشخاص ذوو مكانة من رجال ونساء هُمْ مجانين وعديمو الإحساس؛ إذْ إنَّهم يستشيرون اليهُود بأصغر أُمُورهم، ويُعاشرون ويتردَّدون على البُيُوت وقُصُور الكبار ومساكن الضُّبَّاط والمُستشارين، أُمناء السِّرِّ والنُّبلاء في المُدُن ـ كما في الحُقُول ـ لم يكونوا يكتفون باستقبال اليهُود، بل كانوا يذهبون لزياراتهم، والأحسن من ذلك؛ كانوا يحضرون احتفالاتهم الدِّينيَّة).

---

(73) أبراهام دي بالم ترجم إلى اللاَّتينيَّة الجُزء الأكبر من ابن رُشْد، واستخدموا ترجماته في الجامعات الإيطاليَّة حتَّى نهاية القرن السّابع عشر.

(74) الأيَّام الشّعريَّة ـ ترجم إلى الفرنسيَّة، باريس 1612، الجُزء السّابع، مكر اليهُود.

(يُوجد أشخاص بيننا ـ يقول أيضاً مايُول ـ يـتردَّدون علـى الكُنُس ، ويُبجِّلونـها باعتقـاد باطل) .

ثُمَّ يُوبِّخهم ويصرخ : (أنتم تسمعون اليهُودَ في أيَّام أعيادهم يرنُّـون بـالبُوق ، فـتركضوا مع عائلاتهم كي تُشاهدوهم) .

استمرَّ الأمر كذلك خـلال القـرن السّـابع عشـر ، كـانوا يذهبـون إلـى فـيراري **Ferrare** لسماع عظـات يـهُوذا أذايـل **Judas Azael** وفـي عـام **1676** ، هـدَّدَ البابـا إنوسـنت بالحرمـان وبغرامة قدرها **15** دوكاً للذين يأمُّون الكُنُس ، إذاً ؛ هل كان الباباوات يخافون على مُؤمنيـهم من تأثير اليـهُود؟ بعـد الـهزَّة الرّهيبـة التي هـزَّت الكنيسـة كـانوا يُريـدون كفالـة أمـان العقيـدة الكاثُوليكيَّة .

(يُمكن لنا أنْ نتحمَّل التّلمُود ، هكذا كان يُقـرِّر مجمـع مُؤتمـر **Trente** ، وذلـك بحـذف الشّتائم التي يحتويها ؛ إذْ إنَّ أجزاء من التّلمُود يُمكن لها أنْ تخدم بالدّفاع عن الإيمان وإظهار لليهُود ، وعن مدى عنادهم) .

لم يَكُن الباباوات مـن هـذا الـرّأي ، وبعـد وشـاية مـن يـهُودي مُـهتدٍ اسـمه **Salomone Romano** أحرق جُول الثّالث **Jules3** التّلمُود في رُوما والبُندقيَّة **Venise** .

وبناء علىطلـب مُهتدٍ آخـر ؛ هُـو فيتُّوريُـو إليـانُو **Vittorio Eliano** أدانـه بُـول الرّابـع **Paul4** ، وكذلك فعل بيُوس وكليمان .

أمَّا الكنيسة الرُّومانيَّة التي كانت حتَّى الآن عطوفة مـع اليـهُود ؛ أصبحـت بعـد الـرّدَّات العقائديَّة واللاَّهوتيَّة التي تبعت الإصلاح الحاكمَ الوحيدَ والسُّلطة الفريدة تقريباً التي تضطهد اليهُوديَّة بشكل مُنظَّم ، أعـاد بـول الرّابـع فعَّاليَّـة القوانـين الكَنَسـيَّة القديمـة ، فحـرق المـاران الـ **Marranes** ، أمَّا بُول الخامس بعد أنْ أصدر دُسْتُوره ضدَّ اليهُود ؛ طَرَدَهُـم مـن بـلاده عـدا رُوما ، وبمُجرَّد أنْ يدخلوا إلى إيطاليا يطردونهم من نابولي وجنوة وميلانو .

كان هُنا هَمٌّ آخر يشغل بال الكنيسة ، طَرْدُ اليـهُودَ ، وحَـرْقُ كُتُبـهم ، كـان عمـلاً جيِّـداً ، لكنَّ إهداءهم كان أفضل .

كان ذلك الاهتمام المُستمرّ للاَّهوتيِّيْن والحُكَماء المسيحيِّيْن والآباء. في القرن الخامس عشر؛ اهتمَّت المجامعُ بالتّبشير والإهداء لليهُود، فمجمع بال **Bâle** أمر بتبشير اليهُود في ألمانيا، وأعطت ميِّزات هامَّة جداً للمُهتدين، في القرن السّادس عشر؛ أجبر البابا واتُ اليهُودَ على حُضُور بعض العظات، ووجَّهوا لهم الكلمات الجيِّدة مع مُرتدِّيهم أنفسهم.

ثُلْثُ يهُود رُوما كان يجب عليهم أنْ يكونوا حاضرين بالتّناوب أثناء العظات، وبينما كان سادوليه **Sadolet** في أفينيون ينتقص من الامتيازات البابويَّة المُعطاة لليهُود، وبينما كانوا يفرضون على الكُنُس عشرة دوكاً **Dix Ducats** كضريبة سنويَّة لتعليم الذين يُريدون التّخلِّي عن اليهُوديَّة، كان بول الرّابع يبني بُيُوتاً للضّيافة؛ حيثُ كانوا يُطعَمُون، ويُلبَسون، ويعتنون بمُريدي التّنصُّر.

أمَّا الحُكَّام الآخرون؛ لم يكن لهم نَفْس دوافع الباباوات حتَّى يهتمّوا باليهُود، كما أنَّه - مُنذُ القرن السّادس عشر - توقَّفوا عن التّشريع ضدَّ اليهُود، فلم نَعُدْ نجد في ألمانيا إلاَّ مرسوم فرديناند الأوَّل المُتعلِّق بالرِّبا اليهُودي، وبعض القرارات في بُولُونيا، ولاحقاً؛ دفاعات لويس الخامس عشر ولويس السّادس عشر. لكي نجد تشريعاً ضدَّ اليهُود يجب أنْ ندرس رُوسيا الحديثة ورُومانيا وصربيا، وهذا ما سنفعله الآن.

مُناهضة اليهُوديَّة تتضمَّن - خاصَّة - التّنكيد والإهانة والإذلال، الشّخص الشّعبي كان يستمتع بالسُّخرية من اليهُود، وغالباً ما كان الأكابر يُقدِّمونهم كمشهد مسرحي، ليون العاشر بابا باذخ ومُترَف كان يحبُّ التّهريج - وكان عنده ناسكون مُكلَّفون بتسليته بنُكاتهم - فكان يقوم بإجراء مُسابقات لليهُود، وكان يُشاهد ذلك من أعلى شُرفاته، يلمح المشهد؛ إذْ إنَّه كان عنده قصرْ نَظَرَ (ميوب) **Myope** وخلال كرنفال رُوما كان الشّعب يسخر ويهزأ من دَفْن الحاخامات، وكانوا - غالباً - يسيرون في شوارع المدينة، فكُنَّا نرى يهُوديّاً مُمتطياً حماراً باتِّجاه مُعاكس، ماسكاً ذنب الحيوان بيدَيْه.[75]

---

(75) رُودُو كاناتشي، الكرسي المُقدَّس واليهُود، باريس 1891.

وعلى أبواب حاراتهم المُنعزلة كانوا ينحتون أُنثى الخنزير، وكانوا - أحياناً - يُحيطونها بمجموعات من الدّاعرات بينها يظهر الحاخامات[76]، الخنزيرة ترمز إلى الكنيس، كذلك عند الإسرائيليِّيْن كان يُرْمَزُ للكنيسة الرُّومانيَّة بالكلمة العبريَّة خنزير.

وكانوا يُذكِّرون اليهُود بها دوماً، وقد روى أحد الرَّسَّامين أنَّه في أحد الأيَّام في فاكنسايل أنَّه رَسَمَ خنزيرة على مصاريع تابوت العهد لأحد الكُنُس، كانوا قد كلَّفوه بتزيينه.

عند العُلماء وعند اللاَّهوتيِّيْن أصبحت مُناهضة اليهُوديَّة عقائديَّة ومبدئيَّة.

كانوا يُريدون أنْ يسترجعوا اليهُودَ، لكنْ؛ بلطافة، لم يعد هُناك مسألة حَرْق كُتُبهم، لكنْ؛ ترجمتها، فكانوا يقولون إنَّه - الآن - أصبح الإيمان المسيحي مُتجذِّراً بقُوَّة لا بأس بها، حتَّى بإمكاننا أنْ ننشر أعمال اليهُود بدُون خطر وخوف كما فعلنا بأعمال الآرسيِّيْن والهراطقة الأُخر، وهكذا نستطيع أنْ نعرف وسائل اليهُود في الحرب الكلاميَّة والكتابيَّة، وبذلك نستطيع أنْ نُحاربهم بفعَّاليَّة، هذه الدّراسة كان لها نتيجة على خلاف ما كان مُتوَّقعاً، ففي سبر آغوار الفكْر اليهُودي تقرَّبوا منهم، وأصبحوا محبوبين أكثر، والأشخاص الذين تهيَّؤوا لتفسير الكتاب المُقدَّس - علميَّاً - مثل ريشار سيمون بواسطة أبحاث التّلمُوديِّيْن والعبرانيِّيْن، لم يكونوا ليستطيعوا أنْ ينظروا بعين البُغض إلى الذين يأخذون عُلُومهم.

آخرون كانوا قلقين لمعرفة في أيِّ زمن سوف يُستدعى اليهُود إلى المُجتمع المسيحي، وكان القرن السّابع عشر مُلائماً لمُجادلات حول استدعاء اليهُود، في فرنسا كانت مسألة معرفة ما إذا كان اليهُود سوف يُستدعون في نهاية العالم أو قبل قُسمت بين بُوسويه والـ **Figuristes** الذين كان يقودهم دُوغة **Duguet**[77] وفي إنكلترا أعلنت الألفيَّات عن عودة اليهُود، وقد ازدهرت خُصُوصاً في القرن الثّامن عشر؛ حيثُ خلاله وصفوا الأزمنة

---

(76) لُوثر، تراكتاتُوس دي شمهمفُوراش كانوا يُسمُّون هذه المجموعات بهذا الاسم، وأصل هذه الكلمة هُو اسم الله ملفوظاً بالتّفصيل، وهُو رُباعي اللّفظ؛ يُقرأ هكذا "يود، هي أفان - هي" دمونك دليل الضّالِّين" من هذا الاسم قال ابن ميمُون "قبل العالم لم يكن إلاَّ هذا الاسم المُبارك؛ اسمه وحده".

كان اسماً عجيباً ساحراً كانوا ينسبون إليه مقدرة سحْريَّة، والحاخامات كانوا يلبسون لباس السَّحَرَة.

(77) قواعد من أجل فَهْم الكتابات المُقدَّسة 1723 - بوسويه - دراسة حول التّاريخ العالمي، جُزء ثان رُونده، حول استدعاء اليهُود، باريس 1778. رسالة مجهولة حول عودة اليهُود القريبة، باريس 1789، إلخ..

المُقبلة للألفيَّة أمثال تاورز ـ وينشستر ـ بللامي ـ ورثينكتون، وفي ألمانيا كان لهذا الرّأي مُدافعون: مثل بنغل **Bengel**. وفي فرنسا؛ لم يكن ـ فقط ـ المُختلجون سان ميداد هُمْ الذين يُنادون بدُخُول قريب لليهُود إلى الكنيسة، لكِنْ ـ أيضاً ـ نُشاهد أناساً يدعمون هذا الحلم، وفي عام **1809**، حدَّدَ الرّئيس أجية اهتداء اليهُود في عام **1849**. [78]

في القرن الثّامن عشر نَعُم اليهُود بهُدُوء كبير في جميع أنحاء أُورُوبا، في بُولُونيا ـ فقط ـ كانوا يعيشون بشكل سيِّئ، كونهم عاشوا جيِّداً، لقد كانوا ـ هُنا ـ أغنياء حتَّى مُنتصف القرن السّابع عشر؛ أثرياء، مُقتدرين، عاشوا سواسية مع المسيحيِّيْن، يُعامَلون مثل باقي الشّعب الذي يعيشون وسطه.

لكنَّهم لم يستطيعوا إلاَّ أنْ يُمارسوا تجارتهم الاعتياديَّة ومثالبهم وحُبَّهم للذّهب. وبما أنَّهم مُسيطَرٌ عليهم من قبَل التّلمُوديِّيْن، فلم يقدروا أنْ يُنتجوا سوى شارحي التّلمُود. كانوا جُباة ضرائب، مُقطِّري كُحُول، مُرابين، ومُتعهِّدي الإقطاعات. كانوا حُلفاء النُّبلاء في أعمالهم القَمْعيَّة القذرة.

وعندما ثار كُوزاك أوكرانيا ورُوسيا الصُّغرى بقيادة شميلميكي ضدَّ القَمْع البُولوني، كان اليهُود مُتعاونين مع الأسياد، لذلك كانوا أوَّل من ذُبح، خلال عشر سنوات قتلوا أكثر من مائة ألف، كما أنَّهم قتلوا العدد نَفْسه من الكاثُوليك، وخُصُوصاً من اليسُوعيِّيْن **Jesuits**.

في الأماكن الأُخرى؛ كانوا مُزدهرين، ويعيشون برخاء. وفي الإمبراطُوريَّة العُثمانيَّة كانوا يدفعون الضّريبة المفروضة على الأجانب، ولم يكن عليهم أيُّ إجراء آخر. لكنَّ ازدهارهم لم يكن في أيِّ مكان كما في إنكلترا وهُولندة، لقد أقاموا في البلاد المُنخفضة عام **1593**، ماران هربوا من محاكم التّفتيش، فأسَّسوا جالية هامبورغ، ثُمَّ لاحقاً تحت حُكْم كراموبل **Cromwoe ll** في إنكلترا؛ حيثُ كانوا قد طُرِدوا منها قبل قُرُون، وأرجعهم إليها مناسيه بن إسرائيل.

---

(78) غرايغور، تاريخ الفرق الدِّينيَّة، باريس 1825، جُزء ثان.

الهُولنديُّون مثل الإنكليز ناسٌ عمليُّون وفطنون حذرون، استخدموا الذّكاء التّجاري الذي عند اليهُود، وجيَّروه لثرائهم الخاصِّ. هُنالك تجانُسات لا ريب فيها بين عقليَّات هذه الأُمم والذّهن اليهُودي، بين اليهُودي والهُولندي الإيجابي أو الإنكليزي.

هذا الإنكليزي الذي هُو كما يقول إميرسون **Emerson** له طبع ذو ثنائيَّة ثابتة يتعذّر تغييرها جعلت من هذا الشّعب الحالم الأكبر والعملي الأكثر في هذا العالم، وباستطاعتنا أنْ نقول الشّيء ذاته عن اليهُود.

في فرنسا؛ أُمِر اليهُود بأنْ يستقرُّوا في بُوردو، وذلك من قِبَلِ هنري الثّاني؛ حيثُ يتمتَّعون بامتيازات ثبَّتها وأقرَّها لهم هنري الثّالث، لويس الرّابع عشر، لويس الخامس عشر، لويس السّادس عشر، فربحوا ثروات طائلة في التّجارة البَحْريَّة. أمَّا في المُدن الفرنسيَّة الأُخرى؛ فقد سكن كثير منهم في باريس أو أيِّ مدينة أُخرى انتقوها بسبب التّساهل الإداري. في الألزاس - فقط - كان يُوجد تجمُّع قوي. وضعهم الممتاز أثار تظاهرات عنيفة. كانوا - أحياناً - يحتجُّون مع إكسبيي: "إنَّنا نرى بألم مُنقطع النّظير أنَّ هُناك أناساً حقيرين لم يُستقبلوا إلاَّ بصفتهم خَدَمَاً عندهم أثاث ثمين، ويعيشون برفاهيَّة، يلبسون الذّهب والفضَّة على ثيابهم، يتزيَّنون ويتعطَّرون، يتعلَّمون المُوسيقى الآليَّة والصّوتيَّة، ويركبون الخيل لمُجرَّد التّسلية الصّرفة". غير أنَّه من يوم ليوم صار هُناك تسامح أكبر تجاههم. اقترب النّاس منهم أكثر. لكنْ؛ هل هُمْ اقتربوا من العالم بدورهم؟

- كلا. بدوا وكأنَّهم تعلَّقوا أكثر فأكثر بوطنيَّتهم الدِّينيَّة. وكُلَّما راودتهم فكْرة القَابَالاة الـ **Kabbal** كانوا ينتظرون المسيح بثقة تتجدَّد كُلَّ يوم، ولم يُستقبَلُ مسيحٌ كذَّاب كما استقبل - بسرُور - في القرن السّابع عشر والثّامن عشر. والقَابَاليُّون أخذوا يجمعون الحسابات حتَّى يعرفوا تماماً الموعد الدّقيق لمجيء المُنتظَر المرغوب.

وحوالي عام **1666**، فترة حُدِّدت على أنَّها فترة مُقدَّسة، فكُلُّ يهُود الشّرق تطيَّروا بنُبُوءة زباتاي زيفي من سميرن **Smyrne**؛ حيثُ أعلن أنَّه المسيح، انتشرت الحركة في هُولندة وحتَّى في إنكلترا، وكلٌّ واحد ينتظر من ملك المُلُوك هذا - هكذا سمّوا زباتاي **Zabbatai** إقامة أُورشليم والمملكة المُقدَّسة.

الفرح نَفْسه انتشر عـام 1755، عندمـا قـدَّم نَفْسـه فرانـك **Frank** فـي بُودولـي **Podolie** على أنَّه المسيح الجديد. حول هـؤلاء النُّجُوم تشكَّلت عـدَّة مذاهـب دينيَّـة: مذهـب الدُّونما الذي ارتبط بالإسلام، ومذهب الهاسيديم والنّيو - هايسيديم - والثّالوثيُّون الذيـن اقـتربوا مـن المسيحيَّة وهُمْ يبشّـرون بعقيـدة الإلـه الواحـد فـي ثلاثـة[79]. هـذه الآمـال التـي كـانت تتبنَّاهـا إشرافيَّة القَبَاليِّيْن ساهمت في عزل اليهُود على حدة (الأنوار الفعليَّـة) لكـنَّ الذيـن لـم ينغـرّوا بأفكار الحالمين انحنوا تحت نير التّلمُود، نير أقسى وأذلّ على كُلِّ حال. فمُنذُ القـرن السّـادس عشر تزايد الطُّغيان التّلمُودي عوضاً عـن أنْ يخفّ، فـي هـذه المرحلـة أصـدر **Joseph caro** و **Le Sehulchan Aruch** (جُوزف كارو) (شُولشان آروخ) قانوناً تلمُودياً يُنظِّم بقوانـين آراء الحُكَماء - وذلك حسب التّقاليد الصّادرة عن الحاخامات -.

وحتَّى يومنا هذا عاش يهُود أُورُوبـا تحت ضغـط هـذه المُمارسات الفظيعـة[80]. أمَّـا يـهُود بُولُونيا؛ فقـد زادوا علـى جُـوزف كـارو، وصقلـوا الحُجَـجَ الدّقيقـة التـي كـانت كبـيرة جـداً فـي شُولشـان آروخ، وزادوا إضافـات، ووضعـوا فـي التّعليـم الدّيـالكتيكي طريقـة (بيلبـول) (حبَّات الفلفل).

إذاً؛ كُلَّما أصبح العالم ألطف معهم تراجـع اليـهُود (الجمـاهير علـى الأقـلّ) وانكمشـوا علـى أنفسـهم فـي سـجنهم، وارتبطـوا بعلاقـات أضيـق، وعجزهـم كـان غريبـاً خارقـاً، وانحطاطهم الفكْري لم يكن له مثيل إلاَّ تدنِّيهم النَّفْسي، هذا الشّعب كان يبدو ميِّتاً.

غير أنَّ الثّورة ضدّ التّلمُود انطلقت من اليهُود أنفسهم. ففي القرن العاشر ماردوشـه[81] كُولكوس من مدينة البُندقيَّة **Venise** كان قد نسب كُتُباً ضدَّ الميشنا. وفي القـرن السّـابع عشـر حارب أوريـيل أكُوستا **Uriel ACosta**[82] - بعنُـف شـديد - الحاخامـات، أمَّـا اسـبينوزا[83]؛ فلم يكن معهم لطيفاً أبداً. لكنَّ مُناهضة التّلمُود ظـهرت - خاصَّـة - فـي القـرن الثّـامن عشـر، بدأت أوَّلاً بـين المتديِّنين؛ فكـان منـهم الزّوهريـت **Zoharites** تلامـذة فرانـك، أعلنـوا أنَّـهم

(79) بيتربير، اليهُوديَّة وفرقها.

(80) لا يزالون يعيشون - اليوم - في رُوسيا وبُولُونيا وغاليسيا.

(81) انظر مُؤلَّف فُولف، المكتبة العبريَّة، جُزْء ثان، ص 798، هامبورغ، 1721.

(82) كتاب الحياة الإنسانيَّة، أصدره ليمبورش، 1687.

(83) تراكتاتُوس، لاهوت وسياسة

أوَّلاً بين المتديِّنـين ؛ فكـان منهم الزّوهريـت Zoharites تلامـذة فرانـك ، أعلنـوا أنَّـهم أعـداء حُكَماء الشّريعة ، علـى كُلِّ حـال ؛ كـان هـؤلاء المُنافسـون للحاخامـات عـاجزين أنْ يسـحبوا اليهُود من انحطاطهم .

كان يجب لبدء هذه العمليَّة أنْ يكون هُناك رجل يهُودي وفيلسوف في الوقت نَفْسه هُـو مُوسى مندلسون عارض التّلمُود بالتّوراة ، فترجمها إلى الألمانيَّة عام 1779 :

كانت الثّورة الكُبرى ! كـانت أوَّل ضربـة إلـى نُفُـوذ الحاخامـات ، أمَّـا التّلمُوديُّـون الـذي كانوا سابقاً يُريدون قتل كُولكُوس Kolkos وسبينوزا Spinoza ؛ هاجموا مندلوسـن بعُنـف ، ومنعوا قراءة التّوراة التي ترجمها تحت طائلة الحرمان .

هذا الغضب ذهب أدراج الرّيـاح ؛ لأنَّ مندلسـن تُبِـعَ . فكـان هُنـاك تلامـذة لـه ، شـباب أسَّسوا مجلَّة Le Meassef ، دافعت عن اليهُوديَّة الحديثة ، وحاولت نَزْع اليـهُود مـن جَهْلـهم وانحطاطهم ، وهيَّأت لتحرُّرهم النَّفْسي .

أمَّا عن تحرُّرهم السِّياسي ؛ فإن الفلاسفة الإنسيِّيْن في القرن الثّاني عشر قد عملوا علـى جَعْله مُمكناً .

ولو كان فُولتير Voltaire كارهاً لليهُود بشكل حماسي ، إلاَّ أنَّ الأفكار التي قدَّمـها هُـو والموسوعيُّون لم تكن مُعادية لليهُود ، بما أنَّها كانت أفكاراً عن الحُرِّيَّة والعدالة العالميَّة .

من جهة أُخرى ؛ ولو أنَّ اليهُود عاشوا مُنعزلين في الدُّول ، لكنْ ؛ كان لهم علاقات مـع الذين يُحيطون بهم .

الفصل السّابع:

الأدب المُناهض لليهُوديَّة والأحكام السَّلَفيَّة

مُنذُ القرن الثّامن حتَّى الثّورة الفرنسيَّة لم ندرس إلاَّ مُناهضة اليهُوديَّة الشَّرْعيَّة والشّعبيَّة. وقد رأينا تكوُّن التّشريعات شيئاً فشيئاً ضدَّ اليهُود، تشريعات كَنَسيَّة أوّلاً، ثمَّ مَدَنيَّة، وذكَّرنا بأيَّة طريقة عُبِّئت الجماهير - جُزئيّاً - بواسطة المراسيم البابويَّة والمُلُوك والجُمهُوريَّات، وبقصد كُرْه اليهُود وإساءة مُعاملتهم، وكيف أنَّ سُخْط الشّعب والمجازر التي نفَّذها والشّتائم والإذلالات التي أسرف فيها كان لها ردَّة فعل على التّشريعات. ولقد بيَّنَّا أنَّه حتَّى في القرن الخامس عشر تزايدت الضّرائب المُثقلة على اليهُود في كُلِّ عام، لدرجة أنَّها بلغت في هذه المرحلة أقصى حُدُودها، ثُمَّ بعد ذلك انخفضتْ وتوقَّفتْ البنُود والمراسيم عن أنْ تكون مُطبَّقة بقساوة، وسقطت العادة، وبَطُل مفعولها ببُطء، وقلَّتْ أو انعدمت القوانين الجديدة ضدَّ اليهُودي، وسار بذلك نحو التّحرُّر.

لكنْ؛ هُناك نوع من مُناهضة اليهُوديَّة لم نهتمّ به بشكل خاصٍّ.

وواجب علينا أنْ نُعيرها اهتماماً ونتفحَّصها، فبينما كانت الكنيسة والممالك تُشرِّع ضدَّ اليهُود كان اللاَّهوتيُّون والفلاسفة والشُّعراء والمُؤرِّخون يكتبون حولهم.

مُناهضة اليهُوديَّة الكتابيَّة هذه بقي علينا أنْ نُسجِّل دورها وفعْلها وأهمِّيَّتها، فهي لم تنشأ تحت التّأثيرات نَفْسها، وأسباب مُتنوِّعة هي التي وَلَدتْهَا، وبحسب هذه الأسباب كانت تارةً لاهوتيَّة أو اجتماعيَّة عقائديَّة أو هجائيَّة سياسيَّة. ليس باستطاعتنا أنْ نُصنِّف جميع الكتابات التي هي ضدَّ اليهُود في واحدة من هذه الأصناف دُون غيرها، ولكنْ؛ على العكس، قليل منها نستطيع أنْ نُصنِّفه في واحدة من الأنماط، لكنَّنا نستطيع - حسب المُيُول الرّئيسيَّة - أنْ نُدخلها في إحدى الأُطُر التي أشرتُ إليها. مُناهضة اليهُوديَّة اللاَّهوتيَّة هي

الوحيدة التي لها أعمال واضحة وقاطعة مكتوبة بدُون هُمُوم اجتماعيَّة، وإنَّما هذه الأعمال مهما كانت نوعيَّة مُمكن أنْ تكون عقائديَّة وجداليَّة هُجُوميَّة في آن واحد.

فَمُناهضة اليهُوديَّة اللاَّهوتيَّة الأُولى من نوعها كان لها سمات دفاعيَّة. ولم يكن لها لتكون غير ذلك؛ إذْ إنَّهم كانوا يُحاربون اليهُوديَّة ليُمجِّدوا الإيمان المسيحي، ويُثبتون امتيازه.

وفي نهاية القرن الرّابع؛ توقَّفوا عن إنتاج كتابات لإثبات العقائديَّة النّصرانيَّة. فالكنيسة النّاشئة وفي سَكْرة انتصارها اعتقدت أنَّها لم تَعُدْ بحاجة لتبيان تفوُّقها، ولم نَعُدْ نجد في القرن الخامس ما يُمثِّل هذه الكتابات الدّفاعيَّة إلاَّ جدال سيمون وتيوفيل ديفاغريوس[84] التي قلَّدت وانتحلت جدال جازون وبابيكوس لأريستون دي بيللا، ثُمَّ يجب العودة إلى القرن السّابع، لنجد الكُتُبَ الثّلاث لإزودور دي سيفيلا والمُوجَّهة ضدَّ اليهُود[85]. عندما نشأ علم الكلام والفلسفة الكلاميَّة **Lascolastique** عاد الدّفاع الجَدَلي إلى الوُجُود، فكانت الفلسفة الكلاميَّة تخدم العقيدة، لكنَّها خدمة عقلانيَّة تُحاول تفسير الثّالوث الأقدس غيبيَّاً، والمناقشات حول الإسمانيَّة (الفلسفة التي تقول بأنَّ الكُلِّيَّات ليس لها وُجُود، وإنَّها مُجرَّد أسماء)، وحول الواقعيَّة التي لم يكن لها هذه الأهمِّيَّة في العُصُور الوُسْطى إلاَّ لأنَّهم طبَّقوا هاتَيْن النّظريَّتَيْن على تفسير الثّالوث الأقدس.

كُلُّ غيبيَّات هذه المرحلة كانت تدور حول طبيعة وأُلُوهيَّة يسُوع المسيح. ومن هُنا؛ كانت الأهمِّيَّة بالنّسبة للاَّهوتيِّين المدرسيِّين بأنْ يُدافعوا عن هذه الأُلُوهيَّة ضدَّ الذين يُنكرونها. والرّافضون الأكثر صلابة لم يكونوا من اليهُود؟ لذلك؛ كان ضروريَّاً إقناع هؤلاء المُتصلِّبين، فالكتابات الدّفاعيَّة كانت كُلُّها مُوجَّهة لليهُود.

وكان لها هدفان: فكانت تُدافع عن العقائد والرُّمُوز الكاثُوليكيَّة، وكانت تُحارب اليهُود. كانت تقف في وجه التّيهُّود الذي كانت تخشاه الكنيسة وأحبارها وفلاسفتها والمُدافعون عنها.

وكانوا يُصوِّرون اليهُودي على أنَّه الذّئب الذي يحوم حول القطيع ليخطف الخراف من حياتهم السّعيدة. بهذه المشاعر كَتَبَ سيدنيوس[86] وثيوفان أعمالهم[87]: ضدَّ اليهُود

---

(84) انظر داشيري، جُزء عاشر وخامس عشر.

(85) ايزودوردي سيفيل، الشّهادة ضدَّ اليهُود.

(86) مُجادلة ضد اليهُود، أويرا، ص186.

(87) ضدَّ اليهُود، جُزء سادس.

Contra Judes، وكَتَبَ جيلبير كريبان Gilber Crepin والأب ويستمنستر Westminster في الجَدَل اليهُودي ضدَّ المسيحيَّة[88] شُكِّلَتْ هذه الكتابات للتّنوُّع؛ إذْ كانوا يُعيدون إنتاج البراهين الكلاسيكيَّة لآباء الكنيسة، ويصيغونها بقوالب مُشابهة. وعندما يُحلِّل المرء واحدة منها، وكأنَّه حَلَّلَ الكُلَّ.

كما أنَّ دراسة بيير دي بلوا[89] "ضدَّ مكر اليهُود"، فهُو يُعدِّد في ثلاثين فصلاً شواهد من العهد القديم والأنبياء، وذلك لإثبات الثّالوث الأقدس والوحدة الإلهيَّة للآب والابن والرُّوح القُدس، وحقيقة يسُوع المسيح، وسُلالة النَّسَب من الدّاووديَّة؛ أيْ النّسب من داود لابن الإنسان. ولتجسُّده.

وينتهي مُبرهناً أنَّ الشّريعة انتقلت للأغيار الأُمميِّين، وأنَّ اليهُود توجَّهوا إلى الرّفض والجُحُود، لكنَّ باقي اليهُود سوف تهتدي، وتُنقذ يوماً ما. وقد اتَّجه كثير من الكُتَّاب في أعمالهم هذا التّوجُّه[90]. كُلُّ هذا الأدب كان مُنحطّاً للغاية، وكُلُّ هذه المُناقشات والكتابات والحوارات لم تُعطِ نتيجة، ولم تُحقِّق هدفها. فهي لم تستشر إلاَّ الكَهَنة، ولم تتوجَّه إلى المُهتدين. وإذا قرأهم الحاخامات لم يُعيروها اهتماماً بما أنَّ شرحهم للكتاب المُقدَّس[91] وعُلُومهم التّوراتيَّة كانت تفوق دراسات النُّسَّاك الطّيِّبين.

فهؤلاء لم يكن لهم الغلبة إلاَّ نادراً. على كُلِّ حال؛ فهؤلاء لم يُقنعوا ـ أبداً ـ الذين يُريدون إقناعهم واستمالتهم، وبما أنَّهم لم يعرفوا الشُّرُوحات التّلمُوديَّة والتّوراتيَّة التي ينهل منها اليهُود أسلحتهم وقواهم، لذلك لم يستطيعوا مُحاربتهم بجدوى وفعاليَّة. في القرن الثّالث عشر؛ تغيَّرت الأُمُور، فانتشرت أعمال الفلاسفة اليهُود، ومارسوا تأثيراً كبيراً على اللاَّهوتيِّين[92] الكلاميِّن لذلك العصر.

فأشخاص مثل إسكندر دي هال قرأ ابن ميمُون (حاخام مُوسى) وابن جُبير، وحافظوا على بصمة العقائد التي عرضوها في "دليل الضّالِّين"، و"نبع الحياة".

---

(88) مينيه.

(89) كتابة ضدَّ مكر اليهُود، أوبرا، باريس 1519.

(90) أوبرا، باريس 1651.

(91) مينيه.

(92) مينيه.

استيقظ حُبُّ الاستطلاع، وصار النّاس يُريدون معرفة الفكْر والجَدَليَّة اليهُوديَّة، للتّفلسف أوّلاً، ثمَّ للنّضال ضدَّ اليهُود، لكنْ؛ بجدوى أكبر.

أمَّا الدُّومينيكان ريمون دي بينافور مُعرِّف جاك الأوَّل دأراغون وأكبر هادي لليهُود؛ دعا كُلَّ الدُّومينيكان لتعلُّم العبريَّة والعَرَبيَّة لإقناع اليهُود بشكل أفضل ولُمحاربتهم بشكل أفضل.

فنظَّم مدارس لتعليم هاتَيْن اللُّغتَيْن للنُّسَّاك، وكان هُو مُوجِّه الدّراسات العبريَّة والعَرَبيَّة في إسبانيا. فَخَلَقَ بذلك مجموعة من المُدافعين عن النّصرانيَّة، لا يكتفون باختيار مقاطع من العهد القديم تُجسِّد مُقدَّماً الثّالوث الأقدس، وتتنبَّأ بالمسيح، لكنَّهم يُحاولون تفنيد ودَحْض الكُتُب الحاخاميَّة والمزاعم التّلمُوديَّة.

من هذه الحركة خرجت مجموعة بُحُوث وبراهين، كُلُّها دُرُوع معاقل وحُصُون الإيمان. في هذه الكتابات كان اليهُود "قد ذُبحوا بسيفهم نَفْسه"، واختَرقوا (بحَرْبتهم) أو (برُمحهم) ويعني ذلك أنَّهم أقنعوهم بخزيهم وعارهم، وأنَّهم أقنعوهم بالأكاذيب باستعمال براهينهم الخاصَّة كما يراها النُّسَّاك، أو كانوا يعتقدون أنَّهم يجدونها في التّلمُود.

كُلُّ هذه الهجائيَّات اللاَّهوتيَّة، وأكثرها من التي عُرِفت هي ما نشرها الدُّومينيكان ريمون مارتان "شخص مُتميِّز لمعرفته بالكتابات العبرانيَّة والعَرَبيَّة والأعمال اللاَّتينيَّة. [93]

هذه الهجائيَّات تحمل عناوين مُتميِّزة جداً: "خِطام اليهُود" "وخنجر الإيمان"[94] وهذا الأخير كان الأكثر انتشاراً.

"أمر جيِّد (قال ريمون مارتان) أنْ يأخذ المسيحيُّون سيف عدوِّهم بيدهم ليضربوه به"، وانطلاقاً من ذلك ومن تلك الفكْرة المُنتشرة أنَّ الله أعطى مُوسى الشّريعة الشّفهيَّة شرح للشّريعة المكتوبة والتي تحوي إلهام الثّالوث الأقدس وأُلُوهيَّة يسُوع، أثبت مارتان ـ بواسطة النُّصُوص التّوراتيَّة والتّلمُوديَّة والقَبَاليَّة ـ أنَّ المسيح قد أتى، وأنَّ العقائد الكاثُوليكيَّة غير قابلة للدَّحْض. وفي الوقت نَفْسه، وفي فصلَيْن[95] من كتاب العقيدة اليهُوديَّة هاجم اليهُود، وقدَّمهم كمرفوضين وسيِّئين.

---

(93) أُوغستان جيوستياني، اللُّغة العبرانيَّة، 1566.

(94) بُوجيو فيدي، باريس 1651، انظر كيتيف.

(95) العقيدة اليهُوديَّة، فصل 21 و22.

كان مُؤلَّف بُوجيو فيدي قوياً جداً، وشائعاً في القرن الثّالث عشر والرّابع عشر بين النُسَّاك، وخُصُوصاً الدُّومينيكان المُدافعين المُحتدمين عن الإيمان. فدرسوه، وناقشوه، واعتبروه مرجعاً، وانتحلوه، وصار عدد الكتابات التي ألهمها ريمون مارتان والتي كان فيها البُوجيو فيدي كنموذج يُحتذى.

يُمكن أنْ نُعدِّد فيها كتابات بُورشي سالفاتيكوس[96] وبيير دي برشلونه[97] وبيتر وغلاليني.[98]

غير أنَّ علم مارتان نَفْسه لم يكن كاملاً، وكما سوف نرى في المُجادلات كان الحاخامات - غالباً - على حقٍّ على مُنافسيهم.

مُناهضو اليهُوديَّة كانوا بحاجة لأسلحة أفضل: فأعطاهم إيَّاها الفرنسيسكاني نيقولا دي ليرا.

نيقولاي دي ليرا كان قد دَرَسَ - بدقَّة وعناية - الأدب الحاخامي وعُلُومه العبرانيَّة ووساعتها وتنوُّعها وقُوَّتها، جعلوا النّاس تعتقد أنَّه من أُصُول يهُوديَّة، وهذا كان ضعيف الاحتمال. على كُلِّ حال؛ كان هُو رائد التّفسير الحديث للتّوراة، هذا التّفسير الذي هُو وليد الفكْر اليهُودي، والذي فلسفته القائمة على العقل في المعرفة والأخلاق هي يهُوديَّة صرفة. فكان هُو السّلَف لريشار سيمون. وأعلن نيقولاي دي ليرا أنَّ الشّرح الحَرْفي لنصِّ الكتاب المُقدَّس يجب أنْ يكون الأساس للعلم الكَنَسي، وعندما يُوضِّح النَّصَّ ومعانيه يجب أنْ يستخرج منه المعاني الأربعة: الحَرْفيَّة، والمجازيَّة، والأخلاقيَّة، والمعنى الباطني التّأويلي[99]. في المُؤلَّفات: Postilla والـ Moralitates التي جُمعت وأُسِّست لاحقاً[100] في عمل واحد، عرض نيقولاي دي ليرا أبحاثه، فأصبح - مُنذُئذ - منهلاً ووسيلة للدّفاع والهُجُوم يُستقى منه في الهجائيَّات ضدَّ اليهُود، وفي الدّفاع عن الأناجيل ضدَّ انتقادات اليهُود اللاّذعة؛ إذْ أنَّ نيقولاي دي ليرا في مُؤلَّفه de Messia[101] المسيح، قد دحض انتقادات اليهُود التي أجروها

(96) التّوراة العبرانيَّة، ص 1124، فُولف، باريس 1629.

(97) حول بيير دي برشلونة - المكتبة اللاّتينيَّة.

(98) سُونسينُو، 1518.

(99) العُصُور الوُسْطى اعتقدت بالمعنى الرُّباعي للتّوراة.

(100) رُوما 1471، عالم التّوراة.

(101) 1481 البُندقيَّة، الحُجَجَ اليهُوديَّة ضدَّ حقيقة الإنجيل.

على العهد القديم. وأُصدر عدَّة طبعات لأعمال نيقولاي دي ليرا، وأضافوا عليها تعليقات وشُرُوح ومُلاحظات وإضافات، فكان هُو في تفسير التّوراة مُعلِّم لُوثر.

لكنْ؛ إذا كانت مُحاربة اليهُود أمر محمُود، فإن الأحمد منه هُو إقناعهم واستمالتهم، وغالبيَّة هؤلاء النُّسَّاك المُجادلين الهُجُوميِّين لم ينسوا ـ أبداً ـ أنَّ أحد أهداف الكنيسة هُو إهداء اليهُود. فبينما كانت المجامع تتَّخذ إجراءات لهَدْي اليهُود، كان الكُتَّاب يجهدون من جانبهم ليكونوا مُقنعين، وكثير منهم كانوا عمليِّين أكثر، فذهبوا أبعد من ذلك، فبحثوا عن أرضيَّة للمُصالحة. وبذلك أراد نيقولا دي كوزا في إجراء بعض التّضحيات ـ مثل قُبُول الختان ـ أنْ يجمع كُلَّ الدّيانات في واحدة، وتكون عقيدتها الأساسيَّة الثّالوث الأقدس. والتّعنُّت اليهُودي في "العند اليهُودي" القديم، والذي يدعم الوحدة الإلهيَّة، تصدَّى لهذه المُحاولات وبشكل عامٍّ؛ لم يُرحِّب بالخُطُوات المسيحيَّة. غير أنَّ الإهداءات لم تكن نادرة، ولا أتكلَّم هُنا ـ فقط ـ عن التي تجري بالاقتناع في الأدب المُناهض لليهُوديَّة، كما في تاريخ الاضطهادات لعب هؤلاء المُهتدون اليهُود دوراً كبيراً. فكانوا ـ بالنّسبة لأبناء دينهم ـ المُنافسون الأعنف والأجرأ والأمكر. وهذه هي الطّبائع العامَّة للمُهتدين، وأمثلة العَرَب الذين اهتدوا للمسيحيَّة أو المسيحيُّون الذين أصبحوا مُسلمين تشهد أنَّ هذه القاعدة فيها قليل من الشَّواذ. مجموعة من المشاعر كانت تُولد عند المُرتدِّين، هذا المزاج السّوداوي النّكد. فكانوا أوَّلاً يُريدون أنْ يُقدِّموا براهين على مصداقيَّتهم. فكانوا يشعرون أنَّ هُناك نوعاً من الشُّبهة تُحيطهم عند دُخُولهم في العالم المسيحي، وكُلُّ تصنُّع الوَرَع الذي كانوا يُظهروه لم يبدو لهم كافياً لتبديد الشُّكُوك.

لم يكونوا يخشون إلاَّ أنْ يُتَّهموا بالفُتُور أو بالتّعاطف مع إخوانهم القُدامى، والطّريقة التي كانت محاكم التّفتيش تُعامل بها المُرتدِّين لم تكن لتُنقص من الخوف الذي كان يشعر به المُهتدون الجُدُد. وكما أنَّهم كانوا يتظاهرون بمُبالغة في الاندفاع والحماس مدعومة ـ غالباً ـ بإيمان حقيقي. وبعضهم كانوا مُقتنعين تماماً أنَّهم وجدوا الخلاص في اهتدائهم، فكانوا يجهدون لاكتساب أبناء دينهم القُدامى إلى المُعتقدات المسيحيَّة.

من بين هؤلاء وجدت الكنيسة أبسل مُبشِّريها[102] ومنهم لم يكونوا ليهتمّوا بنشر التّبشيرات، إنَّما كانوا يُوعظون في الكنائس اليهُود التي أجبرتهم القرارات المجمعيَّة الكنسيَّة

(102) من أجل الأدب المُناهض للسَّاميَّة للمُرتدِّين اليهُود، انظر فُولف: التّوراة العبرانيَّة، الجُزء الأوَّل.

حضُور المواعظ كمُستمعين طيِّعين. وبذلك تعمَّد صمُوئيل ناخمياس[103] باسم مُوروسيني وجُوزف صرفاتي باسم مُونتي[104] والحاخام وايدينروس أقنع عدداً كبيراً من اليهُود في براغ بامتياز الثّالوث الأقدس. وبعضهم زَعَمَ لليهُود أنَّهم تركوا القوانين القاسية الكَنَسيَّة والمَدَنيَّة. وفي حوالي أعوام 1475، مثلاً بيتر شفارتس وهانس بايول هُما يهُوديَّان مُهتدان إلى المسيحيَّة، فقد تسبَّبا بإثارتهم للجماهير في رايتسيون إلى نهب المحاجر اليهُوديَّة.

وفي إسبانيا؛ حرَّض بُول سانتا ماريا هنري الثّالث دي كاستيل على اتِّخاذ إجراءات ضدَّ اليهُود. إنَّ بُول دي سانتا ماريا هذا كان في الماضي يُعرَف باسم سلمون لاوي **Salomon Lévi** دي برغس **de Burgos**، فهُو لم يكن شخصيَّة اعتياديَّة، فهُو حاخام ورع جداً، وعالم جداً، ترك دينه في سنِّ الأربعين بعد مذابح 1351، وتعمَّد هُو وشقيقه وأربعة من أولاده، دَرَسَ اللاَّهوت في باريس، ورُسم كاهناً، وأصبح مطران قرطاجنة، ولاحقاً؛ مُستشار كاستيل. أصدر دراسة حول الكتاب المُقدَّس حوار بين الكافر شاوول والمُهتدي بُول ونشر **Pestille** لنيقولاي دي ليرا طبعة مُطوَّلة **Additiones** مع الشُّرُوح.

وأعماله لم تقف عن هذا الحَدِّ، فنراه مُحرِّضاً ووراء كُلِّ الاضطهادات التي مُورست على يهُود عصره في إسبانيا. ولاحق الكنيس بحقد شرس، غير أنَّه اكتفى في أعماله على المُحاربة اللاَّهوتيَّة.[105]

لكنَّ كُلَّ المُهتدين لم يكونوا شبيهين ببُول دي سانتا ماريا.

كانوا - على العُمُوم - قليلي الثّقافة وذوي ذكاءٍ مُنحطٍّ؛ إذا صدَّقنا بُوج **de Pogge** الذي تعلَّم العبريَّة عند يهُودي مُتعمِّد:

"حيوانات، معتوهون، جاهلون، هكذا يكون اليهُود - عادة - الذين يُريدون التّعمُّد. وهذه الأصناف من المُتنصِّرين أبدوا حقداً كبيراً. وهُمْ كانوا مُثارين من قبَل أبناء دينهم الأوَّل الذين كانوا يكرهون - بشدَّة - مُرتدِّيهم، ولم يُفوِّتوا فُرصة لإساءة مُعاملتهم، لدرجة أنَّه

---

(103) التّوراة العبرانيَّة، ص 1010.

(104) بحث في الغُمُوض اليهُودي. **WELF** التّوراة العبرانيَّة، ص 1010.

(105) انظر فُولف، التّوراة العبرانيَّة، وجُوزف رُود قريغر دي كاسترو، المَدَنيَّة الإسبانيَّة - 1781، ص 235.

أُصدرت قوانين خاصَّة وعديدة تُحرِّم على اليهُود أنْ يرموا الحجارة على المُهتدين، وأنْ يُلوِّثوا ثيابهم بالزّيت والرّوائح النّتنة. وعندما لم يَعُدْ اليهُود يستطيعون أنْ يُسيئوا للمُهتدين صاروا يشتمونهم، ويسخرون منهم، فصار المسيحيُّون الجُدُد يردُّون على الشّتائم بإصدار هجائيَّات ساخرة ضدَّ الحاخامات، مثلما فعل دُون بيدرو وديغوري فالنس، أو بشتم وإيذاء مُنافسيهم بدراسات كبيرة عقائديَّة؛ مثل فيكتور دي كارين **Victor de Carben**[106] هُمْ لم ينسوا اللُّجوء إلى البراهين اللاَّهوتيَّة، لكنَّهم كانوا يُفضِّلون ـ غالباً ـ الاختراع، وحتَّى المُحاربة، وأحياناً؛ يدغمون الاثنَيْن معاً مثل ألفونس دي فلا دوليد (ابنردي بورغوس) الذي نُشر مرَّة واحدة، توافق الشّريعة ودراسات هجائيَّة لاذعة: كتاب معارك الله ومرآة العدالة[107]. أمَّا المُنافس الكبير للمُهتدين الذي يحمل أكثر غضبهم؛ فكان التّلمُود، فكانوا يُنكرونه باستمرار أمام المُفتشين والملك والإمبراطُور والبابا. التّلمُود كان الكتاب الفظيع السّيِّئ، الحاوي على أحقر الإهانات ضدَّ يسُوع والثّالوث الأقدس والمسيحيِّيْن. وكَتَبَ ضدَّه بيدرودي كابالليرا: غَضَبُ المسيح ضدَّ اليهُود[108]. وكَتَبَ بفيفركورن (عدوّ اليهُود)[109] الذي فيه يُهنِّئ نَفْسه أنَّه انسحب من هذا المُستنقع العفن اليهُودي.

وجيروم دي سانتا[110] في كُتُبُ عن العبرانيِّيْن، تبع اللاَّهوتيِّيْن الكاثُوليك مثل المُهتدين، وغالباً؛ لم يكن عندهم عن التّلمُود إلاَّ معلومات يُعطيهم إيَّاها المُهتدون.

المحكومون بالحَرْق من قبَل التّفتيش كانوا يتبعون ـ عادة ـ تشهيرات التّلمُود هذه وبلاغاته الكاذبة، لكنَّها كانت ـ دوماً ـ مسبوقة بمُجادلة. عادةً؛ المُجادلات هذه تعود إلى زمن بعيد في التّاريخ القديم. نحنُ نعرف أنَّ الأحبار اليهُود جادلوا مع الرُّسُل. وقد شُوهد عدَّة مرَّات حاخامات ونُسَّاك يتجادلون بالخطابة لاستمالة وإقناع المُستمعين بامتياز قضيَّتهم، وذلك بحضُور أباطرة رُوما وبيزنطة، وإنَّ ملك الخَزَر لم يُقرِّر اعتناق اليهُوديَّة إلاَّ بعد مُناقشة اشترك

---

(106) ثلاث أبحاث ضدَّ اليهُود، عام 1510، في كُولُونيا، عام 1509، باريس، عام 1511.

(107) المكتبة الوطنيَّة، سجلُّ المعلومات الإسباني، رقم 43.

انظر ايزُودُور لُوب، صحيفة الدّراسات اليهُوديَّة، XVIII.

(108) المنشور المسيحي ضدَّ اليهُوديَّة البرابرة والكُفَّار، البُندقيَّة، عام 1542.

(109) ضدَّ اليهُود، كُولُونيا، 1509.

(110) العبرانيَّة، فرانكفُورت، 1601.

فيها يهُودي ومسيحي ومُسلم. هكذا تروي الأُسطُورة[111]. هذه المُحاضرات كانت نادراً عامَّة، والكنيسة كانت تخشى من عواقبها. فكانت تخاف من الدِّقَّة اليهُوديَّة الماهرة في إيجاد اعتراضات تُحرج المُدافعين عن الإيمان الكاثُوليكي، وتُبلبل المُؤمنين، وتجعلهم يضطربون. فلذلك لم يُمارسوا إلاَّ المُحاضرات الخاصَّة بين المسؤولين الكبار للكنيسة وللتّلمُوديِّين، وفي هذه المُحاضرات لم يُقبل فيها إلاَّ مُستمعون قلَّة إلاَّ في بعض المُناسبات المهيبة والظُّرُوف الهامَّة، حالات فيها إقرار شَرْعي يتبع المُجادلة. في هذه المُجادلات الغريبة؛ حيثُ كانت أحد الفُرقاء (حاكمة)، كان اليهُود ـ بشكل عامٍّ ـ الأقوى، فجَدَليَّتهم أكْثف، وعلمهم واقعي أكثر، وشَرْحهم للكتاب جدِّيٌّ أكثر، وأدقُّ وأرقى، هذا ما كان يُعطيهم تقدُّماً أسهل. رغم ذلك ـ وبسبب ذلك بالأحرى ـ كان اليهُود مُتريِّثين في زعمهم، وكانوا يُقدِّمونه بشكل أدبي مُبطَّن، وكانوا يستمعون إلى أقوال حزينة لمويزكُوهين دي توردسيلا مُتوجِّهاً لإخوانه:

"لا تتركوا أنفسكم تندفعون بحماسكم لدرجة استعمال كلمات جارحة؛ إذْ إنَّ المسيحيِّيْن يمتلكون القُوَّة، ويستطيعون إسكات الحقيقة بضربة قبضتهم".

كانت هذه النّصائح تُسمَع وتُنفَّذ، لكنْ؛ رغم الاحتياطات المُتَّخذة، وعندما يصلون إلى آخر البراهين كانوا يُزعجون اليهُوديَّ الذي ينتهي بأنَّه يكون على خطأ.

على كُلِّ حال؛ كانوا يُكلِّفون ـ عادةً ـ الواشين بدَعْم مزاعمهم. وفي عام **1239**، رفع نيقولا دونان دي لاروشيل وهُو يهُوديٌّ مُهتد إلى البابا غريغوار التّاسع شكوى ضدَّ التّلمُود، فأمر غريغوار بمُصادرة كُلِّ أعداد هذا الكتاب وبإجراء تحقيق. فَوُجِّهت قرارات بابويَّة إلى المطارنة في فرنسا وإنكلترا وكاستيلا واراغون. في فرنسا وهُو البلد الوحيد الذي تُبعت فيه القرارات البابويَّة بنتائج. فعميد جامعة باريس (دراسات شاتورو) قاد التّحقيق. وقُرِّرت المُجادلة، وحصلت عام **1240**، بين المُدَّعي نيقولا دونان وأربع حاخامات:

ميشيل دي باريس، ويهُوذا بن دافيد دي ميليون، وصموئيل بن سلمون، ومويز دي كُوسي. المُناقشة كانت طويلة، لكنَّ مهارة دُونان جعلت الحاخامات ينقسمون. حُرِّم التّلمُود، وبعد بضع سنوات حُرِق.

---

(111) العبرانيُّون، ترجمة جان بُوكستُورف الابن، **1660**.
وترجمة ألمانيَّة مع مُقدِّمة أنتجها جُولُو فيكس وكاسيل عام **1853 ـ 1841**، كتاب كُوزاري.

وفي عام 1263 ، نظَّم ريمون دي بينافور مُجادلة في قصر آراغون بين الحاخام نُعماني دي جيرون وبابلو كريستاني، دُومينيكان ويهُودي مُهتد وهادي مُتحمِّس. هذه المرَّة بعد مُناقشة دامت أربعة أيَّام حول مجيء المسيح وأُلُوهيَّة يسُوع والتّلمُود، نُعماني كان المُنتصر. حتَّى إنَّ الملك بذاته استقبله، واستمع إليه، وكان استقباله جيِّداً جدّاً، وأغدق عليه بالهدايا لكنَّ مثل هذه الانتصارات كانت فريدة وخاصَّة من نوعها، إذْ إنَّ الكُتُب اليهُوديَّة كانت - غالباً - مُدانة سَلَفاً من قبَل الحُكَّام مهما بلغت مهارة المُدافعين عنها. كذلك يشوع لُوركي دالكاني يهُودي مُتعمِّد، وعُرف باسم جيروم دي سانتاني أجرى حواراً في نُورتوز، حواراً فُتح عام 1417، وجهد لبرهنة أنَّه بالنُّصُوص التّلمُوديَّة المسيح قد أتى وهُو يسُوع. كان في وجهه مُناقضون له، أشهر أحبار إسبانيا دُون فيدال بينفينيسته ابن ألبي، وجُوزف البو وزيرايا هاليفي صلاح الدِّين واستروك لاوي دي داروك. . . .

جرت المُجادلة أمام الكرادلة، ودامت ستُّون يوماً، وبعدها لم تجر أيُّ مُجادلة، وبعدها أصدر (جيروم دي سانتافه) في قرار اتِّهاماً ضدَّ التّلمُود؛ حيثُ مُنعت قراءته.

تتضاعف هذه المُجادلات في إسبانيا خلال القرن الرّابع عشر والخامس عشر. والمُهتدي ألفونس دي فالا دوليد ناقش في فالادوليد مع أبناء دينه القُدامى: وجان دي فالادوليد مُهتد - أيضاً - تشاجر مع W كُوهين دي توردسيلا حول براهين العقيدة المسيحيَّة الموجودة في العهد القديم، وخرج من المُشاجرة مُنتصراً.

أمَّا شيم طُوب ابن إسحق شبروت؛ فتجادل في بابليون حول الخطيئة الأصليَّة والفداء، وذلك مع الكاردينال بيردروودي لُونا الذي أصبح - فيما بعد - نائب البابا بُونوا الثّالث عشر.

ونستطيع أنْ نسرد مُجادلات أُخرى تُظهر كم كان اليهُود شاغلي الكنيسة، وكم اهتداؤهم كان مرغوباً فيه ومطلوباً.

كُلُّ هذه المُشاجرات كانت مُهذَّبة إلى حين أُقيمت محاكم التّفتيش. وجهد اللاّهوتيُّون لتهيئة وبناء الكَهَنَة والنُّسَّاك تجنُّباً من أنْ يفشل الإيمان الكاثُوليكي، ومن أجل ذلك ألَّفوا منشورات ومُقتطفات مُوجَّهة خصِّيصاً لإعلام المُدافعين عن المسيح ضدَّ أخطاء التّلمُود.

بعض هذه التّوجيهات حُفظت حتّى الآن مثل : مُقتطفات من التّلمُود الذي ألّفه أود دي شاتور ، وبعد الإعدام بالحَرْق عام 1242 ، مَنْعُ التّلمُود تأليف أنطون دافيلا[112] ومُصلّي من دير سانتا كروادي سيغوفيا ومُوجّه إلى تُوما تُوركيمادا . كُلُّ هذه الأعمال كانت بين أيدي حُكّام التّفتيش في إسبانيا ، وساعدوا في الأخبار والإعلام أثناء مُحاكمة الماران واليهُود .

لكنْ ؛ إلى جانب اليهُودي المُعتبر عدوّ يسُوع ومُنافس المسيحيّة كان هُناك اليهُودي المُرابي المُتلاعب بالمال والمكروه من الشّعب المقموع والفقير ، والذي تحسده البُرجوازيّة النّاشئة وتبغضه . ولقد برهنتُ ـ سابقاً ـ وأظهرتُ كيف أنَّ هذا اليهُودي وصل إلى امتياز البحث عن الذّهب ، وكيف أنّه ضحيّة تكفيريّة وكبش فداء مُحمّل بكُلّ خطايا المُجتمع الذي لم يكن أفضل منه ، فكان هدفاً للغضب الشّعبي والاجتماعي ، كذلك كان بالنّسبة لمُناهضة اليهُوديّة الكتابيّة ، وإذا كان بعض المطارنة وبعض الكُتّاب الكَنَسيّين يكتفون بالدّفاع عن رُمُوز إيمانهم ضدَّ الشُّرُوح اليهُوديّة ، وإذا ناضلوا ضدَّ هذا الذّهن اليهُودي فهُناك آخرون تبعوا مثال الآباء الذين ثاروا ضدَّ الشّراسة اليهُوديّة وشراسة الأغنياء بشكل عامٍّ .

فبالإضافة للدّراسات اللاّهوتيّة التي أصدروها أضافوا قرارات اتّهام مُوجّهة لمُحاربة الدّائنين على رهن ؛ أيْ الأشخاص الذين كانوا يعيشون من الرّبا ، فكان ضدَّ هؤلاء اليهُود أغوبار[113] وأمولون[114] وريغور[115] وبيير كلوني[116] وسيمون مايول[117] وكانوا من الذين أثارتهم ثروة اليهُود الواسعة أكثر من كُفْرهم ، وكانوا غاضبين من تَرَفهم أكثر من شتائمهم ، والحقيقة ـ بالنّسبة لهم ـ كان اليهُود هُمْ أبغض أعداء الحقيقة ، وأشنع الكُفّار ، هُمْ أعداء الله ويسُوع المسيح ، إنّهم يُسمّون التّلامذة مُرتدّين ، إنّهم يسخرون من توراة ستيفان ، ويلعنون المُخلّص في صلواتهم اليوميّة تحت اسم النّاصري ، إنّهم يبنون كُنُساً جُدُداً كإهانة مُوجّهة للدّيانة المسيحيّة ، إنّهم يُهوّدون المُؤمنين ، ويُوعظون بالسّبت ، ويُقنعونهم بمُمارسة الرّاحة يوم

---

(112) المكتبة الوطنيّة : الوثائق الإسبانيّة .
انظر مجلّة الدّراسات اليهُوديّة ، جزء 18 .
(113) عن وقاحة اليهُود (دراسة لاتينيّة) .
(114) ضدَّ اليهُود (دراسة لاتينيّة) .
(115) فيليب أُوغُوست .
(116) تراكتاتُوس (مكتبة آباء اللاّتين اليون) .
(117) الأيّام الحارّة ، ترجمة رُوسيه ، 1612 .

السّبت، لكنَّ هؤلاء اليهُود استغلّوا الشّعب، فهُمْ يُكدِّسون الثّروات ثمرة الرّبا والسَّلْب والنَّهْب، فهُمْ يستخدمون المسيحيِّين، ويمتلكون كُنُوزاً ضخمة، ويرتكبون سرقات في المُدُن التي استقبلتهم في باريس وليون[118] مثلاً، ويكسبون المال بطُرُق غير مشروعة (كُلُّ شيء يمرُّ بين أيديهم، يجتاحون البُيُوت، ويُضلِّلون الثّقة، فبرباهم يمتصُّون خواصَّ ودَمَ وقُوَّة المسيحي الطّبيعيَّة)[119] يبيعون حلياً كاذبة، ويُخفون الأشياء المسروقة، يُزوِّرون العُمْلة، وهُمْ بلا إيمان، يجعلونك تدفع الدَّيْن مرتَّيْن؛ باختصار (لا يُوجد خُبْثٌ وشَرٌّ في هذا العالم إلاَّ يُمارسه اليهُود بشكل لا يهدفون فيه إلاَّ لتدمير المسيحيِّيْن). [120]

إلى هذه القائمة عن مكر اليهُود أضاف مُناهضو اليهُود مثل مايول أو مثل لُوثر[121] شتائم عديدة، وأصبحت مُناهضة اليهُوديَّة حرباً كتابيَّة بحتة، فلم يعد للاعتبارات اللاَّهوتيَّة والاجتماعيَّة إلاَّ مكاناً محصوراً في الكُتُب؛ ألفُونسُو دي سبينا[122] وبيير دي لانكر[123] وخُصُوصاً لفرانسيسكُو دي تُوري جُونسيلو، فهجائيَّة هذا الأخير (التّرصُّد ضدَّ اليهُود) هي غريبة من نوعها، فقد كُتبت في أوائل القرن السّابع عشر في إسبانيا، وكانت مُوجَّهة ضدَّ المارن الذين كانوا يجتاحون كُلَّ الوظائف المَدَنيَّة والدِّينيَّة، كانت مُوزَّعة في أربعة عشر كتاباً، وتُبيِّن أنَّ اليهُود مغرورون وكذَّابون، وكانوا - دوماً - خَوَنَة، وكانوا - دوماً - مُحتقَرين ومرذولين، والذين يُشجِّعونهم ينتهون - دوماً - نهاية سيِّئة، ويجب ألاَّ نُصدِّقهم، وألاَّ نُصدِّق أعمالهم، إنَّهم مُجترُّون تافهون مُتمرِّدون، وإنَّ الكنيسة لم تحتفظ بهم إلاَّ لتسمح لهم بخَلْق المسيح الدَّجَّال وهُو مسيحهم الذي سوف يُهزَم، وبذلك يُسمح لليهُود أنْ يعرفوا خطأهم.

على كُلِّ حال؛ نستطيع أنْ نعتبر تُوريجونسليو لطيفاً إذا ما قارنا هجائيَّته بكُتيِّب فريد من نوعه ومن الفترة نَفْسها اسمه كتاب الألبورائيك (البُراق). [124]

---

(118) أغوبارد.

(119) مايول.

(120) مايول.

(121) اليهُود وأكاذيبهم، فيتنبرغ 1558 - المكتبة العبريَّة.

(122) دراسات انوريترغ 1494.

(123) عدم الإيمان والكُفْر للسّحْر المُقنَّع 1622.

(124) المكتبة القوميَّة، التُّراث الإسباني، مجلَّة الدّراسات اليهُوديَّة، جُزء 18.

والألبورائيك (البُراق) كانت مطيَّة مُحمَّد، وهي دابَّة رُكُوب غريبـة لـم تكـن لا حصانـا ولا بغلاً ولا حماراً، يُشبِّه الكاتب المارن إلى هذا الحيوان العجيب، هؤلاء المسيحيُّون الجُدُد، فهُمْ ليسوا يهُوداً ولا مسيحيِّيْن؛ إنَّهم الألبورائيك.

ويُعلـن الكـاتب الـهجائي أنَّ اليـهُود أو المارن لـهم طباع الألبورائيـك، ويُقيـم المُقارنــة الأغرب من نوعها بينهم.

دابَّة مُحمَّد لها أُذُنا الكلب السّلاقي، لكـنَّ الألبورائيـك هُـمْ كـلاب، لـها جسـد بقـرة، لكـنَّ الألبورائيـك لا يُفكِّـرون إلاَّ بـالخيرات الماديَّة وإمـلاء البُطُون، لـها ذَنَـبُ حيَّـة، لكـنَّ الألبورائيك ينشرون سُمَّ الهرطقة.

لو أنَّ كُلَّ الهجائيِّيْن الكُتَّاب اكتفوا بالمُقارنات الرّمزيَّة لم يكن اليهُود ليتأذوا أذيَّة كبيرة، لكنَّ البعض لم يتوانَ بأنْ يلصق بهم هؤلاء الملعونين أغرب الأشياء، وسجَّلَ الأدب المُناهض لليهُود كُلَّ السَّلَفيَّات الشّعبيَّة، وعمَّقـها، واختـرع أُمُوراً جديـدة، وجعلـها تستمرُّ، وثبَّتـوا وأشـاعوا عـن اليـهُود ضوضـاء مُريبـة، وصوَّروهـم بملامـح قبيحـة مُشوَّهة، ونسـبوا إليـهم التّشوُّهات الأكثر قباحةً، والمثالب الأكثر ظلاماً وسواداً، والجرائم الأكثر فظاعـة، والعـادات الأكثر قُبحاً ودناءة، لـه وجه الكبش وقُرُون في الجبهـة وزائـدة ذنبيَّة[125]، هُـمْ عُرضـة للأمراض والسِّلّ ونزيف الدّم، وإلى عاهات نتنة تُجبرهم إلى طأطأة رُؤُوسهم.[126] عندهم بواسير، وجُرُوح دامية على أيديهم، ولا يستطيعون البُصاق أبداً، وفي اللّيل تجتاح ألسـنتهم الدّيدان، الاعتقاد بهذه الأمراض التي تُصيب اليـهُود - خاصَّة - أتـت مـن إسبانيا فـي القـرن الرّابع عشر، ولاحقاً؛ جعلوا من ذلك فهرساً وجـداول، وكـانوا يُعطـون لكُـلٍّ مـن الأسـباط الاثنَيْ عشر مرضه الخاصّ به.

جماعة قبيلة رُوبين قد مسَّت أيديهم يسُوع (هكذا يُقال) لذلـك أيديـهم تُجفِّف كُـلَّ مـا يلمسون، أمَّا جماعة قبيلة سمعان؛ فهُمْ الذين سمَّروا يسُوع، فلـهُم أربعـة مـرَّات فـي السّـنة عقابيل في أيديهم وأرجلهم، والعقابيل دمويَّة.

---

(125) دراسات مُنظَّمة ضدَّ اليهُود.

(126) بيير لانكر.

لقد قالوا: دمه علينا وعلى أولادنا، فكُلُّ أولادهم يُولدون وأذرعهم مُدمَّاة، وفي يوم الجُمعة العظيمة يسكبون الدّم في الأساس، أساس هذا المُعتقد بأمراض اليهُود كان منشؤه دينياً بحتاً، ونستطيع القول: إنَّه إسقاط وتجسيد للصُّور البيانيَّة والرّمزيَّة التي نتجت عنها هذه المهزأة، وتشكَّلت أساطير كان مُنطلقها تشبيهاً مجازيّاً، وكذلك أُسطُورة رائحة اليهُود.

هُو فُورتُونات[127] **Fortunat** الذي تكلَّم عن ذلك أوّلاً، وبمعنى مجازي: [128]

(ماء المعمُوديَّة يُزيل الرّائحة اليهُوديَّة، والقطيع المُطهَّر تفوح منه رائحة جديدة).

وكانوا يجمعون بين الرّائحة الطَّيِّبة والطّهارة، والسّعيد هُو الذي يموت برائحة القداسة، هذا القول معناه أنَّ هذه الشّخصيَّة القدِّيسة كان عندها الموهبة أنْ تفوح بالأطياب الإلهيَّة، وإذا نحنُ قرأنا حياة القدِّيس دُومينيك والقدِّيس أنطوان دي بادُو نجد أنَّهما يتعمَّدان بهذا الامتياز، وعلى عكس ذلك؛ فاللاَّأخلاقي (أيْ المُنحطّ)، والكافر، وكُلُّ الذين نُفُوسهم غير طاهرة ينشرون رائحة نتنة، فالقدِّيس فيليب دي نيري كان يُميِّز رائحة المثالب عند الرّجال، فيحذر وُجُود الشّيطان، أمَّا بالنِّسبة للشّيطان؛ فكُلُّ واحد في العُصُور الوُسْطى كان مُقتنعاً بالقول بأنَّ الشّيطان يُعلن عن مجيئه بفوح رائحة سامَّة وحيوانيَّة.

فاليهُودي الذي كان أفظع الكُفَّار والابن الحقيقي للشّيطان لا يستطيع إلاَّ أنْ يفوح بروائح قذرة، والأمر الغريب في الموضوع أنَّ اليهُود كان عندهم أفكار مُتماثلة حول علاقات الخطيئة والرّائحة البشعة، وبحسب ابن ميمُون؛ فإنَّ الحيَّة قد رَمَتْ بنَتَنهَا على جنس حوَّاء، لكنَّ اليهُود المُؤمنين قد حُميوا من ذلك، كذلك لا نستطيع أنْ نشرح - أيضاً - بعض السَّلَفيَّات المُضادَّة لليهُود.

فإذا كان جَمْعُ اليهُود مع الرُّوح الشّريرة يجعلهم ينتسبون للشّيطان، فلهم وجه الكبش وقُرُون في الجبهة، فكثير من هذه المُعتقدات لا تجد لها تفسيراً، فهي آتية بقسم كبير منها من انعزال اليهُود وعاداتهم المَدَنيَّة بأنْ يعيشوا وحدهم، وألاَّ يختلطوا بالذين يُحيطون بهم، كُلُّ ذلك يُثير الخيال الشّعبيَّ.

---

(127) أميان مارسيلان، جُزء 22.

(128) فُورتُونات: قصيدة، جُزء1، فصل خامس.

في كُلِّ مرَّة يُحاصر فيها أفراد أو مجموعة أفراد أو أنَّهم حاصروا أنفسهم إراديّاً يحصل لهم الأمر نَفْسه، فينسى النّاسُ الأسبابَ التي أدَّت إلى هذا الانعزال، فينسبون إلى هؤلاء المُنعزلين نوازع ومثالب وعاهات يفترضونها أفظع كُلَّما كانت المجموعة مُحتقرة أكثر ومكروهة.

ولقد حصل الأمر نَفْسه لبعض الجمعيَّات الرّهبانيَّة والجمعيَّات السِّرِّيَّة وبعض النُّظُم الدِّينيَّة المُناضلة ولكُلِّ التّجمُّعات مهما كان نوعها، إنَّما التي كانت تعيش في خارج الكتلة الاجتماعيَّة لأسباب دينيَّة أو قوميَّة أو سياسيَّة، فالشّعب عنده حُبُّ الاستطلاع بالطّبيعة، وإضافة لذلك؛ فهُو خياليٌّ جداً، وميَّال لتأليف الأساطير، وخَلْق الهجائيَّات السّاخرة، وبشكل فطري برِّي طُفُولي، تكفيه كلمة أو جُملة أو مجموعة أفكار، وبإشارة واحدة يرسم الأحلام، ويخترع القصص التي يُصبح من المُستحيل علينا أنْ نُميِّز أُصُولها، وما هُو مُخبَّأ يُقلقه ويجعله يضطرب، ويشغله، فيبحث عن الدّوافع التي تدفع بطبقة من النّاس إلى الالتجاء في وحدة جماعيَّة، فإذا لم يجدها يخترعها، أو إذا استطاع أنْ يستنتج بعضاً منها - وتكون واقعيَّة - فهُو لا يستطيع أنْ يمنع نَفْسه من اختراع أشياء خياليَّة، كُلُّ (الكائنات) الأشخاص الذين ينتمون إلى ما تُسمَّى الأجناس الملعونة كان عليهم تحمُّل هذه الهجائيَّات السّاخرة، وهذه الأساطير.

فمن جميع المناطق أكَّدوا ما كان يُؤكِّد عن اليهُودي من: البيرنييه السُّفلى، من كواكس بريطانيا، من بويُون، من بُورين، من كانُو، من ترانغُو... كُلُّهم كانوا يقولون: إنَّ اليهُودي تفوح منه رائحة نتنة وعفنة، إنَّه يُجفِّفُ الفاكهة عندما يلمسها بيده[129]، وينزف منه الدّم، وله زائدة ذَنَب، وهُو يسكب الدّم من سُرَّته يوم الجُمعة العظيمة، عيُونه غامقة داكنة، ويُطأطئ رأسه، ولا يستطيع أنْ يبصق، وكانت هذه الأُمُور تُكرَّر مع بعض التّغيُّرات حول الآريِّيْن والمانبشيِّيْن والكاثار والألبيجوا وباتاران وكُلّ الهراطقة إجمالاً.

أمَّا الهيكليُّون؛ فمنهم - أيضاً - كانوا مُسَفَّهين ويُشبَّهون باليهُود، فمثلهم كانوا يكرهونهم بسبب كبريائهم وأُبهَّتهم وثروتهم في وسط الفُقراء والبُؤس العامِّ وحُبّهم الشّديد للرّبح، واستعمالهم أساليب - بدُون حياء - للكسب، وعادة العُقُود التي فيها ربا، كانوا

---

(129) ميشيل، الأجناس الملعونة، باريس، 1847.

يكرهونهم؛ لأنَّهم كانوا يُقرِضون المال برَهْن على المُمتلكات والأراضي، بشرط أنْ تعود كُلُّ هذه لهم في حال وفاة المدين أو حال تقاعسه عن الدَّفْع.

وهذا لأنَّ في القرن الثّالث عشر كان نظام المعبد يمتلك جُزءاً من الأراضي الفرنسيَّة، وكان يُشَكِّل جُمهُوريَّة ضمن الدّولة، والهيكلي لا يعرف وليس عنده سَيِّد إلاَّ الله.[130]

فنرى هُنا نَفْس الأسباب تُؤدِّي إلى نَفْس المشاكل، ونَفْس الثّورات، وتُولِّد نَفْس المُعتقدات، ألم يُحدِّثوا عن جماعة الهيكل أنَّهم كانوا يشوون ويقلون الأطفال، وأنَّهم يُنجبون البنات، وكُلّ الشّحم المُستخرَج منهنَّ كانوا يُخصِّصُونه لمعبوداتهم؟![131] ألم يقولوا إنَّ المُنافقين كان يستخدمون الدّم المسيحي؟! ألم يتّهموا اليهُود بالقَتْل الطَّقْسي؟! ألم يُتَّهم المُصابون بالجُذام أنّهم أُخوة اليهُود؟! ألم يُشبَّه السَّحَرَة باليهُود؟!..

بوُجُود مثل هذا الهُجُوم وهذه الشّتائم التي يُوجِّهها ضدَّهم اللاّهوتيُّون والكُتّاب السِّياسيُّون، كيف يتصرَّف اليهُود؟.

كانوا يُدافعون عن أنفسهم بضراوة، فكانوا يُواجهون تفسير الكتاب المُقدَّس بتفسيرهم هُمْ، وكانوا يردُّون على الشّتائم والدّسائس بشتائم ودسائس، هذا كان طبيعيّاً ولا مفرَّ منه، ولكنَّها كانت تُردُّ ضدَّهم.

إذا كان الأدب المُناهض لليهُود ضخماً وواسعاً، فإن الأدب المُدافع لليهُود والأدب المُناهض للمسيحيَّة[132] كان ضخماً جدّاً أيضاً، والمُؤلَّف الأوَّل في المُجادلة الذي يمتلكه الأدب اليهُودي في العُصُور الوُسْطى كان كتاب حُرُوب السَّيِّد يعقُوب رُوبن، وقد كُتب عام 1170، كان يتألَّف من اثنَيْ عشر فصلاً أو باباً، مُبرهناً ـ بالنُّصُوص التّوراتيَّة ـ أنَّ المسيح[133]

---

(130) لافوكا، دعوى أُخوة نظام المعبد، باريس 1888.

(131) لافوكا.

(132) يجب أنْ نُخصِّص فصلاً كاملاً للأدب المُناهض للمسيحيَّة، وهذا ما لا يُمكنني أنْ أفعله هُنا؛ حيثُ الموضوع هُو مُناهضة اليهُوديَّة، فلا أستطيع إلاَّ أنْ أُشير إلى ردِّ فعل اليهُود. المجهود اليهُودي ضدَّ الوَثَنيَّة المسيحيَّة كان كبيراً. للتأكُّد انظر في المكتبة اليهُوديَّة المُناهضة للمسيحيَّة ل. ج. ب روسي، وبارم 1800، وفيه يظهر النّشاط الهجائي لليهُود الذي لم يكن له مثيل.

(133) كُوب، مجلَّة الدّراسات اليهُوديَّة XVIII.

لم يأتِ، وهذا كان ـ على كُلِّ حال ـ أمراً سهلاً جداً، أو أنَّه على الخُطباء المُفسِّرين للنُّصُوص بأنْ يُبرهنوا العكس، لكنَّ إثبات أنَّ يسُوع لم يكن هُو المسيح المُنتظر لم يكن ليكفي، كان يجب ـ أيضاً ـ البرهنة ـ بشكل قطعي لا يدع مجالاً للجَدَل ـ امتياز الدّيانة اليهُوديَّة إلى الذين يُقيمون ـ بشكل قطعي ـ امتياز الدّيانة المسيحيَّة، وهذا كان أمراً سهلاً لفريقَيْن كُلّ واحد يستخرج من التّوراة ما يُناسبه، فالتّلمُوديُّون كانوا يستخدمون حتَّى العهد الجديد حتَّى يُثبتوا العقائد اليهُوديَّة، وهكذا فعل مُويز كُوهين دي توردي سياس في مُؤلَّفه: دَعْمُ الإيمان: Soutien De Le Foi بينما سيمتوب بن إسحاق شابروت[134] عاد فاتَّخذ شكل الحوار بين المُوحِّدين والمُثلِّثين؛ أيْ المُوحِّد والمُثلِّث في الأفكار المعروضة من قبَل يعقُوب بن رُوبن، وفي القرن الخامس عشر تطوُّر الأدب الهجائي تطوُّراً كبيراً في إسبانيا، ذلك لأنَّ الظَّرْفَ كان صعباً بالنّسبة ليهُود شبه الجزيرة، وقد ضاعفت الكنيسة جُهُودها لهَدْيهم، وتضاعفت المُجادلات والدّراسات والهجائيَّات، أمَّا اليهُود؛ فقد قاوموا التّبشير، ولم يستسلموا إلاَّ في النّهاية لاحقاً عندما تمَّ الطَّرْد والتّرحيل النّهائي، فَضَلَّتْ الغالبيَّة العُظمى النَّفْي دُون أمل بالرُّجُوع عن أنْ يُغيِّروا دينهم.

فبينما كان النُّسَّاك يبحثون في أسفار مُوسى الخمسة وفي الأنبياء عن براهين لدَعْم الرُّمُوز المسيحيَّة، جهد اليهُود لعرض الفُرُوقات والخلافات التي تفصل وتُبعد المُعتقدَيْن الاثنَيْن، ولتقوية وتثبيت الإيمان في قُلُوب المُتردِّدين أخذوا بمُحاربة الكاثُوليكيَّة، فصاروا يدرسون لاهوت مُنافسيهم مثل حاسداي كريكاس، وبهذا التّسلُّح كَتَبَ يعقُوب ابن شيمطوب اعتراضاته على الدّيانة المسيحيَّة[135] وأصدر سمعان ابن سيماح دوران: الدّراسة الفلسفيَّة اليهُوديَّة، فيه فصل خاصٌّ عُنوانه: القوس والدِّرع؛ فيه نَقْد للمسيحيَّة، وقَلَّدَ الحاخامات الكُتَّاب الكَنَسيِّيْن وكُتَّاب محاكم التّفتيش، فكتبوا كُتُباً مثل التي كُتبت في المُجادلات، هذه الكُتُبُ مثل Vade Mecum عُنيت بالنّواحي القابلة للتّجريح في العقائد المسيحيَّة، وإذا أُصدر من جهة كتاب: (اليهُوديَّة تُهزَم بنَفْس أسلحتها الخاصَّة) فيقولون من الجهة الأُخرى: (المسيحيَّة مهزومة بأسلحتها الخاصَّة) أيْ بالتي يجدونها في العهد الجديد.

---

(134) سيمتوب بن اسحق شابروت، حجرالإدراك (لُوب).

(135) انظر غراتس GREATS، ترجمة فرنسيَّة، باريس 1893.

لعبت الأناجيل في الأدب المُناهض للمسيحيَّة دور التّلمُود في الأدب المُناهض لليهُوديَّة، واعتباراً من القرن الحادي عشر والثّاني عشر؛ هاجموهم كثيراً، وجرت مُناقشات عديدة بين الحاخامات واللاّهوتيّين، هذه المُناقشات كانت ـ في بعض الأحيان ـ تُجمع في مُؤلَّف واحد، تُقدَّم للجَدَليَّات اليهُوديَّة في يوم مُناسب، هذه المجموعات ساعدت ـ لاحقاً ـ كمرجع مثل: العجوز نيزاشون لرابي ماتاتيا، وينزاسون آخر لجُوزف كمحي، وتدعيم الإيمان لإسحاق تروكي[136] وكتاب حُوزف زيلاتور[137]، كُلُّ هذا لم يكن ليكفي حماس اليهُود، وبعد أنْ هيَّؤوا العقُول للمُناقشات المُستقبليَّة القادمة، وبعد أنْ هاجموا العقائد الكاثُوليكيَّة ليس ـ فقط ـ في المُناظرات الشّفهيَّة، بل ـ أيضاً ـ في الدّفاعات عن النّصرانيَّة، كَتَبوا هجائيَّات مُهينة مثل: **Toledot Jeschu** أيْ حياة الجليلي التي تعود للقرن الثّاني أو الثّالث، ونشرها ريمون مارتان، ترجمها لُوثر للألمانيَّة، وفاغنسايل والهولندي هولدريس نشرها أيضاً[138]، فيها قصَّة الجُندي بانتيروس **Pantherus** وأساطير تُمثِّل يسُوع وكأنَّه ساحر.

ثمَّ بعد أنْ دافعوا عن الوحدانيَّة والتّوراة توجَّهوا ضدَّ ألدِّ أعدائهم: ضدَّ المُهتدين، فإذا هُم[139]، رفضوا ريمون مارتان ونيقولا دي ليرا[140] فمنهم من رفض ـ بشدَّة أكبر ـ جيروم دي سانتافي الذي أسماه أبناء دينه القديم بالمُجدِّف **Megadef** أيْ الشّاتم، وتحاملوا عليه، فكتبوا ضدَّه ليُكذِّبوه، وأسموه المُفتري وهُمْ ابن لابي وإسحاق بن ناتان كالونيموس[141] وسلمون دوران[142]، كذلك فعل إسحاق بولغار ضدَّ ألفونس دي فالا لويد[143]، كما أنَّ المُرتدِّين[144] في العُصُور الوُسْطى لم يُعاملوا بأفضل من السّابق، ففي القرن الأوَّل من العصر المسيحي؛ كانوا يُضيفون للصّلاة اليوميَّة لعنات كي تُصيبهم، وفي القرن العاشر حتَّى السّادس عشر

---

(136) فاغنسايل، التّدورف، **1681**.

(137) زادوك خان، كتاب جُوزف المُتحمِّس، مجلَّة الدّراسات اليهُوديَّة **1 ـ 3**.

(138) فاغنسايل، جزُء ثان، ص**189**، دي روسي، المكتبة اليهُوديَّة المُناهضة للمسيحيَّة، بارم **1800**، ص**117**.

(139) سلمان بن ادريت بن برشلونة.

(140) حاييم بن مُوسى مُنذُ نيقولا دي ليرافي، مُؤلَّفه كبش وحسام.

(141) تفنيد الغشّاش.

(142) رسائل المعركة ـ المكتبة المُناهضة للمسيحيَّة.

(143) حوار ضدَّ المُرتدِّين (لوب).

(144) دي روسي، بارم، **1802**.

وحتَّى السّابع عشر؛ كرَّروا ضدَّهم ما كان التّلمُود يقوله عن المِنيِّين وعن اليهُو ـ مسيحيِّين القُدامى، كُلُّ هذه الكتب لم تُقبَل بدُون احتجاجات، وسَبَّبتْ اعتراضات عديدة أدَّت ـ بدورها ـ لأجوبة عديدة.

أمَّا في القرن السّابع عشر؛ فقد تحوَّلت مُناهضة اليهُوديَّة، فبعد اللاَّهوتيِّيْن أتى العُلماء ومُفسِّرو الكتاب المُقدَّس، أصبحت مُناهضة اليهُوديَّة ألطف وأكثر علميَّة، وأصبحت تُقدَّم من قبَل مُتعلِّمي العبرانيَّة وهُمْ ذوي قيمة عالية غالباً؛ مثل فاغنسايل[145] و Bartolocci[146] باتولوشي وغيرهم، هؤلاء الأشخاص[147] درسوا الأدب والتُّراث اليهُودي بشكل أكثر جدِّيَّة، وأحياناً كانت أحكامهم فيها عادلة، فأنكر فالنسايل Wagenseil القتْلَ الطَّقسي.[148]

أمَّا بُوكستورف[149] Buxtorf؛ فرغم أنَّه يقول إنَّ التّلمُود يحتوي على شتائم ودجل وتضليل وأشياء لا معقولة، إنَّما فيه ـ أيضاً ـ أشياء مُفيدة للمؤرِّخين والفلاسفة.[150]

واستمرَّت نَفْس الأفكار التي أثارت كُتَّاب القُرُون الماضية. أرادوا ـ دوماً ـ إثبات حقيقة الإيمان المسيحي وعقائده بواسطة العهد القديم. واهتمامهم الزّائد بإهداء اليهُود كان ـ دائماً ـ يُقلق النُّفُوس، فصاروا يتحدَّثون عن دعوة اليهُود، وصاروا يُقدِّمون اقتراحات وسُبُل لجلبها.[151] والمُرتدُّون استندوا واستشهدوا بالزّوهار والميشنا لمصلحة يسُوع[152]. وازدهرت الهجائيَّات ـ أيضاً ـ مع إيزنمنجر Eisenmenger؛ حيثُ مُؤلّفه اليهُوديَّة المكشوفة[153] ألهم كثيراً من مُناهضي السَّاميَّة المُعاصرين، ومع شوت[154] ولاحقاً مع فُولتيير Voltaire.

---

(145) فاغنسايل.

(146) المكتبة الحاخاميَّة، رُوما 1693 ـ 1695.

(147) جَدَليَّات مختارة، اولبريشت، 1663.

(148) اللاَّهوت اليهُودي، 1647.

(149) مرجع ألماني لألتودورف 1707.

(150) المُعجم الكلداني ـ التّلمُودي ـ الحاخامي، 1639، الكنيس اليهُودي هانا و 1604.

(151) دي لاكرو لادير، طريقة سهلة لإقناع الهراطقة، باريس، 1667، والتي نجد فيها طريقة لمُهاجمة وإقناع اليهُود، تُوماس بيل، هافر.

(152) كونراد أُوتون، أسرار مكشوفة، نورنبرغ، 1605.

(153) اليهُوديَّة انكشفت، فرانكفورت، 1700.

(154) تاريخ اليهُوديَّة، فرانكفورت، 1700.

والواقع أنَّ الأدب المُناهض لليهُوديَّة الهجائي والمُحارب هُو قليل التّنوُّع، أغلب الكُتَّاب يُقلِّدون بعضهم البعض بدُون أيِّ حرج. وينتحلون دُون أنْ يتأكَّدوا من إثباتات مُقدِّميهم.

كتاب يخلف كتاباً آخر مُماثلاً، وألفُونسُو داسبينا يستوحي من معارك الله **Batallasde Dios** لـ ألفُونسُو دي فالدُوليد. وبُورشيه سالفانيكُوس يُعيد نَشْر كتاب باسم مُختلف مثل كتاب خنجر الإيمان لريمُون مارتان **Poignard de lafoi**. وسيباستيان مُونستر استخدم كتاب الإيمان.[155]

رغم ذلك، واعتباراً من القرن السّابع عشر، اختلفت مُناهضة اليهُوديَّة عن القُرُون السّابقة. وتغلَّب الجانب الاجتماعي رُويداً رُويداً على الجانب الدِّيني، مع أنَّ هذا الأخير مازال باقياً. وبدؤوا يُفكِّرون ويتساءلون ما إذا كان اليهُود يُمكن أنْ تسمح بهم الدّولة أو لا، وليس التّساؤل إذا كان اليهُود مُخطئين بكونهم مُرابين أو تُجَّاراً أو قَتَلَةَ الإله، وكما طلب جُون دوري مُنذُ أعوام 1655، في هجائيَّة مُوجَّهة ضدَّ مناسيه بن إسرائيل (ويحميه كرومويل)[156]: إنَّه من الشَّرْعي أنْ نقبل اليهُود في جُمهُوريَّة مسيحيَّة. وُجهة النّظر الاجتماعيَّة هذه هي التي سوف تتطوَّر من الآن فصاعداً في أدبيَّات مُناهضة اليهُوديَّة. وجُزء من اللاّساميَّة الحديثة سوف يستند على نظريَّة الدّولة المسيحيَّة ووحدتها، وبذلك سوف يتعلَّق - مستقبلاً - بمُناهضة اليهُوديَّة القديمة. من خلال هذا الكتاب سوف نبحث أوجه التّشابه والخلافات التي تُوحِّد وتُفرِّق مُناهضتَيْ اليهُوديَّة هاتَيْن.

---

(155) مجلّة الدّراسات اليهُوديَّة.

(156) حالة ضمير، لُندُن 1655.

الفصل الثّامن:

مُناهضة اليهُوديَّة الشَّرْعيَّة الحديثة

في 27 أيلول 1791، وبعد مُناقشات سابقة، أُرجئت كُلُّ القرارات المُتعلِّقة بتحرير اليهُود. أمَّا الجمعيَّة الدُّسْتُوريَّة؛ فقد صوَّتت على اقتراح دُوبُور **Duport**، وبفضل تدخُّل رينيو دي سان جان دانجلي تمَّ قُبُول اليهُود في صفِّ المُواطنين الكادحين.

هذا المرسوم كان مُهيَّأً مُنذُ فترة طويلة، مُهيَّأً من قبَل اللَّجنة المُجتمعة من قبَل لويس السّادس عشر، والتي ترأَّسها ماليرب **Malesherbes** والتي أعدَّها وكتبها ليسينغ، ودوهم، وجماعة ميرابو، وغريغوار: فكان ذلك النّتيجة المنطقيَّة للجُهُود المبذولة مُنذُ عدَّة سنوات من قبَل اليهُود والفلاسفة.

مندلسون في ألمانيا كان هُو المُؤسِّس وأنشط المُدافعين. وفي برلين في صالونات هنرييت وليموس، كان ميرابو قد أخذ أفكاره إلى جانب دوهم. بعض فئات اليهُود كانت قد تحرَّرت سَلَفاً، في ألمانيا يهُود البلاط **Hofjuden** قد حصلوا على امتيازات النُّبلاء. والماران البُرتغاليُّون عادوا إلى اليهُوديَّة، وتمتَّعوا بحُرِّيَّات كبيرة تحت إدارة نقاباتهم، فأثَّروا في بُوردو، غير مُبالين بالباقي عن مصير إخوانهم التّعساء، لكنَّهم كانوا نفوذين جداً؛ إذْ إنَّ أحدهم وهُو غراديس كان قاب قوسَيْن من أنْ يُعيَّن نائباً في الهيئات العامَّة.

في الألزاس؛ حصل بعض اليهُود على خُطُوات هامَّة؛ سيرف بير مثلاً هُو مُورِّد الأسلحة للويس الخامس عشر، والذي أعطاه الملك الجنسيَّة ولقب ماركيز طُومبولين **Tom belaine**، بفضل كُلِّ هذه الامتيازات تشكَّلَتْ طبقة من اليهُود الأثرياء كانوا على تماسٍ مع المُجتمع المسيحي، طبقة ذهنها مُتفتِّح وراق، ذكيَّة ومُتطوِّرة ذات فكْر عال إلى أبعد الحُدُود، قد أهملت - مثل كثير من المسيحيِّيْن - رسالةَ الدِّين، وحتَّى الإيمان، ولم تحتفظ إلاَّ بالمثاليَّة الدِّينيَّة التي تتوافق مع العقلانيَّة اللِّيبراليَّة (الحُرَّة). كان ذلك في برلين المدينة النّاشئة ومركز

المملكة التي وُلدت في المجد، مدينة أكثر سهُولة وأقلّ تقليداً، فيها حصل انصهار بين هذه المجموعة من اليهُود وبين هذه النُّخبة التي قادها ليسينغ.

عند هنرييت **Henriette** وعند راشيل دي فيرنهاغن **Rachel De Varnhagen** عاشرت ألمانيا الفتيَّة، امتزجت هُنا الرُّومانسيَّة الألمانيَّة عند اليهُود بالسّبينوزيَّة **(Spinoza)** شلايماخر وهُومبولت **Humboldt, Sch Liermacher** كانا حاضرَيْن أيضاً، ونستطيع القول إنَّه صحيح أنَّ الجمعيَّة الدُّسْتُوريَّة هي التي أصدرت قرار التّحرُّر لليهُود، لكنَّ ذلك كان قد هُيِّئ في ألمانيا.

غير أنَّ عدد اليهُود المُعدِّين للدُّخُول في الأُمم كان محدوداً جدَّاً، كما أنَّ الأغلبيَّة منهم - مثل بنات فيدلسون اهنية ووبيرنة - انتهوا بالاهتداء إلى المسيحيَّة، ولم يعودوا موجودين بصفتهم يهُوداً، أمَّا بالنّسبة للكتلة الشّعبيَّة اليهُوديَّة؛ فكان حالها مُختلفاً.

إنَّ مرسوم **1791**، قد حَرَّرَ كُلَّ هؤلاء المنبوذين من عُبُوديَّة مَدَنيَّة، وألغى كُلَّ القوانين السّابقة التي كانت مفروضة، وتُثقل عليهم وانتزاعهم من الحجر والانعزال في أيِّ نوع كان؛ حيثُ كانوا قد سجنوا فيه أنفسهم، فبعد أنْ كانوا قطعاناً بشريَّة أصبحوا بشراً، فهُو لو استطاع أنْ يُحرِّرهم، وأنْ يُلغي في يوم واحد العملَ الشّرْعيَّ لعدَّة قُرُون، لفعل، فهُو لم يستطع أنْ يُحطِّم حالتهم النَّفْسيَّة، وعاجز أنْ يُحطِّم القُيُود التي صاغها اليهُود بأنفسهم، فاليهُود حُرِّروا شَرْعيَّاً، لكنَّهم لم يُحرَّروا نَفْسيَّاً، حافظوا على تُراثهم وعاداتهم وعلى سَلَفيَّاتهم من الدّيانات الأُخرى، كانوا سعيدين أنْ يتخلَّصوا من المهانة، لكنَّهم كانوا ينظرون حولهم بريبة وحذر، ويشكُّون حتَّى بمُحرِّريهم.

لقد عاشوا خلال قُرُون عديدة، وهذا العالم يرذلهم، وهُمْ يُشاهدونه بقرف وفزع، لقد تألَّموا فيه، لكنَّهم - أيضاً - كانوا يخشون من التّماس معه، لئلا يُضيعون شخصيَّتهم وإيمانهم، أكثر من يهُودي عجوز نظر بقلق وبعين الرّيبة في أعوام **1791**، إلى هذا الوُجُود الجديد الذي انفتح أمامهم، ولن أندهش حتَّى لو علمتُ أنَّ هُناك بعضهم كان التّحرُّرُ بالنّسبة له مُصيبة وكارثة.

وكثير من هؤلاء البُؤساء كانوا يُقرُّون إذلالهم وانغلاقهم؛ لأنَّه يُبعدهم من الدَّنس والخطيئة، وجهد العدد الأكبر أنْ يبقى هُو نَفْسه بين الأجانب الذين يعيشون في وسطهم

ويرذلونهم، إنَّها الطّبقة المُستنيرة الذكيَّة والمُصلحة من اليهُود، والتي تألَّمت من وضعها المُنحطِّ ومن إذلالها أبناء دينها، هي تلك الطّبقة هي التي عملت على التّحرُّر، لكنَّها ـ أيضاً ـ لم تستطع أنْ تُحوِّل ـ فجأة ـ الذين من أجلهم تُطالب بالحقِّ أنْ يكونوا مخلوقات بشريَّة، **الأنا اليهُوديَّة** لم تتغيَّر بقرار التّحرُّر، والطّريقة التي تُعبِّر بها هذه الأنا عن نَفْسها لم تتغيَّر أيضاً.

اقتصاديَّاً؛ بقي اليهُود على حالهم ـ أتكلَّم هُنا عن الأغلبيَّة ـ منهم بقوا غير مُنتجين، تُجَّار سَقْط، دائني مال، مُرابين، لم يستطيعوا أنْ يكونوا شيئاً آخر، وذلك بسبب عاداتهم والظُّرُوف التي كانوا يعيشون فيها.

إذا تركنا أقلِّيَّة صغيرة منهم، فهُمْ ليس عندهم كفاءات أُخرى حتَّى يومنا هذا، عدد كبير من اليهُود يعيشون في نَفْس الحالة، هذه القُدرات لم يُقصِّروا في مُمارستها، ووجدوا الفُرصة المُناسبة في فترة الاضطرابات والفوضى.

في فرنسا؛ استغلّوا الأحداث، والأحداث كانت مُواتية لهم ولمصلحتهم، ففي الألزاس مثلاً كانوا مُساعدي الفلاَّحين؛ حيثُ أقرضوهم رُؤوس الأموال اللاَّزمة بفوائد ضخمة، وذلك من أجل استملاك المُقدِّرات الوطنيَّة، قبل الثّورة كانوا في هذا الرّيف المُرابين الطّبيعيِّيْن المُكلَّفين بالبُغْض والازدراء.[157]

بعد الثّورة؛ هؤلاء الفلاَّحون أنفسهم الذين كانوا في الماضي يُزوِّرون براءات ذمَّة كاذبة[158] ليهربوا من براثن دائنيهم لجؤوا إليهم، فبفضل اليهُود الألزاسيِّيْن تشكَّلت الملكيَّة الجديدة في الألزاس، لكنَّهم زعموا أنَّهم سوف يجنون منها أرباحاً وافرة بالاستغلال والرِّبا، احتجَّ المدينون، وأخذوا يُؤكِّدون أنَّهم قد أفلسوا إذا لم يُساعدهم أحد، وكان في ذلك مُبالغة؛ إذْ إنَّهم قبل أعوام 89 لم يكونوا يملكون شيئاً، وبعد ثمانية عشر عاماً قد تملَّكوا بـ **60** مليون مساكن كان يجب عليهم أنْ يدفعوا لليهُود، **9 500 000** فرنك ثمنها.

---

(157) يجب المُلاحظة أنَّه كما في العُصُور الوُسْطى كان يهُود الألزاس يُعيرون أسماءهم كواسطة للمُرابين المسيحيِّيْن (انظر هالفين: مراجع القوانين والقرارات المُتعلِّقة بالإسرائيليِّيْن، باريس، **1851**، وعريضة اليهُود المُقدَّمة للجمعيَّة الوطنيَّة في 28 كانون الأوَّل عام 1790).

(158) حول يهُود الألزاس قبل وبعد الثّورة انظر غريغوار ـ دراسة حول بعث اليهُود ـ دُوهم: الإصلاح السِّياسي لليهُود ـ بول فوشيل: المسألة اليهُوديَّة في فرنسا في ظلِّ الإمبراطُوريَّة الأُولى **1884**.

غير أنَّ نابُوليون **Napoléon** سمع لهم، وخلال عام؛ أوقف تنفيذ الأحكام العائدة لأرباح المُرابين اليهُود في الرين الأعلى والرّين الأسفل ومُقاطعات الرّين كُلّها، ولم يتوقَّف مشروعه عند هذا الحَدِّ، ففي حيثيَّات الحُكْم المُعطّل لـ 30/ أيَّار/ **1806** أظهر أنَّ الإجراءات القامعة لم تكن كافية، وأنَّه يجب إزالة مصدر الشَّرّ.

(فقد قال في هذا المجال: هذه الظُّرُوف جعلتنا نعتبر، وفي الوقت نَفْسه، نُقيِّم ونقول: كم هُو مُلحٌّ أنْ نُنشِّط المشاعر الأخلاقيَّة المَدَنيَّة بين الذين يدينون بالدّيانة اليهُوديَّة في البلاد الخاضعة لطاعتنا، والتي ـ مع الأسف ـ قد تموَّتت عند كثير منهم من جرَّاء الانحطاط الذي رزحوا تحته لفترة طويلة، والذي لا يدخل في نوايانا المُحافظة عليه أو تجديده.

ولكي يُنشِّط هذه المشاعر، أو بالأحرى، لكي يُولِّدها أراد أنْ تنطوي الدّيانة اليهُوديَّة لنظامه، وأراد أنْ يُنظِّمها كما نظَّم باقي الأُمَّة، وأنْ يجعلها مُتطابقة مع الخُطَّة العامَّة. وبما أنَّه القُنصلُ الأوَّلُ فقد أهمل الاهتمام بالعقيدة اليهُوديَّة، فأراد أنْ يُصلح من هذا النّسيان، فاستدعى هيئة من الوُجهاء اليهُود، وأسند إليها دوراً هُو: "استحداث وسائل لتحسين الأُمَّة اليهُوديَّة، ونشر بين أعضائها تذوُّق الفُنُون والمهن المُفيدة".

ولتنظيم الدِّين اليهُودي إدارياً، وُزِّعت مجموعة أسئلة على وُجهاء اليهُود، وبعد أنْ أجابوا، جَمَعَ الإمبراطُور السّنهدرين الكبير وكلَّفه بمُقابلة الأسئلة للهيئة الأُولى وتخويلها سُلطة دينيَّة. فأعلن السّنهدرين أنَّ شريعة مُوسى تحتوي على نواهي دينيَّة إجباريَّة ونواهي سياسيَّة، هذه الأخيرة تخصُّ اليهُود عندما كانوا شعباً حُرَّاً يحكم ذاته، لكنَّها أضاعت قيمتها عندما انتشر اليهُود بين الأُمم.

مَنَعَ في المستقبل التّمييز بين يهُودي ومسيحي فيما يخصُّ الدُّيُون، ومَنَعَ كُلَّ أنواع الرّبا.

هذه التّصريحات برهنت أنَّ هؤلاء الوُجهاء اليهُود الذين يثقون بأغلبيَّتهم إلى هذه الأقلِّيَّة التي تكلَّمتُ عنها، عرفوا كيف يتلاءمون مع الوضع الجديد للأشياء، لكنَّهم لم يستطيعوا أنْ يتكهَّنوا عن إمكانيَّات الشّعب.

من أخطاء نابليون: أنَّ حُبَّهُ للنّظام والأُسُس والقانون واعتقاده بفعاليَّتها قد غشَّه. لقد تخيَّل ـ بدُون شَكٍّ ـ أنَّ السّنهدرين هُو مُجَمَّع، لكنَّه لم يكن كذلك مُطلقاً. فقرارات السّنهدرين لم يكن لها على الإطلاق إلاَّ قيمة الآراء الشّخصيَّة، فهي لا تُلزم اليهُود أبداً، ولم

يكن لها أيُّ سُلطة، وهُو لم يكن عنده الصّلاحيّات حتَّى يُقرَّها. العمل الوحيد لهذه الجمعيَّة كان عملاً إداريّاً، وهُو تنظيم المجامع الدِّينيَّة. أمَّا بالنّسبة للعمل الرُّوحي؛ فكان لا شيء البتَّة، والأشخاص الذين كانوا مُجتمعين كانوا غير قادرين على تغيير العادات والأخلاق.

وكانوا يعرفون ذلك تماماً، ولم يستطيعوا إلاَّ تسجيل أشياء مُكتسبة: ألغوا تعدُّد الزّوجات الذي لم يكن يُمارَس مُنذُ عدَّة قُرُون. لكي نعتقد أنَّ عُضو سنودس عنده المقدرة بأنْ يفرض حُبَّ القريب (الآخر) ومنع الرّبا الذي يُسهِّله وضع اجتماعي كان يجب أنْ يكون عنده صفاء المُشرِّع نابليون.

كما أنَّ الأمر الإمبراطُوري الذي صَدَرَ بحقِّ اليهُود يمنعهم فيه من إرسال بُدلاء عنهم إلى الخدمة العسكريَّة، وذلك بهدف تحسين شعُورهم تجاه كِبر وأهميَّة واجباتهم المَدَنيَّة كان له نَفْسُ تأثير النّواهي السّنودسيَّة[159]. كذلك الأمر حصل بمرسوم 17 آذار عام 1808، الذي مَنَعَ اليهُودَ من المُتاجرة بدُون شهادة اسميَّة صادرة عن الوالي، وأنْ يأخذوا رهناً عقاريّاً بدُون ترخيص، كما أنَّه مَنَعَ اليهُود بأنْ يقطنوا في الألزاس وبلاد الرّينان، كما مَنَعَ يهُودَ الألزاس أنْ يأتوا إلى مُقاطعات أُخرى إلاَّ لغرض الزّراعة[160]، هذه المراسيم الصّادرة لعشرة سنوات لم تجعل يهُوديّاً واحداً مُزارعاً وطنيّاً، وإذا ببُغْضهم أصبح شُوفينيّاً؛ أيْ وطنيّاً مُتطرِّفاً؛ لأنَّه ذهب إلى الجُنديَّة بشك إجباريٍّ، لكنَّ الأمر لم يكن بالشّيء الذي يُذكر، وكانت هذه آخر القوانين النّاهيَّة المُقيِّدة في فرنسا. الاستيعاب الشّرْعي تمَّ عام 1830، عندما سجَّلَ لافيت المذهبَ اليهُودي في الميزانيَّة. كان ذلك الانهيار النّهائي للكيان المسيحي، رغم أنَّ الكيان العلماني لم يكن قد تشكَّل تماماً بعد. في عام 1889، زال آخر أثر للتّفرقات بين يهُود ومسيحيِّين، وذلك مع إلغاء القسم **More Judaico**. أمَّا الاستيعاب الرُّوحي؛ فلم يكن كاملاً تماماً.

لكنَّنا لم نتكلم حتَّى الآن إلاَّ عن تحرُّر اليهُود الفرنسيِّين، بقي علينا أنْ نعرف تأثيره على يهُود أُورُوبا[161]. ففي هُولندة، ومُنذُ أعوام 1796، عند تأسيس جُمهُوريَّة باتاف

---

(159) هالفن، مرجع القوانين والقرارات.

(160) هالفن.

(161) سوف لن أتحدَّث في هذا الكتاب عن اليهُود الحديثين في البلاد الإسلاميَّة، ولا عن يهُود تُركيّا وآسيا الصُّغرى ولا إيران. إنَّه من الواضح أنَّ الكراهية هُنا لها أسباب أُخرى عن التي في البلاد المسيحيَّة، وفيها مبادئ وأفكار وغرائز مُختلفة جداً هي التي تُسيِّر المُحمَّديِّين، فاللاَّساميَّة في المعنى الحديث للكلمة لا يُوجد ولا في بلد من هذه البُلدان. لكنْ؛ يُوجد العداء الشّعبي. في هذه الدّراسة سأضمِّن اليهُود الجزائريِّين والتُّونسيِّين دُون أنْ أهتمَّ بالمطاعن التي يرفعها ضدَّهم اللاَّساميُّون الفرنسيُّون، مطاعن كالتي سوف نعرضها، لكنْ؛ ليس لها دعمٌ. سوف أهتمُّ ـ فقط ـ بالعلاقات الأهمّ وأسباب الكُره بين العَرَب واليهُود.

Batave ، أعطت الجمعيَّةَ الوطنيَّةَ لليهُود حُقُوقَ المُواطن ، ونظَّم لهم وضعهم - لاحقاً - لويس بُونابرت ، وحَدَّده بشكل نهائي غليوم الأوَّل عام 1815 .

وصحيح أنَّه مُنذُ القرن السّادس عشر تمتَّع اليهُود الهُولنديُّون بامتيازات هامَّة وبحُرِّيَّة كبيرة لا بأس بها : لم تكن الثّورة إلاَّ السّبب المُقرِّر لحُرِّيَّتهم التّامَّة ، أمَّا في إيطاليا وألمانيا ؛ فكانت جُيُوش الجُمهُوريَّة والإمبراطُوريَّة هي التي أعطت اليهُود التّحرُّرَ . فأصبح نابُليُون بطلاً وإله اليهُود المُحرِّر المُنتظَر الذي بيدَيْه القويَّتَيْن حَطَّم أبواب المُعتقل . فدخل في كُلِّ المُدُن على هُتافات اليهُود ، والأُسلُوب الذي أقامه هنري هانيه لهو أكبر شاهد لنا ، الذين كانوا يشعرون جيِّداً أنَّ قضيَّتهم كانت مُرتبطة بانتصار النُّسُور . أمَّا بعد سُقُوط بُونابرت ؛ كان اليهُود أوَّل مَنْ أصابهم رَدُّ الفعل النّابُوليُوني . ومع تصعيد الوطنيَّة تصادف عودة المُناهضة اليهُوديَّة . فالتّحرير كان عملاً فرنسيّاً ، فلذلك وَجَبَ أنْ يعتبروه سيِّئاً ، كان عملاً ثوريّاً ، وكانوا يثورون ضدَّ الثّورة وأفكار التّساوي .

وعندما أعادوا الدّولة المسيحيَّة طردوا اليهُود . لقد كان الأمر على أشدِّه في ألمانيا ؛ حيثُ عاد إلى الحياة المفهوم القديم الدِّيني للدّولة الذي أحيوه ببريق جديد ، لذلك ففي ألمانيا - خُصُوصاً - ظهرت مُناهضة اليهُوديَّة بشكل أقوى ، أمَّا عودة التّشريع المُناهض لليهُود ؛ فكان عامّاً . ففي إيطاليا عادوا إلى تشريع عام 1770 ، في ألمانيا ألغى مُؤتمر فيينا كُلَّ الإجراءات الإمبراطُوريَّة الخاصَّة باليهُود ، ولم يترك لهم إلاَّ الحُقُوق الممنوحة من الحُكُومات الألمانيَّة الشَّرْعيَّة . وأبدت المُدُنُ والقُرى قساوة شديدة تجاه الإسرائيليِّيْن بعد قرارات المُؤتمر . أمَّا لوبك وبريمن ؛ فقد طردوهم . أمَّا فرانكفورت ؛ ففعلت مثل رُوما ، فأغلقتهم من جديد في حاراتهم القديمة . (162)

وبطبيعة الحال ترافقت الإجراءات الشَّرْعيَّة مع التّحرُكات الشّعبيَّة في تلك السّاعة ؛ حيثُ كانت الوطنيَّة مُهتاجة جداً ؛ أيُّ تحديد وحصر لحُقُوق الأجانب كان مُرحَّباً به . فاليهُود كانوا - دوماً - الأجانب بامتياز الذين يُمثِّلون بأفضل ما يكون الأجانب الضّارِّين ، وفي حوالي أعوام 1820 ؛ أيْ في الوقت الذي بلغت فيه هذه الحالة النَّفْسيَّة ذروتها ، كانت الجماهير في

---

(162) أقام اليهُود دعوى في مدينة فرانكفورت للاعتراض على شَرْعيَّة القرارات في المدينة . هذه الدّعوى كانت مُناسبة لهجائيَّات عنيفة ضدَّ اليهُود .

كثير من المناطق تهجم على اليهُود، وإذا هي لم تقتلهم كانت تُسيء مُعاملتهم بشدَّة. فالأعوام الثّلاثون التي مرَّت بعد غياب نابُليُون لم يشهد فيهم اليهُود أيَّ تحسُّن يُذكر.

في إنكلترا؛ حيثُ كانوا يُعاملون بحُرِّيَّة في الحقيقة، لكنَّهم كانوا - دوماً - مُعتَبَرين مُنشقِّين (أو خوارج) ويخضعون مثل الكاثُوليك - على أيِّ حال - إلى بعض القوانين النّاهية والضّرائب. ولم يتغيَّر وضعهم إلاَّ رُويداً رُويداً، وقصَّة تحرُّرهم هي فصل من الصّراع بين مجلس العُموم ومجلس اللُّوردات، وحتَّى عام **1860**، فقط؛ قُبلوا نهائيّاً، ودُمجوا مع باقي المُواطنين الإنكليز.

في النّمسا؛ كانوا قد حُرِّروا - جُزئيّاً - بمرسوم التّسامح ليُوسُف الثّاني عام **1785**، كما أنَّهم خضعوا لنَفْس رُدُود الفعل. فالثّورة في البيت النّمساوي كانت كارثيَّة جدّاً ومُميتة، حتَّى تقبل هذه المُساواة مع اليهُود التي أرادها ملك ديمُوقراطي وفيلسوف.

ولم يُصبح اليهُود مُواطنين نمساويِّين[163] إلاَّ في عام **1848**. وحصل تحرُّرهم في نَفْس الزّمن في ألمانيا[164] واليُونان والسُّويد والدّانمارك، وحصلوا على استقلالهم مرَّة أُخرى بفضل الفكْر الثّوري الذي أتى - أيضاً - من فرنسا. وسوف نرى أنَّهم لم يكونوا غُرَباء عن هذه الحركة التي أثارت أُورُوبا كُلَّها.

ففي بعض البلدان - مثل ألمانيا خُصُوصاً - ساعدوا في تهيئته، وكانوا المُدافعين عن الحُرِّيَّة. وكانوا - أيضاً - أوَّل مَنْ استفاد منه؛ إذْ نستطيع القول إنَّه بعد أعوام **1848**، انتهت مُناهضة اليهُوديَّة الشَّرْعيَّة في الغرب. ورُويداً رُويداً سقطت آخر الحوافز، وأُلغيت آخر

---

(163) إنَّ دُسْتُور الرّابع من آذار أعلن المُساواة أمام القانون، لكنَّ هذا القانون أُلغي عام **1851**، لكنَّ مرسوم **29** تمُّوز عام **1853**، أعاد التّشريع القديم المُتعلِّق باليهُود. وأقرَّ الدُّسْتُور عام **1867**، نهائيّاً المُساواة أمام القانون، وحَرَّرَ اليهُود. وفي هنغاريا؛ صُوِّتَ على القانون المُحرِّر لليهُود وعلى التّمثيل الحُكُومي من خلال مجلس النُّوَّاب عام **1867**.

(**164**) وصُوِّتَ في ألمانيا في **20** أيَّار عام **1848**، حول المُساواة لجميع المُواطنين أمام القانون. وتصرَّف برلمان فرانكفورت بالاتِّجاه نَفْسه، وهذه المُساواة سُجِّلت في الدُّسْتُور الألماني عام **1849**، إلاَّ أنَّ بعض الدُّول حافظت على النّواهي والموانع ضدَّ اليهُود حتَّى حُصُول القانون الفيدرالي الشّمالي في **3** تمُّوز **1869**، الذي ألغى كُلَّ الموانع والنّواهي في القوانين المَدَنيَّة والسّياسيَّة التي كانت لا تزال موجودة ومُستندة على اختلاف الدّيانة "انظر كاييم"، وبعد الحرب الفرنسيَّة الألمانيَّة فُرض هذا القانون على الدُّول؛ مثلاً بافاريا التي لم تقبله قبل حُصُول دُسْتُور الإمبراطُوريَّة.

القوانين المُجمَّدة. في عام **1870**، عام سُقُوط الحُكْم الزّمني للباباوات، أُزيل وأُخفي آخر مُعتقل غربي، واستطاع اليهُود أنْ يكونوا حتّى مُواطنين في نَفْس مدينة القدِّيس بُطرس.

مُنذُ ذلك الحين؛ تحوّلت مُناهضة اليهُوديّة، فأصبحت أدبيَّة بحتة، ولم تَعُدْ سوى وُجهة نظر، ووُجهة النّظر هذه لم يَعُدْ لها فعلها على القوانين. لكنْ؛ قبل أنْ نتفحَّص مُناهضة السَّاميَّة هذه المُختصَّة بالكتاب المُقدَّس في القرن التّاسع عشر، مُناهضة ساميَّة استمرَّت حتَّى عام **1870**، مع قوانين جازرة في بعض البُلدان يجب أنْ نتحدَّث عن الدُّول المسيحيَّة في أُورُوبا الشّرقيَّة؛ حيثُ مُناهضة السَّاميَّة لا تزال في يومنا الحاضر شَرْعيَّة ومُضطَّهِدة؛ أيْ في رُومانيا[165] ورُوسيا، فاليهُود الذين استقرّوا في رُومانيا؛ أيْ في البلاد المولدفاك مُنذُ القرن الرّابع عشر لم يأتوا إليها بكتل كبيرة إلاَّ في بدايات هذا القرن، وبعد الهجرة الهنغاريَّة والرُّوسيَّة أصبح مُنذُ ذلك الحين عددهم ثلاثمائة ألف. عاشوا يُنعمون بالهُدُوء لسنين طويلة. فكانوا تابعين - بشكل طبيعي - للأثرياء الرُّوس الذين كانت لهم السُّلطة في هذا البلد، وكانوا يُؤجِّرونهم ببيع الكُحُول؛ حيثُ كان لهؤلاء الأسياد امتيازات التّجارة به. وبما أنَّهم كانوا ضروريِّيْن للنُّبلاء كجامعي ضرائب وعناصر المُصادرات الماليَّة الضّريبيَّة ووُسطاء من كُلِّ نوع، فلذلك لجؤوا إلى إعطائهم امتيازات، ولم يكونوا يخشون إلاَّ من التّطيُّرات أو من غضب الشّعب.

بدأ الاضطهاد الرّسمي ضدَّ اليهُود عام **1856**، عندما اتَّخذت رُومانيا حُكْماً تمثيليّاً، فآل الحُكْم إلى الطّبقة البُرجوازيَّة. فمُعاهدة باريس لعام **1858**، التي سبقت اتِّحاد مُولدافيا وفالاشيا اعترفت للمُولدو - فالاشيِّيْن (بدُون تمييز في الدِّين) بالتّمتُّع بالحُقُوق المَدَنيَّة. ورغم النّصِّ القطعي للمُعاهدة حُرِم اليهُود من أرباح البلد، وردَّت الحُكُومة الرُّومانيَّة على الاحتجاجات التي رُفعت إليها بأنَّ اليهُود هُمْ الأجانب. ومُنذُ ذلك الحين؛ ازدادت الإجراءات المُقيِّدة. فلم يَعُدْ اليهُود يحصلون على رُتَب، وسُحبوا من حقِّ المسكن الدّائم في الأرياف، ومنعوهم من اقتناء الأثاث (عدا في المُدُن) أو الأراضي أو الكُرُوم، ومنعوهم من استئجار مزارع أو تعهُّد فنادق أو كاباريهات خارج المُدُن. منعوهم أنْ يبيعوا كُحُولاً، وأنْ يكون عندهم خَدَم مسيحيُّون، وأنْ يبنوا كُنُس جُدُد. بعض هذه القرارات قد اتُّخذت بشكل كيفي

---

(165) اليهُود في مُولدافيا، باريس 1867، إيزُودُورلوب: وضع الإسرائيليِّيْن في تُركيًا وصربيا ورُومانيا، باريس 1877.

(تعسُّفي) من قبَل البلديَّات. في قُرى أُخرى؛ على العكس من ذلك، كان اليهُود مُرتاحين. هذه الأُمُور استمرَّت حتَّى عام 1867، في هذا العصر أصدر الوزير جان براتيانو نشرةً ذكَّر فيها اليهُود أنْ ليس لديهم الحقّ بالبقاء في المناطق الرّيفيَّة، ولا أنْ يستأجروا مزارع وملكيَّات. بعد صُدُور هذه النّشرة طُرِد اليهُود من القُرى التي كانوا يسكنونها، حكموا عليهم بالتّشرُّد، وتتالى الطَّرْد حتَّى عام 1877، وكان - بشكل عامٍّ - يترافق بشَغَب في بُخارست وجاسي وكالاز وتيكُوسيُو، وفي مناطق أُخرى، كانوا أثناءها يستبيحون القُبُور، ويحرقون الكُنُس.

ماذا كانت؟ وما هي حتَّى الآن أسباب هذه التّشريعات الخاصَّة وهذا العداء الرُّوماني ضدَّ اليهُود؟ هي لم تكن دينيَّة فقط، ورغم استمرار الرّدَّة الوراثيَّة للسَّلَفيَّات، فهي ليست حرب عقائديَّة. فعند تأسيس رُومانيا وتكوُّنها كان اليهُود يُشَكِّلون في البلاد المُودو - فالاك - تجمُّعات مُنفصلة تماماً عن الغالبيَّة العُظمى للشّعب[166]، كانوا يلبسون لباساً خاصَّاً، ويسكنون في حارات خاصَّة، حتَّى يتجنَّبوا النّجاسة، وكانوا يتكلَّمون لهجة شعبيَّة يهُوديَّة - ألمانيَّة، وهي التي كانت تُميِّزهم تماماً. كانوا يعيشون تحت سيطرة حاخاماتهم والتّلمُوديِّين الضّيِّقين المحدودين الجَهَلة الذين كانوا يتلقَّون في مدارس يهُوديَّة - الهيدر - تربية ساهمت في استمرار انحطاطهم الفكْريِّ وانهيارهم.

فكانوا ضحيَّة هذا الانعزال، انعزال سببه التّعصُّب الحاخامي الذي كان يقودهم. ففي هذا البلد النّاشئ الحديث الولادة والذي كان يكتسب قوميَّة ويسعى للوحدة، كانت المشاعر الوطنيَّة مُتصعِّدة ومُهتاجة بشكل خاصٍّ. فأصبح هُناك رُومانويَّة (جامعة رُومانيَّة) مثل الجامعة الألمانيَّة أو السّلوفانيَّة. فصاروا يُناقشون بالعِرْق الرُّوماني وسلامته ووحدته ونقائه، والخطر بأنْ يتركوه يُنتهَك ويتلوَّث. فأسَّسوا جمعيَّات لمُقاومة الاجتياح الأجنبي، وخُصُوصاً؛ لمُقاومة الاجتياح اليهُودي. فالمُربُّون والأساتذة في الجامعات كانوا رُوح هذه الجمعيَّات. فهُمْ كانوا - كما في ألمانيا - أنشط مُناهضي السَّاميَّة. فكانوا يعتبرون اليهُود وكأنَّهم عُملاء ورُسُل الألمانيَّة، ومن أجل دَحْرهم واستيعابهم صاروا مُحرِّضين للتّشريعات المُقيِّدة.

---

(166) هذا الوضع لم يتعدَّل من وقتها، وهي أقلِّيَّة يهُوديَّة بدُخُولها الجامعات وحُصُول التّطوُّر الفكْري الذي نتج عن ذلك استطاعت أنْ تنجو من الأحكام السّلَفيَّة الشّعبيَّة التي هي مُنغمسة في توحُّش لا يُنقذها منه إلاَّ التّعليم المُعاند للتّلمُود.

كانوا يلومون اليهُود لتكوينهم دولة داخل الدّولة، وهذا كان صحيحاً، وكان هُناك تناقض مُستمرٌ ودائم في مُناهضة اليهُوديَّة، كانوا يُشرِّعون لحفظهم في هذا الوضع الذي كانوا يجدونه خطيراً!. . .

فكانوا يُؤكِّدون أنَّ التّربية اليهُوديَّة كانت تُشوِّه أدمغة الذين يتلقَّونها، وأنَّها كانت تُحوِّلهم إلى أناس غير صالحين وغير كفوئين للحياة الاجتماعيَّة، وهذا كان صحيحاً ودقيقاً جداً، وتوصلوا - أخيراً - بأنْ يقولوا لهؤلاء اليهُود بأنْ يتلقَّوا التّربية المُعطاة للمسيحيِّيْن، تربية وتعاليم كانت لتسحبهم وتُخلِّصهم من انحطاطهم وتدنيهم.

لكنَّ الجامعيِّيْن لم يكونوا الوحيدين مُناهضي السَّاميَّة في رُومانيا، فإلى جانب الأسباب الوطنيَّة؛ كانت هُناك أسباب اقتصاديَّة، فمع تشكُّل البُورجوازيَّة وصعُودها - وقد ذكرتُ ذلك سابقاً - ولُدت مُناهضة السَّاميَّة؛ لأنَّ هذه الطّبقة البُرجوازيَّة المُتألِّفة من تُجَّار وصناعيِّيْن كانت على مُضاربة مع اليهُود الذين كان نشاطهم - بشكل خاصٍّ ومُتميِّز - في التّجارة والصّناعة إذا لم يكن الرّبا.

هذه البُرجوازيَّة كان لها كُلُّ المصلحة بالتّصويت على قوانين حامية (للحماية) قوانين لم تكن اسميَّاً مُوجَّهة ضدَّ اليهُود، لكنْ؛ ضدَّ الأجانب، وكان مقصدها الأساسي وَضْع عقبات في وجه توسُّع المُنافسين الذين يُخشى جانبهم. وتوصَّلتْ إلى ذلك بتشكيل ثورات شَغَب بمهارة سمحت لمُمثِّليها في البرلمان باقتراح قوانين جديدة، كما أنَّنا يُمكن أنْ نعزي هذه الأسباب المُختلفة المُتعدِّدة لمُناهضة السَّاميَّة بسببٍ واحد هُو: الحمائيَّة القوميَّة، وهذه الحمائيَّة هي ماهرة جداً، ففي الوقت نَفْسه التي ترفض فيه الحُقُوقَ المَدَنيَّة لليهُود؛ لأنَّها تعتبرهم أجانب، كانت تُلزمهم بالخدمة العسكريَّة، وهذا تناقض؛ إذْ إنَّ المرء إذا لم يكن مُواطناً لا يستطيع أنْ يكون جُزءاً من الجيش القومي.(167)

ووَضْع اليهُود في رُوسيا كان أكثر قساوة وشقاء من رُومانيا. فتاريخهم في هذا البلد؛ حيثُ أتوا مُنذُ القرن الثّالث قبل الميلاد مُؤسِّسين مُستوطنات في القرم، كان تاريخ يهُود كُلِّ أُورُوبا - في القرن الثّاني عشر طُردوا، ولم يُدعَوا ثانية. غير أنَّه في رُوسيا - الآن - حوالي أربعة مليون ونصف يهُودي.

---

(167) أعتقد أنَّه حقيقي الاعتقاد أنَّ أكثر الشُّوفينيِّيْن لا معقوليَّة هكذا، حتَّى لو كان تُركيَّاً أو بلغاريَّاً أو رُوسيَّاً أو ألمانيَّاً او انكليزيَّاً أو حتَّى فرنسيَّاً.

ويُمكن القول: إنَّ هؤلاء اليهُود أتوا لاجتياحها كما يُؤكِّد مُناهضو السَّاميَّة بما أنَّ رُوسيا هزمتهم واستقلَّت برُوسيا البيضاء عام 1769، ثُمَّ بالمُقاطعات البُولونيَّة والقرم الذين كانوا يحوون عدداً كبيراً من اليهُود، وفي زمن هذا الاجتياح لم يكن مُمكناً أنْ يُطبَّق الفرمان (القرار) القيصري لعام 1742، الذي طَرَدَ اليهُودَ من جديد. فمن جهة؛ إنَّ إبعاد بضع ملايين من البشر إلى دُول مُجاورة لم يكن بالأمر السّهل. ومن جهة أُخرى؛ فالتّجارة والصّناعة - وخُصُوصاً الأُمُور الماليَّة الضّريبيَّة - أصبحت بحالة سيِّئة من جرَّاء هذا الطَّرْد الكبير.

فكاترين الثّانية أعطت اليهُود نَفْس حُقُوق أتباعها الرُّوس؛ لكنَّ الفرمانات (القرارات) السّيناتُوريَّة لأعوام 1786 و1791 و1794، قلَّصت وأنقصت من هذه الامتيازات، وحَجَرَت اليهُود في رُوسيا البيضاء والقرم - والذين شكَّلوا مُنذُ ذلك الحين الأرض اليهُوديَّة - وبُولُونيا، لم يكن مسموحاً لهم الخُرُوج من هذه المُعتقلات الأرضيَّة إلاَّ في بعض الحالات وضمن شروط مُحدَّدة.

كُلُّ مُناهضة السَّاميَّة الحديثة في رُوسيا هي مُناهضة ساميَّة رسميَّة، مفادها مَنْع اليهُود من التّخلُّص من الفرمانات (القرارات) الاستبداديَّة السّنياتُوريَّة التي تكلَّمنا عنها آنفاً.

أمَّا رُوسيا؛ فقد انقادت ليهُودها، لكنَّها أرادت أنْ تتركهم؛ حيثُ تلقَّتهم. غير أنَّه كان هُناك لليهُود ظُرُوف سعيدة، أو أقلّ تعاسة. فأمرهم ألكسندر الأوَّل عام 1808، بأنْ يسكنوا[168] أراضي التّاج، بشرط أنْ يُصحبوا مُزارعين. وسمح لهم نقولا بالسّفر لحاجات تجارتهم. واستطاعوا أنْ يرتادوا الجامعات. وفي عهد ألكسندر الثّاني تحسَّن وضعهم أيضاً. بعد موت ألكسندر الثّاني كان ردُّ الفعل السُّلطوي في رُوسيا مُخيفاً: فعلى قُنبلة العدميَّة (نظريَّة حزب سياسي في رُوسيا لتحرير الفَرْد من كُلِّ سُلطة) حصلت يقظة فظيعة للاستبداديَّة المُطلقة. فأثاروا الفكْر القوميَّ والأرثُوذُوكسيَّ، وعزوا ونسبوا الحركة اللِّيبراليَّة والثّوريَّة إلى التّأثيرات الأجنبيَّة، ولتأليب الشّعب عن الدّعاية العرْقيَّة اتَّهموا بها اليهُود. ومن هُنا؛ انطلقت المذابح عام 1881 و1882 حَرَقَ خلالها جُمُوعُ النّاس بُيُوت اليهُود، ونهبوا،

---

(168) غرادوفسكي، الوضع الشَّرْعي لليهُود في رُوسيا، باريس 1891. تيكوميروف، رُوسيا السّياسيَّة والاجتماعيَّة، باريس 1888. يهُود رُوسيا 1891. الأمير ديميدوف سان دوناتد، المسألة اليهُوديَّة في رُوسيا، بروكسيل 1884. فيبير وكيمبستر، وضع اليهُود في رُوسيا، مُلَخَّص التّقرير المرفوع لحُكُومة الولايات المُتَّحدة بمندوبيها. ليوايريرا، اليهُود الرُّوس، بروكسيل 1893. هارولد فريديريك، سفْر الخُرُوج الجديد 1892.

وقتلوا اليهُودَ قائلين: "أبانا القيصر يُريد ذلك". بعد هذا الهياج الشّعبي أصدر الجنرال أنغناتيف قوانين أيّار 1882، هذه القوانين تحمل في طيّاتها:

1 - بصفتها إجراء مُؤقّتاً وحتّى المُراجعة العامَّة للقوانين التي تُنظِّم وضع اليهُود، (يُمنَع) يُحظَّر على اليهُود أنْ يُقيموا - في المُستقبل - خارج المُدُن والقُرى. يجري استثناء لصالح الجاليات اليهُودية الموجودة سَلَفَاً (من قَبْلُ) أو اليهُود الذين يهتمُّون بالزّراعة.

2 - وحتّى إشعارٍ آخر لن يُسمَح باستمرار العُقُود المكتوبة باسم يهُودي، والتي غرضها شراء رَهْن عقارٍ أو تأجير أبنية ريفيَّة تقع خارج المُدُن والقُرى، كما يُعَدُّ مُلغى أيُّ توكيل قد أُعطي ليهُودي لإدارة أملاك من النّوع المُدرج أعلاه ولتملُّكه.

3 - يُمنَع، ويُحظَّر على اليهُود أنْ يعملوا في التّجارة أيَّام آحاد وأعياد الدّيانة المسيحيَّة، فالقوانين التي تُجبر المسيحيِّيْن أنْ يُغلقوا بُيُوت تجارتهم خلال هذه الأيَّام سوف تُطبَّق على بُيُوت تجارة اليهُود.

4 - هذه الإجراءات المُدرجة أعلاه لا تُطبَّق إلاَّ على الحُكُومات التي تُوجد على امتداد الأرض اليهُوديَّة.

وبصفة تدبير مُؤقَّت أُصدرت هذه القوانين. كذلك في عام 1883، اجتمعت لجنة برئاسة الكُونت فالن لإيجاد حلٍّ نهائيٍّ للمسألة اليهُوديَّة. خرجت هذه اللَّجنة بقرار باتِّجاه ليبرالي قويٍّ طالبت بمَنْح اليهُود بعض الحُقُوق المَدَنيَّة. وبفضل تأثير المسيو بوبيرو نوستتيف والي السّنودس المُقدَّس بقي تقرير لجنة فالن حبراً على ورق، وطُبِّقَتْ "قوانين أيَّار"، ومُنذُ ذلك الحين، وخُصُوصاً اعتبار من عام 1890، تضاعفت الاضطهادات. قلَّصوا الأراضي بمَنْع اليهُود من الدُّخُول إلى بعض الأماكن القويَّة، وبخَلْق منطقة حُدُوديَّة لا يستطيع اليهُود أنْ يسكنوها. ألغو المرسوم القيصريِّ لعام 1865، الذي يسمح فيه ألكسندر الثّاني لأصحاب المهن المَهَرَة باختيار مسكن في كُلِّ الإمبراطُوريَّة.

وبذلك طردوا من (مُدَن الأراضي) حوالي ثلاثة ملايين يهُودي، بينما انتشر مليون في بُولُونيا، ونصف مليون مُتميِّزين تُجَّار من الجمعيَّة التّجاريَّة الأُولى؛ رجال أموال عبر كُلِّ روسيا.

في مُدُن (الأراضي اليهُوديَّة)؛ أيْ الأراضي المسموح لهم بالإقامة والتّنقُّل فيها (أيْ المحاجر) اليهُود هُمْ الأغلبيَّة، وظُرُوف معيشتهم فظيعة. فهُمْ تكدَّسوا في بُيُوت غير صحِّيَّة؛

حيثُ يعيشون في فقر مُدقع، مُدمَّرين من بُؤس يبدو أمامه البُؤس الذي نجده في باريس وبرلين ولُندُن هُو ازدهار، تحوَّل إلى البطالة خلال قسم من السّنة، وفي الجُزء الآخر من السّنة لا يجدون عملاً إلاَّ شرط القُبُول بمُرتَّبات مُنخفضة، مُرتَّبات انخفضت قيمتها، لدرجة أنَّها أصبحت 50. 0 في اليوم. وتكاثروا ـ بدُون توقَّف ـ بسبب فقرهم نَفْسه، هؤلاء التّعساء يُنازعون ببُطء، وهُمْ عُرضة لجميع أمراض الكُوليرا والتّيفوس وكُلّ ما هُناك من طاعون. وتزداد حالتهم سُوءاً من يوم إلى يوم، ويزداد شقاؤهم وينسحقون في أماكن مثل الماشية المُنضغطة جداًّ في إسطبلات ضيِّقة جداًّ، ولا أمل للخلاص يبرق لهم.

ليس لهم خيار إلاَّ بين ثلاثة اختيارات: الاهتداء، الهجرة، أو الموت. هذا ما توقَّعه السيِّد بوبيدونوستيف والي السّنودس المُقدَّس عندما فرض تطبيق قوانين إنغناتيف.

عدا هذا الطَّرْد الآلي كانت هُناك إجراءات أُخرى اتُّخذتْ ضدَّ اليهُود، فقد منعوهم من بعض الوظائف وبعض المهن، طردوهم من المشافي الذين يعملون فيها كمُمرضين، وسَرَّحوا المُوظَّفين منهم في شركات سلك الحديد وشركات الملاحة (البَحْريَّة). حدَّدوا عدد الذين لهم الحقُّ في الدُّخُول إلى الجامعات والمدارس العُليا والمعاهد الرّياضيَّة. منعوهم من أنْ يكونوا مُحامين أو وُكلاء دعاوي أو أطبَّاء، أو مُهندسين، أو أنَّهم لا يسمحون لهم بمُمارسة هذه المهن إلاَّ نادراً. أغلقوا لهم مدارسهم الخاصَّة، وحتَّى أنَّهم لم يقبلوهم في المُستشفيات. أثقلوهم بضرائب خاصَّة على الإيجارات، وعلى الإرث، على اللَّحم الذي يقتلونه، وعلى الشُّمُوع التي يُشعلونها يوم الجمعة مساءً، وعلى القلنسوات التي يُغطَّون بها رُؤُوسهم أثناء الاحتفالات الدِّينيَّة حتَّى الخاصَّة.

إلى جانب هذه الضّرائب الرّسميَّة الصّادرة عن الحُكُومة خضعوا لاستغلال الإدارة والبُوليس الرُّوسي الأكثر فساداً والأكثر ارتشاءً (رشوة) والأكثر انحطاطاً في أُورُوبا. نصف مداخيل الطّبقة الوُسْطى اليهُوديَّة قال السَّيِّد ويبا **Weba** وكمبستر **Kempster** و هارولد فريديريك تذهب إلى الشّرطة.

كُلُّ يهُودي وَضْعُهُ ميسورٌ هُوَ ضحيَّة لابتزاز مُستمرٍّ، أمَّا بما يخصُّ الأغلبيَّة، والذين هُمْ بُؤساء جداًّ؛ فلا يستطيعون أنْ يدفعوا، فهُمْ يخضعون للتّعامل الأكثر فظاظة والأكثر

لاإنسانيَّة في الوُجُود، فهُمْ مجبورون للانحنـاء لكُـلِّ نـزوات الشُّرطة الرَّعنـاء التـي **تحكمـهم** وتُعذِّبـهم مثلمـا تُعـذِّب العدميِّـن والمشـبوهين باللِّيبراليَّـة والتـي وضعتـهم السُّلطة القيصريَّـة الأُوتُوقراطيَّة تحت سُلطتها[169]. لماذا هذا التّعامل؟ لماذا هذا الاضطهاد الفظيع؟

- يُجيـب مُنـاهضو السَّاميَّة؛ لأنَّ هـؤلاء الأربعـة ملايـين ونصـف مـن اليـهُود يسـتغلُّون التّسعين مليون رُوسي.

- كيف يستغلُّونهم؟

- بالرّبا.

فالتّسعة أعشار من اليهُود الـرُّوس لا يملكـون شيئاً. يُوجـد فـي رُوسـيا مـن عشـرة إلـى خمسة عشر ألف يهُودي هُمْ مـن أصحـاب رُؤُوس الأمـوال؛ مـن هـؤلاء العشـرة أو الخمسـة عشر ألفاً مَنْ هُو تاجر، والآخرون رجال أعمال، ويُمارسون - بالتّأكيد - الصّرافة أو الرّبا.

وأخيراً؛ كان هُناك أقلِّيَّة صغيرة جداًّ تسـكن القُـرى، وتُقـرض الفلاَّحـين. فقـد طـردوا هؤلاء - تماماً - من الأرياف، لكنَّهم تركوا - بهُدُوء - التُّجَّار والُمموِّلين. وعُمُوماً؛ كُـلَّ الأغنيـاء الذين يستطيعون أنْ يدفعوا ثمـن الامتيـازات. فـإذا كـانت الرّغبـة اسـتهداف الُمستغلِّين، فقـد أخطؤوا؛ لأنَّهم أصابوا المهنيِّيْن والبُؤساء.

- هل حصلوا - على الأقلِّ - على تحسين في وضع الفلاَّحين؟

- لا. فـالفلاَّح الرُّوسي مُثقـل بـالضّرائب، ومُنـذُ تحريـره مُسْـتَغَلٌّ مـن قِبَـل مصلحـة الضّرائب وعُملاء الحُكُومة، لقد أصبح فريسة حتميَّة للمُرابين.

ففي جميع الأنحاء؛ استُبدِلَ اليهُودي بـالكُولاك (الفـلاَّح الدّائـن) الذيـن كـانوا يعيثـون فساداً في كُلِّ القُرى الرُّوسيَّة؛ حيثُ لم يكن هُناك يهُودي - أيْ؛ في مُعظـم القُـرى الرُّوسـيَّة - ولكنْ؛ لم يُتَّخذ أيُّ إجراء ضدَّ الكُولاك. فَطَرْدُ اليهُود - إذاً - ليس هدفه الدّفـاع عـن مصلحـة الفلاَّحين. كما أنَّهم يُحرِّضون على السُّكْر؛ هكذا أكَّدوا. وقد قال كانكُوف، وهُو مُنـاهض

(169) إنَّ وضع اليهُود الرُّوس تجاه الشّعب هُو نَفْسه مثلما كان في العُصُور الوُسْطى. الفلاَّح والعامل الرُّوسـي هُمـا في درجة بُؤس اليهُودي نَفْسها. هُما - أيضاً - عُرضة للإذلال والتّعسُّف، لكنَّـهما ليسـا مُضطهَدَيْن، وعندهمـا ميزة التّحرُّك إلى حَدٍّ ما.

للسَّاميَّة: الإدمان مُنتشر أكثر في وسط وشمال رُوسيا، هُناك أماكن لا يُوجد فيها سوى عدد قليل من اليهُود منه في الجنوب - الغربي؛ حيثُ يُمارسون مهنة (خمَّار) أصحاب حانات. هذا طبيعيٌّ جداً، فالكُحُول هُو ضرورة مُلحَّة للفُقراء الذين تغذيتهم غير كافية، وهُو ضروري أكثر فأكثر في البلاد الباردة. لم يكن اليهُود ليعملوا خمَّارين لو كان هُناك مَنْ يعملها عوضاً عنهم، وعلى أيِّ حال؛ فإن طَرْد اليهُود ليس حرباً على الإدمان؛ بما أنَّهم لم يتَّخذوا أيَّ إجراء ضدَّ تجارة المسيحيِّيْن الذين هُمْ أكثر عدداً من الإسرائيليِّيْن.

والتّحايلات التي كان يتَّهم بها المقاولون اليهُودَ الأثرياءَ لا نستطيع أنْ نتطرَّق لها بما أنَّ هؤلاء المقاولين تحدَّد لهم وَضْع مُتميِّز. أمَّا بالنّسبة للأساليب غير الشّريفة لقسم كبير من الشّعب البائس؛ فهُمْ بحالة يُرثى لها، لدرجة أنَّهم إذا لم ينهبوا لنقص عنهم الغذاء، وهُمْ كانوا بوَضْع يُماثل عدداً كبيراً من الرُّوس الأرثُوذُوكس، والذين يدفعهم الكيان الاجتماعي والاقتصادي الرُّوسي على ألاَّ يحرصوا على العفَّة حتَّى يُمكنهم العيش.[170]

ماهي - إذاً - الأسباب الحقيقيَّة لُمناهضة السَّاميَّة؟

هي أسباب سياسيَّة ودينيَّة. فمُناهضة السَّاميَّة ليست - أبداً - حركة شعبيَّة في رُوسيا، هي رسميَّة محضة.

فالشّعب الرُّوسي مُثقل بالفقر، مسحوق بالضّرائب، مُنحني تحت أفظع الطُّغاة، ساخط على العُنف الإداري والتّعسُّف الحُكُومي، مُحمَّل بالآلام والإذلال، هُو في وضع غير مقبول أبداً. بشكل عامٍّ؛ هُو مُستسلم، خاضع، لكنَّه قادر على الغضب، ويُخشى من عصيانه وثورته، والفتن المُناهضة للسَّاميَّة مُفتعلة - خصِّيصاً - لتحويل الهياج الشّعبي، لذلك؛ شجَّعتْ عليها الحُكُومة، وغالباً افتعلتها. أمَّا بالنّسبة للفلاَّحين والعُمَّال عندما كانوا يُهاجمون اليهُود، وينقضُّون عليهم؛ فذلك لأنَّهم كانوا يقولون: اليهُودي والشّريف مُتساويان، لكنْ؛ أسهل أنْ تضرب اليهُودي[171]. وهكذا يتَّضح لنا لماذا نَهَبَ التُّجَّار الأغنياء والدَّائنون المُوسرون اليهُودَ، وأحياناً - بطريقة غير مُباشرة - عُمَّال اليهُود البُؤساء، وهذا أمر مُؤلم جارح أنْ يرى المرء هؤلاء المُعدمين يهجمون الواحد على الآخر عوضاً عن أنْ يتَّحدوا

---

(170) جُزء كبير من هذه المطاعن ليس لها سَنَدٌ بما يخصُّ يهُود بُولُونيا، مع أنَّ يهُود بُولُونيا ليسوا مكبوتين في المُدُن مثلما هُمْ يهُود الأقاليم.

(171) تيكُو ميرُوف.

ضدَّ القيصريَّة الطّاغية، إنَّ إمكانيَّة اتِّحاد الفُقراء قد توقَّعها الذين لهم مصلحة بخَلْق واستمرار التّناقُضات، والذين رأوا في الواقع أثناء أحداث 1881 و1882، الثّورات تنهب وتحرق بُيُوت المسيحيِّيْن. بعد موت ألكسندر الثّاني أصبح الأمر مُلحّاً أنْ يُمحى من ذاكرة الفلاّح الرُّوسي (المُوجيك) والعُمَّال ذكرى المُحاولات اللِّيبراليَّة للعَدَميِّيْن.

أصبحت الثّورة - وأكثر من أيِّ وقت مضى - الخطر المُحدق والتِّنِّين المُريع الذي يجب حماية رُوسيا المُقدَّسة منه.

من أجل الوُصُول لذلك، فكَّروا بالعودة إلى الأرثُوذُكسيَّة. كُلُّ الشَّرِّ يأتي من الأجنبي، من الهرطُوقي، من الذي يُدنِّس الأرض المُقدَّسة (هكذا كانوا يقولون).

لهذا؛ كانت نظريَّة إيغناتيف، وهي نظريَّة **Pobledonostsef** والسّنودس المُقدَّس، ونظريَّة هذا التّعيس ألكسندر الثّالث بدُون شَكٍّ، والذي كان الخوف يُذهب صوابه، وكان **Pobledonostsef** يقوده مثل طفل ذي ذهن ضعيف. فهجموا ضدَّ اليهُود، واتَّخذوا إجراءات مُماثلة ضدَّ الألمان، وضدَّ الكاثُوليك، وضدَّ اللُّوثريِّيْن، وضدَّ كُلِّ الذين لا ينتقمون للعرْق السّلافي، أو لا يخصُّون الرُّوم الأرثُوذُكس.(172)

غير أنَّ الاضطهاد كان أشدَّ وأعتى ضدَّ اليهُود؛ إذْ إنَّهم لم يكونوا مُضطرِّين تجاههم على المُحافظة على تدابير دبلُوماسيَّة كالتي كانوا يتَّخذونها تجاه الكاثُوليك واللُّوثريِّيْن أو الألمان. لو أنَّهم ذبحوا الكاثُوليك الرُّوس لثارت أُورُوبا بأكملها.

لكنَّهم يستطيعون أنْ يقتلوا اليهُود دُون مُحاسبة...

كذلك كانت هُنا نَفْس أسباب اليهُود الرُّومان، فاليهُود الرُّوس يتميَّزون عن باقي الشّعب بعباداتهم وتقاليدهم وتربيتهم، عدا أقلِّيَّة مُستنيرة ذكيَّة جداً من اليهُود الشّباب الذين هُرعوا إلى الجامعات قبل أنْ تُغلق أبوابها في وُجُوههم.

عندهم نوع من التّنظيم الدّاخلي الذي هُو الكحال **Kahal** والذي يُعطيهم نوعاً من الاستقلاليَّة الذّاتيَّة والأكثر سُهُولة، وهُو أنْ يُوشى ويُضحَّى بهم على أنَّهم خطر، وذلك

---

(172) هذا هُو أغرب ما يكون في المُوافقة التي أبداها بعض من اللاّساميِّيْن المُتديِّنين في فرنسا وألمانيا، وذلك من شوفينيَّتهم أو اندفاعهم لأفعال القيصر وحُكُومته، وذلك بتأييد التّعذيب والاضطهاد القيصري ضدَّ اليهُود، فهُمْ - بذلك - يُؤيِّدون ضدَّ الكاثُوليك أو اللُّوثريِّيْن الذين هُمْ عزيزون عليهم.

لمصلحة المُؤسَّسات القائمة الكُبرى ومصلحة الرّأسماليِّيْن الأُورثُوذُوكس الذين ـ بذلك ـ يهربون من الهياج الشّعبي الذي يُخشى انفجاره. لقد نَفَوا ـ دائماً ـ أنْ يكون لمُناهضة السَّاميَّة الرّسميَّة منشأ دينيٌّ. غير أنَّ ذلك غير مُمكن إنكاره، فالرُّوس يُمكن أنْ يُقلِّلوا من قيمة السّلافيَّة، ليصلوا إلى الوحدة الدِّينيَّة، وحدة تبدو ـ على الأقلِّ لبعضهم ـ أنَّها ضروريَّة وحيويَّة للحُصُول على وحدة الدّولة.

فالمسألة القوميَّة والمسألة الدِّينيَّة في رُوسيا تُساويان مسألة واحدة، فالقيصر هُو ـ في الوقت نَفْسه ـ قائد زمنيٌّ وقائد رُوحيٌّ، قيصر يعني بابا. وهُمْ يُولون أهمِّيَّة أكبر للإيمان منه للعرْق، والدّليل هُو أنَّ كُلَّ يهُوديٍّ يقبل بالاهتداء (الهدايَّة) لا يُطرَدُ أبداً. على العكس؛ فهُمْ يُشجِّعون اليهُودي للدُّخُول في الأُرثُوذُوكسيَّة.

كُلُّ طفل يهُودي بلغ الرّابعة عشر من عُمره يستطيع أنْ يجحد بدينه ضدَّ رغبة والدَيْه، أمَّا المُهتدي المُتزوِّج؛ فيجد نَفْسه مُتحرِّراً من العُقُود التي تربطه بزوجته وأوّلاده، والمرأة المُهتدية تقطع ـ بعد هدايتها ـ كُلَّ التزاماتها الزّوجيَّة. أمَّا المُهتدون البالغون؛ يحصلون على مبلغ قدره خمسة عشر إلى ثلاثين رُوبل أثناء تخلِّيهم عن دينهم، والمُهتدون الأطفال مبلغ سبعة إلى خمسة عشر روبل.

ولكي يُلزموا اليهُود بالمجيء إلى الدّيانة اليُونانيَّة أغلقوا المدارس الحاخاميَّة، وقلَّصوا عدد الكُنُس، أُغلِق كنيس مُوسكُو عام 1892، كأمر فاحش، مُنع اليهُود من الاجتماع حتَّى للصّلاة.

ماذا تبغي الآن اعتراضات مُناهضي السَّاميَّة ضدَّ اليهُود بما أنَّهم وافقوا أنْ يحتفظوا عندهم باليهُود الذين أصبحوا مسيحيِّيْن وهُمْ يعلمون ـ تمام المعرفة ـ أنَّ الدّيانة المسيحيَّة لن تجعلهم يتخلَّون عن دورهم الاجتماعي، خُصُوصاً الذين ليسوا حرفيِّيْن إنَّما وُسطاء ورأسماليِّيْن؟!.

وهكذا في أُورُوبا الشّرقيَّة هذه؛ حيثُ وَضْعُ اليهُود الحالي يُقدِّم لنا بُرهاناً جيِّداً عن ظُرُوفهم في العُصُور الوُسْطى، نستطيع أنْ نقول إنَّ أسباب مُناهضة السَّاميَّة هي نوعان: أسباب اجتماعيَّة وأسباب دينيَّة، اتَّحدت مع (أو تلازمت مع) الأسباب الوطنيَّة القوميَّة. يجب أنْ ترى الآن ما هي الأسباب التي جعلت مُناهضة السَّاميَّة تستمرُّ في البلاد؛ حيثُ كانت شَرْعيَّة، ثُمَّ أصبحت كتابيَّة؛ أيْ مُختصَّة بالكتاب المُقدَّس، ويجب أنْ نتفحَّص ـ قبل كُلِّ شيء ـ هذا التَّحوُّل، وهذه المظاهر التي نَتَجَتْ عنها.

الفصل التّاسع:

مُناهضة السّاميّة الحديثة وأدبها

دخل اليهُود المُتحرِّرون في الأُمم كأجانب، ولم يستطيعوا أنْ يكونوا غير ذلك كما رأينا، بما أنّهم - مُنذُ قُرُون عديدة - يُشَكّلون شعباً بين الشُّعُوب، شعباً خاصّاً مُحتفظاً بخصائصه بفَضْل طُقُوسه الصّارمة والدّقيقة، وبفَضْل تشريع كان يعزله - دوماً - على حدة، ويُساهم في استمرار ذلك. فدخلوا في المُجتمعات الحديثة ليس كضُيُوف، ولكنْ؛ كفاتحين، كانوا شبيهين بقطيع في حظيرة، وفجأة؛ سقطت أمامه الحواجز، فهجم على الحقل المفتوح أمامه. فهُمْ لم يكونوا مُحاربين، كما أنّ الزّمن لم يكن مُؤاتياً، فهُو ليس زمن إرساليّات عشيرة صغيرة، لكنّهم صنعوا الغزو الوحيد الذي كانوا له مُسلّحين، وهُو الغزو الاقتصادي، والذي تهيّؤوا له مُنذُ سنين طويلة. لقد كانوا قبيلة من التُّجّار وبائعي الفضِّيّات، معزولين ربُّما بسبب مُمارسة التّجاريّة (ميركا تيليّة)، لكنّهم مُسلّحون جيّداً بمزايا أصبحت سائدة في النّظام الاقتصادي الجديد، وذلك بفَضْل هذه المُمارسة ذاتها.

كما أنّه كان من السّهل عليهم أنْ يستأثروا بالتّجارة والأموال، وكان ذلك مُستحيلاً بالنّسبة لهم ألاّ يفعلوا ذلك، وهذا يجب تكراره دوماً.

وبما أنّهم مضغوطون ومقموعون خلال قُرُون خَلَتْ، ومُتحفّظون باستمرار على كُلِّ ميُولهم، اكتسبوا بذلك قُوّة انتشار رائعة. وهذه القُوّة لم تستطع أنْ تُمارَس في اتِّجاه مُعيّن.

لقد حدّوا من جهدهم، لكنّهم لم يُغيِّروا طبيعتهم. كما أنّهم لم يُغيِّروها يوم حرّروهم وذهبوا قُدُماً في الطّريق التي كانت أليفة بالنّسبة لهم، ووَضْع الأُمُور كان لمصلحتهم، فنشطّهم بشكل خاصٍّ، في هذا العصر حصلت انقلابات كبيرة وإعادة بناء، وفي هذا الوقت التي تغيّرت فيه الأُمم، وتحوّلت فيه الحُكُومات، وأُنشئت مبادئ جديدة، وتمخّضت مفاهيم

اجتماعيَّة جديدة رُوحيَّة وميتافيزيقيَّة، كانوا الوحيدين من الأحرار. لم يكونوا مُرتبطين بأيِّ أحد من الذين يُحيطون بهم، لم يكن لهم تُراث قديم يُدافعون عنه، فالإرث الذي تركه المُجتمع القديم للمُجتمع النّاشئ لم يكن لهم. فألُوف الأفكار الوراثيَّة التي كانت تربط مُواطني الدُّول الحديثة بالماضي لم تكن لتُؤثِّر بشيء على سُلُوكيَّاتهم أو أفكارهم أو نَفْسيَّاتهم: كان فكْرهم بلا قُيُود.

وقد برهنتُ - سابقاً - أنَّ تحرُّرهم لم يكن ليُغيِّرهم في شيء، وأنَّ عدداً كبيراً منهم تأسَّف على انعزاله السّابق، وإذا كانوا يفعلون ما بوسعهم حتَّى يبقوا هُمْ أنفسهم، وإذا لم ينصهروا، لكنَّهم تكيَّفوا - بشكل رائع - مع الظُّرُوف الاقتصاديَّة التي حَكَمَتْ الأُمم مُنذُ بداية هذا القرن (التاسع عشر)، وذلك بفَضْل مُيُولهم الخاصَّة.

كانت الثّورة الفرنسيَّة - قبل كُلِّ شيء - ثورة اقتصاديَّة، وإذا استطعنا أنْ نعتبرها نهاية صراع الطّبقات يجب - أيضاً - أنْ نرى فيها مُحصِّلة صراع بين شكلَيْن لرأس المال، رأس مال عقاريّ غير منقول ورأس مال منقول؛ أيْ رأس مال عقاري ورأس مال صناعي ومُضارب مالي.

مع أولويَّة النّبالة زالت أولويَّة رأس المال العقاري، وتفوُّق البُورجوازيَّة جَلَبَ تفوُّق رأس المال الصّناعي والصّرافة. تحرُّر اليهُود مُرتبط بتاريخ ازدهار رأس المال الصّناعي هذا. طالما كان رأس المال العقاري يُمسك بزمام السُّلطة السِّياسيَّة كان اليهُودي محروماً من كُلِّ الحُقُوق.

واليوم الذي انتقلت فيه السُّلطة السِّياسيَّة إلى رأس المال الصّناعي تحرَّر اليهُودي، وهذا كان مُقدَّراً ومحتوماً.

وفي الصّراع الذي تبنَّته البُرجوازيَّة كانت بحاجة إلى مُساعدين. كان اليهُودي بالنّسبة لها مُساعداً ثميناً وسنداً كان من مصلحتها أنْ تُحرِّرَه. مُنذُ الثّورة مشى اليهُودي والبُورجوازي سويَّة، وسويَّة دَعَما نابليون عندما أصبحت الدّيكتاتُوريَّة ضروريَّة للدّفاع عن امتيازات الثّلث (Tiers) المُكتسبة (أيْ امتيازات العُمَّال والفلاَّحين)، وعندما أصبح الطُّغيان الإمبراطُوري ضاغطاً جداً وثقيلاً جداً على الرّأسماليِّيْن كان البُورجوازي واليهُودي متَّحدَيْن، وعملوا على إسقاط الإمبراطُوريَّة باحتكارهم المُؤن خلال الحملة على رُوسيا، وساهموا في الكارثة النّهائيَّة بافتعالهم خَفْضَ المداخيل وبشراء تخاذل الماريشالات.

وبعد 1815، في بداية التّطوُّر الصّناعي الكبير، وعندما تشكَّلتْ شركات الأقنية والمناجم والتّأمينات كان اليهُود بين العناصر الأنشط على تحقيق نظام ضَمَّ رُؤُوس الأموال أو - على الأقلّ - على تطبيقه. كانوا - على كُلِّ حال - أحسنهم كُفأ، بما أنَّ ذهنيَّة الرّابطة والجمعيَّة كانت لعدَّة قُرُون خَلَتْ دعمَهُم الوحيد، لكنَّهم لم يكتفوا بالمُساعدة بهذا الشّكل العملي في نجاح الصّناعة والتّصنيع إنَّما ساعدوا بطريقة نظريَّة. فتجمَّعوا حول فيلسوف البُورجوازيَّة؛ حول سان سيمُون، عملوا حتَّى على إعداد ونَشْر نظريَّته.

قال سان سيمون(173): "يجب إسناد إدارة السُّلطة الزّمنيَّة إلى الصّناعيِّيْن".

"والخُطوة الأخيرة الواجب على الصّناعة فعْلُها هي أنْ تستأثر بقيادة الدّولة، والمسألة العُليا لوقتنا هذا هُو تأمين الأغلبيَّة في البرلمان للصّناعة".

وأضاف: "على الطّبقة الصّناعيَّة أنْ تحتلَّ الصَّفَّ الأوّل؛ لأنَّها الأهمُّ من الجميع".

ولأنَّها يُمكنها الاستغناء عن الجميع، والجميع لا يستطيعون الاستغناء عنها: لأنَّها تستمرُّ بقواها الخاصَّة وأعمالها الشّخصيَّة. يجب على الطّبقات الأُخرى أنْ تعمل لها؛ لأنَّهم مخلوقاتها، وهي تُؤمِّن معيشتهم. بكلمة واحدة؛ كُلُّ شيء يُعمل من قبَل الصّناعة، إذاً؛ كُلُّ شيء يجب أنْ يُعمَل لها". ساهم اليهُود بتحقيق الحلم لسان سيمُون(174) كانوا يعملون لأنفسهم في كُلِّ أُورُوبا. كانوا في الصَّفَّ الأوَّل للحركة اللِّيبراليَّة التي انتهت بترسيخ سيطرة الرّأسمال البُورجوازي من 1815 إلى 1848.

دور اليهُود هذا لم تغفل عنه طبقة الرّأسماليِّيْن العقاريِّيْن. وسوف نرى أنَّ ذلك كان أحد أسباب مُناهضة اليهُوديَّة من قبَل طبقة المُحافظين، لكنَّها لم تُساو لليهُود عرفان الطّبقة البُورجوازيَّة! عندما استقرَّت هذه بسُلطتها وعندما اطمأنَّت وركَنَتْ لاحظتْ أنَّ حليفها اليهُوديَّ ليس إلاَّ مُنافساً خطيراً يُخشى بأسه، فثارتْ ضدَّه. وهكذا؛ فإن الأحزاب السِّياسيَّة المُحافظة والمُؤلَّفة - عُمُوماً - من الرّأسماليِّيْن الزّراعيِّيْن أصبحوا ضدَّ اليهُود في صراعهم ضدَّ الرّأسماليَّة الصّناعيَّة والمُساهمة الماليَّة والصّرافة التي يُمثِّله اليهُودي بشكل خاصٍّ، والرّأسماليَّة الصّناعيَّة والصّرافة - بدورهم - أصبحوا ضدَّ اليهُود بسبب المُنافسة اليهُوديَّة.

---

(173) سان سيمُون، النّظام الصّناعي، باريس 1821.

(174) سان سيمُون، تعليم مسيحي للصّناعيِّيْن، أوَّل دفتر، باريس 1823.

فمُناهضة اليهُوديَّة ـ التي كـانت في البدء دينيَّة ـ أصبحت اقتصاديَّة ، أو بتعبير آخر ؛ الأسباب الدِّينيَّة التي كانت فيما مضى مُسيطرة على مُناهضة اليهُوديَّة اندغمت مع الأسباب الاقتصاديَّة والاجتماعيَّة .

هذا التَّحوُّل الذي يتناسب مع تغيير دور اليهُود لم يكن الوحيد . فالعداء ضدَّ اليهُود كان ـ في السَّابق ـ عاطفيّاً ، فأصبح عقلانيّاً . فالمسيحيُّون في الماضي كرهوا قَتَلَةَ الإله بشكل غريزيٍّ ، ولم يُحاولوا ـ أبداً ـ أنْ يُبرِّروا عداءهم . لكنَّهم كانوا يُبدونه . أمَّا مُناهضو اليهُود المُعاصرون ؛ أرادوا شَرْح بُغضهم ؛ أيْ أرادوا تزْيينَه : مُناهضة اليهُوديَّة تحوَّلت إلى مُناهضة السَّاميَّة ، كيف تبدَّت مُناهضة السَّاميَّة هذه؟ لم يكن لها الظُّهُور إلاَّ بالكتابات ، فمُناهضة السَّاميَّة الرَّسميَّة كانت قد ماتت في الغرب ، أو كانت تموت : وبالمُحصِّلة ؛ فإن التَّشريع المُناهض لليهُود اختفى هُو أيضاً . بقيت مُناهضة السَّاميَّة أيديُولُوجيَّة ، أصبحت وُجهة نَظَر نظريَّة ، لكنَّ مُناهضي السَّاميَّة كان لهم هدف واضح جدّاً .

حتَّى زمن الثَّورة كانت مُناهضة اليهُوديَّة الأدبيَّة تُعزِّز وتدعم مُناهضة اليهُوديَّة الشَّرْعيَّة ، أمَّا انطلاقاً من الثَّورة وتحرُّر اليهُود ؛ أصبحت مُناهضة السَّاميَّة الأدبيَّة تُحاول أنْ تُثبت المُناهضة السَّاميَّة الشَّرْعيَّة في البلاد التي لا تُوجد فيها ، والتي لم يصل إليها ، وليس علينا إلاَّ أنْ ندرس المظاهر الكتابيَّة لمُناهضة السَّاميَّة ، مظاهر يُمثِّل بعضها وُجهة نَظَر لعدد كبير ؛ إذْ إنَّ الأُدباء المُناهضين للسَّاميَّة قدَّموا البراهين لمُناهضي السَّاميَّة باللاَّشُعُور ، فهُمْ قد وُجدوا منهم . فقد حاولوا أنْ يشرحوا ما شعر به القطيع ، ولو أنَّهم ـ أحياناً ـ حاولوا أنْ ينسبوا لها دوافع غريبة وغير واقعيَّة ، فلم يكونوا ـ غالباً ـ إلاَّ صدىً لمشاعر مُلهميهم . ماذا كانت هذه المشاعر؟

سوف نرى ما هي بتفحُّصنا للأدب اللاَّسامي ، وفي الوقت نَفْسه ؛ سوف نُفصِّل الأسباب العديدة لمُناهضة السَّاميَّة المُعاصرة .

ليس من المُمكن أنْ نُصنِّف الأعمال المُناهضة للسَّاميَّة في تصنيفات ضيِّقة جداً ؛ إذْ إنَّ كُلَّ واحدة تُقدِّم ـ عادةً ـ اتِّجاهات مُتعدِّدة ، غير أنَّ لكُلِّ واحدة فكْرة مُسيطرة نستطيع من خلالها أنْ نُنشئ تصنيفها ، مع تذكُّرنا الدَّائم أنَّ أيَّ عمل قريب من نموذج قريب مُحدَّد ليس ـ بالضَّرورة ـ أنْ يعود ـ فقط ـ لهذا النَّموذج ، سوف نُقسِّم ـ إذاً ـ مُناهضة السَّاميَّة إلى مُناهضة

سامِيَّة مسيحيَّة ـ اجتماعيَّة، ومُناهضة سامِيَّة اقتصاديَّة، ومُناهضة سامِيَّة إثنيَّة وقوميَّة، ومُناهضة سامِيَّة ميتافيزيقيَّة، ومُناهضة سامِيَّة ثوريَّة.

إنَّه استمرار الآراء السَّلَفيَّة الدِّينيَّة هُو الذي وَلَّدَ مُناهضة السَّامِيَّة المسيحيَّة الاجتماعيَّة. فإذا لم يتغيَّر اليهُود بدُخُولهم في المُجتمع، فإنَّ المشاعر التي يُكنُّونها تجاههم مُنذُ سنين طويلة لم يُمكنها ـ أيضاً ـ أنْ تزول. فإنَّ تحرُّرَ اليهُود كان نتيجة لحركة فلسفيَّة تزامنت مع حركة اقتصاديَّة، وليس بإلغاء القوانين المَدَنيَّة التي كانت تُثير النّاسَ ضدَّهم.

الذين كانوا يعتبرون أنَّ الدّولة المُمكنة الوحيدة هي الدّولة المسيحيَّة كانوا ينظرون بعين الرِّيبة إلى تطفُّل اليهُود، وأوَّل مظهر من مظاهر هذا العداء كان مُناهضة التّلمُوديَّة. فتعرَّضوا وهاجموا التّلمُود الذي كان يُنظَر له كعنُوان الحصن الدِّيني لليهُود، فجهدت فرقة هجائيَّة لبرهنة وتبيان مُعاكسة ومُناقضة العقائد التّلمُوديَّة للعقائد الإنجيليَّة. فأثاروا ضدَّ الكتاب كُلَّ المطاعن والمُجادلين في الدِّين القُدامى الذين جَعَلَهم اليهُود في تعداد المُرتدِّين في المُحاورات التي أعاد إنتاجها ريمُون مارتان في القرن الثّامن عشر، ومُحاورات بفيفركُورن، ولاحقاً؛ إيز نمنفر، فلم يُغيِّروا إلاَّ الأُسلُوب والحساب. فاستخدموا النّماذج نَفْسها، وتبعوا في كتاباتهم الهجائيَّات نَفْس التّقاليد التي استعملها الدُّومينيكان أصحاب محاكم التّفتيش في دراسة "البَحْر" التّلمُودي، ولم يُضفوا على ذلك أيَّ معنى ناقد.

كما أنَّ مُناهضي السَّامِيَّة المسيحيِّيْن في زمننا هذا فكْرتهم عن اليهُودي ومُعتقداته وعرْقه هي نَفْسها التي كانت لمُناهضي اليهُود في العُصُور الوُسْطى. فاليهُودي يشغلهم ويُقلقهم ـ لحدِّ الهَوَس ـ فهُمْ يرونه في كُلِّ مكان، ويُرجعون كُلَّ شيء إليه، فهُمْ لهم نظريَّة في التّاريخ مُماثلة لنظريَّة بُوسويه (Bossuet). بالنّسبة للأسقف؛ كانت منطقة اليهُوديَّة هي مركز **العالم**. فكُلُّ الأحداث وكُلُّ النّكبات والأفراح والغزوات، انهيارات الممالك وتأسيسها، **كُلُّها** كان سببها واحداً بدائيّاً وسرِّيّاً وفائق الوصف؛ ألا وهُو إرادات إله اليهُود. وهذا الشّعب التّائه خالق الممالك والأسير، قد قاد البشريَّة نحو هدفها الوحيد: قُدُوم المسيح. ويبدو أنَّ بني حدَّاد وسيف شريب وسيروس وألكسندر لم يكونوا ليُوجدوا إلاَّ لأنَّ يهُوذا موجودٌ؛ ولأنَّه يجب أنْ يكون يهُوذا مرَّة مُمجَّداً ومرَّة مهزوماً حتَّى قيام السّاعة التي يفرض فيها على الكون القانون الذي يجب أنْ يصدر عنه.

لكنَّ ما اعتبره Bossuet بُوسويه هدفاً، تمجيداً خارقاً، جدَّده مُناهضو السَّاميَّة المسيحيُّون، لكنْ؛ لأغراض مُعاكسة. فبالنّسبة لهم؛ إنَّ العرْق اليهُوديَّ هُو ميزان الأُمم مُنتشر على الكُرة الأرضيَّة، يُفسِّر مصائب وخير الشُّعُوب الغربية التي انزرع عندها، ومن جديد يُصبح تاريخ العبرانيِّيْن هُو تاريخ الممالك والجُمهُوريَّات. فهُمْ ـ سواءً كانوا مُحاربين أو مرضى، مطرودين أو (مُستقبلين) ـ مُرحَّب بهم؛ يُفسِّرون بهذه الأحداث السِّياسيَّة المُختلفة والمُتنوِّعة عَظَمَةَ الدُّول أو انهيارها... فإذا أنت تتحدَّث عن اليهُود، فإنَّ معنى ذلك أنَّكَ تتحدَّث عن فرنسا أو ألمانيا أو إسبانيا. هذا ما يراه مُناهضو السَّاميَّة المسيحيُّون، ومُناهضتهم هي ـ بذلك ـ لاهوتيَّة بحتة، فهي مُناهضة الآباء؛ كريزُوستُوم، وسان أُوغوستان، وسان جيرُوم. قبل ولادة يسُوع المسيح كان الشّعب اليهُودي هُو الشّعب المُختار مُنذُ الأزل، ابن الله (الحبيب) المُفضَّل، لكنْ؛ بعد أنْ تنكَّر لمُخلصه، ومُنذُ أنْ صار قاتل الإله أصبح الشّعب الأكثر انحطاطاً. وبعد أنْ كان لخير العالم، أصبح يُسبِّب دماره. هذه النّظريَّة معروضة ـ بشكل واضح جداً ـ في بعض الأعمال؛ مثلاً في كتاب مغمور لغُوجنُودي مُوسُّو [175]: اليهُودي واليهُوديَّة وتيهُّود الشُّعُوب المسيحيَّة. بالنّسبة لغُوجنو؛ فاليهُود هُمْ "الشّعب المُختار للأبد، فهُو أنبل الشُّعُوب وأكثرهم هيبة ووقاراً، إنَّه الشّعب سليل دم إبراهيم، وهُو الذي أعطانا أمَّ الله، ونحنُ مدينون له بها"، وفي الوقت نَفْسه؛ هُمْ أكثر الكائنات انحرافاً وغير اجتماعيَّة.

كيف يُوفَّق بين هذه التّناقضات، وذلك بالمُقارنة بين اليهُودي المُوسوي واليهُودي التّلمُودي وبين التّوراة والتّلمُود؟ وهكذا جرت أساليب مُناهضي السَّاميَّة المسيحيِّيْن "إنَّها اليهُوديَّة، وليست الموسويَّة التي تتعارض مع الإصلاح الجَذْري لليهُود. هكذا قال الأب شياريني في تأريخ كُتبَ لخدمة "دليل للإصلاحيِّيْن اليهُود". [176]

غير أنَّ مُناهضي التّلمُود أيّاً كان تجانسهم وتشابههم مع مُناهضي اليهُود للعُصُور الوُسْطى إنَّما لهم وُجهة نَظَر مُختلفة قليلاً. ففي الماضي؛ كانوا يستخرجون من التّلمُود شتائم ضدَّ الدّيانة المسيحيَّة، أو أنَّهم يبحثون عن حُجج لدَعْم أُلُوهيَّة يسُوع المسيح. أمَّا الآن؛ فأعداء هذا الكتاب يُلاحقونه كعمل ضدَّ المُجتمع، ضارّ وهدَّام، فحسب قولهم إنَّ

(175) غُوجنُو دي مُوسُّو: اليهُودي واليهُوديَّة وتيهُّود الشُّعُوب المسيحيَّة، باريس 1869.

(176) شياريني: نظريَّة اليهُوديَّة، باريس 1830.

التّلمُود يجعل من اليهُودي عدواً لجميع الأُمم، لكنْ؛ إذا كان بعضهم مثل مُوسُّو وشياريني مُندفعين برغبة إعادة اليهُود إلى حضن الكنيسة[177] وذلك مثل لاهوتيّي الماضي، فإنَّ غيرهم مثل الحبر رُولينغ[178] فإنَّهم مُستعدُّون لإلغائها والإعلان أنَّها غير قادرة أبداً لخدمة الخير.

وعلى العكس؛ فإنَّ مبادئها لا تتماشى مع مبادئ الحُكُومات المسيحيَّة، وليس هذا فقط، فهي - أيضاً - تبحث وتسعى لدمار هذه الحُكُومات، لكي تستفيد من ذلك.

ونفهم بعد ذلك أنَّه بعد الانقلابات الحاصلة بالثّورة الفرنسيَّة حمَّلَ المُحافظون اليهُود مسؤوليَّة دمار الحُكْم القديم. وعندما مرَّت العاصفة، وهدأت الأُمُور، نظروا من حولهم فوجدوا أشياء أذهلتْهُم؛ وهي وَضْعيَّة اليهُودي.

فاليهُودي كان بالأمس لا شيء، لم يكن له أيُّ حقٍّ، ولا أيُّ سُلطة، وهُو - اليوم - يلمع في الصَّفِّ الأوَّل، وهُو ليس - فقط - غنيّاً، لكنَّه يدفع ضريبة حقِّ الانتخاب، فيستطيع أنْ يكون ناخباً ويحكم البلاد. فهُو المُستفيد الأوَّل من تغيير النّظام الاجتماعي. ففي عيُون مُمثِّلي الحُكْم الماضي ومُمثِّلي التّقاليد يبدو أنَّ انقلاب العرش واندلاع الحُرُوب الأُورُوبيَّة حصلت - فقط - حتَّى يحصل اليهُودي على رُتبة مُواطن، وأنَّ إعلان حُقُوق الإنسان لم تكن سوى إعلان حُقُوق اليهُودي. ولم يكتفِ المُناهضون للسَّاميَّة المسيحيُّون بالانزعاج من مُضاربات اليهُود في بُورصة الثّروة القوميَّة، أو مُؤن الجيش[179] فطبَّقوا عليهم الحكمة القضائيَّة القديمة **Fecisti qui Prodes**.

ولَمَّا استفاد اليهُود إلى هذا الحَدِّ من الثّورة، وبما أنَّهم حصلوا على مصلحة كُبرى كهذه، فهذا معناه أنَّهم قد هيَّؤوا لها، أو بتعبير آخر؛ ساعدوا فيها بكُلِّ قواهم.

غير أنَّه كان يجب شَرْح كيف أنَّ هذا اليهُودي المُحتقَر والمكروه والمُعتَبر كأنَّه شيء استطاع أنْ يُنجز هذه الأعمال، وكيف تمتَّع بهذه القُدرة الرّائعة.

---

(177) هذا الاهتمام حول دور اليهُود المُستقبلي عبَّر عنه في كتاب فريد لليون بلوي: الخلاص بفضل اليهُود **1892**، **ويقول** إنَّ اليهُود مُعَدَّون ليُرجعوا العالم إلى الله، وهذا هُو الاعتقاد اللاَّهوتي القديم.

(178) رُولينُو: اليهُودي حسب التّلمُود، باريس **1888**، مُترجم عن الألمانيَّة.

(179) لا أريد أنْ أقول إنَّ اليهُود كانوا الوحيدين في المُضاربة بهذا الشّكل، فعلى العكس كانوا أقلِّيَّة بين المُضاربين.

هُنا تتداخل نظريَّة، أو بالأحرى، فلسفة التّاريخ المعروفة لدى الهجَّائين الكاثُوليك. فبحسب هؤلاء المُؤرِّخين؛ إن الثّورة الفرنسيَّة التي كان لصداها ردَّة فعل عالميَّة، والتي غيَّرت كُلّ المُؤسَّسات الأُورُوبيَّة الغربيَّة لم تكن سوى النّتيجة والمُحصِّلة لمُؤامرة قديمة. فمنهم مَنْ يعزوها إلى الحركة الفلسفيَّة في القرن الثّامن عشر، وإلى تجاوزات (الحُكْم المَلَكي) الحُكُومات المَلَكيَّة، أو إلى تحوُّل اقتصاديٍّ حتميٍّ، إلى تداعي طبقة وضعف وعجز في شكل رأس المال، وإلى التّطوُّر المحتوم لنظريَّات السُّلطة والدّولة، وإلى توسُّع في مفهوم الفَرْد. كُلُّ هؤلاء - بحسب المُؤرِّخين الذين أتكلَّم عنهم - يُخطئون بشدَّة. إنَّهم عميان لا يرون الحقيقة، فالثّورة كانت عمل طائفة، أو عدَّة طوائف، والتي تأسَّست في الماضي السّحيق طوائف تدفعها الرّغبة نَفْسها والمبدأ نَفْسه: رغبة السّيطرة ومبدأ التّدمير. هذه الطّوائف عَمِلت وُفق خُطَّة واضحة مُحدَّدة نُفِّذَت بدقَّة مُتناهية لتدمير المَلَكيَّة والكنيسة.

فبواسطة تفرُّعاتهم العديدة التي لا تُحصى قد ملؤوا أُورُوبا بشبكة ذات حلقات مُتراصَّة، وبواسطة الأساليب الأحقر والأدنأ ما يُمكن توصَّلوا على الإطاحة بالعرش الذي هُو المُدافع الوحيد عن النّظام الاجتماعي والنّظام الدِّيني.

إنَّ تكوين هذه النّظريَّة التّاريخيَّة يُمكن أنْ تُوجد بسهُولة. لقد رأت النُّور تحت العُنف ذاته، والقسط الذي يُشارك فيه من الثّورة المحافل الماسُونيَّة والمُستنيرون والصّليب الوردي والمارتينيست(*) قد أثَّر بشدَّة على بعض العُقُول، وذهبوا بالأمر بعيداً، وذلك بتضخيم أثر ودور هذه الجمعيَّات. وأحد الأشياء التي أكثر ما يكون أدهشت هؤلاء المُراقبين السّطحيِّين كان الطّابع الأُممي لثورة 1879، وتزامن الحركات التي ولدتها. فصاروا يُقارنون بين فعلها العامِّ والفعل المحلِّيِّ للثّورات السّابقة التي لم تُحرِّك سوى البلاد التي نشأت فيها (كما في إنكلترا)، ولشَرْح هذا الاختلاف نسبوا عمل القُرُون إلى جمعيَّة أُورُوبيَّة لها مُمَثِّلون وسط

(*) للتّوسُّع في هذا الموضوع بشكل مُوثَّق؛ يُراجَع الكتابُ الهامُّ جداً (الحُكْمُ بالسِّرِّ التَّاريخ السِّرِّيُّ بين الهيئة الثُّلاثيَّة والماسُونيَّة والأهرامات الكُبرى مَنْ يحكم أمريكا والعالم سراً؟) للكاتب الأمريكي الشّهير جيم مارس، ترجمة: مُحمَّد مُنير إدلبي، دار الأوائل، دمشق، ط1، 2003. كما يُراجَع كتاب (الماسُونيَّة والمُنظَّمات السِّرِّيَّة ماذا فَعَلَت؟ ومَنْ خَدَمَتْ؟) للباحث عبد المجيد همُّو، دار الأوائل، دمشق، ط1، 2003، وكتاب (الفرَق والمذاهب اليهُوديَّة مُنذُ البدايات) للباحث نَفْسه.

جميع الأُمم، وذلك عوضاً عن اعتبار أنَّ هُناك نَفْس مراحل الحضارة وأسباب فكْريَّة مُتماثلة وأسباب اجتماعيَّة أخلاقيَّة واقتصاديَّة استطاعت أنْ تُحدِث ـ في الوقت نَفْسه ـ الأفعال نَفْسها.

وإنَّ أعضاء هذه المحافل وهذه الجمعيَّات ساهموا في نشر هذا المُعتقد[180]. وقد بالغوا هُمْ ـ أيضاً ـ في أهميَّتهم، وأكَّدوا أنَّهم صحيح عملوا للتّغييرات التي كانت تُهيَّأ، وهذا كان صحيحاً، لكنْ؛ ليس ـ فقط ـ ذلك، إنَّما ـ أيضاً ـ زعموا أنَّهم الباعثون القُدامى لها.

وهُنا ليس المجال لمُناقشة هذه المسألة. يكفي لنا أنْ نعرف وُجُود هذه النّظريَّات. سوف نُظهِر كيف أنَّها ساعدت مُناهضي السَّاميَّة المسيحيِّيْن. فالكُتَّاب الأوائل عرضوا هذه الأفكار، لكنَّهم اكتفوا ـ فقط ـ بمُلاحظة وُجُود "أُمَّة خاصَّة نشأت وكبُرت في الظُّلُمات وسط جميع الأُمم المُتمدِّنة مع هدف إخضاعها كُلِّها لسيطرتها"[181].

هذا ما يُريد برهنته الفارس دي ماليه **de Malet** شقيق الجنرال المُتآمر في كتاب غير معروف ومُنحطٍّ جداً على كُلِّ حال.

ورجال مثل **P**. باروبل في مُذكّرات حول الجاكُوبيَّة:[182]؛ مثل إيكيرت في أعماله عن الفرانماسُونيَّة[183] مثل ديشان[184]؛ مثل كلُوديُوجانيت؛ مثل كريتينيُوجُولي[185]، فهؤلاء طوَّروا هذه النّظريَّة ومَنْهَجُوها، وحاولوا أنْ يُظهروا الواقع، وإنْ هُمْ لم يبلغوا هدفهم، فهُمْ جمعوا ـ على الأقلِّ ـ كُلَّ العناصر الضّروريَّة لتبنِّي التّاريخ الغريب للجمعيَّات السِّرِّيَّة في جميع أعمالهم، توجَّهوا إلى التّدقيق وفَحْص ماهيَّة وَضْع اليهُود في هذه المجموعات وهذه الفرَق، وهُمْ قد صُدموا للتّشابه والتّماثل الذي تُبديه الطُّقُوس السِّرِّيَّة للماسُونيَّة مع بعض التّقاليد اليهُوديَّة والقَبَلانيَّة[186] (أيْ السِّحْريَّة أو السِّرِّيَّة) (أو علم باطن

---

(180) لوي بلان، تاريخ الثّورة الفرنسيَّة، ص 74.

(181) أبحاث تاريخيَّة وسياسيَّة تُثبت وُجُود فرقة ثوريَّة وأصلها القديم وتنظيمها وأساليبها وهدفها، وتكشف عن السّبب الوحيد للثّورة الفرنسيَّة بواسطة الفارس ماليه، باريس جيد 1817.

(182) باروبل، مُذكّرات حول الجاكُوبيَّة، 1813 ـ 1897، باروبل هُو الأوَّل الذي عرض أفكاره.

(183) إيكريت الفارماسُونيَّة في معناها الحقيقي (ترجمة جيد الييبح 1854) ـ الماسُونيَّة بحَدِّ ذاتها ـ 1859.

(184) دُوم ديشان، الجمعيَّات السِّرِّيَّة والمُجتمع مع مُقدِّمة ومُلاحظات ومراجع، كلُوديُو جانيت، باريس 1883.

(185) كريتينُو جُولي، الكنيسة الرُّومانيَّة قبل الثّورة، باريس 1863.

التّقاليد اليهُوديَّة والقَبَلانيَّة[186] (أيْ السِّحْريَّة أو السِّرِّيَّة) (أو علم باطن التّوراة) مُستنيرين بكُلِّ هذا الدّيكور العبراني الذي يُميِّز الاحتفالات في المحافل، فاستنتجوا أنَّ اليهُود كانوا ـ دوماً ـ المُهيمنين والقادة ومُعلِّمي الماسُونيَّة، وأنَّهم أكثر من ذلك كانوا المُؤسِّسين، وأنَّه ـ بمُساعدتهم ـ تابعوا ـ بثبات ـ تدمير الكنيسة مُنذُ نشأتها. وقد ذهبوا إلى أبعد من ذلك في هذا المسار، فأرادوا أنْ يُثبتوا أنَّ اليهُود قد حافظوا على دُسْتُورهم القومي، وأنَّهم لم يزالوا محكومين من قبَل أُمراء (ناسي) **des nassi**، وهُمْ الذين يقودونهم لغزو العالم، وأنَّ هؤلاء أعداء الجنس البشري يمتلكون تنظيماً وتكتيكاً خطيرَيْن. فغُوجنُو دي ـ مُوسُّو[187] ورُوبير[188] ودي سان أندريه[189] والأب شابُوتيه[190] قد دعموا وأيَّدوا هذه الأقوال. أمَّا بالنّسبة لإدوار درُومُون؛ كُلُّ الجُزء التّاريخ ـ الكاذب في كُتُبه هُو عندما لا يكون مأخوذاً من الأب لُوريكه، فهُو ليس إلاَّ سرقة غير ماهرة، وبدون نَقْد من بارويل، ومن غُوجنُو، ودوم دي شان، وكريتينيُوجُولي. إلاَّ أنَّه مع **M** درُومُون مثل مع القسِّ سنُوكر، فمُناهضة السَّاميَّة المسيحيَّة تتحوَّل ـ أو بالأحرى ـ تستعير بعض عُلماء الاجتماع أسلحة جديدة. وإذا كان درُومون يُحارب مُناهضة الكَهَنُوت الذي يقوم به اليهُودي، وإذا كان سنُوكر يسعى جاهداً لاستحقاق اسم لُوثر الثّاني، فيقوم ضدَّ الدّيانة اليهُوديَّة التي هي مُدمِّرة الكيان المسيحي، فإنَّ له اهتمامات أُخرى، فهُو يُهاجم الثّروة اليهُوديَّة، وينسب إلى اليهُود التّحوُّل الاقتصادي الذي هُو حصيلة هذا القرن.

كما أنَّهم يُلاحقون ـ أيضاً ـ في (اليهُودي) عدوَّ المسيح، القاتل إلهاً، كما أنَّهم يقصدون ـ خاصَّة ـ الرأسماليَّ، فينضمُّون ـ بذلك ـ إلى الذين يقولون بمُناهضة السَّاميَّة الاقتصاديَّة.

---

(186) حول التُّراث العبراني في الفرماسُونيَّة وحول علاقات التّشابه للماسُونيِّيْن مع الآسينيِّيْن القُدماء؛ انظر "كلافيل". تاريخ الفيرماسُونيَّة 1843، كاوفمان وشبران، التّاريخ الفلسفي للفيرماسُونيَّة، ليون 1856، مقالة لُموسى شفاب حول اليهُود والفيرماسُونيَّة في الدّليل السّنوي للأرشيف الإسرائيلي لعام 5650 (1890)، انظر ـ أيضاً ـ إلى أعمال راغون حول الماسُونيَّة (باريس دانتو).

(187) غُوجنُو دي مُوسُّو.

(188) آلوبير، الكنيسة والكنيس، باريس 1859.

(189) سان ـ أندريه ـ، الفيرماسُون واليهُود، باريس 1880.

(190) شارودي، اليهُود مُعلِّمونا، باريس 1883.

مُناهضة السَّاميَّة هذه ظهرت مُنذُ بدايات المال والتّصنيع اليهُودي. ونجد - فقط - آثارها في فُوريه[191] Fourier، وبرُودُون Proudhion، اللّذَيْن أكّدا على مُلاحظة فعْل اليهُودي الوسيط والصّرَّاف وغير المُنتج[192]، فهي حرّكت رجالاً مثل تُوسنيل[193] وكابفيك[194]، وألهمت كُتُباً مثل "اليهُود مُلُوك أُورُوبا". ومثل "تاريخ العمليّات الماليّة الكبيرة". ولاحقاً؛ في ألمانيا هجائيّات ضدّ أصحاب المصارف والبُورصات اليهُود[195]، وقد أشرتُ - سابقاً - عن أُصُول مُناهضة السَّاميَّة الاقتصاديَّة هذه كيف أنَّه من جهة الرّأسماليِّيْن العقاريِّيْن جعلوا اليهُودي مسؤولاً عن الازدهار المُسيء - بالنّسبة لهم - لرأس المال الصّناعي والمالي، من الجهة الأُخرى؛ كيف أنَّ البُرجوازيَّة التي زُوِّدت بالامتيازات انقلبت ضدّ اليهُودي الذي كان حليفها سابقاً، وأصبح - الآن - مُنافسها، ومُنافسها الأجنبي، فهُو - بصفته أجنبيّاً وغير مُنصهر - استحقّ هذا العداء ضدّه، وبذلك؛ فإن مُناهضة السَّاميَّة الاقتصاديَّة ارتبطت بمُناهضة السَّاميَّة اللاّتينيَّة والقوميَّة. وهذا الشّكل الأخير لمُناهضة السَّاميَّة هُو حديثٌ، ونشأ في ألمانيا، ومُناهضو السَّاميَّة الفرنسيُّون استعاروا نظريَّتهم من الألمان.

فبتأثير العقائد الهيجيليَّة؛ ظهرت في ألمانيا عقيدة الأعراق التي دَعَمَها في فرنسا رينان[196]. وأصبحت في عام 1840، وخُصُوصاً عام 1848، عقيدة مُسيطرة ليس - فقط - لأنَّ السِّياسة الألمانيَّة سخَّرتها لخدمتها، بل لأنَّها توافقت مع الحركة القوميَّة والوطنيَّة التي دفعت الأُمم إلى الوحدة، والتي ميَّزت كُلَّ شُعُوب أُورُوبا.

---

(191) فُوريه، العالم الجديد الصّناعي والاجتماعي، باريس 1848.

(192) نجد في كارل ماركس - حوليَّات فرانكو ألماني 1844، وفي لاسال التّقييمات نَفْسها حول اليهُودي الطُّفيلي، كما عند فُوريه وبرُودُون.

(193) تُوسُونيل، "اليهُود مُلُوك العصر"، باريس 1847، تُوسُونيل عَزَّزَ هذا الكتاب بحَمْلة عنيفة في الصّحيفة اسمها الدِّيمُقراطيَّة السّلميَّة، وفي ظلّ المَلَكيَّة في تمُّوز كانت الحركة المُناهضة للسَّاميَّة عنيفة جداً، وكُتب كثير من الهجائيَّات، وانتشرت ضدّ الصّناعيِّين اليهُود.

(194) كاپيفيغُوف، تاريخ العمليَّات الصّناعيَّة الكبيرة، باريس 1855.

(195) أُوتُوكلاكاو، حاجات الإمبراطُوريَّة والصّراع الثّقافي الجديد، أوزنا بروك 1879.

(196) في سنينه الأخيرة؛ ترك رينان عقيدة الأعراق وعدم مُساواتها وتفوُّقها وانحطاطها المُتبادل. نجد هذه الأفكار في كتاب غوبينو، "عدم تساوي الأعراق"، باريس، فيرمن ديدو 1884.

فكانوا يقولون: يجب أنْ تكون الدّولة قوميَّة، يجب أنْ تكون الأُمَّة واحدة، وأنْ تتألَّف من كُلِّ الأفراد الذين يتكلَّمون اللُّغة القوميَّة، ويكونون من العرْق نَفْسه بالإضافة لذلك. والُمهمُّ أنَّ هذه الدّولة القوميَّة يجب عليها أنْ تُحوِّل العناصر غير الُمتجانسة، يعني ذلك الأجانب.

فاليهُودي ليس آريّاً، فليس له نَفْس مبادئ الآري؛ مبادئ أخلاقيَّة واجتماعيَّة وفكْريَّة، فهُو غير قابل للتّحوُّل، يجب - إذنْ - إزالته، وإلاَّ فهُو سيُدمِّر الشُّعُوب التي استقبلته، وبين مُناهضي السَّاميَّة القوميِّيْن والإثنيِّيْن أكَّد بعضهم أنَّ الفعل قد تمَّ وحصل.

هذه الأفكار استُعيدت من جديد من قبَل م م دي ترايتشكة[197]، وأُدُولف فاغنر في ألمانيا، شُونيرر في النّمسا، وباتاي في هنغاريا، ولاحقاً؛ دُورُومُون في فرنسا[198]، وأصبحت منهجيَّة لأوَّل مرَّة من قبَل (Marr . W) مارّ في هجائيَّة أخذت ضجَّة كبيرة حتَّى في فرنسا: انتصار اليهُوديَّة على الألمانيَّة[199]، وقد أعلن Marr أنَّ ألمانيا كانت فريسة عرْق غازٍ هُو عرْق اليهُود، هذا الجنس يمتلك كُلَّ شيء، ويُريد أنْ يُهود ألمانيا مثل فرنسا، ويُنهي قوله بالاستنتاج أنَّ ألمانيا قد انتهت. وأضاف إلى مُناهضة الإثنيَّة مُناهضة ميتافيزيكيَّة. وأستطيع القول إنَّ شُوبنهاور قد جاهر[200] بمُناهضة ساميَّة ثابتة في مُحاربة تفاؤل الدّيانة اليهُوديَّة، تفاؤلٌ يعتبره شُوبنهاور سافلاً ومُنحطَّاً، ويُفضِّل بمُواجهته العقائد الدِّينيَّة اليُونانيَّة والهندُوسيَّة.

---

(197) تريتشكيه، كلمة عن يهُوديَّتنا، برلين 1888.

(198) السيِّد درُومُون هُو نموذج اللاَّسامي الذي ازدهر في السّنوات الأخيرة في فرنسا، وتكاثر في ألمانيا، هُو موهوب في الحرب الهجائيَّة السّياسيَّة، صحفيٌّ قويٌّ شديدٌ وساخرٌ وموهوب، درُومُون هُو مُؤرِّخ سيِّء الاضطلاع، وعالم اجتماع وفيلسوف رديء، لا يُمكن مُقارنته بتريتشكيه، ولا بفاغنر، ولا بدورينغ، لقد لعب - مع ذلك - دوراً كبيراً في تطوُّر اللاَّساميَّة في فرنسا، وحتَّى في ألمانيا، وكان له تأثير دعائي كبير.

(199) W . مارّ، انتصار اليهُوديَّة على الجرمانيَّة، بيرن 1879، كرَّس وخصَّص "بُوردُو" لهذا الموضوع دراسة في مجلَّة الُمناظرات في 5/ 11/ 1879.

(200) إله مثل هذا "اليَهْوَه" الذي من أجل مُتعته وفَرَح قلبه يُنتج هذا العالم من البُؤس والنّحيب، وفوق ذلك؛ يُهنِّئ نَفْسه، هذا كثير وفوق الاحتمال! هكذا يقول شُوبنهاور: لنعتبر - إذاً - إلى وُجهة النّظر هذه أنَّ الدّيانة اليهُوديَّة هي الأخيرة بين ديانات الشُّعُوب الُمتمدِّنة، وهذا ما يتماشى مع أنَّها الوحيدة التي ليس فيها أيُّ أثر للخُلُود، لايبزج 1874.

لكنَّ شُوبنهاور ومارّ لا يُمثِّلان ـ وحدهما ـ مُناهضة السَّاميَّة الفلسفيَّة. كُلُّ الميتافيزيقيَّة الألمانيَّة حاربت الذّهن اليهُودي التي كانت تعتبره مُختلفاً بشكل أساسيٍّ عن الذّهن (أو الرُّوح) الألماني، والذي كان يُمثِّل ـ بالنّسبة لها ـ الماضي في مُواجهة ومُعارضة أفكار الحاضر. فبينما تتحقَّق الرُّوح في تاريخ العالم، وبينما هي تسير، فاليهُود يبقون في مرحلة أدنى. هذا هُو الفكر الهيجلي، فكْر هيجيل وتلامذته من أقصى اليسار، فكْر فُويرباخ وأرنُولد رُوج وبرنُو باور[201]، أمَّا ماكس ستيرز[202]؛ فقد طوَّر هذه الأفكار بدقَّة كبيرة. فبالنّسبة له؛ إنَّ تاريخ العالم قد اجتاز ـ حتَّى الآن ـ عصرَيْن: العصر الأوَّل يُمثِّله التّاريخ السّحيق الذي يجب علينا أنْ نُلغي منه الحالة النَّفْسيَّة الرّديئة، والثّاني هُو عصر المنغوليَّة المُتمثِّل بالمرحلة المسيحيَّة؛ في العصر الأوَّل كان الإنسان مُتعلِّقاً بالأشياء، وفي الثّاني فهُو مقموع بأفكار، مُنتظراً أنْ يُسيطر عليها ويتملَّكها، ويُحرِّر الأنا. فاليهُود "هؤلاء الأطفال، حُكماء الماضي الهَرمُون لم يجتازوا الحالة النَّفْسيَّة (العبدة) الرّديئة. فرغم كُلِّ دقَّة وكُلِّ قُوَّة فطنتهم وذكائهم الذي يُسيطر على الأشياء بجهد بسيط، ويُطوِّعها لخدمة الإنسان، فهُمْ لا يستطيعون أنْ يكتشفوا الرُّوح التي مفادها اعتباراً لأُمُور لم تحدث".

ونجد شكلاً آخر لُمناهضة السَّاميَّة الفلسفيَّة عند دُورينغ شكلاً أكثر أدبيّاً منه ميتافيزيقيّاً. فدُورينغ في دراسات كثيرة وهجائيَّات وكُتُب يُهاجم[203] الذّهن السّاميَّ والنّظرة السّاميَّة للأُلُوهيَّة والأخلاق، والتي يضعها في مُواجهة مع نظرة شُعُوب الشّمال، ثُمَّ يدفع بمنطقه إلى النّهاية نتائج مُقدِّماته، تابعاً بذلك عقيدة برُونُوباور، فيُهاجم المسيحيَّة التي هي آخر مظهر من مظاهر العقل السّامي:

"المسيحيَّة ليس عندها أيّ نظريَّة أخلاقيَّة عمليَّة، لكنْ؛ لو لم تكن قابلة لتأويل مُضاعف لكانت سليمة، ويُمكن استعمالها".

---

(201) سوف نتناول ـ لاحقاً بالتّفصيل ـ التّاريخ الاقتصادي لليهُود عندما نتكلَّم عن تاريخ اليهُود في ألمانيا في القرن التّاسع عشر، انظر: هيغيل، فلسفة الحُقُوق أرنُولدرُوج، سنتان في باريس، برُونُو باور، المسألة اليهُوديَّة، فويرباخ رُوح المسيحيَّة.

(202) ماكس سترينر، الوحيد وخاصيَّته، لايبزج 1882.

(203) خُصُوصاً "الأحزاب"، و "المسألة اليهُوديَّة".

وبالنّتيجة؛ "فإنَّ الشُّعُوب لن يتخلّصوا من الذّهن السّاميّ إلاّ عندما يطردون من عقُولهم هذا الشّكل الثّاني الحاليَّ للعبرانيَّة".

فبحسب دُورينغ فإنَّ نيتشه[204] - بدوره - حارب الأخلاق اليهُوديَّة والمسيحيَّة التي هي بنظره "ديانة العبيد"، بعكس ديانة الأسياد "أو أخلاق الأسياد"، فاليهُود والمسيحيُّون بوساطة الأنبياء و بوساطة يسُوع أثاروا "ثورة العبيد في الأخلاق (الدِّين)"، لقد نشروا نظريَّات مُنحطَّة وضَارَّة مفادها تأليه الضّعيف والمُتواضع والبائس والتّضحية له بالقويّ والمُتكبِّر والمُقتدر.

في فرنسا؛ هُناك بعض الثّوريِّين المُلحدين مثل غُوستاف تريدون[205]، ورينار[206]، مارسوا مُناهضة السَّاميَّة. مُناهضة المسيحيَّة هذه، والتي تُرَدّ في تحليلها الأخير لمُناهضة السَّاميَّة الإثنيَّة ولمُناهضة السَّاميَّة الميتافيزيقيَّة الصّرفة.

نستطيع - إذاً - أنْ نُلخِّص مُختلف أنواع اللاَّساميَّة إلى ثلاث: اللاَّساميَّة المسيحيَّة، واللاَّساميَّة الاقتصاديَّة، واللاَّساميَّة الإثنيَّة. في الدّراسة التي قدَّمناها رأينا أنَّ اعتراضات اللاَّساميِّين كانت اعتراضات دينيَّة واجتماعيَّة وإثنيَّة وقوميَّة وفكْريَّة وأخلاقيَّة. بالنّسبة للاَّسامي؛ إنَّ اليهُودي شخص من عرْق أجنبيٍّ غير قادر على التّأقلم والتّكيُّف، مُعادٍ للحضارة والإيمان المسيحي، لا أخلاقي، وغير اجتماعي، ذو فكْر مُختلف عن الفكْر الآري، مُخرِّب ومُفسد.

سوف ندرس - الآن، على التّتالي - هذه الاعتراضات. وسوف نرى إذا كانت تستند لرأي، وإذا كانت الأسباب الحقيقيَّة للاَّساميَّة المُعاصرة تتناسب معها، أو أنَّها مُجرَّد أحكام سَلَفيَّة. لندرس - أوّلاً - الاعتراضات العرْقيَّة.

---

(204) نيتشه، إنسانيٌّ كثير الإنسانيَّة فوق الخير والشّرّ وسُلالة الأخلاق.

(205) غُوستاف تريدُون، عن اليهُود، برُوكسيل 1884.

(206) رينار، آريُّون وساميُّون، باريس 1890.

الفصل العاشر:

العِرْق La Race

اليهُودي هُو ساميٌّ، فهُو ينتمي لعرْق غريب ضارٍّ مُخلٍّ بالنّظام ومُنحطّ: هذا هُو الاعتراض الإثني للأسَاميِّيْن. على ماذا يستند؟ هُو يستند على نظريَّة (أنثرُوبُولُوجيَّة) في علم الأعراق أوجدتْ، أو على الأقلِّ، أيَّدت نظريَّة تاريخيَّة، وهي: عقيدة عدم تساوي الأعراق، والتي يجب أنْ نتحدَّث عنها أوَّلاً.

مُنذُ القرن الثّامن عشر حاولوا تصنيف البشر وتوزيعهم في أجناس مُحدَّدة مُتميِّزة ومُنفصلة. ومن أجل ذلك اعتمدوا ـ كأساس ـ على علامات مُختلفة بشكل واضح: مقطع الشّعر مقطع بيضوي (عند الزنُّوج ذوي الشّعر الصُّوفي) أو مقطع مُستدير[207]. وعلى شكل القحف (الرّأس) عريض أو مُستطيل[208]، وأخيراً؛ على لون البشرة. هذا التّصنيف الأخير هُو الذي رُجِّحَ، فأصبحنا ـ الآن ـ نُميِّز ثلاث أعراق بشريَّة: العرْق الأسود، والعرْق الأصفر، والعرْق الأبيض. وتُنسَب لهذه الأعراق تصرُّفات مُختلفة، ويُصنَّفون حسب التّفوّق، فالعرْق الأسود هُو الأكثر انحطاطاً بالدّرجات؛ حيثُ يحتلُّ العرْق الأبيض الدّرجة الأُولى (في السُّلَّم)، ولشَرْح هذا التّدرُّج بشكلٍ أفضل للأعراق البشريَّة، تمَّ دحض العقيدة الدِّينيَّة التي تقول بوحدة السُّلالة؛ أيْ أنَّها عقيدة تُعلن أنَّ الجنس البشريَّ سليلُ زوج واحد، ووضعوا ـ بدلاً عنها ـ تعدُّد السُّلالات التي تُعتبر ظُهُوراً مُتزامناً لعدَّة أزواج مُختلفة. هل لهذا التّصنيف قواعد جدِّيَّة وواقعيَّة؟ هل مُعتقد وحدة السُّلالة أو تعدُّد السُّلالات تسمح بإثبات أنَّ هُناك أعراق مُنتخَبَة وأعراق مرفوضة (ملعونة)؟

كلا، ولا بشكل من الأشكال. إذا قبلنا بوحدة السّلالة فمن الطّبيعيِّ عندئذ أنْ يكون البشر جميعهم سليلي زوج واحد مُشترك، فيكون عندهم الخواصّ نَفْسها والدّم نَفْسه

---

(207) أُولُوتريك وليُوتريك، 410.

(208) العضديَّات الرّأسيَّات ومُستطيلات الرّأس.

والتّركيب الفيزيائي والنَّفْسي أنْفسهم. أمَّا على العكس؛ إذا قبلنا بتعدُّد السُّلالات؛ أيْ وُجُود أوَّلي لعدد غير محدود وضخم من زُمرٍ مُختلفة غير مُتجانسة تسكن الكُرة الأرضيَّة، فيُصبح من المُستحيل دَعْم فكْرة وُجُود أعراق فائقة أو مُنحطَّة أصلاً؛ إذْ إنَّ التّجمُّعات الاجتماعيَّة الأوَّليَّة حصلت بتمازج وانضغام هذه الزُّمر الإنسانيَّة المُتنافرة والتي لا يُمكننا تحديد أو تصنيف صفاتها ومزاياها الخاصَّة. ويقول **M** غُومبلُوفيرس[209]: إنَّ الأُمم الأكثر بدائيَّة والتي تظهر لنا في أوَّل بواكير الأزمنة التّاريخيَّة هي - بالنّسبة لنا - نتاج عمليَّة مُلغمة (حصلت في عُصُور قبل التّاريخ الجلي) بين عناصر إثنيَّة غير مُتجانسة (مُتنوِّعة)، إذاً؛ من وُجهة نظر هُويَّة المنشأ إنَّ التّدرُّج الإثني غير مقبول، ونستطيع أنْ نُؤكِّد مع ألكسندر هُومبولت أنَّه: ليس هُناك أرومات إثنيَّة تكون أنبل من الأُخرى.

العرْق هُو - على كُلِّ حال - وَهْمٌ، لا يُوجد مجموعة بشريَّة تستطيع الزّعم أنَّ لها جدَّيْن أوَّلَيْن، وأنَّها سليلتهما دُون أنْ يكون الحمل الأوَّلي قد لُوِّث بمزيج، فالأعراق البشريَّة ليست نقيَّة أبداً، يعني ذلك بصريح العبارة لا يُوجد عرْق.

(يُؤكِّد تُوبينار[210] أنَّ الوحدة غائبة، فالأعراق انقسمتْ، وتبعثرتْ، وتمازجتْ، وتقاطعتْ، بكُلِّ المعايير وبكُلِّ الاتِّجاهات مُنذُ آلاف السّنين، الأغلبيَّة تركت لُغتها، وأخذت لُغة الفاتح المُنتصر، ثُمَّ تركتها للُغة ثالثة ورابعة، فالكُتل الأوَّليَّة الأساسيَّة اختفتْ، ونجد أنفسنا - الآن - بحُضُور شُعُوب لا أعراق).

إذاً؛ بالنّتيجة، التّصنيف الأنثرُبُولُوجي للبشريَّة ليس له أيُّ قيمة.

صحيحٌ أنَّ مُؤيِّدي النّظام التّدريجي الأثنُولُوجي يستندون على خصائص لُغويَّة، وذلك لعدم توفُّر الخصائص الأنثُروبُولُوجيَّة (العرْقيَّة)، فاللُّغات تُصنَّف إلى أُحاديَّة المقطع، ومُركَّبة، وإعرابيَّة، وتحليليَّة، وذلك حسب تطوُّرها، فنظَّموا حسب مُختلف أشكال اللُّغات الانتقاء أو الرّفض للّذين يتكلَّمونها، غير أنَّ هذا الزَّعْم ليس له دَعْم، إذْ إنَّ الصّينيِّين لُغتهم أُحاديَّة المقطع، وليسوا أدنى مُستوىً من الياقوت، أو كامتشلاد الذين لُغتهم مُركَّبة، ولا من الزُّولو الذين يتكلَّمون لُغة إعرابيَّة، وأظنُّ أنَّه من السّهل برهنة أنَّ اليابانيِّيْن والماجيار الذين لُغتهم مُركَّبة ليسوا أبداً أدنى مُستوىً من بعض الشُّعُوب الآريَّة التي لُغتها إعرابيَّة، على كُلِّ

---

(209) صراع الأعراق، باريس 1893.

(210) الدُّكتور تُوبينار، الأنثرُوبُولُوجيا، باريس، مكتبة العُلُوم المُعاصرة، رانيفالد.

حال؛ نحنُ نعلم أنَّ التّكلُّم بنَفْس اللُّغة لا يُحتِّم هُويَّة المنشأ، هُناك كانت قبائل مُنتصرة فرضت لُغتها في كُلِّ زمان على قبائل أُخرى أجنبيَّة، دُون أنْ يكون لهذه القبائل صفات ولاديَّة، إذاً؛ تصنيف اللُّغات لا يُمكن له - ولا بأيِّ شكل - أنْ يُحدِّد التّصنيف الإثني للجنس البشريِّ.

ومهما كانت نظريَّة عدم التّساوي للأعراق غير مدعومة؛ لا من وُجهة نظر لُغويَّة، ولا من وُجهة نظر عرْقيَّة (أنثرُوبُولُوجيَّة)، فهي لم تُنقص سيطرتها في وقتنا الحاضر، والشُّعُوب تبِعَت - وتتبع باستمرار - هذا الوَهْمَ الذي هُو الوحدة الأنثرُوبُولُوجيَّة التي ليست إلاَّ إرثاً من الماضي، مُرتكزاً على معلومة خطأ؛ أيُّ نوع من التّخلُّف هذا!!

كان للعُصُور القديمة المزاعم الكُبرى في نقاء الدّم، واليوم عند الزُّنُوج الأفارقة، وعند بعض المُتوحِّشين تظهر فكْرة العرْق، وتبدو الأكثر انتشاراً والأكثر تجذُّراً، هذا يُفهم. فالرّوابط الاجتماعيَّة الأُولى كانت روابط الدّم: والوحدة الأُولى - وهي الأُسرة - كانت مبنيَّة على الدّم، فكانت تعتبر المدينة وكأنَّها توسُّع للعائلة، وفي بداية تأسيس كُلِّ مدينة تضع الأُسطُورة زوجاً من الأجداد، تماماً كما وضعتْ بعض الدّيانات زوجاً أوَّليّاً في بدايات البشريَّة[211]، وعندما وصلت عناصر بشريَّة جديدة إلى هذه التّجمُّعات احتاجوا لاستمراريَّة مُعتقد الهُويَّة الأصليَّة هذا، فتوصَّلوا إليه بوَهْم التَّبنِّي، وفي هذه الحضارات البعيدة في القدَم لم يكن هُناك مكانٌ إلاَّ لابن القبيلة وابن المدينة أو للتَّبنِّي، فالغريب في كُلِّ التّشريعات البدائيَّة كان العدوّ الذي يجب تحاشيه، المُثير الشّغب، الذي يُعكِّر المُعتقدات والأفكار، غير أنَّه كُلَّما كبرت التّجمُّعات أصبحت أقلَّ وحدة إذا اعتبرنا كعلامة مُميَّزة (لوحدة) النّسب بدُون انقطاع، وقد رأينا - سابقاً - في عُصُور ما قبل التّاريخ كيف أنَّ العشائر الكبيرة قد تشكَّلت بتجمُّع زُمر مُتنوِّعة غير مُتجانسة، والدُّول؛ أيْ الدّولة البدائيَّة التّاريخيَّة قد تكوَّنت - بدورها - من تجمُّع هذه العشائر، واللاَّتي - وقتها - لم تكن لتستطيع زَعْم نَفْس الجَدِّ لكُلِّ واحد من أعضائها، ورغم كُلِّ ذلك - وحتَّى يومنا هذا - استمرَّت هذه الفكْرة؛ أيْ فكْرة أنَّ المُجتمع ذُو أصل مُحدَّد.

ذلك لأنَّها تنتج عن حاجة أساسيَّة للتّجانس، للوحدة، حاجة تدفع كُلَّ المُجتمعات إلى تحويل عناصرها المُتنافرة، وهذا المُعتقد بنقاء الدّم ليس إلاَّ مظهراً خارجياً لهذه الحاجة إلى

---

(211) الفصل العاشر من سفْر التّكوين يُقدِّم لنا أحد النّماذج الكاملة من هذا المُعتقد في سُلالة ذُرِّيَّة أبناء نُوح، وعلى رأس كُلِّ مجموعة بشريَّة يُوجد جَدٌّ منهم.

الوحدة، إنَّها أُسلُوب للتّعبير عن الحاجة، أُسلُوب واضح بسيط ومُرضٍ للاَّشعُور وللتَّوحُّش، لكنْ؛ ـ في كُلِّ الأحوال ـ غير كافية وغير مُبرهنة للَّذي لا يكتفي بديكور الأشياء، كما أنَّ نظريَّة عدم التّساوي في الأعراق تستند على أمر واقع: فالصّيغة هي: عدم تساوي الشُّعُوب، فإنَّه من الطّبيعي أنَّ مصير مُختلف الشُّعُوب لم يكن واحداً أو مُتشابهاً، لكنَّ هذا لا يعني أنَّ عدم تساوي هذه الشُّعُوب كان أصليّاً؛ أيْ مُنذُ البدء، هذا يعني ـ ببساطة ـ أنَّ بعض الشُّعُوب وُجِدت في ظُرُوف جَغرافيَّة وطَقْسيَّة وتاريخيَّة أفضل من غيرها من الشُّعُوب، وأنَّها استطاعت أنْ تتطوَّر بشكل أكمل وأجمل، وليس أنَّها كانت تتمتَّع بإمكانيَّات أفضل، ولا بدماغ مُتكوِّن بشكل أسعد، والدّليل على ذلك أنَّ هُناك بعض الأُمم من العرْق الأبيض (المُسمَّاة فائقة) قد أسَّست حضارة أحطَّ بكثير من حضارات للصُّفر، أو حتَّى للسُّود.

إذاً؛ لا يُوجد شُعُوب ولا أعراق راقية بالمنشأ. يُوجد أُمم (في ظُرُوف مُعيَّنة أسَّست إمبراطُوريَّات قويَّة وحضارات دائمة). [212]

ومهما يكن الأمر، وفي الحال التي تشغلنا كانت هذه المبادئ الإثنينيَّة سواء صحيحة أو خاطئة أحد أسباب مُناهضة السَّاميَّة، وذلك بمُجرَّد وُجُودها، لقد سمحت للتّظاهرات القوميَّة والاقتصاديَّة والتي سوف نعرفها لاحقاً، أنْ تأخذ مظهراً علميَّاً، وبفضلهم؛ قويت اعتراضات اللاَّساميِّيْن ببراهين تاريخيَّة كاذبة وأنثرُوبُولُوجيَّة كاذبة، في الواقع؛ هُمْ لم يكتفوا ـ فقط ـ بالاعتراف بوُجُود ثلاث أعراق: أسود وأصفر وأبيض، مُصنَّفة حسب نظام تدرُّجي تصاعدي، لكنَّهم ـ أيضاً ـ في داخل هذه الأعراف أقاموا تقسيمات وتصانيف وفئات، فلقد أثبتوا وأكَّدوا ـ في البدء ـ أنَّ العرْق الأبيض ـ فقط ـ وبعض (فصائل) أو عائلات العرْق الأصفر كانت قادرة على خَلْق حضارات راقية، ثُمَّ ـ بعد ذلك ـ قسَّموا العرْق الأبيض هذا إلى فرعَيْن: العرْق الآري، والعرق السّامي، وأخيراً؛ أكَّدوا أنَّ العرْق الآري وجب أنْ يُعَدَّ العرْق الأكمل.

وحتَّى في أيَّامنا هذه قُسِّم العرْق الآري إلى فئات، وهذا ماسمح للأنثرُوبُولُوجيِّيْن والأثنُولُوجيِّيْن الشُّوفينيِّيْن بأنْ يُعلنوا أنَّه سواء المجموعة السِّلتيَّة أو المجموعة الجرمانيَّة يجب أنْ يُعدّوا البرَّ الصّافي لهذا العرْق الآري المُتفوِّق.

---

(212) ليون ميتشينيكوف، الحضارة والأنهار الكبيرة، باريس 1889.

وفي قاعدة التّاريخ الشّرقي القديم وضع المُؤرِّخون الجُدُد هذه المسألة التي يعتبرونها رئيسيَّة بقدر ما هي غير قابلة للحلّ.

إلى أيّ فصيلة تنتمي الشُّعُوب القديمة؟ هل هُمْ آريُّون، طُوران أو ساميُّون؟ هذا هُو السّؤال المطروح في بدايات كُلّ البُحُوث المُجراة على أُمم الشّرق.

فكيَّفوا التّاريخ هكذا بشكل واعٍ أو بشكل غير واعٍ على نمط اللَّوائح الإثنيَّة لسفْر التّكوين - وهي لوائح نجدها عند البابليّيْن واليُونانيّيْن الأوائل البدائيّيْن - التي تُفسِّر - بشكل فطري - مُختلف تنوُّع المجموعات البشريَّة بوُجُود سُلالات مُنحدرة من أبوَيْن وحيدين، سُلالات خلَّفت كُلٌّ منها شعباً، وهُنا تُصبح التّوراة مُساعدة لمُناهضي السَّاميَّة؛ إذْ إنَّنا لم نزل في الأثنُوغرافيا وفي التّاريخ في تفسيرات سفْر التّكوين في سام وحام ويافث، استبدلوا بالسّامي والطُّوراني والآري، مع أنَّ هذه التّقسيمات يُوجد استحالة في تبريرها[213] إنْ لُغويّاً أو أنثرُوبُولُوجيّاً أو تاريخيّاً، بدُون أنْ نتوقَّف لمُناقشة ما إذا كانت الأعراق الزّنجيَّة قادرة على الحضارة[214] أم لا؟ يجب أنْ نرى ماذا تعني كلمة آريّيْن وساميّيْن، يُسمَّى آريّيْن كُلّ الشُّعُوب التي لسانها مُشتقٌّ من السّنسكريت، التي هي لُغة كان يتكلَّمها مجموعة بشريَّة كان اسمها آريّاً.

لكنَّ هذه المجموعة لا تُشكِّل وحدة علميَّة يُمكن إثباتها وبرهنتها إلاَّ من وُجهة نظر لُغويَّة[215] بحتة، وحدة أنثرُوبُولُوجيَّة هي غير مُبرهنة، فقياسات الرُّؤُوس والعلامات والأرقام لا تُقدِّم أيَّ دليل، في هذه الفوضى الآريَّة نجد أشكالاً ساميَّة وأشكالاً منغوليَّة، وكُلُّ النّماذج وكُلُّ تنوُّعات الأشكال بدءاً من المجموعة القابلة للتّصوُّر نَفْسيّاً وفكْريّاً واجتماعيّاً حتَّى المجموعة التي تبقى في انحطاط مُستمرٍّ.

---

(213) هذا التّصنيف له نَفْس قيمة الزَّعْم الذي للطّبقات الإقطاعيَّة التي كانت تُبرِّرُ قَمْعها وتعسُّفها في العُصُور الوُسْطى، مُدَّعيَة أنَّها من أبناء يافث، بينما الفلاَّحون والخَدَم كانوا من حام، وهذا ما كان يُشير إلى علاقة المُتفوِّق والمُنحطّ.

(214) نحنُ نعلم أنَّ الحضارة الرّائعة جداً في مصر القديمة كانت في جُزئها الأعظم عمل الزُّنوج الذين أتوا لمُساعدة الحُمر والسّاميّيْن والطُّورانيّيْن وبعض الشُّعُوب البيضاء الذين لا زالوا في يومنا الحاضر باسم **TOUAREGS** أفارقة، والذين لم يُؤسِّسوا بحياتهم مُجتمعاً ولا شيء يدوم. لا يزال يُوجد في أفريقيا آثار ضخمة تشهد عن وُجُود حضارة زنجيَّة مُتطوِّرة جداً كانت في مرحلة من التّاريخ.

(215) ليون ميتشنيكوف.

ونُلاحظ فيها مُستطيلي الرّأس وعريضي الرّأس، بشر ذوات بشرة سمراء، وآخرون ذوات بشرة صفراء، وآخرون بشرة بيضاء، غير أنَّه رغم كون بعض هذه القبائل ذوات اللُّغة الآريَّة لم يكن لديها تطوُّر مُتفوِّق ملموس على تطوُّر بعض التّجمُّعات الزّنجيَّة، يُؤكِّدون ـ بقُوَّة ـ أنَّ العرْق الآريَّ هُو العرْق الأجمل والأنبل من بين الأعراق، وأنَّه عرْق مُنتج وخلاَّق بامتياز، وإليه تعود أجمل الميتافيزيقيا وأروع الإبداعات الشّاعريَّة والدِّينيَّة والأدبيَّة، وأنَّ أيَّ عرْق من الأعراق غير قادر على مثل هذا التّطوُّر.

وللوُصُول إلى مثل هذا الاستنتاج طبعاً؛ نغضُّ الطَّرْفَ عن أمر لا يُناقش أنَّ كُلَّ العُضويَّات التّاريخيَّة تشكَّلت بالعناصر الأكثر تنافُراً وتباعُداً؛ حيثُ إنَّ دورها في الفعل العامِّ يستحيل تحديده.

إذاً؛ العرْق الآريُّ هُو الرّاقي، وقد أبدى رُقيَّه بمُواجهته لسيطرة عرْق أخوي ومُنافس: هُو العرْق السّامي، هذا العرْق الأخير هُو مُتوحِّش أرعن، غير قادر على الإبداع، مُجرَّد من المثاليَّات، والتّاريخ العالمي مُصوَّر وكأنَّه يتألَّف من تاريخ الصّراع بين العرْق الآريّ والعرْق السّامي، صراع نستطيع أنْ نلمسه اليوم في وقتنا الحاضر، كُلُّ مُناهض للسَّاميَّة يُقدِّم بُرهاناً على هذا الصّراع، وقد قدَّم بعضهم صراع طروادة على أنَّها صراع بين الآري والسّامي، ويُصبح باريس (لُمقتضيات الحاجة) من أجل حاجات القضيَّة، لصَّاً سامياً يخطف الآريَّات الجميلات.

ولاحقاً؛ هذه الحُرُوب الميديَّة تُمثِّل طوراً من هذا الصّراع الكبير، وتراهم يُصوِّرون الملك الكبير مثل قائد الشّرق السّامي يُهاجم الغرب الآريَّ، ثُمَّ قرطاجة تُنافس رُوما على سيادة العالم، ثُمَّ الإسلام الذي يتقدَّم ضدَّ المسيحيَّة، ويجدون مُتعة بإبراز اليُوناني مُنتصراً على الطّروادي وأرتاكسيريس، ورُوما مُنتصرة على قرطاجة، وشارل مارتل مُوقفاً عبد الرّحمن، فدُعُاة الآريَّة ـ رغم أنَّهم يعترفون بالسَّاميِّيْن داخل الطّرواديِّيْن ـ إلاَّ أنَّهم لا يُريدون أنْ يروا إلاَّ الآريِّيْن في هذه القبائل غير المُتجانسة والبربريَّة الذين يُحاصرون إيليون الغنيَّة، وفي هؤلاء الميديِّيْن الذين يُخضعون آشور، هؤلاء الميديُّون الذين فيهم قبيلة واحد آريَّة هي ـ آريازنتا ـ بينما الغاليَّة كانت ـ بدُون شَكٍّ ـ طُورانيَّة، أرادوا أنْ يُثبتوا أنَّ سُومر وآكاد ـ وهُمْ مُثقَّفو السَّاميِّيْن ـ كانوا آريِّيْن، كما أنَّ بعضهم نسب هذا الأصل النّبيل إلى مصر القديمة، والأنكى من ذلك؛

أنَّهم في داخل الحضارات السَّاميَّة قسموها إلى الجيِّد والسَّيِّئ، وأصبح مُنذُها وكأنَّه تعليم دينيٌّ مُناهض للسَّاميَّة. إنَّ كُلَّ ما هُو مقبول أو كامل عند السَّاميِّيْن قد أُخذ من الآريِّيْن.

أمَّا اللاَّساميُّون المسيحيُّون؛ قد صالحوا إيمانهم مع أعدائهم، ولم يترددوا أمام الهرطقة، فاعتبروا أنَّ الأنبياء ويسُوع كانوا آريِّيْن[216] بينما اللاَّساميُّون مُناهضو المسيحيَّة اعتبروا النّاصريَّ والأنبياء مُدانين وساميِّيْن مُنحطِّين.

هل تسمح لنا معرفتنا بتاريخ الأُمم القديمة والحديثة أنْ نقبل الأمر على أنَّه حقيقيٌّ وواقعيٌّ وهُو هذا التّنافس، وهذا الصّراع وهذا التّناقض الغريزيُّ للعرْق الآريِّ والعرْق السّاميِّ؟ ولا بشكل من الأشكال، بما أنَّ السَّاميِّيْن والآريِّيْن قد تمازجوا بشكلٍ مُستمرٍّ، وأنَّ المُساهمة السَّاميَّة هي كبيرة جدّاً في كُلِّ الحضارات المُسمَّاة آريَّة، وقبل العصر المسيحي بعشرة قُرُون أرسلت المُدُن الفينيقيَّة المُتوسِّطة بمُهاجريها إلى الجُزُر، وبعد أنْ أسَّسوا المُدُن التي غَطَّتْ السّاحل الشّماليَّ لإفريقيا من حَضْرَمَوْت وقرطاج، حتَّى جُزُر الكناري استوطنوا على التّالي، اليُونان الذي وجده الغُزاة الآريِّيْن مسكوناً بالسُّكَّان الأصليِّيْن صُفر ومُستوطنين ساميِّيْن، لدرجة أنَّ أثينا كانت مدينة كُلّها ساميَّة، كذلك الأمر في إيطاليا وإسبانيا وفرنسا؛ حيثُ أسَّس الفينيقيُّون البحَّارة مدينة نيم **Nîmes** مثلاً كما أسَّسوا طيبة وبيوتي، وأتوا إلى مرسيليا، وأرسلوا في أفريقيا هذه العناصر المُختلفة تملغمت ببعضها لاحقاً، وتوافقت بفعْل الطَّقْس وفعْل الوَسَط الذّهني والفكْري والأخلاقي، لكنَّهم لم يبقوا ساكنين بدُون فعْل، فحوَّل السَّاميُّون العبقريَّةَ الهيلِّينيَّةَ؛ أيْ سمحوا لها أنْ تتعدَّل بتطعيمها بعناصر غريبة، فقصَّة الميْثُولُوجيا الهيلِّينيَّة هي من هذا المنحى غريبة مُشوقة ومُثقَّفة، وبمُقارنة هيراكلس وملقارت أو عشتروت مع أفروديت نستطيع أنْ نفهم هذه المُشاركة السَّاميَّة.

كذلك كان هُناك دور للكؤُوس والمزهريَّات الفينيقيَّة المُصدَّرة بأعدادٍ كبيرة بواسطة تُجَّار صيدا وصُور، فهي خَدَمَتْ (ساعدتْ) كنموذج للفنَّانين اليُونان، فسمحت لعقل الدّوريِّيْن والإيونيِّيْن الرّاقي بترجمة الميْثُولُوجيا التي تُوفِّرها الصُّور، كما أنَّ التّصاوير الفينيقيَّة ساعدت

---

(216) هذه النّظريَّة التي لها فائدة كبيرة هي أنَّها لا تستند إلى أيِّ أساس، قد نشأت في ألمانيا، ومنها انتقلت إلى فرنسا وبلجيكا BIEZ، وأدمون وبيكار دعماها، لكنَّهما لم يدعموها بأيِّ بُرهان حتَّى ولو كان وَهْميّاً (انظر مرآة اللاَّساميَّة 1/ 1892).

ـ كثيراً ـ الميثُولُوجيا الأيقونيَّة اليُونانيَّة[217]، كما أنَّ الفينيقيِّين هُمْ الذين حملوا الأبجديَّة للهيلِّينيِّيْن، والتي كانت قد أُخذت عن الهيرُوغليفيَّة من مصر القديمة[*].

كما أنَّهم ثقَّفوهم في الصّناعة المنجميَّة وفي صناعة المعادن، كما أنَّ آسيا الصُّغرى هي تلميذة آشور، علَّمتهم النَّحْتَ، ولدينا أوابد تشهد على هذا التّأثير، كذلك؛ فالأُسُود الموجودة في الأكربول في ميسينا، وهذه الآلهة الهيلِّينيَّة التي حفظت نموذج التُّراب المشوي البابلي حتَّى الآن. فاليُونانيُّون ـ بحسِّهم الرّائع للتّناغم والجمال، ومع علمهم في النّظام والتّنسيق، وإذا أحسنت القول ـ مزجوا هذه الأفكار الشّرقيَّة، فحولَّوها ونقّوها، أمَّا الشّعب اليُوناني؛ كان مزيجاً مُملغماً من أعراق مُتنوِّعة جدّاً؛ آريَّة وطُورانيَّة وساميَّة و(حاميَّة؟) أمَّا عبقريَّته؛ فهي تعود وتُعزى لأسباب أُخرى غير نُبْل وصفاء العرْق.

غير أنَّ اللاَّساميِّيْن الحديثين يقبلون بأهمِّيَّة السَّاميَّة في تاريخ الحضارة، لكنَّهم هُنا ـ أيضاً ـ يُجرون تصنيفاً. فيقولون: هُناك ساميُّون راقون، وساميُّون مُنحطُّون. اليهُودي هُو آخر السَّاميِّيْن، هُو غير مُنتج بالطّبيعة الذّاتيَّة. ولم يتلقَّ البشر منه أيَّ شيء، وهُو لا يستطيع أنْ يُعطي أيَّ شيء.

إنَّه من المُستحيل قُبُول هذا الزّعم. صحيحٌ أنَّ اليهُوديَّة لم يتبدَّى ـ أبداً ـ في حياتها أيُّ كفاءات للفنُون الجميلة، لكنَّها أنجزت ـ بواسطة أنبيائها ـ عملاً أخلاقيّاً استفاد منه كُلُّ شعب؛ لقد أنتجت بعض الأفكار الأخلاقيَّة والاجتماعيَّة، التي هي خميرة للإنسانيَّة؛ وهي، وإنْ لم يكن لديها نحَّاتون ورسَّامون مُقدَّسون، إنَّما كان لديها شُعراء رائعون، وخُصُوصاً شُعراء أخلاقيُّون، عملوا من أجل الأُخُوة العالميَّة، وقادة أنبياء، جعلوا فكْرة العدالة حيَّة وأزليَّة، وإِشَعْيَا وإِرْمِيَا وحزقيال رغم عُنفهم وشراستهم أسمعوا صوت الألم العالمي الذي لا يُريد ـ فقط ـ أنْ يحتمي من قُوَّة الشَّرِّ، بل ـ أيضاً ـ يُريد الخلاص[**].

---

(217) انظر كليرمون غانو، التّصوير الفينيقي وميثُولُوجيا الأيقونة عند اليُونان، باريس **1880**، والعُصُور القديمة الشّرقيَّة، باريس **1890**.

(*) الأبجديَّة التي حملها الفينيقيُّون لم تُؤخذ من الهيرُوغليفيَّة، بل هي تطوُّر طبيعيٌّ للُغات الهلال الخصيب.

(**) للتّأكُّد من عدم صحَّة كلام المُؤلِّف؛ يُراجع القُرَّاء (التَّوراة والتّلمُود) اللّذيْن خطَّتهما أيدي أحبارهم، ففيهما نقيض هذا الكلام تماماً؛ حيثُ الدَّعوة إلى احتقار الأغيار، وإلى إبادتهم، وإلى نقيض كُلِّ خُلق جيِّد ونبيل وحَسَن. (دار الأوائل).

على أيِّ حال؛ فإذا كان العُنْصُر الفينيقي قد اندمج مع العُنْصُر المُركَّب والهيلِّيني والعُنْصُر اللاَّتيني والعُنْصُر السّلتي والعُنْصُر الإيبيري، فإنَّ العُنْصُر اليهُودي قد ساهم - أيضاً - بتمازجه مع الآخرين - بتشكيل تجمُّعات اتَّحدت - لاحقاً - لتُشكِّل الأُمم الحديثة في هذه البوتقة الشّاسعة التي هي آسيا الصّغرى؛ حيثُ تأسَّست شعُوب مُتنوِّعة جداً، أتى اليهُودي، وذاب، واختفى.

ففي الإسكندريَّة؛ كان اليهُود الذين تهلينوا ببُطء قد عملوا في المدينة أحد أنشط المراكز للدّعاية المسيحيَّة. وكانوا أوّل مَنْ اهتدى وشكَّل نُواة الكنيسة الأوَّليَّة في الإسكندريَّة وأنطاكيَّة ورُوما، وعندها زالت الأبيونيَّة **Ebionites**، فقد امتُصُّوا وذابوا في مجموع الشّعب المُهتدي اليُوناني أو الرُّوماني.

وخلال كامل مدى العُصُور الوُسْطى اختلط الدّم اليهُودي بالدّم المسيحي. واهتدت النّاس أفواجاً وبأعداد غفيرة، ويُستحسن أنْ نذكر الأعداد مثل: يهُود برين[(218)] ويهُود تُورتُوز[(219)] وكليرمون الذين اهتدوا بواسطة أفيتوس، والخمسة وعشرون ألف مُتعمِّد بواسطة فنسنا فيرير **Ferrer**، وهؤلاء ذابوا وسط الشُّعُوب التي يعيشون في وسطها. أمَّا محاكم التّفتيش؛ فهي، وإنْ منعت التيهُّود، أو أنَّها على الأقلِّ حاولت منعه، فهي شجَّعت امتصاص اليهُود، هذا؛ وإذا كان اللاَّساميُّون المسيحيُّون منطقيِّين لكانوا لَعَنوا تُوركيمادا **Torqemada** وخُلفاءه الذين ساعدوا على تدنيس الصّفاء الآري بإدخال اليهُود فيه. وكان عدد الماران **Marranes** في إسبانيا ضخماً جداً. ففي جميع العائلات الإسبانيَّة؛ نجد علامة في السُّلالة وهي اليهُودي أو العَرَبي (المغربي).

"فأكثر البُيُوت نُبلاً مليئة باليهُود"، هكذا قيل، وقد كَتَبَ الكاردينال مندوزا إيبوفا ديلا في القرن السّادس عشر هجائيَّة حول تلطُّخ الأنساب الإسبانيَّة.[(220)]

وهكذا كان في كُلِّ مكان، وشاهدنا من خلال عدد المُرتدِّين المُنافسين لأبناء ديانتهم القُدامى أنَّ اليهُود كانوا سهلي المنال للسِّحْر المسيحي.

---

(218) سان بريوكس، تاريخ برين.

(219) يهُود تُورتُوز، اهتدوا بالأُلُوف بعد مُحاضرة مفتوحة بتحريض من جيروم دي سانتا.

(220) تاريخ محاكم التّفتيش، باريس 1817.

وهكذا؛ قد أجبنا على الذين يُؤكِّدون صفاء ونقاء العرْق الآري. وقد أشرنا إلى أنَّ هذا العرْقَ كان كباقي الأعراق نتاج تمازُج عدد لا يُحصى من الأعراق. وبدُون التَّكلُّم عن العُصُور ما قبل التّاريخيَّة رأينا أنَّ الغزوات الفارسيَّة والمقدونيَّة والرُّومانيَّة زادوا من الانصهار الإثني الذي تزايد - أيضاً - في أُورُوبا إبَّان الاجتياحات. والأعراف المُسمَّاة هندُو - جرمانيَّة والتي هي مُحمَّلة سابقاً بالطّمي اختلطت بالتّشود **Tchoudes** والأُونكريِّيْن والأُورُو - أتلاييك، ومن الأُورُوبيِّيْن الذين يعتقدون أنَّهم السَّليلون المُباشرون لنَسَب أجداد آريِّيْن لا يُفكِّرون - أبداً - بالبلاد المُختلفة التي اجتازها هؤلاء الأجداد بأسفارهم الطّويلة، ولا بكُلِّ الشُّعُوب التي أخذوها معهم، ولا التي قابلوها ووجدوها مُستقرَّة؛ حيثُ أقاموا شعُوباً من أجناس مجهولة وذوات أُصُول غير معروفة، قبائل مغمورة وغير معروفة، والتي لا تزال دماؤها تجري في عُرُوق البشر الذين يدَّعون أنَّهم الوَرَثة المُباشرون للأُسطُوريِّيْن الآريِّيْن النُّبلاء، مثل دم الصُّفر داسياس، والسُّود درافيديان الذي يجري تحت بشرة البيض الهندُو - آريِّيْن.

كما أنَّه غير فكْرة التَّفوُّق الآري هُناك فكْرة التَّفوُّق السّامي التي هي - أيضاً - غير مُبرَّرة، ومع ذلك؛ دعموها بشكل معقول جداً. فتقابل المُنظِّرون ليُؤكِّدوا ويُثبتوا حتَّى إنَّ السَّاميِّيْن كانوا زهرة البشريَّة، وإذا كان هُناك من أُمُور جيِّدة في الآريَّة فهي آتية منهم، وبالتأكيد؛ سوف يجدون يوماً ما هذا، إذا لم يكونوا قد وجدوا بعد، وهُمْ الإثنيُّون الذين سوف تُبرهن وطنيَّتهم - بنَفْس الحتميَّة - أنَّ الطُّورانيِّيْن يجب أنْ يحتلّوا المكانة العُليا في التّاريخ والأنثرُوبُوجيا.

واليوم الذين يعتبرون أنفسهم كأعلى تجسُّد للسَّاميَّة، الذين هُمْ اليهُود يُساهمون في استمرار الاعتقاد بعدم المُساواة وبتدرُّج الأجناس. فالسَّلَفيَّة الإثنيَّة هي السَّلَفيَّة العالميَّة، والذين يتألَّمون منها هُمْ المُحافظون الأشدُّ صلابة. فاللاَّساميُّون ومُحبُّو السَّاميِّيْن يتَّحدون ليُدافعوا عن العقائد نَفْسها، ولا يفترقون إلاَّ عندما يُحدِّدون وينسبون التَّفوُّق والأولويَّة.

فإذا كان اللاَّسامي يُعيب على اليهُودي بأنْ يكون من عرْق أجنبي ومُنحطٍّ، فاليهُودي يدَّعي أنَّه من عرْق مُختار ومُتفوِّق راقٍ. فهُو يُعلِّق أهمِّيَّة كُبرى على نُبله وتاريخه القديم، والآن - أيضاً - هُو فريسة الكبرياء القومي. ومع أنَّه لم يعد يُشكِّل شعباً، ومع أنَّه يحتجُّ ضدَّ

الذين يُريدون أنْ يروا فيه مُمثّلاً لأُمَّة خيَّمت بين أُمـم أجنبيَّـة، فـهُو لا يحتفـظ فـي عُمـق ذاتـه بهذه القناعة المغروسة، وهذا شبيه بالوطنيِّين المُتطرِّفين لكُـلِّ البـلاد. فـهُو مثلـهم، يزعـم أنَّـه سليل منشـأ وأصـل نقـي، وبـدُون أنْ يكـون تـأكيده لـه سـند ودَعْـم أفضـل، يجـب علينـا أنْ نتفحَّص عن قُرب زعم أعـداء اليـهُود واليـهُود ذاتـهم، وللمعرفـة؛ فـإنَّ اليـهُود هُـمْ الشّـعب الأكثر وحدة والأكثر ثباتاً وأقلّهم اختراقاً وأكثرهم مَنَعَة. تنقصنـا المراجـع لتحديـد أثنُولُوجيـا اليـهُود البـدو، لكـنْ؛ مـن المُحتمـل أنَّ الأسـباط الاثنَـيْ عشـر ـ الذيـن حسـب التّقـاليد كـانوا يُشَكِّلون هذا الشّعب ـ لم يكونوا من فرع واحـد. كـانوا قبـائل مُتنوِّعـة غـير مُتجانسـة، لأنَّـها كغيرها من الأُمم؛ أيْ الأُمَّة اليهُوديَّة لا تستطيع أنْ تزعم ـ رغماً عن أساطيرها ـ أنَّها تناسـلت من زوج واحد، والمُعتقد الشّائع الذي يُمثِّل القبيلة العبريَّة تنقسم إلى قبائل أصغر فرعيَّـة[221] هُو ليس إلاَّ مُعتقداً أُسطُوريّاً وتقليديّاً الذي هُو من سفْر التّكوين، والذي قبله خطـأ قسـم مـن المُؤرِّخين العبرانيِّين.

فاليهُود عندما كانوا مُؤلَّفين مـن وحـدات مُختلفـة مـن بينـها ـ بـدُون شَـكٍّ ـ مجموعـات طُورانيَّة وكُوشيَّة؛ أيْ صُفر وسُود[222]، انضمَّ إليهم خلال إقامتهم في مصـر عنـاصر أجنبيَّـة أُخرى، وفي بلد كنعان هذا الذي غزوه. وفي وقت لاحق هُناك ياجوج وماجوج **Goget et Magog** السّيتيِّيْن **Les Scythes** عندما أتوا بعهد جُوزياس على أبواب أُورشـليم رُبَّمـا تركـوا آثارهم في اليهُود. لكنْ؛ اعتباراً من الأسر الأوَّل ازداد التّمازج: "قال ابن ميمُون[223]: أثناء الأسر البـابلي اختلـط الإسـرائيليُّون بكُـلِّ أنـواع الأعـراق الغريبـة، وأنجبـوا أطفـالاً، والذيـن بفضل هذه التّحالفات شكَّلوا نوعاً من اللُّغات الممزوجة". وكما أنَّ بابل هـذه التـي كـان فيـها يُوجد مُدُن مثل ماهوزا، كُلّها مأهولة بالفُرْس تقريباً، وقد اهتدوا إلى اليهُوديَّة، كـانت تعتبر أنَّ فيها يهُوداً أنقى عرْقاً من يهُود فلسطين. "وهُناك مَثَلٌ قديم كان يقول لنقاء العرْق الفرق بين يهُود المُقاطعـات الرُّومانيَّـة ويـهُود اليهُوديَّـة هُـو كحساسـيَّة الفـرق بـين عجينـة سـيِّئة الخـواصِّ

---

(221) تاريخ اليهُود.

(222) على قاعدة كُلِّ مَدَنيَّة نجد العناصر الثّلاث الأبيض والأصفر والأسود، نراهـم فـي مصـر؛ حيثُ كـان معهـم عُنْصُر أحمر، وفي الرّافدَيْن والهند، في كُلِّ مكان فيه إمبراطُوريَّات كبيرة، ويُمكننا أنْ نُؤكِّـد أنَّـه لتأسيس مَدَنيَّـات باقية يجب مُساعدة هذه النّماذج البشريَّة الثّلاث.

(223) ابن ميمُون، يد حزاقة (اليد القويَّة).

وعجينة من زهرة الطّحين. لكنَّ اليهُوديَّة بذاتها هي عجينة سيِّئة بالنّسبة لبابل، ذلك لأنَّ اليهُوديَّة قد مرَّ عليها كثير من التّقلُّبات. لقد كانت - دوماً - بلداً للمُرُور بالنّسبة لمسرايِيم ولآشور: ثُمَّ عندما عاد اليهُود من الأسر تحالفوا مع السّامريِّيْن والأدوميِّيْن والمُؤابيِّيْن: وبعد غزو الأدومة من قبَل هيكران حصل تحالفات يهُوديَّة وأيدوميَّة، وخلال الحرب مع رُوما خلَّف المُنتصرون اللاَّتين أبناءً، هكذا أكَّدوا".

"وقد قال - بحُزن - الحاخام أولا Ulla ليهُوذا بن حزقيال: هل نحنُ مُتأكِّدون أنَّنا لسنا سليلي الوَثَنيِّيْن الذين بعد الاستيلاء على أُورشليم دنَّسوا صبايا صِهيَوْن؟

لكنَّ الذي نشَّط أكثر ما يكون دُخُول الدّم الغريب إلى اليهُود كان التّبشير الدِّيني والهداية. كان اليهُود شعباً دعائيَّاً بامتياز، واعتباراً من بناء المعبد الثّاني، واعتباراً من الشّتات، خُصُوصاً كانت موهبتهم عظيمة وكبيرة في هذا المجال. فكانوا - فعلاً - الذين قال عنهم الإنجيل إنَّهم يجتازون "الأرض والبحر ليصنعوا مُهتدٍ".

وقد صرَّح الحاخام إليعازر بحقٍّ: "لماذا فرَّق اللهُ اليهُودَ بين الأُمم؟".

"لكي يُجنِّد لها مُهتدين[224] جُدُد في كُلِّ مكان". تُؤكِّد الشّهادات هذا النّشاط التّبشيري لليهُود خلال القُرُون الأُولى للعصر المسيحي، فانتشرت اليهُوديَّة[225] بنَفْس قُوَّة انتشار المسيحيَّة لاحقاً والإسلام.

ففي رُوما والإسكندريَّة وأنطاكية؛ حيثُ كان مُعظم اليهُود أغياراً مُهتدين، دمشق وقبرص كانتا مراكز إشعاع. وقد برهنتُ عن ذلك سابقاً. بالإضافة لذلك؛ فإنَّ الحشمونيِّيْن الغُزاة أجبروا السُّوريِّيْن المهزومين على الختان. فكان هُناك مُلُوك أخذوا معهم عناصرهم واهتدوا سويَّة؛ مثل عائلة الأديابين، وفي بعض مُقاطعات فلسطين ذاتها كان الشّعب مُختلطاً جدّاً، وهكذا في الجليل في "حلقة الأغيار"؛ حيثُ ولد يسُوع.

لم يتوقَّف الانتشار اليهُودي حتَّى بعد العصر المسيحي، فقد مُورس بالقُوَّة، وعندما احتلَّ بنيامين الطّبري اليهُوديَّة في عهد هرقليوس، ارتدَّ المسيحيُّون الفلسطينيُّون بأعداد

---

(224) تلمُود بابلي، بيساهيم 87.

(225) هُوراس، IV 143، جُوزف بيليود، 3 و7 VII III.

كبيرة. إنَّه الصُّمُود والاستمرار لهذا الانتشار كان أحد أسباب مُناهضة السَّاميَّة اللاَّهوتيَّة، وقد ذكرتُ ذلك سابقاً. ولعدَّة قُرُون شرعت المجامع لإجراءات لمَنْع اليهُود من استمالة المُؤمنين إليهم، ومنعهم من ختان خَدَمهم، ومنعهم من الزّواج بمسيحيِّيْن.

ولكنْ؛ إلى حين الاضطهادات العامَّة؛ أيْ عندما أصبح خطراً أنْ تكون يهُوديّاً أصبحت النّواهي المجمعيَّة الكنيسيَّة عاجزة عن إيقاف الاهتداء، وأحياناً؛ عندما كان يحصل حادث كبير مُفاجئ، وعندما كانت تنفجر فضيحة ما، كُنَّا نجد ساعتها الدّعاية اليهُوديَّة وعملها. ففي عام 514، تجد أسقفاً يرتدُّ، ولاحقاً نائب الكاهن بُودون[226] الذي طلب الختان، واتَّخذ اسماً له إليعازر. وكان البابوات يتدخَّلون - غالباً - بالقرارات البابويَّة؛ مثل كليمان الرّابع عام 1255، وهُونُوريُوس الرّابع 1288. والمُلُوك ذاتهم كانوا يتصرَّفون مثل فيليب لُوبيل الذي استحصر قُضاة المملكة، وطلب منهم: "بمُعاقبة اليهُود الذين يأخذون المسيحيِّيْن إلى ديانتهم بواسطة الهدايا".

ففي كُلِّ أُورُوبا جذب اليهُود إليهم مُهتدين، جَدَّدوا - بذلك - دمهم بإدخال دم جديد. أهدوا في إسبانيا؛ حيثُ المجامع المُتتالية في تُوليدُو منعت الزّواج المُختلط، وفي سويسرا؛ حيثُ مرسوم القرن الرّابع عشر يحكم على البنات الشَّابَّات باعتمار عمامات اليهُود؛ لأنَّهنَّ أنجبنَ أطفالاً من آباء إسرائيليِّيْن. في بُولُونيا في القرن الخامس عشر رغم رسائل **Sigismond** الأوَّل وحسب قول المُؤرِّخ بيلسكي[227] فهُمْ لم يتحالفوا - فقط - مع الأُمم المُسمَّاة آريَّة في أُورُوبا، بل - أيضاً - مع الأُورُو - ألتاييك ومع الطُّورانيِّيْن. هُنا كان التّغلغُل والارتشاح كبيراً جداً. وعلى سواحل البحر الأسود وبحر قزوين كان اليهُود قد استقرّوا مُنذُ زمن طويل جداً.

وكان يُحكى أنَّ أرتاكسيريس أوتشو خلال حربه على مصر وعلى ملك تاشوس (عام 361 ق. م) اقتلع يهُوداً من بلدهم، ونقلهم إلى هيركانيا (**Hyrcanie**) على ضفاف بحر قزوين. وإذا كان تواجدهم في هذه المنطقة ليس بهذا القدَم التي تزعمه هذه التّقاليد، لكنَّهم كانوا موجودين ومُستقرِّين قبل العهد المسيحي بزمان طويل، وذلك كما تشهد له الكتابات اليُونانيَّة لـ أناب أولبيا وبانتيكابيا **Pan Ticapeia**.

---

(226) ضدَّ اليهُود **AMOLON**.

(227) بيلسكي - **Chroicon rerum Polocarum**.

فقد هاجروا في القرن السّابع والثّامن من بابل، ووصلوا إلى مُدُن تتريَّة كيرتش وتادكو ودربند. . إلخ. . إلخ ... هُنا وفي حوالي أعوام 625، هَدَوا شعباً بأكمله، شعباً تقع أراضيه في جوار أستركان: الخَزَر[228]، وقد استأثرتْ الأُسطُورة بهذا الحَدَث الذي استولى على عواطف كثير من اليهُود في الغرب، ولكنْ؛ رغم ذلك لا يُمكن التّشكيك فيه، فإزودور دي أشبيليَّة **Isodore De Seville** وهُو مُعاصر للحَدَث تكلَّم عنه، ولاحقاً؛ في القرن العاشر، فإنَّ حسداي ابن شبروت وزير الخليفة عبد الرّحمن الثّالث راسلَ يُوسُف آخر شاغان الخَزَر الذي دُمِّرت مملكته من قبَل الأمير سوياتيلو دي كيو، وقد أثَّر الخَزَر تأثيراً كبيراً على القبائل التّريَّة المُجاورة هي بُوليان **Poliane** وسيفيريان **Severiane** ووياتيتيسشي، وهَدَوا منهم الكثيرين إلى اليهُوديَّة.

وفي القرن الثّاني عشر شعُوب كثيرة تتريَّة من القُوقاز اهتدت إلى اليهُوديَّة، هذا ما حدَّث عنه الرَّحَّالة بيتايا دي راتيسبون[229] **Pettaya De Ratisbonne**، وفي القرن الرّابع عشر وفي القبائل التي على رأسها ماماي **Mamai** اجتاحوا المُقاطعات المُحيطة بالقُوقاز؛ حيثُ كان يُوجد كثير من اليهُود في هذه المنطقة من أُورُوبا الشّرقيَّة جرى انصهار اليهُود والأُورُو ـ التّاييك هُنا تحالف ساميٌّ مع الطُّوراني.

وفي يومنا هذا عندما ندرس شعُوب القُوقاز نجد آثار هذا الخليط بين ثلاثين ألف يهُوديٍّ في هذا البلد وبين القبائل المُحيطة به.[230]

كذلك: فإنَّ هذا العرْق اليهُوديَّ الذي يُقدِّمه اليهُود ومُناهضو السَّاميَّة وكأنَّه العرْق الذي لا يُخترق والأكثر تجانساً بين الأعراق لهُو مُتنوِّع جداً، فالأنثرُوبُولُوجيُّون يستطيعون تقسيمه إلى قسمَيْن واضحَيْن جداً: مُستطيلي الرّأس، وعريضي الرّأس، يعود للنّموذج الأوّل يهُود السّفرديم؛ أيْ يهُود إسبانيا والبُرتغال، كذلك الغالبيَّة العُظمى من يهُود إيطالية

---

(228) فيفيان دي سان مارتان، الخَزَر، باريس 1851، دُوسُون، شعُوب القُوقاز، باريس 1828، مجلَّة الدّراسات اليهُوديَّة، ص 144.

(229) بازناج، تاريخ اليهُود.

(230) من بين الشّيشان المُستقرِّين في شمال غرب القُوقاز يكون النّموذج اليهُودي مُنتشراً جداً، وحتَّى عند أندي داغستان و شعب بحر قزوين يُعتبرون مثل يهُود، ويُوجد كثير من اليهُوديِّين التّتر والكُوميك، انظر إيكرت: القُوقاز وشعُوبها، لا يبرح 1887.

وجنوب فرنسا، وللنّموذج الثّاني يعود يهُود أشكينازيم؛ أيْ يهُود بُولُونيا ورُوسيا وألمانيا[231]، لكنَّ السّفرديم والأشكنازيم ليسوا النّوعَيْن الوحيدَيْن المعروفَيْن من اليهُود، التّنوُّعات عديدة جداً، ففي إفريقيا؛ نجد يهُوداً مُزارعين وبدواً مُتحالفين مع (سُكّان الجبل في الجزائر) القبيلي والبربر قُرب سيتيف وغويلما وبيسكرا على حُدُود مراكش، فيذهبون بقافلة حتّى تُومبُوكتوا وبعض قبائلهم على تُخُوم الصّحراء، هُمْ قبائل زنُوج[232]، كذلك الدّاغاتون مثلما أنَّ الفلاشا اليهُود من أبيسيني[233]، هُمْ - أيضاً - سُود، ففي الهند؛ نجد يهُوداً بيض في بُومباي، ويهُوداً سُود في كُوشين، لكنَّ اليهُود البيض فيهم دم السُّود، لقد استقرّوا في الهند في القرن الخامس بعد اضطهادات الملك الفارسي فيروس **Pheroces** الذي طردهم من بغداد، إلاّ أنَّ البعض يُرجع استقرارهم إلى تاريخ أبعد من ذلك: عندما أتى اليهُود إلى الصّين؛ أيْ قبل يسُوع المسيح.

أمَّا بالنّسبة ليهُود الصّين؛ فهُمْ ليسوا - فقط - نُسباء الصّينيِّين الذين يُحيطون بهم، لكنَّهم - أيضاً - تبنّوا مُمارسات الدّيانة الكُونفُوشيَّة[234]، إذاً؛ فاليهُودي قد تحوَّل بدُون انقطاع بالأوساط المُختلفة التي عاش فيها، لقد تغيَّر؛ لأنَّ لُغات عديدة ومُتنوِّعة تكلَّمها هُو، فأدخلت فيه معلومات مُختلفة ومُتنافرة. فهُو لم يبقَ كما هُو، شعباً مُوحَّداً ومُتجانساً، بل على العكس من ذلك، إنَّه - الآن - في الوقت الحاضر أكثر الشُّعُوب المُختلطة وغير المُتجانسة، وفيه أكثر كميَّة من التّنوُّع، وهذا العرْق المزعوم الذي يتّفق فيه الصّديق والعدوُّ، ويزعمون عنه الثّبات والمُقاومة يُقدِّم لنا النّماذج الأكثر تعدُّداً والأكثر تنافراً، بما أنَّهم يبدؤون باليهُودي الأبيض إلى اليهُودي الأسود، مُرُوراً باليهُودي الأصفر، ذلك دُون أنْ نتكلَّم عن الفُرُوع الثّانويَّة، وهُمْ اليهُود ذوو الشّعر الأشقر أو الأحمر، واليهُود السُّمر ذوو الشّعر الأسود.

---

(231) بالنّسبة لليهُود مُستطيلي الرّأس في أفريقيا وإيطاليا؛ انظر أعمال برونز - بي: تاريخ المُجتمع الأنثرُبُولُوجي، بالنّسبة لليهُود عضدي الرّأس؛ انظر كُوبيرنيك وماير، سمات فيزيائيَّة لشعب فاليسيا وكركُوفيا (1876 في البُولُوني).

(232) مردوشيه أبي صيرور **LES DAGGATOUNS**، باريس 1880.

(233) بالنّسبة للفلاشا؛ انظر أبرادي، دوريَّات جديدة في السّفر، الأرشيف اليهُودي، 1851 - 1854.

(234) إيلي شفارتز، شعب الله في الصّين، ستراسبورغ 1880، سيونيه: دراسة حول اليهُود في الصّين، باريس 1837.

بالنّتيجة؛ فإنَّ بُرهان الإثنينيِّيْن اللاَّساميِّين لا يستند إلى أيِّ قاعدة جدِّيَّة وواقعيَّة. تضادُّ الآريِّيْن والسّامين هُو أمر مُختَلَق (مُزيَّف)، وليس صحيحاً - أبداً - القول بأنَّ العرْق الآريَّ والعرْق السّاميَّ هُما عرقان صافيان، وأنَّ الشّعب اليهُودي هُو شعب واحد ولا يتغيَّر.

الدّم السّامي قد اختلط بالدّم الآري، والدّم الآري بالدّم السّامي، والآريُّون والسَّاميُّون كلاهما تلقَّى انضمام الدّم الطُّوراني والدّم الشَّامي (الحامي؟) والزّنجي، وفي بابل القوميَّات والأعراق التي يُمثِّلها العالم اليوم، فإنَّ اهتمام الذين يبحثون لمعرفة ما إذا كان جيرانهم آريِّيْن أو طُورانيِّيْن أو ساميِّيْن لهُو اهتمام عديم الفائدة.

رغم كُلِّ ذلك؛ هُناك جُزء من الحقيقيَّة في البُرهان الذي تفحَّصناه، أو بالأحرى، نظريَّات اللاَّساميَّة حول عدم تساوي الأعراق وحول تفوُّق العرق الآري والأحكام السَّلَفيَّة الأنثرُوبُولُوجيَّة، وبكلمة واحدة هي غطاء يغشي بعض الأسباب الحقيقيَّة لمُناهضة السَّاميَّة.

لقد قُلنا إنَّه لا يُوجد أعراق، بل يُوجد شُعُوب وأُمم، وما يُسمَّى عرْقاً، فهُو ليس وحدة إثنيَّة، إنَّما هُو وحدة تاريخيَّة وفكْريَّة وأخلاقيَّة نَفْسيَّة، فاليهُود ليسوا سُلالة، لكنَّهم (أُمَّة) قوميَّة، إنَّهم نماذج مُتنوِّعة هذا صحيح، لكنْ؛ أيُّ أُمَّة ليست مُتنوِّعة؟ ما يصنع الشّعب ليس وحدة المنشأ، بل هي وحدة المشاعر والفكْر والأخلاق، لنرى ما إذا كان اليهُود يُمثِّلون هذه الوحدة، وسوف نجد - هُنا جُزئياً - سرَّ العداء ضدَّهم.

الفصل الحادي عشر:

القوميَّة ومُناهضة السَّاميَّة

يُوجد حوالي ثمانيَّة ملايين يهُودي مُنتشرين علـى سطح الكُرة الأرضيَّـة[235] وحوالي السّبع أثمان منهم يسكنون أُورُوبا[236]، وبين هؤلاء اليهُود يُوجد اليهُود البدو الذين يعيشون على تُخُوم الصّحراء، الدّاغاتون الصّحراويُّون، والفلاشا في الأبيسيني، واليهُود السُّود في الهند، واليهُود المغول في الصّين، واليهُود الكلموك والتّتر في القُوقاز، واليهُود الشُّقر من بُوهيميا وألمانيا، واليهُود السُّمر من البرتغال وجنوب فرنسا وإيطاليا، والرّق مُستطيلو الرّأس، واليهُود عريضو الرّأس، ومُفلطحو الرّأس، فكُلُّ اليهُود - بحسب مقطع شعرهم أو حسب شكل قحفهم، وحسب لون بشرتهم - نستطيع أنْ نصفهم بحسب أفضل المبادئ الأنثرُوبُولُوجيَّة في أربع أو خمس أعراق مُختلفة مثلما برهنَّا سابقاً.

نستطيع - أيضاً - إجراء مُقارنة مُماثلة مثلاً لنُقارن بين مُختلف سُكَّان المُحافظات الفرنسيَّة المُختلفة، فنستطيع أنْ نُثبت أنَّ الاختلافات الموجودة بين البروفنسالي والبروتوني، النّيسوزاي بيكاردي بين النُّورماندي والأكيتاني بين الذين من اللُّورين والنّاسكي بين الأوفيرينا والسّافويار، فنستطيع أنْ نُبرهن أنَّ هذه الاختلافات والفُرُوقات لا تسمح لنا بالاعتقاد بوُجُود عرْق فرنسي.

---

(235) إنَّه من الصّعب التّقييم الدّقيق لعدد السُّكَّان اليهُود في الكُرة الأرضيَّة. فمن جهة يزيد اللاّساميُّون من العدد حتَّى يُبرهنوا الاجتياح اليهُودي، من جهة أُخرى؛ يُقلِّل اليهُود من العَدَّ. يُعطي اللاّساميُّون رَقْم تسعة ملايين أو عشرة ملايين، أمَّا مُحبُّو اليهُود، أو اليهُود؛ فيُعطون رَقمٌ ستَّة ملايين وثلاثمائة ألف يهُودي 6300000، انظر رايناخ: تاريخ الإسرائيليِّين.

ويتَّهمون اليهُود الرُّوس أنهم مليونان ونصف، وهذا عدد أقلُّ من الرَّقْم الحقيقي الذي هُو أربعة ملايين ونصف على الأقلّ، (ليوايريا: "اليهُود الرُّوس")، فاعتمدتُ أنا الرَّقْم ثمانية ملايين، رَقْم قريب من الحقيقة.

(236) من المُمكن أنَّ الهجرة المُتزايدة لليهُود البُولُونيِّين والرُّوس إلى أمريكا يُمكن أنْ يعدل هذا الرَّقْم. يُوجد - الآن - في أمريكا من 250 إلى 300 ألف يهُودي، فإذا لم يتزايد هذا الرَّقْم، هذا معناه أنَّ يهُود أمريكا عندهم ميل للانصهار، ضمن الشُّعُوب المُحيطة بهم، وهذا يعود إلى أنَّ الطّبقة اليهُوديَّة المُهاجرة هي من طبقة العُمَّال.

غير أنَّه بهذه العمليَّة التي أجريناها تحصل حقيقة على بُرهان أنَّ العرْق ليس وحدة أنثرُوبُولُوجيَّة ؛ أيْ أنَّه لا يُوجد شعب واحد سليل زوج واحد مُشترك ، وإنَّه ولا أُمَّة من الأُمم هي مكوَّنة من اندماج خلايا مُتشابهة ، لكنْ ؛ بأيِّ حال من الأحوال ، لن نُبرهن أنَّه لا يُوجد شعب فرنسي أو شعب ألماني أو شعب إنكليزي ، إلخ . . إلخ . . . ولن نستطيع خَلْعه بما أنَّه يُوجد أدب إنكليزي وأدب فرنسي وأدب ألماني ، وكُلُّ الآداب المُختلفة تُعبِّر بطريقة مُختلفة عن المشاعر العامَّة ، هذا صحيح ، لكنَّ ردَّ الفعل الموضوعي والذّاتي ليس هُو نَفْسه حول مُختلف الأشخاص المعنيِّين ، مشاعر عامَّة في الطّبيعة الإنسانيَّة ، لكنَّ كُلَّ إنسان وكُلَّ مُجتمع إنسانيٍّ يشعر ويُعبِّر عنها بطريقة مُختلفة ، لقد رفضنا فكْرة أنثرُوبُولُوجيَّة العرْق ، فكْرة خطأ ، وهي تُخلِّف أسوء وُجهات النّظر ، وأكْرَهَ الأباطيل ، وأقلّها تبريراً ، فكْرة الأنثرُوبُولُوجيَّة هذه تسعى لصُنع من كُلِّ شعب تجمُّع مُتكبِّر وأناني ، لكنَّنا مُجبرون لمُشاهدة والاعتراف بوُجُود وحدات تاريخيَّة ؛ أيْ أُمم ، فنصنع فكْرة الأُمَّة بدل العرْق ، ويجدر القول إنَّ هذا القرن قد استقرَّ بمُعتقد الأُمم وفضَّلَهُ على مُعتقد العرْق الواحد .

ماذا تعني كلمة أُمَّة قوميَّة عامَّة؟ حسب ليتره **Lithré** القوميَّة هي "اجتماع بشر يقطنون نَفْس الأراضي ، ويخضعون - أوَّلاً - لنَفْس الحُكُومة ، ولهُم مُنذُ مُدَّة طويلة مصالح مُشتركة واحدة تقريباً ، لكنْ ؛ يُنظر إليهم وكأنَّهم ينتمون لنَفْس العرْق .

وضدَّ هذا التّعريف للقوميَّة يُقدِّم ليتره مقولة الشّعب : "كثافة من النّاس وحتَّى لو أنَّهم لا يسكنون نَفْس البلد ، لهُم نَفْس الدّيانة ، ونَفْس الأصل" ، أمَّا حسب مانسيني [237] ؛ فالقوميَّة هي "مُجتمع طبيعي لبشر مُتَّحدين في البلد والأصل والعادات واللُّغة وواعين لهذا المُجتمع" .

أمَّا بلوتشلي **Bluntsehli** [238] ؛ فيقول : نستطيع أنْ نُحدِّد الشّعب :

"اتِّحاد الرُّوح والشُّعُور والعرْق ؛ حيثُ أصبح ذلك وراثيَّاً في كتلة من البشر ، لهُم وظائف وطبقات مُختلفة ، كتلة إذا استثنينا منها الرّابط السِّياسي تشعر نَفْسها مُتَّحدة بالثّقافة والأصل ، وخاصَّة باللُّغة والعادات ، وغَيْريَّة بالنّسبة لغيرهم" .

---

(237) ماسيني نابولي 1873 .

(238) بلُونتشلي ، النّظريَّة العامَّة في الدّولة ، باريس 1891 .

أمَّا بالنّسبة للقوميَّة وبحسب بلونتشلي ؛ هي : "مُجتمع من البشـر مُتَّحـد ومُنظَّـم بشـكل دولة" ، ومثلما رأينا لا ينجحون بتفريق الشّعب عن القوميَّة إلاَّ بإدخال وحـدة الأراضـي مثـل ليترة ، أو وحدة الدّولة مثل بلونتشلي ؛ أيْ شيء خارجي فـوق الذيـن يُشَكّلون هـذا الشّعب وهذه القوميَّة ، والتي يُمكن في الواقع تحديدها .

ولنُلخِّص نُسمِّي ـ عادةً ـ أُمَّة تجمع من الأفراد لهم نَفْس العرْق والأرض واللُّغـة والدِّيـن والحُقُـوق والعـادات والتّقـاليد والذّهـن والمصير التّـاريخي المُشترك . ولقـد رأينـا أنَّ العـرْق الواحد ، العرْق الغريزي الفطري ـ أيْ العرْق الذي يعني نَفْـس الأصـل وصفـاء الـدّم ليـس إلاَّ وَهْماً ، ففكْرة العرْق ليست مُرتبطـة بـالضّرورة بمفـهوم القوميّـة ، والدّليـل علـى ذلـك هُـو أنَّ الباسك والبرُوتُون والبروفنسُو ولو أنَّ كونهم مُختلفين جداً أنثرُوبُولُوجياً ، فهُمْ ينتمون كُلُّهم إلى القوميَّة الفرنسيَّة ، أمَّا بالنّسبة لوحدة الأراضي ؛ فهي ليست ضروريّـة ، فـالبُولُونيُّون مثلاً ليس لهُم أراضي مُوحَّدة ، ومع ذلك ؛ يُوجد قوميَّـة بُولُونيَّـة ، كمـا أنَّ اللُّغـة ليسـت ضروريَّـة أيضاً ، ومثال على ذلك سويسرا والنّمسا وبلجيكا بلاد يتكلَّمون فيها عدَّة لُغات ، ولكنَّ هـذه البلاد عدا سويسرا مُنظَّمة فيدرالياً تسـمح لنـا أنْ نُؤكِّـد ـ علـى العكـس ـ أنَّ اللُّغـة هـي علامـة للقوميَّة ، بما أنَّ جميع الذين يتكلَّمون اللُّغـة نَفْسـها يسـعون للتّجمُّـع أو أنَّ لُغـة تسـعى لتسـود وإلغاء اللُّغات الأُخرى ، في الماضي كان الدِّين من أهمِّ القوى المُساهمة في تشكيل الشُّعُوب ، إنَّه من العسير علينا أنْ نتخيَّل ماذا تكون رُوما وأثينا أو أسبارطة إذا أهملنا الآلهة فـي الأولمب وفي الكابيتول ، كذلك الأمر في ممفيس ونيفين وبابل وأُورشليم .

وماذا يُصبح مُجتمع العُصُور الوُسْطى إذا ألغينا المسيحيَّة؟

فعْلُ الدِّين كان سائداً خلال قُرُون طويلة ، لكنْ ؛ لم يعد له سوى قوى مُحدَّدة مُنذُ عدَّة سنوات ، لكنْ ؛ فقط في بعض البُلدان مثل رُوسيا مثلاً ؛ حيثُ وحدة الإيمان مُلاحَقَـة ، وهـي عُنْصُر من عناصر الدُّسْتُور ، وضروريَّة للقوميَّة .

أمَّا في أماكن أُخرى ؛ فإنَّ تعدُّد الأديان أو المذاهب ليس عائقاً في سـبيل الوحـدة ، غير أنَّه من المُفضَّل أنْ نُضيف أنَّه في جميع بُلدان أُورُوبا كانت الدّيانـة الوحـدة الأُولـى المعروفـة ، وأنَّ جميع الدُّول وجميع الشُّعُوب الأُورُوبيَّـة واضعـين الإمبراطُوريَّـة العثمانيَّـة جانبـاً ، كـانوا دُولاً وشُعُوباً مسيحيَّة .

الإصلاح كان المجهود الوحدوي الدِّيني الأخير بعد الحُرُوب الدِّينيَّة، ورسائل التّسامح حدَّدت نهاية سيطرة العقائد على القوميَّات، إلاَّ أنَّ المسيحيَّة قد تركت بصمتها على العادات والتّقاليد والأخلاق والنَّفْسيَّة.

وبأيِّ طريقة كانت تحكم بها المبادئ، الغيب، الأخلاق، لقد كانت أحد أهمِّ العوامل في الأمم الأُورُوبيَّة والأفراد المُكوِّنة لها، هي الأساس المُشترك التي بُني عليها صُرُوح مُختلفة.

إنَّها إحدى الأفكار الأساسيَّة، والتي أُضيف إليها أفكار أُخرى عديدة، وطُوِّرت بشكل مُختلف، لكنَّنا نجدها في قواعد المُجتمعات الحديثة، فالمسيحيَّة كانت عُنْصُراً من العناصر الثّابتة في عقل مُختلف شُعُوب القارَّة الحديثة والقديمة، لكنْ؛ هي العادات والتّقاليد والفنُّ واللُّغة وأُلُوف الأفكار الخاصَّة التي تُبدعها في الأدب والفلسفة هي التي ميَّزت الشُّعُوب، وخلقت شخصيَّتها.

وما يجعل أنَّ هُناك تنافُراً بين الأشخاص أو اختلافاً في الأفراد هُو الأُسلُوب المُختلف الذي يُفسِّرون به الأفكار العامَّة والمُشتركة والأُسلُوب المُختلف أيضاً، الذي يتأثَّرون به والأحداث والطّريقة التي يُترجمونه بها.

وهكذا يكون الأمر في المُجتمعات، فهي مُكوَّنة من كائنات مُتنوِّعة؛ حيثُ كُلُّ فَرْد له رُوحه، هذا صحيح، لكنَّ الجميع يتبعون اتِّجاهات مُشتركة، ماذا ومَنْ يُعطي هذه الاتِّجاهات؟ إنَّها اللُّغة والعادات والتُّراث والمصالح والمصائر التّاريخيَّة المُشتركة لكُلِّ هذه الكائنات، ولكُلِّ هذا يجب أنْ نُضيف - كما يقول مانسيني - ضمير هذا المُجتمع، هذا الضّمير قد نما - ببُطء - خلال العُصُور، وعبر ألف صدمة خارجيَّة، وألف صراع داخلي، وفي اليوم الذي تعي فيه الأُمم لنَفْسها، في هذا اليوم - فقط - تحيا، وتكون أُمَّة، وهذا الضّمير الدّاعي عندما يُولَد يكون عُنْصُراً إضافيّاً للقوميَّة، بدُونه لا يُوجد قوميَّة: ، لكنْ؛ عندما يُوجد؛ فهُو يُؤثِّر - بدوره - على دماغ كُلِّ واحد، وهذا الوعي للقوميَّة المُتشكِّل أخيراً هُو الأخير الذي يزول عندما تزول الأرض والتّقاليد والعادات والدّيانة، وعندما يموت الأدب.

إذاً؛ يُوجد قوميَّات، يُمكن لهذه القوميَّات - أحياناً - أنْ تتشكَّل تحت ظلِّ نَفْس الحُكُومة، ومُمكن لها أنْ تخسر وطنها ولُغتها، لكنْ؛ طالما أنَّ هُناك وعياً لذاتها ولمُجتمعها

ولفكْرها ومصالحها، وظلّت تُمثِّل الشّكل الوَهْميَّ للعرْق، للسُّلالة، للأصل، لنقاء الدّم، وطالما أنَّ هذا الوعي لم يَزُلْ فإن الأُمَّة تستمرُّ (القوميَّة).

لنأخذ الآن اليهُودي، لقد رأينا أنَّه لا يُوجد كعرْق، ويقولون: (لم يَعُدْ هُناك شعب يهُوديٌّ، هُناك مجموعة يهُوديَّة مُتَّحدة بشكل حميم مع عرْق)[239] إنَّهم يُخطئون.

يبقى أنْ نتساءل ما إذا كان اليهُوديُّ جُزءاً من قوميَّة مُؤلَّفة من عناصر مُختلفة مثل كُلِّ القوميَّات، لكنْ؛ عنده نوع من الوحدة، فإذا وضعنا جانباً الفلاشا من أبيسيني، وبعض القبائل اليهُوديَّة البدويَّة غير المعروفة في إفريقيا، واليهُود السُّود في الهند، ويهُود الصّين، نجد إلى جانب الاختلافات والفرُوقات المُشار إليها سابقاً والتي تُميِّز هؤلاء اليهُود، هُناك - أيضاً - بينهم خُصُوصيَّات وشخصيَّة ونموذج مُشترك، فهؤلاء اليهُود عاشوا في بلاد مُتنافرة، وقد خضعوا لتأثيرات مناخيَّة مُتنوِّعة، وأُحيطوا بشُعُوب مُختلفة جداً: ما الذي جعلهم يتماسكون ويبقون كما هُمْ عليه حتَّى يومنا هذا؟ لماذا لم يبقوا إلاَّ كمذهب ديني؟ هذا يتأتَّى من ثلاثة أشياء: الأُولى مُتعلِّقة باليهُود: ديانتهم، والثّانيَّة هُمْ مسؤولون جُزئيَّاً عنها: ظُرُوفهم الاجتماعيَّة، والثّالثة هي خارجة عنهم: الظُّرُوف التي خضعوا لها، ليس هُناك من ديانة مثل الدّيانة اليهُوديَّة تكون الرُّوح والعقل.

جميع الأُمم - تقريباً - عندهم إلى جانب عقائدهم الدِّينيَّة، فلسفة وأخلاقيَّات، وأدب. بالنّسبة لإسرائيل كان الدِّين هُو في الوقت نَفْسه الأخلاق والغيب والأكثر من ذلك كان هُو القانون، لم يكن لليهُود استقلاليَّة رمزيَّة بالنّسبة لشَرْعهم، لا، كان لهم - فقط - بعد رُجُوعهم من الأَسْر الثّاني، يَهْوَه وشريعته غير مُنفصلَيْن الواحد عن الآخر.

لكي يكون الإنسان جُزءاً من الأُمَّة يجب عليه القبُول ليس - فقط - بإلهها، بل - أيضاً - بكُلِّ النّواهي الشّرْعيَّة التي تصدر عنه ولها صفة القُدسيَّة، لم يكن لليهُودي إلاَّ يَهْوَه، كان من المُحتمل أنْ يتلاشى وسط مُختلف الشُّعُوب التي استقبلته كما تلاشى الفينيقيُّون الذين لم يحملوا معهم سوى ملقارات، لكنَّ اليهُودي كان لديه شيء أفضل من إلهه، كان لديه التّوراة شريعته وهي التي حفظته، هذه الشّريعة التي لم يفقدها بفقدان أرض الأجداد، قوَّى

---

(239) آ- فرانك، دليل جمعيَّة الدّراسات اليهُوديَّة، السّنة الثّانية، مُحاضرة حول الدِّين والعلم في اليهُوديَّة.

من سُلطتها، طوَّرها، وزاد من قُوَّتها ونُفُوذها وفضيلتها، وعندما دُمِّرت أُورشليم أصبحت الشّريعة هي رابط إسرائيل، فعاشت لشريعتها وبشريعتها، هذه الشّريعة كانت مُفصَّلة ودقيقة، كانت التّعبير الأكمل عن الدّيانة الطَّقْسيَّة التي آلت إليها الدّيانة اليهُوديَّة تحت تأثير الأحبار، تأثير نستطيع أنْ نُواجهه مع رُوحانيَّة الأنبياء الذين أكمل يسُوع رسالتهم.

هذه الطُّقُوس التي كانت تتكهَّن لكُلِّ فعْل في الحياة، والتي عقَّدها التّلمُوديُّون إلى ما لا نهاية، هذه الطُّقُوس صنعت وقَوْلَبَتْ الدّماغ اليهُودي، وفي كُلِّ مكان وكُلِّ البلدان صنعته بنَفْس الطّريقة. فاليهُود، وإنْ كانوا مُشتَّتين مُفرَّقين كانوا يُفكِّرون بنَفْس الأُسلُوب، في إشبيليا وفي نيُو يورك، في انكون وفي راتيسون، في طروادة وفي براغ، كان لهم تجاه الأشخاص والأشياء نَفْس المشاعر ونَفْس الأفكار.

كانوا ينظرون بنَفْس النّظّارات، وكانوا يحكمون من خلال مبادئ مُتماثلة لا يستطيعون الابتعاد عنها، إذْ لا يُوجد في الشّريعة فرائض صغيرة وفرائض كبيرة، كُلُّ الفرائض لها قيمة مُتساوية بما أنَّها كُلّها صادرة عن الله. كُلُّ الذين جذبهم اليهُود إليهم كانوا مهووسين ومأخوذين بهذه الدّوَّامة التي تمزج العُقُول وتسكبها في قالب مُوحَّد، كذلك؛ فإنَّ الشّريعة خَلَقَتْ خُصُوصيَّات. هذه الخُصُوصيَّات كان ينقلها اليهُود لبعضهم، لأنَّها تُشكِّل اتِّحاداً في كُلِّ مكان، اتِّحاد مرصوص مُتماسك ومُنعزل جداً، حتَّى يتمكَّن من تنفيذ الفرائض الشَّرْعيَّة، ويكتسب ـ بذلك ـ قُوَّة أكثر على المُحافظة، بما أنَّها منيعة على التّغلغُل والاختراق.

والشّريعة لم تخلق ـ فقط ـ خُصُوصيَّات، بل خلقت نماذج نموذج نَفْسي ـ أخلاقي ونموذج فيزيائي. لقد تكلَّمنا عن النّموذج النَّفْسي، أمَّا النّموذج الفيزيائي؛ فهُو ناتج في بعض النّواحي عن النّموذج النَّفْسي. ونحنُ نعلم مقدار تأثير المُمارسات النَّفْسيَّة الذّهنيَّة على فيزيُولُوجيَّة الفَرْد. وعلى توجُّه هذه الصّفات، ونعرف أنَّ بعض الكائنات الذين يخضعون لنَفْس المهمَّات الفكْريَّة يكتسبون ملامحاً خاصَّة ومُتشابهة. فيتشكَّل تحت أعيننا نماذج مُحترفة، ونعرف تجارب غالتون حول خلق المزايا المُشتركة، وذلك بالفكْر المُشترك. فنموذج اليهُودي تشكَّل بطريقة مُماثلة للطّريقة التي تشكَّل بها نموذج الطّبيب والمُحامي، إلخ. . إلخ. . . نماذج خُلقت بحسب هُويَّة المهنة الاجتماعيَّة والنَّفْسيَّة. اليهُودي هُو نمط مذهبي (ديني) كما هُو، إنَّهما الشّريعة والتّلمُود اللّذان صنعاه. وهُما أقوى من الدّم أو التّقلُّبات

المناخيَّة، فقد نمَّيا فيه خاصيَّات ساهمت الوراثة والتّقليد في استمرارها. إلى هذه الطّبائع المذهبيَّة أُضيفت طبائع اجتماعيَّة.

لقد أشرنا إلى[240] أنَّ الدّور الذي لعبه اليهُودي خلال العُصُور الوُسْطى، وكيف أنَّ هُناك أسباباً داخليَّة وخارجيَّة مُتأتِّية من قوانين اقتصاديَّة ونَفْسيَّة دفعته ليُصبح ـ بشكل خاصٍّ ـ تاجراً، وخُصُوصاً تاجر ذهب في ذلك العصر؛ حيثُ كان رأس المال دائناً حتميَّاً ليُكون مُنتجاً. هذا الدّور كان عامّاً، فاليهُود لم يُمارسوه في بلدٍ واحد، بل في جميع البُلدان.

فأُضيف إلى اهتماماتهم الدِّينيَّة المُشتركة اهتمامات اجتماعيَّة مُشتركة. فاليهُودي كائن مُتديِّن، كان يُفكِّر بطريقة مُوحَّدة في كُلِّ مكان تواجد فيه. وكونه كائناً اجتماعيَّاً كان يُفكِّر بشكل مُتماثل. كذلك تشكَّلت خُصُوصيَّات أُخرى، انتشرت ـ أيضاً ـ خُصُوصيَّات كان تشكُّلها عامّاً ومُتزامناً عند جميع اليهُود، لكنَّ اليهُودي ـ رغم انعزاله ـ لم يكن وحيداً. فالشُّعُوب التي عاش فيما بينها أثَّرت عليه، وسبَّبت له تغييرات. فالوسط الطّبيعي ليس كُلَّ شيء للإنسان الذي يعيش في المُجتمع.

فعْلُهُ كبير بالتّأكيد، وقد يُمكن له ـ أحياناً ـ أنْ يُشَكِّل ويُكوِّن الأُمم[241] بشكل كبير. لكنْ؛ هُناك وسط اجتماعي فعْلُهُ لا يقلُّ أهمِّيَّة، وهذا الوسط مصنوع من القوانين والتّقاليد والعادات. فلو عاش اليهُود في أوساط اجتماعيَّة مُختلفة لكانوا ـ بدُون شَكٍّ ـ مُختلفين ذهنيَّاً وفيزيائيَّاً[242] أيضاً. لكنَّ هذا لم يحصل، فالوسط الاجتماعيُّ والسِّياسيُّ كان نَفْسه بالنّسبة لهم في كُلِّ مكان.

ففي إسبانيا وفرنسا وإيطاليا وألمانيا وبُولُونيا كان التّشريع ضدَّ اليهُود واحداً، إنَّه شيء مفهوم وواضح، بما أنَّ التّشريع في جميع هذه البُلدان كان مُلهماً من قِبَل الكنيسة. فخَضَعَ اليهُودي لنَفْس النّواهي، لنَفْس الحواجز التي أُقيمت في وجهه، وحُكِم بنَفْس القوانين. كان قد انعزل جانباً، ووضعوه جانباً. عمل جهده حتَّى يتميَّز من غيره، فميَّزوه من غيره.

---

(240) انظر الفصل السّابع.

(241) مثلاً؛ تحوُّل الأنكلو ـ ساكسُون في الولايات المُتَّحدة الأمريكيَّة، وتحوُّل الهُولنديِّين في التّرانسفال.

(242) إذا قلتُ إنَّ كُلَّ اليهُود مُتشابهين فيزيائيَّاً شكليَّاً أردتُ أنْ أقول ـ فقط ـ إنَّ الهيئة العامَّة التي هي مُشتركة فيما بينهم دُون أنْ أتعرَّض للفرُوقات التي أدرجتها.

انسحب وانعزل في مسكنه، ليستطيع أنْ يُمارس - بحُرِّيَّة - طُقُوسه، فعزلوه داخل المحاجر (Ghettos). وفي اليوم الذي سُجن فيه اليهُودي داخل يهُوديَّاته، في هذا اليوم بالذّات أصبح عنده أرض، وعاشت إسرائيل تماماً كشعب عنده وطن. فحافظت في حاراتها الخاصَّة على عاداتها وتقاليدها واعتياداتها المَدَنيَّة والمنقولة إليها بالتّربية، والتي تقودها في كُلِّ الأمكنة مبادئ ثابتة لا تتغيَّر.

فهذه التّربية لم تحفظ التُّراث فقط، بل حفظت اللُّغة أيضاً، فاليهُودي كان يتكلَّم لُغة البلد الذي يسكنه، لكنَّه لم يكن يتكلَّمها، إلاَّ أنَّها كانت ضروريَّة لأعماله. أمَّا عندما يعود لمنزله؛ كان يستخدم العبريَّة السَّيِّئة أو لهجة كانت في أساسها العبريَّة، أمَّا عندما كان يكتب؛ فكان يكتب بالعبريَّة، والتّوراة والتّلمُود لم يكونا الأدب الوحيد العبراني.

كان الإنتاج الأدبي في القُرُون الثّامن حتَّى الخامس عشر غزيراً جداً. كان هُناك شعر عبريٌّ حديثٌ، أشعار كَنَسيَّة كانت غزيرة جداً ولامعة جداً في إسبانيا[243]. كان هُناك فلسفة دينيَّة يهُوديَّة وُلدت في مصر مع سعديا، وطوَّرها - لاحقاً - ابن جُبير وابن ميمُون. وكان هُناك لاهوتاً يهُودياً مع جُوزف البو ويهُوذا ليفيتا، وغيبيَّات يهُوديَّة أصبحت (القابالاة) (علم باطن التّوراة)، فهذا الأدب وهذه الفلسفة وهذا اللاَّهوت وهذا الغيب كان هُو الصّالح العامّ للإسرائيليِّين في جميع البلاد حتَّى الزّمن الذي سعت فيه جُهُود الحاخامين المُظلمة لإغلاق آذانهم وأعينهم حتَّى هذا الزمن، نهل ذهنهم من نَفْس المصادر، فكَّروا بنَفْس الأفكار، وحلموا ذات الأحلام، وفرحوا بنَفْس الإيقاعات ونَفْس الشّعر، كما أنَّ نَفْس الاهتمامات كانت تُقلقهم، وشعروا بنَفْس المشاعر، كُلُّ ذلك بنى ذهنهم بصورة مُتوازية، هذا الذّهن اليهُودي المُكوَّن من ألف عنْصُر مُختلف، لكنَّه لم يكن مُختلفاً أبداً، على الأقلِّ؛ في مُيُوله العامَّة عن الذّهن اليهُودي القديم؛ إذْ إنَّ الذين ساهموا في توليده كانوا قد تغذّوا بالشّريعة القديمة.

إذاً؛ كُلُّ اليهُود كان لهم ديانة تقاليد عادات طبائع مُتوازية خضعوا لنَفْس القوانين المَدنيَّة والدِّينيَّة وأخلاقيَّة كانت أو جازرة: عاشوا في ظُرُوف مُتماثلة، كان لديهم في كُلِّ مدينة أرض كمملكة يتكلَّمون نَفْس اللُّغة، ويتمتَّعون بنَفْس الأدب، ويتأمَّلون نَفْس الأفكار؛

---

(243) انظر "مونك" "MUNK" من الشّعر العبري بعد التّوراة في زمن 19 يناير 1835، وأعمال زونر، تقرير أبراهام غايغر، انظر - أيضاً - تاريخ اليهُود في إسبانيا لأمادور دي لوس ريوس، (1875).

أفكار ثابتة وقديمة جداً، هذا كُلُّه كان كافياً لتشكيل أُمَّة ـ قوميَّة، وكان عندهم ما هُو أفضل؛ هُو وعيهم، إنَّهم أُمَّة، ولأنَّهم لم يتوقَّفوا أبداً عن كونهم وحدة عندما غادروا فلسطين في القُرُون الأُولى قبل العهد المسيحي، كان هُناك ـ دوماً ـ رابطٌ يربطهم بأُورشليم.

عندما احترقت أُورشليم في اللّهب كان لهم حاخامات المنفى و**nassis** و الـ **Gaons** وكان لهم مدارسهم وأحبارهم ومدارس وبابل ومدارس فلسطين، ثُمَّ مدارس مصر، وأخيراً؛ مدارس إسبانيا وفرنسا. فالسّلسة التُّراثية لم تنقطع أبداً.

كما كانوا يعتبرون نَفْسهم ـ دوماً ـ في المنفى، ويحلمون دوماً؛ أيْ كان هذا الحلم يُداعب مُخيَّلتهم، وهُو إعادة إنشاء مملكة اليهُود على الأرض.

وكانوا في كُلِّ عام عشيَّة عيد الفصح يُرتِّلون من أعماق كيانهم ثلاث مرَّات هذه الجُملة المُقدَّسة: «ليشانا أبا أُورشليم» أيْ السّنة القادمة في أُورشليم، حافظوا على وطنيَّتهم القديمة الشُّوفينيَّة؛ أيْ المُتطرِّفة حتَّى، وكانوا ينظرون إلى أنفسهم على أنَّهم الشّعب المُختار المُتفوِّق على كُلِّ الشُّعُوب، وذلك رغم الكوارث والنّكبات والإذلال والاستعباد، وهذه هي طبائع وخصائص كُلِّ الشُّعُوب المُتطرِّفة وطنيّاً؛ مثل الألمان والفرنسيِّيْن والإنكليز الحاليِّيْن.

في فترة من الفترات في بداية العُصُور الوُسْطى كان اليهُودي في الواقع مُتفوِّقاً: لأنَّه أتى إلى وسط برابرة أطفال، وهُو وريث حضارة قديمة، يملك أدباً وفلسفة، وخُصُوصاً تجربة مُفيدة أعطته دَفْعاً إلى الأمام.

فَقَدَ هذا التَّفوُّق، وفي القرن الرّابع عشر نَفْسه أصبح ذا ثقافة مُنحطَّة بالنّسبة للثّقافة العامَّة للطّبقة المُماثلة له، لكنَّه احتفظ ـ بتأنٍّ ـ بفكْرة أولويَّته، واستمرَّ بالنَّظَر بعين الاحتقار والازدراء إلى جميع الذين هُمْ خارجون عن شريعته، فكتابة التّلمُود المليء بالوطنيَّة الضَّيِّقة والشّرسة كانت تُعلِّمه ذلك، اتُّهِم هذا الكتاب بأنَّه غير اجتماعي، وهُناك حقيقة في هذا الاتِّهام، وزعموا أنَّه العمل الشَّرْعي والأخلاقي الأكثر سُوءاً، لكنْ؛ هُنا أخطؤوا لأنَّه ليس الأسوأ من جميع القوانين الخُصُوصيَّة والقوميَّة، فإذا كان هُو غير اجتماعي أو ضدَّ المُجتمع، ذلك لأنَّه مثَّل ويُمثِّل ذهنيَّة مُختلفة عن القوانين السّائدة في البلاد التي يسكنها اليهُود، وأنَّ اليهُود أرادوا أنْ يتبعوا نظامهم قبل أنْ يتبعوا للقانون الذي يخضع له كُلُّ فَرْد من أفراد

المُجتمع، فهُو لم يكن ضدَّ المُجتمع إلاَّ بشكل نسبي، لأنَّ القانون لم يكن دوماً واحداً، ولا العادات كانت ثابتة في جميع أجزاء الدُّول، ففي فترة من فترات التّاريخ ظهر وكأنَّه ضدَّ البشريَّة أو غير إنساني حتماً، بما أنَّ كُلَّ شيء يتغيَّر، وهُو بقي ساكناً كيتيم.

فمُناهضو السَّاميَّة المسيحيُّون أظهروا رُعُونتهم؛ لأنَّ هذه الرُّعُونة كانت تُزعجهم مُباشرة، لكنَّ الحاخام رابي يُوشاع قال: (أَفْضَلُ واحد من الغوييم "أيْ الغريب!" اقتله!!) فهُو لم يكن أشرس من سان لوي الذي كان يعتقد أنَّ أفضل طريقة للمُناقشة مع اليهُودي هُو أنْ تضرب الخنجر في بطنه، أو ما كتبه البابا أوربان الثّالث: (مسموح لجميع النّاس أنْ يقتلوا محروماً (خارج عن الكنيسة) عندما يفعله بدافع الدّفاع عن الكنيسة).

يجب ـ أيضاً ـ أنْ ننتبه لشيء؛ هُناك بعض اليهُود الحديثين وبعض مُحبِّي السَّاميَّة رفضوا ـ باستنكار هذه الحكم ـ وهذه الحقائق التي كانت قوميَّة، وشتم الغريب كانت مُوجَّهة للرُّومان والهيلِّينيِّين واليهُود المُرتدِّين، ولكنْ؛ لم يقصدوا بها، ولم يُوجِّهوها للمسيحيِّين أبداً، في هذا التّوكيد يُوجد شيء كثير من الحقيقة، وشيء من الخطأ أيضاً، في الواقع؛ عندما هُدِّدَت القوميَّة اليهُوديَّة وعندما حارب الذّهنُ اليُوناني الذّهنَ اليهُودي وعندما هدَّد التَّأثيرُ الهيلِّيني بأنْ يُصبح سائداً في ذلك الزّمن بالذّات يعود جُزء من النّواهي ضدَّ الأجانب نواهي وأوامر كانت من صُنع اليهُود المُدافعين عن الرُّوح القوميَّة.

أمَّا لاحقاً، وخلال الحُرُوب الرُّومانيَّة؛ أصبحت اللّعنات أقسى ضدَّ القامع الطّاغي، كان كُلُّ شيء مسموحاً، حتَّى إنَّهم سمحوا بكُلِّ أنواع العُنف، وكُلّ البُغض صار التّلمُود صدىً لهذه المشاعر، فسجَّل الوصايا والإرشادات وجعلها مُستمرَّة، وعندما حُوربت اليهُوديَّة من قبَل المسيحيَّة النّاشئة انصبَّ غضب القَتَلَة المُستأجَرون والوطنيُّون والوَرعُون على اليهُود الذين ينقلبون على دينهم؛ أيْ المُرتدُّون: المنيُّون.

فبخيانة الإيمان القومي، إنَّهم يخونون الكفاح ضدَّ رُوما وضدَّ الخارج، فكانوا خَوَنَة لوطنهم ودينهم اليهُودي، فكانوا يهربون من نضال حيويٍّ لليهُود، مُلتفُّون حول كنائسهم الجديدة، كانوا ينظرون ـ بعدم اكتراث ـ إلى انهيار مجد الأُمَّة واستقلالها، فهُمْ ليسوا ـ فقط ـ لا يناضلون ضدَّ الذّئبة، بل ـ أيضاً ـ كانوا يُغضِبون ويستثيرون ويُحبطون شجاعة الذين

يسمعونهم ضدَّ اللاَّوطنيِّين، كُتبت كلمات اللَّعنات، فوضعهم اليهُود خارج الحُقُوق المَدَنيَّة في مُجتمعهم، وصار مُباحاً قَتْلهم، كما أنَّه كان مُباحاً أنْ يقتل أفضل الغرباء، في فترات الصّراع الوطني عند جميع الأُمم نجد مثل هذه النّصائح المُشابهة واستدعاء الخبرات والدّعوات للسّلاح في المنابر ولكُلِّ الأعمار فيها جُملاً وصيغاً بهذه الفظاعة.

عندما احتاج الفرنسيُّون البالاتينه **Le Palatina** مثلاً؛ فكان من المُؤكَّد أنْ تكون قاعدة للألمان، أو حتَّى واجباً القول: (أفضل الفرنسيِّين اقتلْهُ)، كذلك الأمر عندما دخل الألمان إلى فرنسا كان دور الفرنسيِّين أنْ يقولوا: (أفضل الألمان اقتلْهُ)، إنَّها الحرب المُتوحِّشة القذرة هي التي تُولِّد مثل هذه المشاعر، وكُلَّما استفاقت الرُّوح المُحاربة بفعْل الظُّرُوف ظهرت الوحشيَّة الإنسانيَّة إلى الوُجُود، يقولون - أيضاً - إنَّه عند اليهُود لا تُمثِّل هذه النّصائح إلاَّ آراء شخصيَّة، لكنَّنا نجد - إلى جانبها - صيغاً أخلاقيَّة إنسانيَّة وأخويَّة ورحيمة، تماماً كالصّيغ المسيحيَّة، هذا صحيح ودقيق.

وفي ذهن الآباء الذين كتبوا هذه العبر مجموعة في البيركة آفوت[244] هذه الحِكَم الإنسانية كان لها معنى عامّ، لكنَّ يهُودي العُصُور الوُسْطى الذي وجدها في كتابه نَسَبَ لها معنى محصوراً وضيِّقاً، فطبَّق معناها على أفراد أُمَّته، لماذا؟ لأنَّ هذا الكتاب (التّلمُود) يحتوي - أيضاً - على إرشادات أنانيَّة شرسة وقوميَّة مُوجَّهة ضدَّ الأجانب الغُرباء، وهي محفوظة في هذا الكتاب ذي السُّلطة الواسعة.

في هذا التّلمُود الذي كان لليهُود شَرْعة ونظام، التي هي تعبير عن قوميَّتهم، شَرْعة كانت بمثابة رُوحهم، وهذه الإثباتات والنّواهي، وإنْ كانت قاسية أو ضيِّقة، اكتسبت قُوَّة، وإنْ لم تكن شَرْعيَّة، فهي قُوَّة نَفسيَّة، فاليهُودي الذي قابلها أعطاها قيمة دائمة، فهُو لم يطبِّقها - فقط - على أعدائه اليُونان والرُّومان والمينيِّين، بل طبَّقها على الأعداء كُلِّهم، وجعل منها قاعدة عامَّة تجاه الغرباء عن عقيدته، عن شريعته، وعن مُعتقداته، وقد أتى يوم لم يكن فيه لليهُودي من عدوٍّ إلاَّ واحداً فقط: هُو المسيحي الذي كان يضطهده، ويُلاحقه، ويقتله، ويحرقه، ويُضحِّي به، فهُو - إذاً - لم يكن ليستطيع أنْ يشعر تجاه المسيحي بشُعُور دافئ

---

(244) بيركيه آفوت (بحث المبادئ) مع ترجمة فرنسيَّة ومُلاحظات لـ كريهانج (باريس دورلاشه).

وحنون، طالما أنَّ كُلَّ جُهُود هذا المسيحي كانت رامية إلى تدمير اليهُوديَّة، وإلغاء هذه الدّيانة التي كانت قد أصبحت الوطن اليهُودي.

فغريب (ماشابه **Machabeés**) وميني الأحبار أصبح المسيحي، وضدَّه تُطبَّق كُلُّ ألفاظ الحقد والغضب واليأس الثّائر الموجود في هذا الكتاب، وبالنّسبة للمسيحي؛ كان اليهُودي الكائنَ الدّنيء، أمَّا بالنّسبة لليهُودي؛ فكان المسيحيُّ (**Goim**) الغريبَ الحقيرَ الذي لا يخشى الدّنس، يُسيء مُعاملة الشّعب المُختار، والذي به يتألَّم يهُوذا.

وهذه الكلمة الغُوييم **Goim** تحتوي كُلِّ الغضب والاحتقار، وكُلَّ البُغض في اليهُوديَّة المُضطهدة ضدَّ الغريب، وشراسة اليهُودي هذا تجاه يهُودي، هي من الأشياء التي تدلُّ بأفضل ما يكون عن مُدَّة قُوَّة ونشاط الفكْرة القوميَّة عند أبناء يعقُوب؛ فكانوا يعتقدون، واعتقدوا دوماً، أنَّهم يُكوِّنون شعباً، هل يعتقدون ذلك اليوم؟!..

إنَّ الفكْرة القوميَّة ماتزال حيَّة كما كانت في العُصُور الوُسْطى، وذلك بين اليهُود الذين يتلقَّون التّربية التّلمُوديَّة، وهُمْ أغلبيَّة اليهُود، وفي رُوسيا، وبُولُونيا، وغاليسيا، وهنغاريا، وبُوهيميا، وفي الشّرق، إنَّهم يُشكِّلون شعباً وحده حتَّى اليوم، شعباً ثابتاً وصلباً، ممهوراً بالطُّقُوس المُتَّبَعَة بوَرَع ودقَّة، وبالعادات الثّابتة، والتّقاليد العدائيَّة لكُلِّ جديد، ولكُلِّ تغيير، وثائرة ضدَّ كُلِّ الجُهُود التي تُحاول إخراجها من التّلمُود.

في عام **1854**، بعض الحاخامات حرَّموا المدارس الشّرقيَّة التي أسَّسها يهُود فرنسيُّون؛ حيثُ تُدرَّس العُلُوم المَدَنيَّة الدُّنيويَّة، وفي عام **1856**، وفي أُورشليم؛ أطلقوا التّحريم ضدَّ المدرسة التي أسَّسها الدُّكتُور فرانكل، وفي رُوسيا، وغاليسيا؛ هُناك فِرَقٌ وطوائف مثل الحسيديم الجُدُد تصورَّوا، وحاربوا كُلَّ المُحاولات المبذولة لتمدين اليهُود، في جميع هذه البُلدان - هُناك - أقلِّيَّة - فقط - هربت من الذّهن التّلمُودي، لكنَّ الكتلة الشّعبيَّة استمرَّت في عزلتها، ومهما كبر انحطاطها وتدهوُرها، فهي تعتقد - دوماً - أنَّها الشّعب المُختار، الأُمَّة المُقدَّسة.

أمَّا النُّفُور والبُغض وعدم التّسامح تجاه الأجنبي؛ فقد اختفوا عند اليهُود الغربيِّين ويهُود فرنسا وإنكلترا وإيطاليا وجُزء كبير من يهُود ألمانيا[245]. فلم يَعُدْ هؤلاء اليهُود يقرؤون التّلمُود

---

(245) أضع جانباً يهُود المُقاطعات البُولُونيَّة في ألمانيا.

والأخلاقيَّة التّلمُوديَّة، أو على الأقلِّ؛ الأخلاقيَّة القوميَّة للتّلمُود لم يَعُدْ لها سُلطان عليهم. فلم يعودوا يتبعون، ولا يتمسَّكون بالسّتُّمائة وثلاثة عشر قانوناً، وفقدوا اشمئزازهم من الدّنس، اشمئزازاً احتفظ به اليهُود الشّرقيُّون، والأغلبيَّة لا تعرف العبريَّة، ونسوا معنى الاحتفالات القديمة. لقد حوَّلوا اليهُوديَّة الحاخاميَّة إلى عقلانيَّة دينيَّة.

ولقد تركوا القواعد العائليَّة، ومُمارسة الدِّين انحصرت - بالنّسبة لهم - إلى تضحية بضع ساعات في السّنة داخل الكنيس، يستمعون إلى تراتيل لم يعودوا يسمعونها. فهُمْ لا يستطيعون أنْ يرتبطوا بعقيدة ولا برمز؛ فهُمْ ليس عندهم ذلك. بتَرْكهم المُمارسات التّلمُوديَّة أهملوا ما كان يُساوي وحدتهم، وما كان يبني ذهنهم.

لقد بنى التّلمُود الأُمَّة اليهُوديَّة بعد تشتُّتها، بفضله؛ شكَّل الأفراد من أُصُول مُختلفة شعباً. فهُو كان قالب الرُّوح اليهُوديَّة وخالق العِرْق. هُو والقوانين النّاهيَّة في المُجتمعات كوَّنوا الشّخصيَّة اليهُوديَّة. أُلغيت التّشريعات، وأُهمل التّلمُود، وكُرِه. يبدو أنَّ الأُمَّة اليهُوديَّة سوف تموت حتماً، لكنْ؛ مع ذلك؛ مايزال اليهُود الغربيُّون يهُوداً.

إنَّهم يهُود؛ لأنَّهم حافظوا على وعيهم القومي نابضاً ومُتوقِّداً، يعتقدون - دوماً - أنَّهم أُمَّة، لذلك؛ فهُمْ يحفظون أنفسهم. عندما يتوقَّف اليهُودي عن امتلاء الوعي القومي فهُو يزول. ومادام يمتلك هذا الوعي، فهُو يستمرُّ.

فهُو فَقَدَ الإيمان الدِّيني، لم يعد يُمارَس أبداً، هُو لا ديني، ومُلحد أحياناً، لكنَّه يستمرُّ؛ لأنَّه يُؤمن بعِرْقه. لقد حافظ على كبريائه القوميَّة، ويتصوَّر نَفْسه - دوماً - شخصيَّة عالية مُتفوِّقة، كائناً مُختلفاً عن الذين يُحيطون به، وهذا المُعتقد، وهذه القناعة، يمنعانه من الانصهار؛ إذْ بما أنَّه مُتميِّز وفريد من نوعه، فهُو يرفض - عامَّةً - أنْ يختلط بالزّواج من الشُّعُوب المُحيطة به. تدَّعي اليهُوديَّة الحديثة أنَّها ليست إلاَّ مذهباً دينيَّاً، لكنَّه - في الواقع - حالة إثنيَّة؛ لأنَّه يعتقد بها، مُحتفظاً بآرائه السَّلَفيَّة وأنانيَّته وتفاهته كشعب، فمُعتقد وآراء مُسبقةٌ سَلَفيَّة، أنانيَّة وتفاهة، يجعلونه يظهر كغريب وسط الشُّعُوب التي يعيش في ظهرانيها، وهُنا نُلامس أحد أعمق الأسباب لُمناهضة السَّاميَّة.

فاللاَّساميَّة هي إحدى الطُّرُق التي يظهر فيها مبدأ القوميَّات.

ما هي مسألة القوميَّات؟ "نفهم من ذلك أنَّها هذه الحركة التي تحمل بعض الشُّعُوب التي لها الأصل نَفْسه واللُّغة نَفْسها، لكنَّها في دُول مُختلفة، إلى الاتِّحاد لتكوين هيئة سياسيَّة واحدة وأُمَّة واحدة".(246)

ففي الوقت نَفْسه الذي أعلنت فيه الثّورة حُقُوق الشُّعُوب، فهي قلبت المفهوم القديم السُّلطوي والمَلَكي الذي كانت مبنيَّة عليه الأُمم. فالأراضي التي كانت سابقاً ملكاً، وخاصَّة المُلُوك أصبحت ملك الشُّعُوب التي تسكنها. فالحُكُومة المَلَكيَّة كانت - بحَدِّ ذاتها - تُشكِّل الوحدة القوميَّة، أمَّا الحُكُومة التّمثيليَّة الدُّسْتُوريَّة؛ وضعت وحدتها موضعاً آخر: في مُتَّحد الأصل، مُتَّحد اللُّغة. وكون الرّابط الاصطناعي قد انفكَّ، فبحثوا - عندئذ - عن الرّابط الطّبيعي.

فكان هُناك جهد من قبَل الأُمم لاكتساب شخصيَّة: توجَّهت كُلُّها نحو الوحدة التي تنقصها. وفي عام **1840**، خُصُوصاً، ظهرت الأفكار القوميَّة، وبدأت عملها، وبها تأسَّست أُورُوبا المُعاصرة. نظريَّة الدّولة القوميَّة أفرزها العُلماء والمُؤرِّخون والفلاسفة والشُّعراء في عصر بأكمله. "كُلُّ شعب مَدْعوٌّ لتشكيل دولة، له الحقُّ أنْ يتكوَّن بدولة. البشريَّة تنقسم إلى شعُوب، والعالم يجب أنْ ينقسم إلى دُول مُناسبة لذلك. "كُلَّ شعب هُو دولة، وكُلُّ دولة هي شخصيَّة قوميَّة".(247)

هذه النّظريَّة، وهذه الأفكار، أصبحت القوى النّافذة والتي لا تُقاوَم. هي التي أدَّت إلى وحدة ألمانيا وإيطاليا، وكانت أسباب الانضماميَّة. وهي - أيضاً - التي ولَّدت الانفصال في إيرلندة والنّمسا التي سبقت الصّراع بين المجر والسّلاف، وبين التّشيك والألمان. وعلى هذه الأفكار القوميَّة؛ ارتكزت - وترتكز - رُوسيا وألمانية لتكوين إمبراطُوريَّاتهم الألمانيَّة والسّلافيَّة، أوليست الألمانيَّة والسّلافيَّة هي التي تُحرِّك أُورُوبا الشّرقيَّة، وتُثيرها؟! أوليس بالبعيدة أو بالقريبة تتعلَّق مصائر هذه المنطقة من أُورُوبا؟

لا نستطيع - هُنا - أنْ نُناقش شَرْعيَّة أو عدم شَرْعيَّة هذه الحركة. يكفي لما يهمُّنا أنْ نُلاحظ الوُجُود. كيف تُترجم الشُّعُوب هذا الميل إلى الوحدة؟ بطريقتَيْن: بتوحيد الأفراد

(**246**) لافيلي، الحُكُومة في الدِّيمُقراطيَّة، باريس **1891**.

(**247**) بلوتشلي، نظريَّة عامَّة في الدّولة، ص **84**.

الذين يتكلَّمون لُغة قوميَّة، وذلك تحت الحُكُومة نَفْسها، أو بتوحيد العناصر غير المُتجانسة التي تتعايش في الأُمَّة، وذلك لمصلحة عُنْصُر من هذه العناصر، الذي يُصبح سائداً، والذي تُصبح خصائصه ـ مُنذُئذٍ ـ خصائص قوميَّة.

وبذلك؛ جهد الألمان لاستيعاب الألزاس والبُولُون. كما أنَّ الرُّوس أجبروا البُولُونيِّيْن على فَتْح جامعات رُوسيَّة، والتي تُجرِّدهم من قوميَّتهم. في النّمسا؛ يُحاول الألمان امتصاص التّشيك. في هنغاريا؛ "سحبوا، وأخذوا ـ عنوة ـ الأيتام السّلوفاك من البلد؛ حيثُ تُحكى لُغتهم، ونُقِلوا إلى مُتَّحدات مجريَّة"[248]. فإذا لم تترك نَفْسها هذه العناصر المُختلفة لتُمتصَّ، سوف يكون صراع، وصراع ـ غالباً ـ عنيف، ويتجلَّى بطُرُق عدَّة: من الاضطهاد حتَّى الطَّرْد (التّهجير).

ففي وسط جميع الأُمم الأُورُوبيَّة يعيش اليهُود كمُتَّحد مذهبيٍّ مُؤمن بقوميَّته، مُحتفظاً بنمط خاصٍّ، وكفاءات نوعيَّة وذهنيَّة خاصَّة بهم. فالأُمم ـ بكفاحها ضدّ العناصر المُتغايرة التي كانت تحتويها ـ انساقت إلى الكفاح ضدَّ اليهُود. ومُناهضة السَّاميَّة كانت إحدى مظاهر هذا الجهد الذي قامت به الشُّعُوب لإذابة الشّخصيَّات الغريبة.

ولإذابة هذه الشّخصيَّات الغريبة يجب إمَّا امتصاصهم أو إزالتهم، وعمليَّة التّحويل الاجتماعي أو الإذابة (الامتصاص) ليست مُختلفة بشيء عن عمليَّة الإذابة الفيزيُولُوجيَّة.

في البدء؛ عندما كانت العصابات البشريَّة المُتنافرة تُغطِّي الكُرة الأرضيَّة كانت تُكافح من أجل البقاء، وكانوا يعتقدون أنَّهم لن يتمكَّنوا من التّطوُّر والتّكاثُر إلاَّ بإلغاء الغريب الذي يتعايش (إلى جوانبهم، في ظهرانيهم)، فأكَلَةُ لُحُوم البشر هي في الدّرجة الأُولى من الإلغاء. وعندما تشكَّلت الأُمم من الانصهار والتّجانُس للقبائل المُتغايرة حاولت امتصاص الغريب، مع أنَّ الميل للإلغاء استمرَّ دوماً. والمُجتمعات البدائيَّة ـ بوُصُولها إلى درجة مُعيَّنة من التّطوُّر ـ اتَّجهت نحو الانعزال والتّميُّز والبُغض المُتبادَل. فكون السّمات القوميَّة في طور التّشكُّل حاولوا تفادي التّصادُم والتّلوُّث. والتّميز كان ضروريَّاً لبعض الوقت لتكوين الأنماط، وعندما بُنيت هذه الأنماط بشكل صلب وقويٍّ، أصبح من المُفيد إضافة خلايا

---

(248) نوفيكُو، الصّراعات بين المُجتمعات الإنسانيَّة، باريس 1893.

جديدة إلى المجموعة الأوَّليَّة، وذلك تحت طائلة رُؤية هذه المجموعة تتبلور، وتتجمَّد كما حصل في بعض الحالات.

سمحوا - إذاً - للغريب الدُّخُول إلى الأُمَّة، لكنْ؛ سمحوا له مع احتياطات كبيرة، مُحيطين التّجنيس والتَّبنِّي بألف قانون، والذي أراد أنْ يبقى غريباً في المُجتمع أُخضع لقوانين ونواهي مُزعجة جدّاً. كانت القوانين قاسية جدّاً للذين لم يكونوا قوميِّيْن. اتُّهمت الشّريعة اليهُوديَّة أنَّها كانت عديمة الرّحمة مع غير اليهُود، لكنَّ القانون الرُّوماني لم يكن حنوناً مع غير الرُّومان؛ الذين كانوا بدُون حُقُوق مثل غير اليُونانيِّيْن في أثينا وأسبارطة، واليوم - أيضاً - (التّمييز) العصبيَّة والأنانيَّة القوميَّة تتجلَّى بالطّريقة نَفْسها. ولا تزال نابضة كالعصبيَّة والأنانيَّة العائليَّة، التي هي ليست إلاَّ امتدادها. ونستطيع أنْ نُلاحظ أنَّه مع نوع من التّراجع، فهي في الوقت الحالي تتثبَّت، وتتمكَّن بقُوَّة أكبر. كُلُّ شعب يبدو أنَّه يُريد أنْ يرفع من حوله جدار الصّين، فيتكلَّمون عن إرث قوميٍّ، الرُّوح القوميَّة، العقل القومي، وكلمة **Hôte** ضيف، تستعيد في حضاراتنا المُعاصرة المعنى نَفْسه الذي اكتسبته في الحُقُوق الرُّومانيَّة: معنى **hostis**؛ أيْ عدوّ. فيجدون بكُلِّ الطُّرق الحُقُوق الاقتصاديَّة، والحُقُوق السِّياسيَّة للمُهاجر. ويعترضون - بشدَّة - على الهجرات، ويطردون الأجانب، حتَّى إذا أصبح عددهم كبيراً. ويعتبرونهم خطراً على الثّقافة القوميَّة التي يُغيِّرونها. ولا ينتبهون أنَّه - بذلك - يُحيون مناخ حياة لهذه الثّقافة. ذلك أنَّنا نعيش مرحلة تغييرات، والمُستقبل لا ينفتح جيِّداً وبوُضُوح أمام الشُّعُوب. كثير من النّاس قلقُون من المُستقبل، فهُمْ مُتعلِّقون بالعادات القديمة، فهُمْ يرون في كُلِّ تحوُّل موت المُجتمع الذين هُمْ جُزء منه، وبما أنَّهم مُحافظون، فهُمْ ضدَّ هذا التّحوُّل، ويكرهون - بشدَّة وعُمق - كُلَّ ما هُو قابل لأنْ يُؤدِّي إلى هذا التّغيير، وإلى كُلِّ ما هُو مُختلف عنهم، وهذا يعني الغريب.

ولهذه الأنانيَّة القوميَّة وهذه التّعصُّبات ظهر اليهُود وكأنَّهم خطر؛ لأنَّهم شعروا أنَّ هؤلاء اليهُود كانوا - ومايزالون - شعباً، شعباً لا تتّفق ذهنيَّته مع الذّهنيَّة القوميَّة، وحيثُ تتعارض مبادئه مع مبادئ المجموع القومي الاجتماعي والأخلاقي والنَّفْسي والفكْري؛ أيْ الذي يُؤلِّف القوميَّة. كذلك؛ أصبحت العصبيَّات مُناهضة للسَّاميَّة؛ لأنَّهم كانوا يستطيعون أنْ يلوموا

اليهُود، وينتقدون عصبيَّتهم التي هي مُتصلِّبة مثلهم، وكُلُّ جهد مُناهض للسَّاميَّة يُحاول ـ كما رأينا ـ إلى إعادة القوانين القديمة[249] التي تحدُّ من حقُوق اليهُود المُعتبرين كغُرباء أجانب.

وهكذا؛ يتحقَّق هذا التّناقض الأساسي والمُستمرُّ لمُناهضة السَّاميَّة القوميَّة؛ لأنَّ اليهُودي لم ينصهر، ولم يتوقَّف عن كونه شعباً، لذلك؛ وُلدت مُناهضة السَّاميَّة في المُجتمعات الحديثة، لكنَّها عندما تأكَّدت أنَّ اليهُودي لم ينصهر انتقدته بعُنف، واتَّخذت ـ عندما كانت تستطيع ـ كُلَّ الإجراءات اللاَّزمة لتمنع انصهاره المُستقبلي.

غير أنَّه إلى جانب هذه المُيُول القوميَّة هُناك مُيُول مُعاكسة ومُتعارضة معها، ففوق القوميَّات هُناك البشريَّة، وهذه البشريَّة المُجزَّأة في بداياتها، والمُؤلَّفة من أُلُوف القبائل المُتناحرة، والتي تلتهم بعضها البعض، هذه البشريَّة أصبحت مُتجانسة، الشُّعُوب المُتنوِّعة تمتلك الأُسس نَفْسها رغم اختلافها، وفوق كُلِّ الضّمائر القوميَّة تشكَّل ضمير عامٌّ، كان في الماضي حضارات، أمَّا الآن؛ فنحنُ نسير نحو حضارة واحدة.

في الماضي؛ تعادت أثينا ضدَّ جارتها أسبارطة، أمَّا الآن؛ ولو استمرَّت الفرُوقات بين الأُمم؛ إنَّما التّشابهات تقوى وتزيد وتتعمَّق، تماماً كما أنَّ فَرْداً في أُمَّة ما يمتلك إلى جانب صفاته الخاصَّة والتي تُكوِّن رُوحه وشخصيَّته صفات عامَّة هي صفات الذين يتكلَّمون اللُّغة نَفْسها ولهم المصالح نَفْسها التي له، كذلك البشريَّة؛ فهي تكتسب طبائع مُتشابهة مع أنَّ كُلَّ أُمَّة تحتفظ بشخصيَّتها، وأصبحت العلاقات بين الشُّعُوب كثيفة أكثر فأكثر، أدَّت إلى إجماع أقرب، وأصبح العلم والفنُّ والأدب أكثر فأكثر عالميّاً، فإلى جانب الوطنيَّة تتوضَّع النّزعات الإنسانيَّة، وإلى جانب القوميَّة تتوضَّع العالميَّة.

ورُويداً رُويداً تكتسب فكْرة الإنسانيَّة قُوَّة أكثر من فكْرة الوطن التي تتعدَّل وتفقد عصبيَّتها، والتي يُريد القوميُّون الأنانيُّون استمرارها، ومن هُنا؛ يُوجد اتِّجاهان مُتضادَّان، ففي وجه العالميَّة ـ التي أصبحت قويَّة ـ تقف الوطنيَّة مع عُنف قويٍّ، والذّهنيَّة القديمة المُحافظة تنشط وتقف ضدَّ العالميَّة التَّعدُّديَّة التي سوف تنتصر عليها يوماً ما، وهي تُحارب ـ بقساوة ـ الذين يُشجِّعونها، وهُنا ـ أيضاً ـ سبب من أسباب اللاَّساميَّة.

---

(249) انظر الفصل التّاسع.

في الواقع؛ رغم أنَّ اليهُود شوفينيُّون؛ أيْ وطنيُّون مُتطرِّفون، إنَّما لـهم طبيعـة عالميَّـة، إنَّهم العُنْصُر العالميُّ للعائلـة الإنسـانيَّة، علـى حَـدِّ قـول شُـوفليه، هـذا صحيـح جـداً؛ لأنَّـهم يمتلكون - دوماً وبدرجة عالية - سُهُولة فائقـة فـي التَّكيُّـف، وهـذه صفـة العالميَّـة، فـهُمْ عندمـا وصلوا إلى الأرض الموعودة تبنَّوا لُغـة كنعـان، وبعـد سـبعين سـنة فـي بـابل، نسـوا العبريَّـة، وعادوا إلى أُورشليم وهُمْ يتكلَّمـون لهجـة آراميَّـة أو كلدانيَّـة، وفـي القـرن الأوَّل قبـل وبعـد العصـر المسيحي دخلـت اللُّغـة الهيلِّينيَّـة إلـى اليـهُوديَّات، وبمـا أنَّـهم مُشـتَّتون أصبـح اليـهُود - بسُهُولة - عالميِّيْن، فهُمْ لم يرتبطوا - أبداً - بـأيِّ وحـدة أرض خاصَّـة، ولـم يكـن لـهُم وحـدة دينيَّة، كان لهُم وطن، ولكنْ؛ وطن من أجمل الأوطان، وككُلِّ وطن وُضِـع فـي المُسـتقبل، وهُو صِهْيَوْن الجديد الذي لا تُقارن به أيَّة أرض، وهُو ليس له مثيل.

وطنٌ روحي أحبّوه حُبّاً جمّاً قوياً، حتَّى أصبحوا غير مُكترثين إلـى أيِّ أرض، وأصبـح كُلُّ بلد بالنِّسـبة لـهم مثـل غـيره جيِّـداً أو سـيِّئاً، فـهُمْ عاشـوا ظُرُوفـاً سـيِّئة ورهيبـة، لذلـك؛ لا نستطيع أنْ نطلب منهم أنْ يُعطوا أنفسـهم لوطـن، وبمُسـاعدة غريزتـهم فـي التَّضـامن بقـوا عالميِّيْن **Internationalistes**.

أمَّا القوميُّون؛ فتوصَّلوا إلى قناعة بأنَّ اليـهُود هُـمْ مُشـيعون نشـيطون للأفكـار العالميَّـة، ووجدوا أنَّ مثل هؤلاء الذين بلا وطـن كـان مثـلاً سـيِّئاً، وأنَّـهم يُدمِّـرون - بوُجُودهـم - فكْـرة الوطن؛ أيْ كُلُّ فكْـرة خاصَّـة بـالوطن، لذلـك؛ أصبحـوا لا سـاميِّيْن، أو بـالأحرى، قويـت عندهم وتضاعفت مُناهضة السَّاميَّة، فهُمْ يتَّهمون اليهُود ليس - فقـط - كونـهم أجـانب، إنَّمـا كونهم أجانب مُخرِّبين.

أمَّا مُحافظة المُتعصِّبين؛ فربطت العالميَّة بالثّورة: هل لليهُودي مَيْلٌ إلى الثّورة؟.

الفصل الثّاني عشر:

الرُّوح الثّوريَّة في اليهُوديَّة

البحث عن المُيُول الثَّوريَّة في اليهُوديَّة هُو ليس تفحُّص الشُّيُوعيَّة اليهُوديَّة، على أيٍّ حال؛ فما تُوحيه المُؤسَّسات الموسويَّة من المبادئ الاشتراكيَّة لا يجعلنا نستنتج - بالضّرورة - أنَّ الرُّوح الثَّوريَّة هي التي قادت اليهُود على الدّوام.

فشُيُوعيَّة وثورة ليستا عبارتَيْن مُنفصلتَيْن، وإذا كُنَّا في يومنا الحاضر لا نستطيع أنْ نلفظ الأُولى دُون أنْ نذكر الثَّانية بشكل حتميٍّ، فهذا يعود إلى الظُّرُوف الاقتصاديَّة التي تحكمنا، وإلى ما نراه مُستحيلاً من تحوُّل المُجتمعات الحاليَّة المُؤسَّسة على الملكيَّة الفَرْديَّة دُون اضطرابات عنيفة، ففي دولة رأسماليَّة يُعَدُّ الشُّيُوعيُّ إنساناً ثوريّاً، لكنَّهم لا ينتبهون إلى **أنَّ** مُواطناً رأسماليّاً خاصّاً يُعَدُّ - أيضاً - ثوريّاً في دولة شُيُوعيَّة، في هاتَيْن الحالتَيْن؛ هذا الأمر صحيح؛ لأنَّ الشُّيُوعيَّ والفَرْديَّ سوف يُعبِّران عن استيائهما، وعن رغبة في التّغيير، وهذه خاصَّة الذِّهن الثَّوريِّ.

وإذا استطعنا القول مع السَّيِّد رينان **Renan** إنَّ اليهُود كانوا عُنْصُر تطوُّر، أو على الأقلِّ، عُنْصُر تحوُّل، وإذا استطعنا أنْ ننظر لهم كخمائر الثّورة في كُلِّ زمن كما سوف نرى، فهذا ليس بسبب القوانين ضدَّ الكسب الحرام غير المشروع، أو على رواتب العُمَّال، وعلى إعادة الثِّياب المرهونة، ولا على السَّنوات السَّبتيَّة واليُوبيليَّة التي نجدها في سفْر الخُرُوج والعدد والأحبار... إلخ[250]، بل لأنَّهم كانوا - دوماً - غير راضين.

لا أريد أنْ أزعم أنَّهم كانوا - ببساطة - مُعارضين ومُناهضين لكُلِّ الحُكُومات، فهُمْ لم يكونوا غاضبين ضدَّ آهاب أو آزحيا، لكنْ؛ مُجمل الأشياء لم تكن تُعجبهم، كانوا - باستمرار - قلقين بانتظار الأفضل الذي لم يتحقَّق لهم أبداً.

---

(250) أحبار 19 - 21، سفْر الخُرُوج 22 - عدد25.

فمثاليَّتهم ليست كالذين يكتفون بالأمل، وهي لم تكن عالية، فهُمْ لم يكونوا يستطيعون - أبداً - أنْ يُلغوا طُمُوحاتهم، ويجعلوها أحلاماً وأشباحاً، اعتقدوا أنَّ لهم الحقّ بطَلَب ترضيات فوريَّة، وليس وُعُوداً مُستقبليَّة بعيدة الأمد، ومن هُنا؛ الاضطراب المُستمرُّ لليهُود الذي تجلَّى في النُّبُوة، وانتظار المسيح والمسيحيَّة التي هي أعلى المظاهر، وليس في ذلك فقط، إنَّما - أيضاً - بالشَّتات، وبشكل فَرْديٍّ.

والأسباب التي أدَّت إلى هذا الاهتياج والذي استمرَّ وبقي في نَفْس بعض اليهُود الجُدُد ليست أسباباً خارجيَّة مثل القَمْع الحقيقيِّ لأميرٍ ما، أو شعب، أو قانون جائر، إنَّها أسباب داخليَّة؛ أيْ هي في صميم الرُّوح العبريَّة، يجب أنْ نبحث عن أسباب مشاعر الثَّورة التي حركَّت اليهُود من الفكْرة التي كوَّنها اليهُود عن الله، وعن نظرتهم للحياة والموت، بالنِّسبة لليهُود، الحياة هي صنيعة جيِّدة، والوُجُود الذي وهبه الله للبشر هُو شيء جيِّد وصالح.

فعندما يُعلن سفْر الجامعة[251] ببُرهة أنَّ يوم الوفاة هُو أفضل من يوم الولادة، فإنَّه مُضطرب بالفكْر الهيلِّينيِّ، وحكمته لم يكن لها إلاَّ قيمة فَرْديَّة، أمَّا بالنِّسبة للعبريِّ؛ فالحياة يجب أنْ تُعطي للكائن كُلَّ الأفراح، ولن ينتظرها إلاَّ منها.

وعلى العكس من ذلك؛ فإنَّ الموت هُو الشَّرُّ الوحيد الذي يُمكن أنْ يُصيب الإنسان، إنَّه أكبر الكوارث، وأنَّه فظيع ورهيب جداً، والإصابة به هي أسوأ العُقُوبات.

(فليُساعدني الموت على التَّفكير) هكذا قال إنسان يموت؛ إذْ إنَّه لم يكن يتصوَّر عُقُوبة أشدَّ من الموت، المُكافأة الوحيدة التي كان يطمح إليها الأتقياء هي أنَّ يَهْوَه يُميتهم، وقد شبعوا من أيَّامهم بعد أنْ قضوا سنين في الوفر والابتهاج، على كُلِّ حال؛ أيُّ مكافأة أُخرى بإمكانهم أنْ ينتظروا الحُصُول عليها؟.. فهُمْ لم يكونوا يُؤمنون بالحياة الآتية الأُخرى المُستقبليَّة، فهُمْ في وقت مُتأخِّر جداً وتحت تأثير المجوسيَّة ربَّما أصبحوا مُعجبين بأزليَّة الرُّوح، بالنِّسبة لهم؛ الإنسان ينتهي مع انتهاء حياته، وينام حتَّى يوم القيامة، فهُو لم يكن له شيء يتأمَّل به من الوُجُود والعُقُوبات التي تُهدِّد المثالب والفساد مثل المُكافآت التي تُرافق الفضيلة، ذلك كُلُّه في هذا العالم (الحياة) فلسفة اليهُوديّ، أو إذا صحَّ القول فلسفته في السّعادة كانت بسيطة، فهُو يقول مع سفْر الجامعة: (أعترف أنَّه لا يُوجد سعادة إلاَّ بالتَّمتُّع

(251) سفْر الجامعة 17 و7.

والرَّفاه أثناء الحياة)[252] فهُو ـ بذلك ـ واقعيٌّ يبحث عن تطوُّره ليخدم رغباته، فهُو لا يملك إلاَّ عدداً من السّنين يُريد أنْ يتمتَّع بها، ولم تكن مُتعاً رُوحيَّة التي طلبها، إنَّما مُتعاً ماديَّة، لتجميل وُجُوده وتلطيفه، وبما أنَّ الجنَّة ليست موجودة، فهُو لم يكن يستطيع أنْ ينتظر من الله كمُكافأة لإخلاصه وتقواه إلاَّ مُكافآت ملمُوسة، لا وُعُوداً بعيدة صالحة للباحثين عن الماوراء، لكنْ؛ إنجازات عمليَّة تتجسَّد بازدياد الثّراء والرَّفاه، فإذا رأى اليهُوديُّ نَفْسه محروماً من الخيرات التي يظنُّ أنَّها من حقِّه نظراً لالتزامه، فتضطرب نَفْسه من أعماقها، فمع أيُّوب[253] كان يُفضِّل الاعتقاد أنَّه أخطأ دُون أنْ يعلم، وأنَّه بعد التّكفير عن خطئه بالفَقْد، فإن يَهْوَه سوف يُعامله كما عامل أيُّوب الذي أعطاه (ضعف ما كان يملك).

فاليهُوديُّ ليس عنده أيُّ أمل بالتَّعويض المُستقبليّ، لذلك؛ فهُو لا يستطيع أنْ يرضخ لمصائب الحياة، فهُو لم يقتنع بالخيرات الأبديَّة إلاَّ في وقتٍ مُتأخِّر.

فهُو لم يُجب على الكوارث التي أصابته لا بالقَدَريَّة الإسلاميَّة، ولا بالاستسلام المسيحيّ: كان يُجيب ويردُّ بالثَّورة، وبما أنَّه يمتلك مثاليَّة ماديَّة كان يُريد تحقيقها، فإنَّ كُلَّ ما يُؤخِّر هذا التّحقيق كان يُثير غضبه.

فالشُّعُوب التي آمنت بالماوراء، والذين تعلَّلوا بالأوهام اللَّطيفة والمُواسية، وتركوا أنفسهم ينامون على حُلم الأزل، والذين امتلكوا عقيدة الثَّواب، الأجر والعقاب، الجنَّة والنَّار (جهنَّم)، كُلُّ هذه الشُّعُوب قَبِلت الفقر والمرض وهي محنيَّة الرَّأس، حُلم الابتهاجات المُستقبليَّة الآتية دَعَمَتْهَم، وتكيَّفوا بدُون غضب مع جراحهم وفقرهم، فهُمْ واسوا أنفسهم من ظُلم هذا العالم بالتّفكير بالسّعادة التي سوف تكون من نصيبهم في العالم الآخر، فهُمْ وافقوا على الانتظار؛ انتظار النِّعم الفردُوسيَّة، والانحناء دُون شكوى أمام القويِّ الذي يطغى ويقمع.

(فالحقد من الظُّلم تناقص بشكل خاصٍّ، وذلك بالتَّأمين على تعويضات ما بعد الموت) على حَدِّ قول إرنست رينان **Ernest Renan**.

في الواقع؛ ماذا يهمُّ الذين يُؤمنون بالحياة الآتية الأبديَّة التي خلالها تعمُّ العدالة الدَّائمة والمُطلقة؟! ماذا يهمُّ الظُّلم الأرضيُّ القصير الأمد، والذي يُحرِّره الموت؟! فالإيمان في خُلُود

---

(252) سفْر الجامعة 111 و12.

(253) أيُّوب 6. 11 XL.

الرُّوح هُو مُواساة للخُضُوع، وهذا صحيح عندما نرى تشبُّث اليهُوديِّ وتصلُّبه يهدأ ويخفُّ بمُجرَّد أنْ تَثبُت في إسرائيل عقيدة الخُلُود، لكنَّ هذه الفكْرة في الاستمرار وبقاء الشّخصيَّة لم تُساهم ـ أبداً ـ في تكوين الفَرْد النَّفْسيِّ عند اليهُود، في البدء؛ لم يُشاركوا الفرِّيسيِّيْن آمالهم، وبعد أنْ أغمض لهم يَهْوَه جُفُونهم لم ينتظروا إلاَّ فظاعة (شيول) جهنَّم.

فالمهمُّ ـ بالنّسبة لهم ـ كانت الحياة، فجثوا وحاولوا تجميلها بكُلِّ الأُمُور السّعيدة، وكُلُّ المُتّحدين المثاليِّيْن الذين آمنوا بفكْرة الإله الواحد النَّقيَّة أصبحوا ـ بتناقضٍ مُلفت للانتباه، ومفهوم ـ أكثر النّاس شهوانيَّة.

لقد عيَّن لهم يَهْوَه على الأرض عدداً مُحدَّداً من السِّنين، وطلب منهم خلال هذا الوُجُود القصير جداً (حسب العبري) عبادة مُخلصة ومُدقِّقَة، وبالمُقابل؛ كان العبريُّ يطلب من ربِّه حسنات إيجابيَّة، إنَّها فكْرة العقد (أو العهد) هي التي سيطرت على كُلِّ لاهُوت اليهُود، عندما يقوم اليهُودي بكُلِّ التزاماته تجاه يَهْوَه فهُو يتطلَّب منه أنْ يفعل بالمثل، فإذا اعتقد أنَّه تضرر، وإذا قدَّر أنَّ حُقُوقه لم تُحترم، فهُو لم يَعُدْ عنده أيُّ سبب للتّأجيل؛ إذْ إنَّ دقيقة السّعادة التي يُضيعها هي دقيقة تُسرق منه، لا يستطيع أحد أنْ يُعيدها له أبداً، فهُو مُتمسِّك بالتَّنفيذ الكامل للالتزامات المُتبادلة من الجهتَيْن، فهُو كان يُريد أنْ تُوضع بينه وبين ربِّه موازين عادلة، فهُو يقوم بمُحاسبة دقيقة وصحيحة لواجباته وحُقُوقه، هذه المُحاسبة هي جُزء من الدّيانة، وقد استطاع اسبينُوزا[254] أنْ يقول: (عقائد الدّيانة عند العبرانيِّيْن لم تكن تعاليم، لكنَّها حُقُوق ونواهٍ، التَّقوى هي العدالة، والكُفر هُو الظُّلم والجريمة).

فالشّخص الذي يمدحه اليهُوديُّ هُو ليس القدِّيس ولا الخاضع، إنَّه العادل، الإنسان المُحبُّ لا وُجُود له في يَهُوذا، المسألة ليست مسألة محبَّة عند اليهُود، لكنْ؛ فقط مسألة عدالة، فالصَّدَقَة ليست إلاَّ إرجاعاً، وماذا قال يَهْوَه؟.

لقد قال: سوف يكون لكم موازين صحيحة وأوزان صحيحة[255] **(hin, epha)** وقد قال أيضاً: لا تُراعِ الشَّخص الفقير، ولا تُفضِّل أو تُحابي الشَّخص الكبير، لكنَّك سوف

---

(254) بحث لاهوتي سياسي، فصل XVII.

(255) أحبار 19. 136.

تحكم على قريبك حسب الحقِّ والعدالة[256] . من هذه النَّظرة استُخرجت شريعة قَصَاص المثل في العُصُور البدائيَّة عند اليهُود، وهذا طبيعيٌّ من العُقُول البسيطة المُشبعة بفكْرة العدالة، والتي سوف تصل - بشكل حتميٍّ - إلى : "العين بالعين والسِّنُّ بالسِّنِّ"، أمَّا لاحقاً في عُصُور مُتقدِّمة؛ فقد تلطَّفت هذه النّظرة وصلابة هذا القانون عندما أصبح عندهم، فهُمْ أصحُّ عمَّا يجب أنْ تكون عليه العدالة.

عبادة يَهْوَه عند الأنبياء تعكس وتشعُّ منها هذه المشاعر، فالله الذي يمتدحونه يُريد: "أنْ تكون الاستقامة مثل تيَّار ماء، والعدالة مثل تيَّار لا ينضب"[257] . ويقول: "لأنَّني أنا يَهْوَه أصنع المحبَّة والدّينونة والعدالة على الأرض. ومن هُنا أُسرُّ"[258] . أنْ نعرف الحقَّ هذا يعني أنْ نعرف الله[259] ، ويُصبح الحقُّ انبثاقاً للأُلُوهيَّة؛ فهُو يأخذ طابع الوحي.

بالنِّسبة لإشَعْيَا وإِرْمِيَا وحزقيال هُو جُزء من العقيدة أُعلنت في سيناء، وشيئاً فشيئاً وُلدت هذه الفكْرة: إنَّ اليهُوديَّة يجب أنْ تُحقِّق العدالة. هذه الرغبة هي التي قادت المُتنبِّئين الكبار قبل وبعد الأَسْر. إذا لم يُمارس الشَّعب المُختار العدالة سوف يُعاقب مثل عقُوبة عبادة الأصنام.

فهُو، وإنْ رُحِّل إلى العُبُوديَّة ليس لأنَّه عَبَدَ عشيرة وقاموش، أو لأنَّه ضحَّى في الأماكن المُقدَّسة ودنَّس الهيكل، بل لأنَّه فَسُد من الظُّلم. كُلُّ المدارس النَّبويَّة كانت مُشبعة بهذه الأفكار، فالأنبياء اعتقدوا أنفسهم مُرسَلين للعمل على تحقيق العدل، والذي كان يُزعجهم كثيراً هُو عدم تساوي الظُّرُوف، طالما أنَّ هُناك فُقراء وأغنياء لا يُمكن لنا أنْ نأمل بملكُوت العدل (الحقّ) وحسب الأنبياء المُلهمين؛ الأغنياء هُمْ عقبة في وجه العدل، وهذا العدل لن يتحقَّق إلاَّ بالفُقراء. فالمحزونون والفُقراء التفّوا حول الأنبياء المُدافعين عنهم. فمعهم - سويَّة - كانوا يحتجُّون ضدَّ الاغتصابات والأخذ غير الحقِّ. وبالمُقابل؛ كان الأنبياء يُقدِّمونهم كأمثلة، وحسب ظنِّهم كانوا يرسمون ملامح العادل: هُو الذي يسير مُستقيماً، ويتكلَّم حقّاً"، والذي يكره الرِّبح المُكتسب بطريقة السَّلْب والنَّهب، الذي يدفع بيدَيْه ليردَّ

---

(256) أحبار 19 . 15 .
(257) عموس 5 . 23 . 24 .
(258) إِرْمِيَا 19 . 24 .
(259) إِرْمِيَا 22 . 15 . 16 .

الهدايا، والذي يصم أذنَيْه عندما يُكلِّمونه عن الدَّم، والذي يُغمض عينَيْه حتَّى لا يرى الشرَّ[260]" كانوا يُشيرون على الأغنياء بواجباتهم، وكانوا يتكلَّمون باسم يَهْوَه: "هذا هُو الصِّيام الذي أحبُّه"، هي قَطْع سلاسل الظُّلم وحلُّ كُلّ قُيُود النّير، وعتق وتحرير كُلِّ الذين يُقمَعون، وإلغاء كُلِّ عُبُوديَّة. أنْ يُشارك الإنسان خُبزه مع الجائع، وإعطاء منزل للبائس الذي بدُون مأوى[261]. وعند العودة من بابل، شكَّلت الجماهير اليهُوديَّة نُواة ضخمة من الفُقراء والعادلين الورعين المُتواضعين القدِّيسين. وجُزء كبير من المزامير خرج من هذا الوسط. هذه المزامير هي ـ على الأغلب ـ انتقادات لاذعة عنيفة ضدَّ الأغنياء... فهي ترمز إلى الصِّراع بين الضُّعفاء ضدَّ الأقوياء.

عندما يتوجَّه المزموريُّون أو كَتَبَةُ المزامير إلى الملاَّكين يقولون مع عموس "اسمعوني يا أكَلَة الفُقراء، مُختلسي ضُعفاء البلاد".[262]

وفي كُلِّ الأشعار والقصائد المكتوبة بين الأَسْر البابلي والـ**Machabées** (**589** و**167**) الفقير مُمجَّد. هُو صديق الله ونبيِّه المسيح.

إنَّه طيِّب، ويدَيْه طاهرتان، هُو كامل وعادل. إنَّه ينتمي إلى القطيع الذي يرعاه الله. أمَّا الغنيُّ؛ فهُو الشِّرِّير، رجل عُنف ودم، هُو مُحتال غشَّاش، ماكر ومُتكبِّر، يفعل الشَّرَّ بدُون دافع، إنَّه مُحتقَر؛ لأنَّه يستغلُّ ويقمع ويضطهد ويلتهم الفقير، لكنَّ جريمته الكُبرى هُو أنَّه لا يُحقِّق العدالة، ذلك أنَّ عنده حُكَّام فاسدين يدينون الفقير سَلَفاً.[263]

فالفُقراء لم يستكينوا في بُؤسهم، إنَّما حُرِّضوا بأقوال شُعرائهم، فهُمْ لم يتلذَّذوا في آلامهم، ولم يرضخوا لفقرهم، على العكس؛ حلموا ـ دوماً ـ باليوم الذي يُنتقم فيه لهم من المظالم والعار، واليوم الذي يُقهر فيه الشِّرِّير، ويُمجَّد فيه العادل: أيْ إلى يوم المسيح، العصر المسيحي لجميع المُتواضعين يجب أنْ يكون عصر العدالة. وفي الحديث عن هذا العصر قال إشَعْيا: "للقضاء أُعطيك السّلام، وللحُكْم أُعطيك العدل، سوف لن نسمع صوت

---

(260) إشَعْيا 33 ـ 15.

(261) إشَعْيا LXIII 7 . 6.

(262) عموس 8 . 4.

(263) مزامير 26 . 10.

البُكاء. الذي سوف يبني منزلاً يسكن فيه، والذي يزرع بُستاناً يأكل من ثمره. سوف لن نبني حتَّى غيرنا يتمتَّع، وسوف لن نزرع حتَّى غيرنا يستهلك".[264]

وعندها سوف يأتي المسيح، سوف يُكرِّر ما قاله المزموريُّون، فسوف يقول: "طُوبى للجائعين والعطشى للحقِّ؛ لأنَّهم سوف يشبعون"[265]، فهُو لعن الأغنياء وحرمهم صارخاً: "إنَّه أسهل على جمل أنْ يمرَّ من ثقب إبرة على أنْ يدخل غنيٌّ ملكُوت السَّموات".[266]

في هذه النُّقطة بالذَّات العقيدة المسيحيَّة هي يهُوديَّة صرفة، وليست هيلِّينيَّة أبداً، فيسُوع وجد تلامذته من بين الإيبيونيم الـ **ebionim**؛ أيْ المُتواضعين؟.

إذاً؛ النَّظرة التي كوَّنها اليهُود إلى الحياة والموت شكَّلت لهم العنْصُر الأوَّل لرُوحهم الثَّوريَّة، وانطلاقاً من هذه الفكْرة التي هي أنَّ الخير؛ أيْ الحقّ، يجب أنْ يتجسَّد في الواقع، وليست بعد الموت ـ بما أنَّ ما وراء القبر يُوجد سُبات إلى يوم قيامة الجسد ـ، لكنْ؛ خلال الحياة فهُمْ يبحثون عن العدل، وعندما لا يجدونه أبداً فهُمْ غير راضين باستمرار، فيثورون ليحصلوا عليه.

أمَّا العنْصُر الثَّاني؛ فأخذوه من نظرتهم للأُلُوهيَّة؛ فهي قادتهم للإيمان بتساوي البشر، فقادتهم إلى الفوضى، فوضى نظريَّة وعاطفيَّة؛ لأنَّه كانت ـ دوماً ـ لهم حكُومة، لكنْ؛ فوضى حقيقيَّة؛ لأنَّ هذه الحكُومة أيَّاً كانت طبيعتها لم يقبلوها أبداً برضىً وعن طيب خاطر، فهُمْ ولو أنَّهم عَبَدوا يَهْوَه كإله قوميٍّ، أو أنَّهم ارتفعوا مع الأنبياء إلى الإيمان بإله واحد وعالميٍّ، لكنَّهم لم يتفكَّروا أبداً في الطَّبيعة الإلهيَّة.

فاليهُوديَّة لم تطرح على نَفْسها ولا سُؤالاً من الأسئلة الميتافيزيقيَّة الأساسيَّة، لا على الماوراء، ولا على طبيعة الإله: (التَّأمُّلات السَّامية ليس لها أيُّ علامة مع الكتاب المُقدَّس، قال اسبينوزا: وبما يخصُّني؛ فأنا لم أحفظ، ولم أستطع أنْ أتعلَّم من التَّوراة المُقدَّسة أيَّاً من الصِّفات الأزليَّة للإله)[267] وأضاف مندلسون: (اليهُوديَّة لم تُنزل لنا ولا حقيقة أزليَّة).[268]

---

(264) إشَعْيا 171.

(265) متَّى 6 V.

(266) مرقس 25 X.

(267) اسبينوزا، رسائل 34.

(268) مندلسون، أُورشليم.

اعتبر اليهُود يَهْوَه وكأنَّه مَلِكٌ سماويٌّ، ملك أعطى شعبه شَرْعة، وأخذ مُقابلها التزامات تجاهه، فارضاً - بالمُقابل - الطّاعة لقوانينه ونواهيه، بالنّسبة للعبرانيَّة - ولاحقاً للتّلمُوديِّين - ؛ فإنَّ بني اليهُود هُمْ - فقط - الذين يستطيعون أنْ يتمتَّعوا بالامتيازات الممنوحة من يَهْوَه، أمَّا بالنّسبة للأنبياء؛ فالأمر مُباح ومشروع لجميع الأُمم بالتَّمتُّع بهذه الامتيازات، بما أنَّ يَهْوَه هُو الإله الكونيُّ وليس مُساوٍ لداغون أو بعل زبوب، لكنَّ يَهْوَه كان (الرَّئيس الأعلى للشَّعب العبريِّ)[269]، إنَّه السَّيِّد القويُّ القدير الملك الوحيد الغيور من سُلطته، الذي يُعاقب - بشراسة - الذين يتمرَّدون على قُدرته، إليه يجب أنْ يلجأ اليهُوديُّ الجيِّد في السَّرَّاء والضَّرَّاء، وكان يعتبر جريمة أنْ يتوجَّه النّاس للبشر، وليس للإله يَهْوَه.

ولمَّا تحالف يهُودا مكابي مع رُوما ومع متري داتس الأوَّل سَبَّبَ لنَفْسه حرمان الحاخام يُوسي بن يُوحنَّا: (ملعون الذي يضع سنده في مخلوقات من لحم، ويُبعد قلبه عن يَهْوَه، يَهْوَه هُو قُوَّتكَ ودرعكَ وحصنك وأَمَلكَ، هكذا تقول المزامير) كُلُّ اليهُود هُمْ رعيَّة يَهْوَه، لقد قالها هُو نَفْسه: (اليهُود هُمْ عبيدي أنا)[270] فأيُّ سلطة - إذاً - يُمكن أنْ تُساوي السُّلطة الإلهيَّة؟ كُلُّ حُكُومة مهما كانت هي سيِّئة، بما أنَّها تسعى لتكون بديلة عن حُكُومة الله، ويجب أنْ تُحارب، بما أنَّ يَهْوَه هُو القائد الوحيد لليهُوديَّة، والوحيد الذي يجب على اليهُوديِّ طاعته.

عندما كان الأنبياء يشتمون المُلُوك كانوا يُمثِّلون مشاعر اليهُود، وكان ذلك تعبيراً عن أفكار الفُقراء، والمُتواضعين، وكُلِّ الذين تضرَّروا من مقدرة وقُوَّة المُلُوك أو الأغنياء، وكانوا بحالة تجعلهم يتوجَّهون إلى نَقْد أو رَفْض أُسُس هذا القَمْع، وبما أنَّ هؤلاء الفُقراء والمُتواضعين ليس لهم سَيِّد إلاَّ يَهْوَه، فكانوا مدفوعين لأنْ يثوروا ضدَّ القضاء الإنسانيِّ، فهُمْ لا يستطيعون قُبُوله، وفي زمن الثَّورات شاهدنا زادُوك ويهُوذا الجليلي يُناديان مع المُتحمِّسين: (لا تُنادوا أحداً مُعلِّمكم) زادُوك ويهُوذا كانا منطقيَّيْن. عندما تضع الطَّاغية في السَّماوات فأنتَ لا يُمكن أنْ تُكابد منه هُنا على الأرض، ليس هُناك من سُلطة تتلاءم مع سُلطة يَهْوَه، وينتج عن ذلك - قَدَريّاً - أنَّه ليس هُناك إنسان يرتفع فوق الآخرين: فالسَّيِّد

(269) مُونك: فلسطين.

(270) أحبار 25. 55.

السَّماويُّ القاسي جَلَبَ المُساواة الأرضيَّة، والموسويَّة البدائيَّة حملت في طيَّاتـها هـذه العدالـة الاجتماعيَّة، أمام الله؛ كُلُّ البشر مُتسـاوون، إنَّـهم مُتسـاوون أمـام الشّريعة، بمـا أنَّ الشّريعة صادرة إلهيَّة، وعندما يتكلَّم الفُقراء عن الأغنياء لهم الحـقُّ أنْ يقولـوا أُخوتنـا: (أولادنـا هُـمْ مثل أولادهم).[271]

هُو الله نَفْسه الذي يأمر بهذه المُساواة، وهُمْ - أيضـاً - الأقويـاء الذيـن يُشَكِّلون عقبـة فـي سبيل تحقيقها: فالمُتواضعون الذين يعيشون سويَّة يُمارسونها، فهُمْ يتبعـون المبـادئ الشُّيُوعيَّة اللاَّويَّة، في سفْر الخُرُوج والعدد، مبادئ مُستوحاة من اهتمامات في التَّسـاوي، أمَّـا بالنّسبة للأغنياء؛ فقد نسوا أنْ يَهْوَه أخرج البشر أجمعين من اللّبنة، ونسوا المُساواة التـي أعلنـها الله، كما أنَّهم يقمعون الشّعب، ويملؤون بيُوتهم مـن سَلْخ الفقير، فيرعون كَرْمَهُ، ويستبيحون أراملهم، ويستولون[272] على أيتامهم، وبسبب ظُلمهم يَستمرُّ عدم العدالة.

ضدَّهـم، ضـدَّ هـؤلاء الملاَّكين وجَّـه الأنبيـاء لعنَتَهم، والمزموريُّون انفجـروا: (يـا إلـه الانتقامات، الأزليّ! إله الانتقامات، اظهرْ)[273] فهُمْ يلومون الغنيَّ بوفرة كُنُوزه، رفاهيَّتـه، وحُبّه للتَّنعُّم بالثَّراء، وكُلّ ما يُساهم في رفعه ماديَّاً فوق إخوانه، وكُـلّ مـا يُمكـن أنْ يُعطيه هذه الكبرياء الكافرة بأنْ يعتقد أنَّه مخلوق من غُبار مُختلفة عـن التـي صُنـع منها الرَّاعـي فـي الجبال، الذي يرعى غنمه، ويخاف الله، كُـلّ مـا يجعلـه ينسـى هـذه الحقيقـة الإلهيَّـة، البشـر مُتساوون فيما بينهم، بما أنَّهم أبناء يَهْوَه الـذي زعـم أنَّـه أعطـى لكُـلِّ واحـد مـن رعيَّتـه جُـزءاً مُتساوياً من الأرض يطؤونها وقسطاً مُتساوياً من الأفراح والمسرَّات.

حقْـدُ اليـهُودي علـى الغنـيِّ مُسبِّب الظُّلـم تداخـل مـع حقْـده ضـدَّ الغنــيِّ الـذي يمنـع التَّعليمات المُؤدِّية للمُساواة، فهُو لا يستطيع أنْ ينسب الثَّراء إلى منشأ إلهيٍّ، كما أنَّه لا يعتقـد أنَّ يَهْوَه يُوزِّعه، ناقضاً - بذلك - عهده الذي يُلزمه لشعبه، قرَّر العبريُّ أنَّ كُـلَّ ثـروة تـأتي مـن الشَّرِّ والخطيئة، ويقول إنَّ كل ثراء يأتي بالحرام.

لكي تتوافق أفكاره في العدالة والحقِّ مع الواقع الذي يُريه إيَّاه داود، آخذاً امرأة أوريـا، وأهاب يغتصب نابوث، أعلن أنَّ ذريَّة الشِّرِّير هي سراب صـرف، وأنَّـها لا تـدوم إلاَّ قليـلاً،

---

(271) نحميا 5. 5.

(272) إشَعْيَا 3. 10.

(273) مزامير XCIV.

وأنَّ الصّباؤت الجبَّار سوف يبسط يمينه على الذين ينتهكُون قوانينه، وسوف يُدخلهم في العدم عاجلاً أم آجلاً.

أمَّا الفُقراء؛ فلم يكونوا يرون رغباتهم تُشبَع، بل على العكس؛ يرون - دوماً - الأغنياء يحتقرون بُؤسهم ويتفاخرون، فعندئذ ينسبون فُقرهم وتعاستهم إلى خطاياهم الخاصَّة، فيُرجئون آمالهم إلى الزَّمن الذي سيأتي فيه المسيح؛ حيثُ سيُحاسب جميع البشر بالعدل؛ وحيثُ سيُصبح جميعهم مُتساوين وأحراراً؛ لأنَّهم يعشقون الحُرِّيَّة.

هذا الحماس ساهم - أيضاً - في تشكيل الرُّوح الثَّوريَّة اليهُوديَّة، وعندما أتكلَّم عن الحُرِّيَّة أنا لا أقصد الحُرِّيَّة السِّياسيَّة، فكْرة الحُرِّيَّة السِّياسيَّة وُلدت في إسرائيل في زمن أنطيُوخُوس وزمن الحُكْم الرُّوماني عندما حصلت الاضطهادات الدِّينيَّة، التي كانت سبباً في ولادة الحركات الثَّوريَّة القوميَّة للزِّيلوتيِّيْن والسِّكاريِّيْن (أيْ الحماسيِّيْن).

صحيحٌ أنَّ مفهوم الحُرِّيَّة السِّياسيَّة كان مُتأخِّراً عند اليهُود، لكنَّ الحُرِّيَّة الفَرْديَّة هي موجودة؛ إذْ إنَّها النَّتيجة الطَّبيعيَّة والحتميَّة لُمعتقدهم حول الأُلُوهيَّة، فهي تنبثق من نظريَّتهم في خلق الإنسان.

بحسب هذه النَّظريَّة؛ كُلُّ سُلطة هي مُلك الله، واليهُودي لا يُمكن له أنْ يُقاد أو يُحكَم إلاَّ من يَهْوَه، فهُو لا يحسب حساباً لأفعاله إلاَّ لأدُوناي الذي يحكم السَّماوات والأرض، ولا أيُّ إنسان من أمثاله له الحقُّ بالحَدِّ من أفعاله، ولا بفرض إرادته عليه، فهُو حُرٌّ، ويجب أنْ يكون حُرّاً تجاه مخلوقات مثله من لحم ودم، فهذه القناعة جعلت العبريَّ غير قادر على النِّظام والتَّبعيَّة، وجعلته يرفض كُلَّ القيُود التي أرادتها له المُلُوك، والأُمراء اليهُود لم يحكموا ويسودوا إلاَّ على شعبٍ ثائر غير قابل لتحمُّل النِّير؛ أيِّ نير وأيِّ ضغط. قد نعتقد أنَّ اليهُود بهذا الفكْر قد تنازلوا عن حُرِّيَّتهم، ووضعوها بين يدَيْ السَّيِّد الذي اعترفوا به، لكنَّ ذلك لم يحصل أبداً، فهُمْ لم يكونوا في حياتهم قَدَريِّيْن مثل المُسلمين، إنَّما كانوا يُطالبون يَهْوَه بحُرِّيَّة الاختيار، وذلك دُون أنْ يُعيروا اهتماماً للتّناقض الواقعين فيه، إذْ إنَّهم في الوقت نَفْسه الذي ينحنون فيه لإرادة سَيِّدهم، يقفون في وجهه ليُؤكِّدوا له حُرِّيَّتهم وحقيقة عدم المساس بشخصيَّتهم؛ أيْ الأنا (اليهُود).

ألم يُخلقوا على صُورة الله؟ إذاً؛ ألا يُشارك هذا الكائن في جُزء من الله؟ فلأنَّهم تكوَّنوا على نمط خالقهم، فعلى إخوانهم في الإنسانيَّة أنْ لا يرتكبوا خطيئة قَمْعهم، وبما أنَّ يَهْوَه قد وَهَبَ الذَّكاء للبشر؛ فهُو ليس حُرَّاً بأنْ يمنعهم من توجيه هذا الذَّكاء حسب رغبتهم وهواهم.

هُناك قصَّة مُشاجرة الحاخام إليعازر وزملائه الحاخامات، وهي تُعطينا مثلاً واضحاً، ويُستحسن سَرْدُها:

خلال مُناقشة عقائديَّة أسمَع الصَّوتُ الإلهيُّ صوته، وتدخَّل في الجدال، وأعطى الحقَّ للحاخام إليعازر، أمَّا زُملاء المحظيِّ؛ فلم يقبلوا بالقرار السَّماويِّ، فوقف واحد منهم، وأعلن: ليست الأصوات الخفيَّة التي تُقرِّر، إنَّها أغلبيَّة الحُكَماء التي تُقرِّر وتفصل في المسائل العقائديَّة، وذلك من الآن فصاعداً، فالعقل ليس مُخبَّأً في السَّماء، وليست الشَّريعة في السَّماوات، لقد أُعطيت على الأرض، وعلى العقل البشريِّ أنْ يفهمها ويشرحها[274]، فإذا كانت الأقوال الإلهيَّة قد استُقبلت بهذا الشَّكل عندما سمحت لنَفْسها بتعنيف الأفراد وفرض إرادة غريبة عن إرادة العقل البشريِّ نَفْسه، فكيف تُقبل الأقوال البشريَّة؟ وكان رينان مُحقَّاً عندما قال عن السَّاميِّيْن: (لا يُمكن أنْ يستقرَّ أمر في هذه النُّفُوس ضدَّ شُعُور الأنا الجامح)[275]، وهذا يصحُّ على اليهُود.

فبعد يَهْوَه لم يُؤمنوا إلاَّ بالأنا، فوحدة الكائن الإنسانيِّ تُقابل الوحدة الإلهيَّة، وتجاه الله المُطلق هُناك الكائن المُطلق، كما أنَّ الذَّاتيَّة كانت - دائماً - السِّمة الأساسيَّة للطَّبع السَّاميِّ فهي - غالباً - ما قادت اليهُود إلى الأنانيَّة، وهذه الأنانيَّة تطرَّفت عند التَّلمُوديِّيْن لدرجة أنَّهم لم يعترفوا بواجبات إلاَّ الواجبات تجاه أنفسهم، هذه الذَّاتيَّة - بالإضافة للوحدانيَّة الإلهيَّة - تُفسِّر القُصُور وعدم المقدرة التي أبداها اليهُود في جميع الفُنُون الجميلة، أمَّا أدبهم؛ فكان ذاتيَّاً صرفاً، فالأنبياء اليهُود مثل المزموريِّيْن، مثل شُعراء أيُّوب ونشيد الإنشاد، مثل الحُكماء لم يعرفوا إلاَّ أنفسهم، ليُعمِّموا إحساساتهم ومشاعرهم الشَّخصيَّة، هذه الذَّاتيَّة تسمح لنا أنْ نفهم لماذا أبدى اليهُود كفاءة عالية وقابليَّة للمُوسيقى على مَرِّ العُصُور، والتي هي أكثر الفُنُون ذاتيَّة.

---

(274) تلمُود، بابا ميزيا 59.

(275) إرنست رينان، تاريخ عام للُّغات السَّاميَّة.

وبشكل أكيد لا يقبل الدّحض؛ كانوا فَرْدِيِّين، فهؤلاء البشر الذين كانوا نشيطين في السّعي وراء الخيرات الدُّنيويَّة يبدون لنا وكأنَّهم مثاليُّون شرسون، وذلك بفضل عقيدتهم الصُّلبة. فالفَرْديُّ المُشبع بالمثاليَّة يُصبح - دوماً - ثائراً. فهُو لن يسمح لأحد أنْ يغتصب أناه المُقدَّسة، كما أنَّ ولا إرادة يُمكنها أنْ تتفوَّق على العلم.

لقد بيَّنَّا كُلَّ العناصر المُكوِّنة للرُّوح الثّوريَّة في اليهُوديَّة:

هي فكْرة العدل والمُساواة والحُرِّيَّة. أمَّا إذا كانت اليهُوديَّة هي الأُولى التي بجَّلت هذه الأفكار؛ فغيرها من الأُمم دَعَمَتْهَا في مُختلف حقب التَّاريخ؛ لكنَّها لم تُصبح شُعُوباً ثائرة مثل الشَّعب اليهُوديِّ؛ لماذا؟ لأنَّ هذه الشُّعُوب، وإنْ اقتنعت بامتياز العدل والمُساواة والحُرِّيَّة، لكنَّها لم ترَ أنَّ تحقيقها الكامل مُمكن في هذا العالم على الأقلِّ، ولذلك لم تعمل لتحقيقها.

أمَّا اليهُود؛ فعلى العكس، آمنوا أنَّ العدل والحُرِّيَّة والمُساواة يُمكن أنْ تسود العالم، وفوق ذلك؛ أنَّهم هُمْ مُرسلون للعمل لها. فكُلُّ الرَّغبات وكُلُّ الآمال التي تنشأ عن هذه الأفكار الثّلاث سوف تتبلور حول فكْرة مركزيَّة واحدة هي الأزمنة المسيحيَّة؛ أيْ مجيء المسيح الذي سوف يُرسله يَهْوَه ليتربَّع على المملكات الأرضيَّة، فجعل الأنبياء اليهُوديَّة تعيش حلم هذا الزَّمن السَّعيد من الرَّفاهيَّة، كما أنَّ المزامير بعد النَّفْي ساهمت - أيضاً - في الاعتقاد بمرحلة مُباركة؛ حيثُ يزول فيها الشِّرِّير، ويتملَّك فيها الفُقراء الأرض، ويتنعَّمون بالسَّلام"[276]. فمُنذُ الخُرُوج من بابل حتَّى نزاع الأُمَّة اليهُوديَّة ظلَّ هذا الحُلم المسيحيُّ يُداعب أذهان اليهُود.

فالطُّغيان الأنطيُوخي والقَمْع الرُّوماني جعلا هذه الأحلام أكثر ضرورة: فصاروا يُواسون أنفسهم عندما يُفكِّرون بيوم الخلاص. وتشكَّلت صُورة المُحرِّر شيئاً فشيئاً في أذهانهم، وبقيت خفَّاقة في نُفُوسهم، وخُصُوصاً نُفُوس الذين سمعوا صوت يُوحنَّا المعمدان يدوي: "في قلب الذين تبعوا يسُوع".

من هذه الآمال في القرن الأوَّل قبل وبعد العهد المسيحيِّ نشأ أدب بأكمله: "كتاب دانيال"، مزامير سلُومُون، صعُود مُوسى، كتاب أينوخ، والكتاب الرّابع لعزرا، وُسطاء

---

(276) مزامير 191 و37 XXVVII.

أينوخ الوحي. إنَّه من المُستحيل عليَّ أنْ أُحلِّل هذه الرُّؤى وهذه الإلهامات. على الإجمال؛ كُلُّها تتنبَّأ على السّاعة التي تشهد فيها انفتاح العصر المسيحيّ، فهُمْ يصنعون المظاهر والأعراض التي تُبشِّر بالمسيح.

وكُلُّهم مُجمعون على أنَّ هذا الزَّمن الآتي سوف يُسَبِّبُ موت الشَّرِّ. وتختصر العرَّافة عندما تتنبَّأ: "من أعالي السَّموات المليئة بالنُّجُوم سوف ينزل المسيح إلى البشر، ومع المحبَّة المُقدَّسة والإيمان والحُبِّ والتَّرحاب، وسوف يطرد من هذا العالم الظُّلمَ والقهر والحسد والغضب والجُنُون. لن يعود هُناك فَقْرٌ، ولا قَتْلٌ ولا خُصُومات سيِّئة، ولا نزاعات مُحزنة، ولا سرقات ليليَّة، ولا أيّ شيء خطأ مُؤذ... النَّاس الأتقياء سوف يسكنون المُدُن بسعادة، والأغنياء في الأرياف"[277]. سوف تتحرَّر الأرض من الإجحاف، ولن نعرف بعدها عدم المُساواة، وكُلُّ البشر يُصبحون أحراراً.

لم ترضَ اليهُوديَّة أنْ تعتقد أو تُؤمن بأيِّ أحد قدَّم نَفْسه كمسيح. فهي رفضت كُلَّ الذين قالوا إنَّهم مُرسلون من الله. فهي رفضت أنْ تسمع ليسُوع، وباركوكيبا، وثيوداس، وألروي، وسيرينوس، ومُوسى الكريتي، وساباتاي زنفي. ذلك لأنَّ اليهُوديَّة لم تشهد حُلمها قد تحقَّق، أو أصبح واقعاً. لم يحمل لها أيُّ نبيٍّ من المُرسلين العدالة الإلهيَّة، ولا المُساواة المُنتصرة، ولا الحُرِّيَّة التي لا تُقهر. فهُمْ لم يروا في أصوات المسيحيِّيْن سُقُوط السَّلاسل، ولا انهدام جُدران السُّجُون، ولا فناء عصا السُّلطة، ولا تبدُّد الكُنُوز الحرام؛ كالدُّخان، والتي كسبها الأغنياء والمُحتالون بالطُّرُق المُلتوية. وبالرّغم من عُبُوديَّتهم الطَّويلة الأمد، وسنين الاستشهاد التي كانت من نصيبهم، ورغم قُرُون من الإذلال حطَّمت من طباعهم، وأوهنت دماغهم، وقلَّصت ذكاءهم، وحوَّلت أذواقهم وعاداتهم ومواقفهم، فإنَّ بقايا يهُوذا لم يتخلَّوا عن حُلمهم؛ هذا الحُلم الحيّ الرّاسخ الذي كان الدَّاعم والمُلهم خلال حُرُوب التَّحرير.

فالمحارق والمذابح والاغتصابات والشّتائم، كُلُّ ذلك ساهم في أنْ يجعل لهم هذه العدالة أعزَّ بكثير، وهذه المُساواة، وهذه الحُرِّيَّة، والتي كانت بالنِّسبة لهم وخلال سنين طويلة كلمات فارغة. أمَّا صوت الأنبياء الكبير الذي بشَّر أنَّ الشِّرِّير سوف يُقهر يوماً ما؛

(277) نُبوءات كتابيَّة 111. 573. 585.

وجد دوماً صدى في هذه النُّفُوس الصُّلبة، التي لم تشأ أنْ تنحني، وكرهت الواقع البائس، فحلُمت بفكْرة الزَّمن الآتي. هذا الزّمن الآتي الذي تكلَّم عنه عموس، وإشَعْيَا، وإرْمِيَا، وحزقيال، وكُلُّ الذين ترافقوا على الآلات ذات الأوتار قد غنّوا المزامير. فمهما كان الحاضر أسوداً لم تتوقَّف اليهُوديَّة عن الإيمان بالمُستقبل.

كانوا يقولون لليهُود: "أ تنتظرون المسيح يا عنيدين؟ ألا تعلمون أنَّه قد أتى؟" أمَّا اليهُود؛ فكانوا يردُّون بتهكُّم، وكانوا يهزُّون أكتافهم إلى الأعلى، ويقولون: "المسيح لم يأتِ، بما أنَّنا نتعذَّب، وبما أنَّ المجاعة تُحزِن البلد، وبما أنَّ الطَّاعُون الأسود والنَّبيل يُرهقون المساكين الحزانى!".

أمَّا إذا قلنا لهم أنَّ المسيح لن يأتِ أبداً؛ فيرفعون رُؤُوسهم المحنيَّة والعنيدة، ويقولون: "المسيح سوف يأتي يوماً ما، وفي ذلك اليوم سوف نفهم كلام المزمور: "رأيتُ الشِّرِّير في كُلِّ ملء قُوَّته، كان يتمدَّد مثل شجرة خضراء، وقد مضى والآن هُو غير موجود، قد زال. أبحثُ عنه ولا أجده، والذي سوف يملك الأرض هُمْ الفُقراء والعادلين".

لقد حصر الأحبارُ الشَّعبَ اليهُوديَّ في مُمارسات ضيِّقة جعلت غرائزهم الثَّوريَّة تنام. وفي ظلِّ روابط القوانين التّلمُوديَّة شعروا أنَّ الأفكار تحيا فيهم، ونستطيع أنْ نقول إنَّ إسرائيل لم تنهزم إلاَّ من داخلها. مع ذلك؛ فإنَّ التّلمُود لم يَحُطّ من مُستوى جميع اليهُود. فمن بين الذين أهملوه يُوجد مَنْ استمرَّ بالاعتقاد أنَّ العدل والحُرِّيَّة والمُساواة سوف يتحقَّقان على هذه الأرض، وكثير منهم اعتقدوا أنَّ شعب يَهْوَه مُكلَّف بالعمل على تحقيق هذا الحَدَث.

وهذا ما يجعلنا نفهم لماذا انخرط اليهُود في جميع الحركات الثَّوريَّة؛ لأنَّهم شاركوا في جميع الثَّورات وبقسط نشيط، كما سوف نرى عندما ندرس دورهم في فترات الاضطرابات والتَّغييرات[278]. والآن؛ بقي علينا أنْ نصف كيف عبَّر اليهُوديُّ عن مُيُوله الثَّوريَّة، هذا إذا كان ثوريّاً حقيقيّاً كما يتَّهمونه؛ إنَّه عُنْصُر شَغَب في المُجتمعات الحديثة، فترانا مُجبرين لدراسة الأسباب الدِّينيَّة والسِّياسيَّة والاقتصاديَّة لمُناهضة السَّاميَّة.

---

(278) ينبغي دراسة طويلة لإثبات وإظهار دور اليهُود في الثَّورات. سوف نقوم بتأليف كتاب حول هذا الموضوع، ونقوم بانتقادات أعمق للأفكار.

الفصل الثّالث عشر:

اليهُود والتَّحوُّلات في المُجتمع
الأسباب السِّياسيَّة والدِّينيَّة لمُناهضة السَّاميَّة

إنَّ مطعن اللاَّساميِّيْن أساسه هُو أنَّ لليهُوديِّ رُوحاً ثوريَّة، سواء أراد ذلك أم لا، إنَّه عُنْصُر ثورة. وهذا المطعن يُصبح أكثر تعقيداً؛ إذْ إنَّ اللاَّساميَّة تتَّهم اليهُود بكونهم سبب الثَّورات، لنبحث بأمر هذا الاتِّهام ومدى صحَّته:

نظراً لأوضاعه ومُيُوله؛ كان لا مفرَّ لليهُوديِّ من أنْ يلعب دوراً في الثَّورات، ولعبه. أمَّا القول مع جميع أعداء إسرائيل: إنَّ كُلَّ اضطراب وكُلَّ انتفاضة، وكُلَّ انقلاب يأتي من اليهُود، أو أنَّه حصل بسببهم، وأنَّه إذا تغيَّرت الحُكُومة، أو تحوَّلت، ذلك لأنَّ اليهُوديَّ قد هيَّأ لهذه التَّغييرات والتَّحوُّلات في مجالسه السِّرِّيَّة، يكون قولاً فيه كثير من المُبالغة. وتوكيد ذلك يكون فيه جهل لأبسط عناصر القوانين التَّاريخيَّة، وهُو أنْ ننسب إلى عُنْصُر ضئيل قسطاً غير معقول، وهُو أنَّنا لا نرى إلاَّ الوُجُوه الصَّغيرة جداً للتَّاريخ، مُهملين أُلُوف الجوانب الأُخرى: فلو مات آخر يهُوديٍّ مُدافعاً عن حُصُون صِهْيَوْن لما تغيَّر مصير المُجتمعات.

وفي المُحصِّلة الكُبرى التي هي التَّطوُّر كان مُمكناً للمُشاركة اليهُوديَّة أنْ تغيب ولا تكون، فالوضع الاجتماعيُّ كان - مع ذلك - سيتطوَّر، وكانت عوامل أُخرى حلَّت مكان العامل اليهُوديِّ، وتمَّمت عمله الاقتصاديَّ.

فالتَّوراة والمسيحيَّة والإنتاج الفكْريُّ والرُّوحي لليهُوديِّ كان مُمكناً أنْ يُنجز بدُونه. فاليهُوديُّ ليس هُو مُحرِّك العالم إذاً، وليس هُو العَنَفَة التي نسير بفضلها نحو التَّجدُّد.

غير أنَّ كُلَّ الذين يُبرهنون لنا وكأنَّ الأمر ليس له أدنى أهمِّيَّة، وهُمْ يفعلون ذلك بتعقُّل، والذين يذهبون لأبعد من ذلك، فيُؤكِّدون على مُحافظة اليهُود، يرتكبون خطأً أكثر فداحة من خطأ اللاَّساميِّيْن.

يقولـون: اليـهُوديُّ مُحـافظ. يجب شَرْح ذلـك وبأيِّ اتِّجاه. إنَّه مُحـافظ تجاه نَفْسـه، مُحافظ على عاداته وطُقُوسه وتقاليده، فهُو مُحافظ لدرجة أنَّه مُتجمِّد، وباستطاعتنا أنْ نعيش حياة القُرُون الوُسْطى في يهُوديَّات بُولُونيا، وغاليسيا، ورُوسيا. لكنَّ الواقـع هُـو أنَّ التَّلمُـوديَّ أكثر منه اليهُوديَّ الذي هُـو مُحـافظ. فـالتَّلمُود هُـو الـذي يستطيع أنْ يُقنِـع اليـهُوديَّ، ويضبـط غرائزه الثَّوريَّة، ودراسة التَّلمُود هي إجباريَّة، وخُصُوصيَّة أبعدتْهُ عن دراسة التَّـوراة. فالأحبـار قتلوا الأنبياء. لكنْ؛ يجب أنْ لا ننسى أنَّ التَّلمُوديِّيْن كانوا ـ في وقـت مـن الأوقـات ـ فلاسـفة، وفلاسفة[279] عقلانيِّيْن. أراد الحاخامات فـي القـرن العاشـر دعـم الدّيانـة بالفلسـفة، وكـان قـد سبقهم في هذا المضمار الكارايِيت، وسعديا جاون دي سورا دَعَمَ فكْرة أنَّـه إلـى "جانب سُلطة الكتاب والتُّراث هُناك سُلطة العقل، وطالب مُعلناً حقَّ وواجب مُراجعة المُعتقد الدِّيني"[280].

في القرن الحادي عشر؛ فإنَّ ابن جُبير من اللاَّهوتيِّيْن المدرسيِّيْن كَتَبَ نبع حياة، فأعطى دَفْقاً للفلسفة العَرَبيَّة، وكُنتُ قد تكلَّمتُ عن ابن ميمُون ومُؤلَّفه.

هؤلاء العقلانيُّون وهؤلاء الفلاسفة من القرن العاشر حتَّى القـرن الخامس عشـر وحتَّـى عصر النَّهضة كانوا المُساعدين لما يُمكن أنْ نُسمِّيه ثـورة الإنسـانيَّة العامَّـة. وإلـى حَدٍّ مـا؛ قـد ساعدوا الإنسان بالتَّخلُّص من الرَّوابط الدِّينيَّة، حتَّى لو أنَّهم لم يعوا ـ تماماً وبوُضُوح ـ العمل الذي أنجزوه. في ذلك الزَّمن؛ حيثُ كانت الكَثْلَكَة والإيمان المسيحيّ أسـاس الـدُّول، فكـان يُعَدُّ عملاً ثوريّاً مُحاربتهم، أو تأمين أسـلحة للَّذيـن يُهاجمونـهم. فـاللاَّهوتيُّون الذيـن كـانوا يدعون للعقل، لدَعْـم العقـائد، لـم يصلـوا إلـى مُراقبـة هـذه العقـائد، وبالتَّـالي؛ إلـى هزِّهـا وتَضَعْضُعِهَا. فالتَّفسير اليهُوديُّ للكتاب المُقدَّس والدَّرس الحُرُّ له هُما مُخرِّبان حتماً، واليهُود هُمْ الذين خلقوا التَّفسير التَّوراتيَّ، وهُمْ أوَّل مَنْ انتقـد الرُّمُوز والمُعتقـدات المسيحيَّة. وكـان ـ سابقاً ـ يهُود فلسطين قـد أنكـروا ورفضـوا التَّجسُّـد الـذي كـانوا ينظـرون إليـه وكأنَّـه سُقُوط إلهيٌّ، وبالتَّالي؛ هُـو شـيء مُستحيل، وهـذه الفكْـرة تناولـها ـ لاحقاً ـ سـبينوزا فـي دراسـته اللاَّهوتيَّة ـ السِّياسيَّة، فالهجائيَّـة اليهُوديَّـة المُضـادَّة للمسيحيَّة اسـتندت علـى هـذه الدِّراسـة، وعلى الحُجج الإيجابيَّة إذا صحَّ التَّعبير.

---

(279) التَّلمُود طابعه عقلاني. والمقطع الشّهير المُتعلِّق بنزاع بين إليعازر وتلامذته يشهد بذلـك، الأُعجوبـة موجودة يقول هُو ذلك "لكنَّها لا تكفي لإثبات حقيقة. (تلمُود: بابا ميزيا 59).

(280) "س. مُونك" MUNK، خليط فلسفة يهُوديَّة وعَرَبيَّة، باريس 1859، ص 478.

لدينا نموذج عنهم في الـ **Contrecelse**؛ أيْ ضدَّ سيلز لـ أوريجين.

ونحنُ نعلم أنَّ سيلز **Celse** قد استعار اعتراضاته العقلانيَّة من يهُود عصره، وقد برهنتُ وبيَّنتُ في هذا الكتاب[281] أهميَّة الأدب؛ أدب المُجادلين في العُصُور الوُسْطى. فإذا دقَّقنا في أعمالهم عن قُرب، لوجدنا عندهم كُلَّ الانتقادات لشَرْح التَّوراة في عصرنا. ولمُناقشة الدَّور الثَّوري لليهُود ودَحْضه، فبإمكاننا أنْ نُلاحظ أنَّ تفسيرهم لم يُوجَّه إلاَّ لليهُود، وبالتَّالي؛ لم يكن مُسبِّباً للشَّغب، كما أنَّ الإسرائيليَّ كان يعرف كيف يُكيِّفه مع مُمارساته، ومع سلامة إيمانه.

لكنَّ ذلك ليس دقيقاً، فالعقائد اليهُوديَّة خرجت من الكُنُس بشكلَيْن مُختلفَيْن: أوَّلاً: استطاع اليهُود أنْ يعرضوا أفكارهم بفضل المُجادلات العَلَنيَّة، ثُمَّ - لاحقاً - أصبحوا ناشري الفلسفة العَرَبيَّة، وفي القرن الثَّاني عشر أصبحوا نُقَّادها عندما أدّوا في الجوامع، كالفارابي وابن سينا، وعندما أحرقت الفِرَقُ المُسلمة (الأُصُوليَّة) الأُورثُوذُوكسيَّة كتابات أرسطُوطالين العَرَب، فمُنذُ ذلك الحين ترجم اليهُود إلى العبريَّة كُلَّ الدِّراسات العَرَبيَّة ودراسات أرسطُو، وهذه التَّرجمات تُرجمت - بدورها - إلى اللاَّتينيَّة، وسمحت للاَّهوتيِّيْن أنْ يدرسوا أعمال أرسطُو في النُّسخ اللاَّتينيَّة المُترجمة عن العبريَّة[282]، وأهمُّ هؤلاء اللاَّهوتيِّيْن: ألبير الكبير، والقدِّيس تُوما الأكويني، فتعرَّفوا - بذلك - على الفكْر اليُوناني.

لكنَّ اليهُود لم يقفوا عند هذا الحَدِّ، لقد دعموا المادِّيَّة العَرَبيَّة التي هزَّت - بشدَّة - الإيمان المسيحيَّ، ونشرت الإلحاد، لدرجة أنَّهم أصبحوا يُؤكِّدون وُجُود جمعيَّة سرِّيَّة أقسمت أنْ تُحطِّم المسيحيَّة.[283]

وفي خلال القرن الثَّالث عشر؛ حيثُ ظهرت النَّهضة الإنسانويَّة المُلحدة والشُّكُوكيَّة؛ حيثُ دعم هُوفستاوفن الـ **Hafenstaufen** العلمَ على حساب العقيدة، وشجَّعوا الإيبقوريَّة، أمَّا اليهُود؛ فكانوا في الصَّفِّ الأوَّل للشَّارحين للكتاب، والعقلانيِّيْن في بلاد الإمبراطُور فريدريك الثَّاني (مركز الحياد الدِّينيّ)، وكانوا مُدلَّلين، ومُرحَّباً بهم، ومسمُوعين، وكما بيَّن

---

(281) عَودُ للفصل VII.

(282) مُونك، IOC.CIT.

(283) قصيدة نُزُول مار بُولُس إلى جهنَّم تلاها إرنست رينان، ابن رُشْد والابن رُشْديَّة، ص 284.

رينان[284] Renan هُمْ الذين خلقوا الابن رُشْدِيَّة، وهُمْ الذين صنعوا شُهرة ابن رُشْد هذا، الذي كان تأثيره كبيراً جداً، وبدُون شَكٍّ؛ ساهموا في نشر الشَّتائم للكُفَّار العَرَب، شتائم شجَّعها الإمبراطُور الذي يعشق العلم والفلسفة والتي رمز لها اللاَّهوتيُّون بشتائم الدَّجَّالين الثَّلاث: مُوسى ويسُوع ومُحمَّد، وجسَّدوا أقوال الصُّوفيِّيْن العَرَب: (لا تهمُّ كعبة المُسلمين، وكنيس اليهُود، أو دير المسيحيِّيْن)، وكان دار ميستيتر على حقٍّ عندما كتب: (اليهُوديُّ كان حبر غير المُؤمن، وكُلُّ الثَّائرين بالفكْر أتوا إليه في الظِّلِّ، أو في الملأ، لقد كان وراء إحاكة الشَّتائم عند الإمبراطُور الكبير فريدريك وأُمراء سواب وأرغون[285]، والجدير بالمُلاحظة هُو أنَّه إذا كان اليهُود الابن رُشْديِّيْن مُلحدين شكُوكيِّيْن وشاتمين قد حطَّموا المسيحيَّة بنَشْرهم المادِّيَّة والعقلانيَّة، فهُمْ أزعجوا هذا العدوَّ الآخر بالعقائد الكاثُوليكيَّة: الحُلُول في الواقع Le Fons Vite لـ Avicebron كان المنهل (النَّبع) (المصدر) الذي نهل منه كثير من الهراطقة، وإنَّه من المُمكن وحتَّى من المُحتمل أنْ يكون دافيد دي دينان وأموري دي شارتر قد تأثَّرا بـ Le Fons Vite، الذي عرفوه بحسب التَّرجمة التي أُجريت في القرن الثَّاني عشر، وأجراها رئيس شماسة دُومينيك غُونديسالنيوس، وبالتَّأكيد؛ فإنَّ جيُوردانُو برُونُو قد استعار من نبع الحياة هذا؛ حيثُ استخرج منه ـ جُزئيّاً[286] ـ نظريَّته في الحُلُول.

إذنْ؛ لم يكن اليهُود سبب اهتزاز العقائد وضعف الإيمان الذي حصل، إنَّما يُمكن أنْ يُعَدّوا بين الذين كانوا وراء التَّداعي والتَّغيُّرات التي تَبعت ذلك، فهُمْ لو كانوا غير موجودين لكان العَرَب واللاَّهوتيُّون المُتنوِّعون أخذوا موضعهم، لكنَّهم موجودون، وبما أنَّهم موجودون لم يكونوا ساكنين، أيّاً كان الأمر، فإنَّ رُوحهم عَملت من فوقهم، وأصبحت التَّوراة الخادمة المُفيدة للبحث الحُرِّ، كانت التَّوراة رُوح الإصلاح، ورُوح الثَّورة الدِّينيَّة والسِّياسيَّة الإنكليزيَّة، وعندما هيَّأ لُوثر والثُّوَّار الإنكليز للحُرِّيَّة كانت التَّوراة في أيديهم، وبالتَّوراة هزم لُوثر وملانشتون وغيرهم نير التِّيُوقراطيَّة[287] الرُّومانيَّة والقَمْع العقائديَّ، كما

---

(284) رينان.

(285) جيمس دار مشتيلر، نظرة على تاريخ الشَّعب اليهُوديِّ، باريس 1881.

(286) كُلُّ ما يتعلق بابن جُبير ودوره في فلسفة القُرُون الوُسْطى، وخُصُوصاً المُناقشات بين التُّومسينيِّيْن واللاَّهوتيِّيْن اقرأ: MUNK في خليط الفلسفة اليهُوديَّة والعَرَبيَّة، وهُورِيُو، تاريخ الفلسفة اللاَّهوتيَّة، باريس 1880 ـ 1872.

(287) حكُومة إلهيَّة يُشرف عليها رجال الدِّين.

أنَّهم انتصروا بواسطة الشَّرْح اليهُوديّ للتَّوراة الذيَ نقله للعالم المسيحيِّ نيقولا دي ليرا، وإذا كان لير وليس لهيراسيه لوثروس وليس سالتاسيه كما يُقال ليرا كان تلميذ اليهُود، فكان قد تمثَّل بعلْمهم في شُرُوح الكتاب المُقدَّس، لدرجة أنَّهم اعتقدوا أنَّه يهُوديٌّ، وهُنا ـ أيضاً ـ لم يكن اليهُود سبب الإصلاح، يكون ذلك لا معنى له في دَعْم الفكْرة، لكنَّهم كانوا مُساعدين لذلك، هذا ما يُميِّز حتَّى يُفرِّق بين المُؤرِّخ الحياديِّ واللاَّساميِّ، اللاَّساميُّ يقول: اليهُودي هُو (المُهيِّئ المُحرِّك المُهندس القائد في الثَّورات)[288] المُؤرِّخ يكتفي بدراسة الجُزء (أو الحصَّة) التي شارك فيها اليهُوديُّ في الآليَّة، وفي الحركات الثَّوريَّة، نَظَراً لذهنه وطبعه وطبيعة فلسفته وديانته، أعني بآليَّة ثوريَّة، المسيرة العقائديَّة للثَّورة، وبالأحرى؛ ما يُسمِّيه المُحافظون ثورة، والتي تتمثَّل من جهة بتهديم بطيء للدَّولة المسيحيَّة، وإضعاف السُّلطة الدِّينيَّة، ومن جهة أُخرى التَّطورُ الاقتصادي، لقد أشرتُ ـ باختصار ـ ماذا كان الدَّور الأيديُولُوجي لليهُوديِّ خلال العُصُور الوُسْطى في زمن الإصلاح وأثناء النَّهضة الإيطاليَّة؛ حيثُ (عَلَّم) دَرَّس يهُود ابن رُشْديِّين مثل إيلي ديل ميديكو في جامعة بادو الملاذ الأخير للفلسفة العَرَبيَّة[289]، ويُمكننا مُتابعة ذلك بإظهار أنَّ مُونتين **Montaigne** مثلاً؛ هذا النِّصف يهُودي ماذا يجب عليه تجاه أُصُوله؛ إذْ إنَّه قد استقى منها شُكُوكيَّته وإلحاده.

يجب ـ أيضاً ـ دراسة عقلانيَّة اسبينوزا في تفسير الكتاب المُقدَّس وعلاقاتها مع النَّقْد المسيحيِّ للكُتُب المُقدَّسة، كما يجب تبيان العناصر اليهُوديَّة في الميتافيزيقيا التي قدَّمها واعتبره مُعاصروه أمير المُلحدين[290] وكان بحسب شلاير ماخر مهووساً بالله (أو نشواناً بالله) ويجب ـ أخيراً ـ تتبُّع تأثير السّبينوزي في الفلسفة، خُصُوصاً في نهاية القرن الثَّامن عشر، وبداية القرن التَّاسع عشر، عندما أصبح هذا العبرانيُّ الصَّغير المُقعَد صاقل الزّجاج مُعلِّمَ وملاذ غُوته[291] الاعتياديّ والقدِّيس الذي عَبَدَهُ نُوفاليس وشلايماخر مُلهم الرُّومانسيِّيْن الأوائل والميتافيزيكيِّيْن الألمان.

---

(288) غُوجنُو دي مُوسُّو، اليهُودي، اليهُوديَّة واليهُود للشُّعُوب المسيحيَّة.

(289) "بُوخارت"، الحضارة في إيطاليا زمن النَّهضة 1885.

(290) حول اسبينوزا والإلحاد، اقرأ حياة اسبينوزا، كَتَبَهَا كُوليرُوس الذي كان من مُنافسيه، ومن بين الأعمال ضدَّ سبينوزا **DITREBUS IMPOSTORIBUS** "كُورتولت"؛ حيث يحمي أُسطُورة ابن رُشْد.

(291) غُوته، مُذكّرات ـ حوليَّات، 1811.

كذلك من المُهمِّ دراسة إسهام الفكْر اليهُوديّ (وليس اليهُوديّ) في مُناهضة (مُضادَّة) المسيحيَّة في القرن الثَّامن عشر، ويجب أنْ لا ننسى أنَّ العُلماء والجهابذة (العلاَّمة) في القرن السَّابع عشر، مثل فاغسنايل، وبارتولوشي، وبوكستروف، ومولف، أخرجوا من النِّسيان الكُتُب الهجائيَّة العبريَّة التي كانت تُهاجم الثَّالوث الأقدس والتَّجسُّد وكُلَّ العقائد والرُّمُوز بالفظاظة اليهُوديَّة والدِّقَّة التي كان يملكها المنطقيُّون الذين ألَّفوا التّلمُود، والذين ليس لهم مثيل في المنطق.

فهُمْ لم يكتفوا بنَشْر الدِّراسات العقائديَّة والانتقادات الفيزاشون والشِّيزوك إيمونا[292] **Les chizuk Emuna**، بل ترجموا الهجائيَّات الشَّائمة، حياة يسُوع والقرن الثَّامن عشر كرَّر المنطوقات السَّاخرة والأساطير غير اللاَّئقة للفرِّيسيِّيْن في القرن الثّاني، التي كُتبت عن يسُوع والعذراء، والتي نجدها في فُولتير وبارني **Parny**؛ حيثُ سُخريتهم العقلانيَّة الفظَّة والإيجابيَّة تعود، فتحيا من جديد في هاينة **Heine**، وبُورنه وديسرايلي **Disreéli**، كذلك كما تعود، فتحيا العقلانيَّة القويَّة للأحبار في كارل ماركس، والتَّوقُّد التَّحرُّري للثُّوَّار العبرانيِّيْن يعود فيحيا في سرُور فرديناند لاسال.

لم أُلخِّص هُنا وفي خُطُوط عريضة إلاَّ دور اليهُود في تطوُّر بعض الأفكار التي ساهمت في الثَّورة العامَّة. لكنَّني لم أُنوِّه كيف بدا في العمل الثَّوريِّ وبأيَّة طريقة ساعد فيها، رُبَّما كان خميرةً في التَّطوُّر الاجتماعيِّ، أعتقد أنَّني برهنتُ عن ذلك عدَّة مرَّات[293]. هل كان عُنْصرُ شغب كما يتَّهمه المُحافظون؟ إذْ إنَّ النّظام والانسجام كانا مُمَثَّليْن بالملكيَّة المسيحيَّة. وإذا وجب أنْ نُصدِّق بارويل وكريتينو - جولي، وغُوجنُو، ومُوسُّو، ودُوم دي شان، وكلُودِيُوجانيت، وكُلَّ الذين يرون التَّاريخ هُو مُجرَّد عمل الجمعيَّات السِّرِّيَّة تُصبح أهمِّيَّة اليهُود ودورهم في الثَّورات والانقلابات الاجتماعيَّة دوراً رئيسيَّاً. لكنْ؛ من المُستحيل قُبُول هذه النَّظرة التَّاريخيَّة - الكاذبة، لكنْ؛ - بالتَّأكيد - كان للجمعيَّات السِّرِّيَّة خلال السِّنين الأخيرة من القرن الثَّامن عشر أهميَّة كبيرة. فإنْ لم تكن مُنتجة للنَّظريَّات الإنسانيَّة والعقلانيَّة والضِّدّ - سُلطويَّة، إنَّما هي نشرتها بشكل رائع، وكانت بذلك من المُحرِّكات الكبيرة.

---

(292) انظر التَّوراة العبرانيَّة، ص 639.

(293) أتمنَّى أنْ أُظهر ذلك بشكل أفضل في كتابي تاريخ اليهُود الاقتصاديّ؛ حيثُ لا يُشكِّل دور اليهُود في الثَّورة الفرنسيَّة إلاَّ جُزءاً.

ليس بإمكاننا أنْ نُنكر أنَّ الإشراقيَّة والمارتينيَّة(*) كانتا المهيِّئَيْن القويَّيْن للثَّورات، لكنَّهما لم تأخذا تلك الأهميَّة إلاَّ عندما سادت النّظريَّات التي تُمثِّلها، وبعيداً عن أنْ تكون الأسباب لهذه الحالة الذِّهنيَّة التي أسَّست الثَّورة كانتا النَّتائج، وهي أثَّرت - بدورها - على مسيرة الأحداث.

والآن؛ ماذا وكيف كانت علاقات اليهُود بهذه الجمعيَّات السِّرِّيَّة؟ هذا ليس بالسَّهل توضيحه؛ لأنَّ المراجع الجدِّيَّة تنقصنا. والمعقول أنَّهم لم يسودوا في هذه الجمعيَّات كما يزعم بعض الكُتَّاب من الذين عَدَدْتُهُم، كما أنَّهم لم يكونوا "(بشكل ضروري) بالضَّرورة الرُّوح والقائد والمُعلِّم الكبير للماسُونيَّة". هذا ما يُؤكِّده غُوجنُو دي مُوسُّو.[294]

لكنْ؛ من المُؤكَّد أنَّه كان هُناك يهُود في مهد الفرمسُونيَّة ذاتها. يهُود قَبَلانيُّون، وهذا ما تُثبته بعض الطُّقُوس المحفوظة. ومن المُحتمل جدّاً أنَّهم دخلوا بأعداد كبيرة في مجالس هذه الجمعيَّة، وذلك في السِّنين التي سبقت الثَّورة الفرنسيَّة، وأسَّسوا جمعيَّات سرِّيَّة بأنفسهم. كان هُناك يهُود حول وايشُوبت **Weishaupt**، ومارتينيز دي باسكاواليس، وهُو يهُوديٌّ من أصل بُرتغاليٍّ، نظَّم عدَّة مجموعات إشراقيَّة في فرنسا، وجَذَبَ إليه كثيراً من المُنتسبين[295] الذين عَلَّمهم مبادئ عقيدة العودة والاسترجاع.

المحافل المارتينيزيَّة كانت دينيَّة، بينما كانت المُنظَّمات الفرمسُونيَّة الأُخرى عقلانيَّة. وهذا ما يسمح لنا أنْ نقول إنَّ الجمعيَّات السِّرِّيَّة كانت تُمثِّل جانبَيْ الذِّهن اليهُوديِّ: العقلانيَّة العمليَّة ووحدة الوُجُود التي تعكس ميتافيزيكيَّة الاعتقاد بالله الواحد، والتي تُؤدِّي - أحياناً - إلى الشَّعْوَذة القَبَلانيَّة. وبالإمكان - بسُهُولة تامَّة - إظهار اتِّفاق هذَيْن الاتِّجاهَيْن، عهد دي كازوت[296]، وكاكليوسترو ودي مارنينيز - دي سان مارتان، والكُونت دي سان جيرمان وايكارت هاوزن مع الموسوعيِّيْن والجاكُوبيِّيْن، وأنَّهم - رغم تعارضهم - وصلوا إلى النَّتيجة نَفْسها؛ أيْ إضعاف المسيحيَّة. هذا يدلُّ أنَّ اليهُود استطاعوا أنْ يكونوا عُملاء جيِّدين للجمعيَّات السِّرِّيَّة؛ لأنَّ عقائد هذه الجمعيَّات توافقت مع عقائدهم الخاصَّة، لكنَّهم لم يكونوا هُمْ البادئين في التَّأسيس.

(*) مذهب دينيٌّ أسَّسه مارتينز باسكاواليس وتلميذه **Martinisme** القدِّيس مارتان.

(294) غُوجنُو دي مُوسُّو.

(295) "ماتر" سان مارتان والفلسفة المجهولة، باريس **1862**.

(296) لقد أكَّدوا - دوماً - أنَّ كاغليوسترو كان يهُوديّاً، لكنْ؛ دُون تقديم سَنَد لهذا التَّوكيد.

أمَّا حالة مارتينيز دي باسكاوالس؛ فهي خاصَّة جداً، فيجب أنْ لا ننسى أنَّه من قبل أنْ يُنظِّم محافله كان مارتينيز قد تعلَّم أسرار الإشراقيَّة في زهرة (وردة) الصَّليب Rose - Croix. وخلال الفترات الثَّوريَّة لم يبقَ اليهُود مكتُوفي الأيادي. ونظراً لقلَّة عددهم في باريس، تجدهم يشغلون مكاناً كبيراً كناخبي - قطاع، ضُبَّاط فرقة، أو مُساعدين. إنَّهم ليسوا أقلَّ من ثمانية عشر في باريس، ويستوجب تجديد أرشيفات الرِّيف لتحديد دورهم العامِّ. بين هؤلاء الثَّمانية عشر، يستحقُّ بعضهم التَّنويه عنه.

فالجرَّاح جُوزف رافيل عُضو الهيئة العامَّة في المجلس البلديِّ، والذي أُعدِم بعد التَّاسع تيرميدور (أيْ الشَّهر الحادي عشر من الثَّورة الفرنسيَّة) وإسحق كالمر رئيس لجنة المُراقبة في كليشي، أُعدم في 29 مسيدور عام II (أيْ الشَّهر العاشر) وأخيراً؛ جاكوب بيريرا مُفوَّض قديم في السُّلطة التَّنفيذيَّة في بلجيكا عند ديمُورييه Dumouriez، والذي هُو عُضو في حزب الـ Hebertistes، حُوكم وأُدين في الوقت نَفْسه مع Herbcrt، وأُعدم في 4 جيرمينال[297] أيْ الشَّهر السَّابع من الثَّورة الفرنسيَّة.

ورأينا كيف كانوا مُلتفِّين حول سان سيمون، أتمّوا الثَّورة الاقتصاديَّة؛ حيثُ كان عام 1789 مرحلة منها[298] وكيف كانت أهمِّيَّتهم في مدرسة أولندر رودريغر، وردي إيشتال، وإسحق بيريري.

أمَّا خلال الحقبة الثَّانية من الثَّورة؛ أيْ اعتباراً من عام 1830، أبدوا نشاطاً أكثر من المرحلة الأُولى. لقد كان لهم مصلحة مُباشرة؛ إذْ إنَّهم في أغلب الدُّول الأُورُوبيَّة لم يكونوا يتمتَّعون بكامل حقُوقهم بَعْدُ. والذي منهم لم يكونوا ثوريِّيْن بالعقل والطَّبع أصبحوا ثوريِّيْن بدافع المصلحة. فهُمْ عندما عملوا لنصرة اللِّيبراليَّة إنَّما عملوا لأنفسهم. وممَّا لا شكَّ فيه أنَّهم - بحيويَّتهم وموهبتهم وذَهَبهم - دعموا وأعانوا الثَّورة الأُورُوبيَّة. فعلى مدى هذه السَّنوات أخذت مصارفهم وصناعيُّوهم وشُعراؤهم وكُتَّابهم بالعمل على الهدف نَفْسه.

---

(297) انظر إميل كامباردون: المحكمة الثَّوريَّة في باريس 1866، الدَّعوى والمُحاكمة في المحكمة الثَّوريَّة ضدَّ هيبر وكونسور، باريس 1889.

(298) "كابيغيغ"، تاريخ العمليَّات الاقتصاديَّة الكبيرة - "وتُوسينيل"، اليهُود مُلُوك العصر.

"وقد قال كريتينو ـ جُولي[299]: لقد رأيناهم بلحية مشعثة، وظهر مُنحنٍ، وبنظرة حادَّة؛ يجُوبُون المَقاطعات التَّعيسة في الاتِّجاهات كُلِّها. والذي جعلهم بهذا النّشاط لم يكن التَّعطُّش إلى الرَّفاهية، مع أنَّ ذلك هُو عكس عاداتهم. لكنَّهم كانوا مُتصوِّرين أنَّ المسيحيَّة سوف لن تصمد تجاه الاعتداءات العديدة التي تعرَّض لها المُجتمع، وصاروا يُهرعون طالبين من صليب الجلجلة إصلاح لـ **1840** أعوام من الآلام المُستحقَّة".

لكنَّ هذا الشُّعُور لم يكن الدَّافع لمُوشه هيس، وكابريل رايسر، وهاينه، وبُورنه، في ألمانيا، ومانين في إيطاليا، وجيلينيك في النِّمسا، ولُوبلينر في بُولُونيا، وآخرين، إنَّما ناضلوا من أجل الحُرِّيَّة، أمَّا أنْ نرى في هذا التَّحرُّك العالميِّ الذي هزَّ أُورُوبا حتَّى بعد **1848** أنَّه عمل بعض اليهُود الرّاغبين بالانتقام من الجليليِّ يكون بالاعتقاد والرُّؤية الغربيَّة، لكنْ؛ مهما كان الهدف المُراد أو الهدف المثالي، فإنَّ اليهُود كانوا في تلك الفترة بين النّاس الأكثر نشاطاً، الأكثر جَلَداً، لا يكلُّون في نَشْر الدِّعايات. فتراهم مُنخرطين في حركة ألمانيا الفتاة. وكانوا بأعداد كبيرة في الجمعيَّات السِّرِّيَّة التي شكَّلت الجيش الثَّوري المُناضل، وفي المحافل الماسُونيَّة وفي مجموعات الشَّاربُونري في روما وفرنسا وألمانيا وسويسرا والنِّمسا وإيطاليا.

أمَّا ما يخصُّ فعْلهم وتأثيرهم في الاشتراكيَّة المُعاصرة؛ فكان ذلك كبيراً جداً، ومايزال. نستطيع القول إنَّ اليهُود هُمْ في قطبَيْ المُجتمع المُعاصر. لقد كانوا بين مُؤسِّسي الرَّأسمال الصِّناعيِّ والماليِّ، وثاروا ـ بأشدَّ ما يكون العُنف ـ ضدَّ رأس المال هذا.

فمُقابل رُوتشيلد هُناك ماركس ولاسال. فمن النِّضال من أجل المال إلى النِّضال ضدَّ المال. ومن المُواطن العالميِّ المُضارِب أصبح البروليتاري الأُممي والثَّوري.

فماركس هُو الذي أعطى القُوَّة الدَّافعة للأُمميَّة ببيان **1847**، الذي كَتَبَهُ هُو نَفْسه مع **أنغلز**، ولا يصحُّ القول بأنَّه أسَّس الأُمميَّة مثلما يُؤكِّد البعض أنَّ الأُمميَّة هي جمعيَّة سرِّيَّة كان **اليهُود** قُوَّادها، بل إنَّ هُناك أسباب كثيرة أدَّت إلى تكوين الأُمميَّة. أمَّا ماركس؛ فكان مُلهم اجتماع العُمَّال الذي أُقيم في لُندُن عام **1864**؛ حيثُ انبثقت هذه الجمعيَّة (أو التَّجمُّع) كان **اليهُود** كُثُرٌ فيها، وفي الهيئة العامَّة فقط؛ كان كارل ماركس سكرتير ألمانيا ورُوسيا وجيمس

---

(299) كريتينو ـ جولي، تاريخ الزّوندريوند، باريس 1850.

كُوهين سكرتير الدّانمارك[300]. وكثير من اليهُود تنظّموا في العالميّة Internationale لعبوا ـ لاحقاً ـ دوراً في الجمعيّة؛[301] حيثُ وجدوا آخرين من أبناء دينهم.

أمّا بالنّسبة لتنظيم الحزب الاشتراكي؛ فقد ساهم اليهُود فيه بشكل قويٍّ جدّاً. ماركس ولاسال في ألمانيا[302]، هارُون ليبرمان وأدلر في النّمسا. دوبروجانوا جهيريا في رُومانيا، وكومبرزوخان ودي ليون في الولايات المُتّحدة الأمريكيّة، فكانوا ـ ومازالوا ـ المُديرين أو المُؤسّسين. أمّا اليهُود الرُّوس؛ فهُمْ يشغلون مكاناً مُتفرّداً في هذا المُختصر. فالطُّلاّب الشّبّاب كانوا قد غادروا ـ للتّوّ ـ المُعتقل، وشاركوا في الاضطرابات العِرْقيّة.

بعضهم ضحّى بحياته؛ ومنهم النّساء من أجل قضيّة التّحرُّر، وإلى جانب هؤلاء الأطبّاء والمُحامين اليهُود تُسمّى الكتلة الكبيرة للاّجئين الحرفيّيْن الذين أسّسوا في لُندُن ونيُو يُورك تجمُّعات عُمّاليّة ضخمة وهامّة ومراكز للدّعاية الاشتراكيّة وحتّى الشُّيُوعيّة الفوضويّة.

لقد اختصرتُ التّاريخ الثّوري لليهُود، أو إنّني ـ على الأقلّ ـ حاولتُ أنْ أُشير كيف يُمكن دراسته. وأظهرتُ كيف أنّهم تصرّفوا إيديُولُوجيّاً وبنشاط، وكيف كانوا من الذين هيّؤوا الثّورات بالفكْر ومن الذين ترجموه إلى فعْل.

قد يعترضون عليَّ بأنَّ اليهُوديَّ عندما يُصبح ثوريّاً فهُو يُصبح ـ غالباً ـ مُلحداً، فيتوقّف عن كونه يهُوديّاً.

هذا يحدث بطريقة مُعيَّنة فقط، خاصّة أولاد الثّوريّ، فهُمْ يذُوبُون في المُجتمع المُحيط بهم، وبالنّتيجة؛ اليهُود الثّوريُّون ينصهرون أسهل بكثير من غيرهم. لكنْ؛ بشكل عامٍّ؛

---

(300) غير كارل ماركس وكُوهين نُورد "نويمايز" سكرتير مكتب المُراسلات في النّمسا: وفريبورغ أحد مُديري الاتّحاد الباريسيّ للعالميّة؛ حيثُ كان أيضاً: لُوب، وهالتماير، ولازار، وأرمان ليفي.

ليون فرانكل أدار القسم الألماني في باريس، وكُوهين كان مندوب الجمعيّة اللُّندُنيّة في مُؤتمر العالميّة، الذي قام في بروكسيل عام 1868، "كونن" كان في المُؤتمر نَفْسه مندوباً عن قسم أنفير في العالميّة.

(301) من بينهم فريبورغ وليوفرانكل.

(302) يُوجد ـ أيضاً ـ أربعة نُوّاب يهُود اشتراكيُّون ديمُقراط في المجلس الألماني: وبين الشّبّاب الاشتراكيّيْن التّعاونيّيْن والشُّيُوعيّيْن الفوضويّيْن نعدُّ بينهم عدداً كبيراً من اليهُود. ومن بين الإصلاحيّيْن اليهُود الدُّكتُور هيرتسكا: بحث في التّنظيم الاجتماعيّ. " رحلة إلى الأرض الحُرَّة" باريس ليون شايي، النّاشر في نيسان 1891، احتفل الإسرائيليُّون الثّوريُّون في لُندُن بعيد تأسيس ناديهم في برزستريت. مُنذُ سبع سنوات ظهر اليهُود الثّوريُّون في كُلّ مكان؛ حيثُ يُوجد يهُود في لُندُن وأمريكا وأُستراليا وبُولُونيا ورُوسيا: يُوجد يهُود ثائرون وفوضويُّون يُريدون أنْ يتكلّموا عن دُخُول اليهُود البرُوليتاريُّون في الحركة العُمّاليّة الثّوريّة.

اليهُود - حتَّى الثَّوريِّين منهم - حافظوا على ذهنيَّتهم اليهُوديَّة ، وهُمْ ، وإنْ تركوا الدِّيانة والإيمان ، لكنَّهم خضعوا - تربوياً - للتَّأثير القوميِّ اليهُودي . وهذا يصحُّ بما يخصُّ الثَّوريِّين اليهُود الذين عاشوا في النِّصف الأوَّل من هذا القرن ، ويُقدِّم لنا هنري هانيه وكارل ماركس مثالَيْن جيِّدَيْن .

هانيه **Heine** الذي كانوا يعتبرونه في فرنسا وكأنَّه ألمانيٌّ ، وفي ألمانيا ؛ كانوا يأخذون عليه أنَّه فرنسيٌّ ، أمَّا هُو ؛ فكان - قبل كُلِّ شيء - يهُودياً . ولأنَّه كان يهُودياً عَظَّم نابليون ، وتحمَّس لقيصر مثل حماس الإسرائيليِّين الألمان الذين تجرَّدوا بالإرادة الإمبراطُوريَّة .

فسُخريته وخيبة أمله هُمْا شبيهان بما يُصيب الكاهن . فهُو مثل كوهيليه **Kohelet** يُحبُّ الحياة وأفراح الأرض ، وذلك قبل أنْ يُصيبه المرض والألم ، إذنْ ؛ كان الموت يُعَدُّ أقصى آلام الرُّوح الدِّينيَّة عند هانيه ، وهي آتية من أيُّوب القديم ، والفلسفة الوحيدة التي أعجبته هي فلسفة وحدة الوُجُود ، وهي العقيدة الطَّبيعيَّة للميتافيزيقيِّ اليهُوديِّ الذي يتأمَّل في وحدة الإله ، ويُحوِّلها إلى وحدة ماديَّة . وأخيراً ؛ فإن حَسْويَّته ، هذه الحَسْويَّة الحزينة المُحبَّة للذَّات في مُؤلَّفه "**L' intermezzo**" فهي شرقيَّة صرفة ؛ إذْ إنَّنا نجد أُصُولها في نشيد الإنشاد . كذلك ماركس : هذا السَّليل لسُلالة حاخامات وأحبار ، ورث أجداده كُلَّ القُوَّة المنطقيَّة ، فهُو كان تلمُودياً نيِّراً وواضحاً ، لم تُحرجه التَّفاصيل الغبيَّة للمُمارسة ، تلمُودياً دَرَسَ علم الاجتماع ، وطبَّق صفاته الولاديَّة في تفسير الكتاب المُقدَّس في نَقْد الاقتصاد السِّياسيِّ .

فهُو كان مُعبَّأ بهذا الفكْر الماديِّ العبرانيِّ القديم الذي كان يحلم - باستمرار - بفردوس مُحقَّق على الأرض ، ويرفض - دوماً - الأمل البعيد والمُعقَّد بجنَّة عَدَن بعد الممات . وهُو لم يكن عالم منطق فحسب ، إنَّما كان - أيضاً - ثورياً ، مُحرِّضاً هجائياً قاسياً ، أخذ موهبة التَّهكُّم والقدح ؛ حيثُ أخذها هجائيَّاً ، من المصادر اليهُوديَّة نستطيع - أيضاً - أنْ نُظهر ما أثَّر في بُورنه ، ولا سال ، ومُوشه هيس ، ورُوبير بلوم ، من أُصُولهم العبرانيَّة ، وحتَّى في ديسرايلي ، فيكون عندنا الدَّليل عن استمراريَّة الرُّوح اليهُوديَّة عند المُفكِّرين . هذه الرُّوح اليهُوديَّة التي أشرنا إليها عند مُونتين **Montaigne** وسبينوزا ، لكنْ ؛ إذا كان الكُتَّاب والعُلماء والشُّعراء والفلاسفة وعُلماء الاجتماع اليهُود قد احتفظوا بهذه الرُّوح اليهُوديَّة هل حصل الأمر نَفْسه بالنِّسبة للكتلة الشَّعبيَّة التي تتهافت - حاليَّاً - على الاشتراكيَّة أو الفوضويَّة؟ هُنا يجب أنْ نُميِّز أنَّ الذين تكلَّمتُ عنهم : يهُود لُندُن والولايات المُتَّحدة الأمريكيَّة وهُولندا

وألمانيا وأُستراليا قبلوا بالعقائد الثَّوريَّة؛ لأنَّهم عُمَّال برُوليتاريُّون، وينتمون إلى الطَّبقة الكادحة، وهي في صراع مع رأس المال، منهم يتعلَّقون بالثَّورة، وذلك بحُكْم القوانين الاجتماعيَّة التي تدفعهم، إنَّما هُمْ لا يُثيرون الثَّورة، بل ينتمون إليها، ويتبعونها، ولا يُولِّدونها. وهذه المجموعات العُمَّاليَّة التي انفصلت عن الإيمان القديم، وتركت الدِّين والمُعتقد بأكمله، ولم تَعُدْ يهُوديَّة بالمعنى الدِّيني للكلمة، إنَّما بقوا يهُودا بالمعنى القوميِّ، فيهُود لُندُن والولايات المُتَّحدة الذين غادروا بلدهم الأصليِّ هاربين من بُولُونيا، وخُصُوصاً رُوسيا؛ حيثُ كانوا مُضطَهَدين، تحالفوا فيما بينهم، فشكَّلوا مجموعات تمثَّلت في المُؤتمرات العُمَّاليَّة تحت اسم "مجموعة اللُّغة اليهُوديَّة"، منهم يتكلَّمون لهجة شعبيَّة ألمانيَّة ممزوجة بالعبرانيَّة، منهم لم يتكلَّموها فقط، إنَّما أصدروا صُحُفهم الدِّعائيَّة بهذه اللَّهجة، وطبعوها بالأحرف العبرانيَّة[303]. قد يُعترض على ذلك كونهم مطرودين من وطنهم، ووصلوا إلى بلد يجهلون لُغته، فكانوا مُجبرين لأنْ يتَّحدوا، وأنْ يستمرّوا بشكل طبيعيٍّ بالتّكلُّم بالعبريِّ ـ الألماني؛ لأنَّهم يعرفونه، هذا الاعتراض صحيحٌ، لكنْ؛ يجب أنْ نُلاحظ أنَّه في بُلدان أُخرى مثل هُولندا، وغاليسيا، فإن العُمَّال اليهُود الوطنيِّيْن شكَّلوا ـ أيضاً ـ تجمُّعات خاصَّة.[304]

إذاً؛ فإنَّ اليهُوديَّ يُشارك في الثَّورة، ويُشارك بكونه يهُوديّاً؛ أيْ يبقى يهُوديّاً، هل ـ بسبب ذلك ـ أصبح المُحافظون المسيحيُّون مُناهضين للسَّاميَّة؟ وهذه المواقف اليهُوديَّة الثَّوريَّة هل هي سبب لهذه المُناهضة؟

لنَقُل: إنَّ غالبيَّة المُحافظين يجهلون هذا العمل التَّاريخيَّ والإيديُولُوجيَّ اليهُوديَّ. فهُو لم يُعرف ـ على وجه التّقريب ـ من المُنظِّرين والأُدباء اللاَّساميِّيْن، كما أنَّ العداء ضدَّ اليهُود لا يأتي من أنَّها ساعدت على تهيئة الإرهاب، ولا أنَّ ماركس نظَّم العالميَّة.

فاللاَّسامي ـ اللاَّسامي المُحافظ المسيحيُّ ـ يقول:

---

(303) تصدر في لُندُن صحيفة: "العامل الصَّديق"، وفي نيُويُورك اثنتان: صحيفة العُمَّال، ومثلها أُسبُوعيَّة. ومجلَّة شهريَّة: المُستقبل، هذه الصُّحُف والمجلاَّت هي إمَّا اشتراكيَّة أو شيُوعيَّة فوضويَّة.

(304) الاشتراكيُّون اليهُود في هُولندا أصدروا مجلَّة عُنوانها: العُضو الاشتراكي اليهُودي. العُمَّال الاشتراكيُّون اليهُود في غاليسيا أصدروا مجلَّة باللُّغة العبريَّة واللَّهجة العبريَّة ـ الجرمانيَّة: "الحقيقة".

"إذا كان المُجتمع المُعاصر مُختلفاً جداً عن المُجتمع قبل الثَّورة، وإذا كان الإيمان الدِّينيُّ قد نقص، وإذا تحوَّل النِّظام السِّياسيُّ والأعمال، وإذا سيطر رأس المال الصِّناعيُّ والعالميُّ فالخطأ هُو من اليهُود".

هُنا يجب أنْ نُحدِّد. اليهُوديُّ موجُود في هذه الأُمم مُنذُ قُرُون، وكما يقولون: يموتون منه: لماذا بقي هذا السُّمُّ زمناً طويلاً حتَّى تطوَّر؟ لأنَّه فيما مضى كان اليهُوديُّ خارج المُجتمع ومُنفصلاً عنه، ويعيش على هُدىً، هذا هُو الجواب الاعتياديُّ. ومُنذُ أنْ دخل اليهُودي في المُجتمع أصبح عُنْصُر شَغَب. لقد عمل مثل الخُلْد على تدمير المُؤسَّسات التي تستند عليها الدُّول المسيحيَّة. وبذلك نفهم لماذا تداعت الشُّعُوب، وعجزت، وانحطَّت فكْريّاً وأخلاقيّاً:

فهُمْ مثل الجسم البشريِّ يشكون من عُسر هَضْم الأجسام الغريبة، وعندهم تُسبِّبُ هذه الأجسام الغريبة تشنُّجات وأمراض. فاليهُوديُّ يفعل ـ بمُجرَّد وُجُوده ـ دور الهَدَّام: فهُو يُخرب، ويثير، ويُقوِّي الاضطراب، ويُثير رُدُود الفعل الفظيعة. إدخال اليهُوديِّ في الأُمم هُو كارثة لهذه الأُمم، فهي تموت من جرَّاء استقباله. هذه هي الرُّؤيا المُبسَّطة للمُحافظين اللاَّساميِّيْن عن التَّغيُّرات الاجتماعيَّة.

بالنِّسبة لهم؛ لا يُوجد تغييرات اقتصاديَّة، ولا تحوُّلات في رأس المال، ولا تعديلات في الضَّمير البشريِّ.

لا يُوجد إلاَّ شيئان اثنان، في الماضي مُجتمع مُزدهر وغنيٌّ مُؤسَّس على مبادئ أخلاقيَّة متينة، ومبادئ سياسيَّة ودينيَّة، لكنْ؛ من الآن فصاعداً؛ قَلَبَ هذا المُجتمع النَّظريَّات الأخلاقيَّة القديمة، ولم يَعُدْ عنده أفكار مُلائمة وجيِّدة عن السُّلطة والنِّظام الضَّروريَّيْن لحفْظ المُجتمعات البشريَّة؛ إذْ إنَّ في المُجتمعات القديمة لم يكن يُقبل اليهُودي، أمَّا في الحديثة؛ فهُو يُستقبل على الرَّحب والسَّعة، فرأوا ـ هُنا ـ علاقة بين السَّبب والفعْل، ونسبوا إلى اليهُود فعْل العُصُور، فعْل ألف جهد لتعديل كُلِّ أُمَّة.

كما أنَّهم لم يكتفوا بهذا الاتِّهام، فاليهُودي هُو ليس مُخرِّباً فقط، إنَّما هُو بانٍ أيضاً، مُتكبِّراً طمُوحاً، مُتسلِّطاً، يبحث لأنْ يُرجِع كُلَّ شيء إليه. فهُو لا يكتفي بإبعاد النَّاس عن المسيحيَّة، بل هُو يُهوِّدُهُم. هُو يُحطِّم الإيمان الكاثُوليكي أو البرُوتستانتي، ويُحرِّض على

الحياديَّة، ويفرض على الذي يُحطِّم مُعتقداتهم نظريَّة إلى العالم والأخلاق والحياة. إنَّه يعمل عمل الأجيال: تحطيم ديانة المسيح.

مُناهضو السَّاميَّة المسيحيُّون، هل هُمْ على حقٍّ أم هُمْ يُخطئون؟

هل اليهُوديُّ هُو - دوماً - ضدَّ المسيحيَّة وبكراهيَّة - أقول بكراهيَّة - لأنَّه ضدَّ المسيحيَّة بالتَّحديد؛ ولأنَّه يهُوديٌّ هُو ضدَّ الإسلام، كما أنَّه ضدَّ كُلِّ مَنْ هُو من غير مبادئه؟ هل احتفظ بمشاعره القديمة؟ لقد احتفظ بها في كُلِّ مكان؛ حيثُ بقي خارج المُجتمع، في كُلِّ مكان يعيش فيه مُنعزلاً في المُعتقلات تحت إدارة أحباره الذين يتحالفون مع الحُكُومات ليمنعوه من الاستنارة (رؤية النُّور) وفي كُلِّ مكان يُسيطر فيه التّلمُود، وفي هذا الشَّرق الأُورُوبي؛ حيثُ تسود اللاَّساميَّة الشَّرْعيَّة. وفي أُورُوبا الغربيَّة؛ حيثُ التّلمُود أصبح مجهولاً، وحيثُ "الهيدير" اليهُوديّ عُوِّض عنه بالمدرسة، هذه الكراهيَّة اختفت بالمقادير نَفْسها التي اختفت فيها كراهيَّة المسيحيِّ ضدَّ اليهُوديِّ. ويجب أنْ لا ننسى أنَّنا، إذا نتكلَّم غالباً عن عداء اليهُوديِّ ضدَّ المسيحيِّ، فإنَّنا نتكلَّم - نادراً - عن عداء المسيحيِّ ضدَّ اليهُوديِّ، عداء مازال مُستمراً. فالأفكار السَّلَفيَّة ضدَّ اليهُود لم تمت، كما أنَّهم مايزالون يعتقدون برائحة اليهُود. وقد أعلن لاساميٌّ ألمانيٌّ أنَّ البابا بي التَّاسع كان يهُودياً، وقد عرف ذلك عندما شمَّ الحذاء الذي مَدَّه له البابا ليُقبِّله، والبعض مايزالون يعتقدون بالعاهات الخاصَّة باليهُود، وإلى جانب الطِّبِّ اللاَّساميِّ الذي انكبَّ على دراسة الأمراض اليهُوديَّة، هُناك كُتَّاب بحثوا فيه - جدِّيّاً - في نماذج لعشائر اليهُوديَّة[305]. فنجد في الكُتُب اللاَّساميَّة كُلَّ المزاعم في هجائيَّات القُرُون الوُسْطى، والتي تُعزِّزها المُعتقدات الشَّعبيَّة، أمَّا الحُكْم السَّلَفيُّ الأكثر قُوَّة؛ فهُو الذي يرمز ويُكرِّس بأفضل ما يكون الصِّراع اليهُوديّ ضدَّ المسيحيَّة؛ إنَّه القَتْل الطَّقْسيُّ.

فاليهُوديُّ بحاجة لدم مسيحيٍّ فطير صِهْيَوْن، ليحتفل بالفصْح، هكذا يقولون، ما هُو أصل هذا الاتِّهام الذي يعود إلى القرن الثَّاني عشر؟[306]

---

(305) إدوارد درُومُون مثلاً في "فرنسا اليهُوديَّة"، ص 34. 35، ولجمال البُرهان تصوَّر درُومُون قبيلة جديدة هي التي يتحدَّث عنها لأوَّل مرَّة: قبيلة يعقُوب، ويُحدِّد خصائصها، مع أنَّه يقول: في الوضع الرَّاهن لعلم الجنين لا يُمكننا أنْ نصيغ قاعدة دقيقة... وأنا أُصدِّقه.

(306) في "بلوا" عام 1711، وللمرَّة الأُولى؛ اتُّهم اليهُود بصَلْب طفل بمُناسبة عيد فصْحهم. والكُونت "تيو بالد دي شارت" بعد أنْ أخضع الذي اتَّهمهم إلى امتحان الماء، وكان لصالحه: أحرق أربعة وثلاثين يهُودياً وسبعة عشر يهُوديَّة كمتَّهمين.

نرى ـ بوُضُوح ـ كيف نشأ الاتِّهام المُماثل الذي وجَّهه الرُّومان ضدَّ المسيحيِّيْن الأوَّلِيِّيْن : نشأ من النَّظرة الواقعيَّة للعشاء الأخير، وإلى تفسير حَرْفي لكلام المُقدَّس حول جسد ودم المسيح[307]، كيف يُعاني اليهُود من مُعتقدٍ كهذا، وقد كَتَبَ مُوسى، تُرفض فظاعة الدَّم؟ يجب أنْ يُدرَس الموضوع بعُمق.

يجب دراسة النَّظريَّات التي تزعم أنَّ الأضاحي البشريَّة هي ذات أصل ساميٍّ، بينما نجدها في الشُّعُوب جميعها في مرحلة مُعيَّنة من الحضارة[308]، ويجب بَرْهَنَةُ أنَّه لا يُوجد أيُّ كتاب عبرانيٍّ أو تلمُوديٍّ أو قَبَلانيٍّ يحتوي على تعليمات القَتْل الطَّقْسيِّ[309]، وقد برهن ذلك ديليش في ألمانيا، وفاغنسايل[310].

وقد برهنوا ـ بذلك ـ أنَّ الدِّيانة اليهُوديَّة لا تتطلَّب دماء، لكنْ؛ هل باستطاعتهم أنْ يُبرهنوا أنَّ اليهُوديَّ لم يسفك دماءً؟

كلا؛ بالتَّأكيد خلال العُصُور الوُسْطى كان هُناك يهُود قَتَلَة، دفعهم الإذلال والاضطهاد إلى الانتقام وقَتْل مُضطهديهم، وحتَّى أبناءهم. غير أنَّ ذلك كُلَّه لا يُعطينا تفسيراً للأُسطُورة الشَّعبيَّة التي نشأت أوَّلاً من الفكْرة الشَّائعة أنَّ اليهُوديَّ مدفوع ـ بشكل حتميٍّ في كُلِّ عام ـ إلى إعادة قَتْل المسيح؛ ولو بشكل تصوُّريٍّ مجازيٍّ، لذلك؛ في الأفعال الأُسطُوريَّة، للأولاد الشُّهداء يُظهرون ـ دوماً ـ الضَّحيَّة مُكلَّلة بالشَّوك والخاصرة مغروسٌ فيها رُمحٌ.

---

(307) اتُّهم المانديُّون المسيحيُّون بعَجْن برشانهم أو قُربانهم بدم طفل يهُوديٍّ. ويُؤكِّد الصِّينيُّون أنَّ الإرساليَّات الكاثُوليكيَّة كانت تقتل أطفالهم، لتصنع من قُلُوبهم شراب المحبَّة.

(308) مُقابل حيفته الذي ضحَّى بابنتَيْه يتناسب اغا ممنون الذي ذبح ابنته هُو أيضاً، والهُولُوكُوست التَّوراتيَّة تُناسب هُولُوكُوست العولوشيه.

هذه الفكْرة الوحشيَّة البربريَّة بتضحية شخص للآلهة هي موجودة في كُلِّ مكان، ووصلت إلى ذروتها مع الدِّيانة المسيحيَّة التي هي تضحية مُستمرَّة دمويَّة فيها الثَّور والحَمَل يُعوَّض عنهما بالإنسان الذي يموت باستمرار، بينما نتناول اللَّحم والدَّم آخر أثر رمزيٍّ لأكلة لُحُوم البشر الدِّينيَّة. نظريَّة الأُضحية ماتزال قويَّة في الأيديُولُوجية الدِّينيَّة والاجتماعيَّة. يُفضَّل دراستها كأثر للمُمارسات القديمة.

(309) خُرافة الدَّم في البشريَّة والطُّقُوس الدَّمويَّة بـ " هيرمان ستراك " دُكتُور في علم اللاَّهوت والفلسفة، أُستاذ فوق العادة في اللاَّهوت البرُوتستانتي في برلين، ميونيخ 1892.

(310) فاغنسايل 1707، الجُزء الثَّاني لمُذكَّرات هذا الكتاب عُنوانه YUDULOS NON UTI SANGUIN CHRIST ANO وتكمن أهميَّته لأنَّ الكاتب هُو عدوٌّ لليهُود.

ويُضاف إلى هذه المُعتقدات العامَّة احتياطات ضدَّ اليهُود الذين يُمارسون السِّحْر. **في** الواقع؛ وفي العُصُور الوُسْطى اعتبُر اليهُوديُّ السَّاحرَ بامتياز. والحقيقة؛ أنَّ بعض اليهُود تعاطوا السِّحْر، نجد كثيراً من صيغ التَّعاويذ في التّلمُود والأُمُور الشَّيطانيَّة والقَبَلانيَّة، وهي مُعقَّدة جداً[311]. ونعرف موقع الدَّم ومكانته في عمليَّات السِّحْر. فقد كان له أهمِّيَّة رئيسيَّة في السِّحْر الكلدانيِّ، في بلاد فارس كان هُو المُخلِّص الفادي، فهُمْ الذين يتعاطون[312] **Taurobole, Kriobolé**، لقد انْهَوَسَتْ العُصُور الوُسْطى بالدَّم، كما انْهَوَسَتْ بالذَّهَب بالنِّسبة للكيميائيِّيْن. كان الدّم هُو العَرَبَة إلى نُور النُّجُوم، وكان المجُوس يقولون إنَّ العناصر تستأثر بالدَّم الضَّائع، حتَّى تجعل منه جسماً، وبهذا المعنى قال باراسيلز: إنَّ الدِّماء التي تصيغها البشر تخلق أشباحاً وديداناً. كان يُنسب للدَّم، الدَّم النَّقيِّ، فضائل عظيمة لا تُحصى، فالدَّم كان الشَّافي، المُوحي، المُبشِّر للذِّكريات، الحافظ، يُفيد في البحث عن الحجر الفلسفي، وفي تكوين شراب المحبَّة[313]، ومن المُحتمل جداً، وحتَّى إنَّه من المُؤكَّد أنَّ سَحَرَة يهُود ذبحوا أطفالاً، ومن هُنا تشكَّلت الأُسطُورة؛ أُسطُورة الأضاحي الطَّقْسيَّة، فأُقيمت علاقة بين الأفعال الفَرْديَّة لبعض المُشعوذين وبين صفتهم كيهُود. فأعلنوا أنَّ الدّيانة اليهُوديَّة التي وافقت على صَلْب المسيح، وأنها تنصح بإراقة دماء المسيحيِّيْن، وبحثوا ـ بعناد ـ عن نُصُوص تلمُوديَّة وقَبَلانيَّة تُبرِّر هذه المزاعم.

لكنَّ هذه الأبحاث لم تُؤدِّ إلى نتيجة إلاَّ بعد تزويرات كذَّبها الدُّكتُور رُولينغ ودبليش[314]. إذاً؛ مهما كانت الأحداث المُعلَنَة لا يُمكن إثبات أنَّ قَتْلَ الأطفال عند اليهُود

---

(311) أمثلة عن اليهُود السَّحَرَة والفَلَكيِّيْن عديدة جداً، فمُنذُ أوَّل إقامتهم في رُوما كانوا يقرؤون الحظَّ في باب كابين. وفي أُسطُورة سان ليون: السَّاحر الشَّهير هُو يهُوديٌّ، هُو الذي علَّم هيليودور. كثير من اليهُود كانوا فَلَكيِّيْن، فيسكونتي. اليهُود والعَرَب الإسبان في سالامانكا تعاطوا كثيراً السِّحْر، وبواسطتهم؛ انتشرت كُتُب السِّحْر. ويُحدِّثنا "تريتيم" عن قصَّة يهُوديٍّ تحوَّل إلى ذئب. والشَّائع أنَّ اليهُود كُلُّهم سَحَرَة.

(312) كان ذلك مُعتقداً يُونانياً، وهُو أنَّ الآلهة كانت تطلب دماً لكي تظهر. ونعرف الأُسلُوب الذي نادى به أوليس تيريزا (أوديسه رابسودي XI) وذلك بتضحية ضحايا كانت ظلالهم تأتي تشرب الدّم. كذلك شيشرون اتَّهم فاتينيوس بذَبْح الأطفال لجَلْب أرواح الموتى بدمهم. عند السِّلتيِّيْن ـ أيضاً ـ كان الدّم يلعب دوراً كبيراً، وعندما بنى **WORTIGER** ملك البروتون قلعة للدِّفاع ضدَّ الانكليز والسّاكسون مرلان سقى الأساسات بدم طفل.

(313) يكفي التَّذكير بدعوى الماريشال دي ريترز، ولم يكن حالة فريدة، فحتَّى القرن الثَّامن عشر كانوا يُمارسون القداديس السَّوداء التي كان يُضحُّون فيها بالأطفال. وكانوا يعتقدون بالمفعول العلاجي للدَّم، ولويس الخامس عشر شاع حوله خبر أنَّه كان يستحمُّ بالدَّم!.

(314) ديليش، **IOC.CIT**.

هُو شأنٌ طَقْسيٌّ ، فهي ليست أكثر من أفعال الماريشال دي ريتز de Reitz وأفعال الكَهَنَة الدَّنسين الذين يُقيمون القُدَّاس الأسود ، فهذا لا يعني أنَّ الكنيسة تأمر به في كُتُبها ؛ أيْ القَتْل والأضاحي البشريَّة .

هل مايزال يُوجد في البلاد الشَّرقيَّة بعض المذاهب ؛ حيثُ تُمارَس مثل هذه العادات؟ هذا مُمكن[315] . هل اليهُود هُمْ جُزء من هذه المذاهب؟ لا شيء يُمكن إثباته ، لكنَّ الفكْرة السَّلَفيَّة العامَّة عن القَتْل الطَّقْسيِّ هي فكْرة ذات أساس لا يُمكن أنْ تُسبِّبَ قَتْلَ الأطفال ، القَتْل الظّاهر المُعلَن ، وهي حوادث نادرة[316] ، إلاَّ إلى الانتقام ، أو إلى اهتمامات السَّحَرَة ، اهتمامات ليست خاصَّة باليهُود أكثر من المسيحيِّيْن .

أمَّا استمرار هذه الأحكام السَّلَفيَّة ؛ فله معنى ، إذْ يُبرهن عن التَّخمُّر القديم والرِّيبة الكامنة في النُّفُوس ضدَّ قَتَلَة الآلهة .

وبالتَّأكيد ؛ فإنَّ مُناهض السَّاميَّة المسيحيَّ لا يعتقد أنَّ اليهُوديَّ الذي يُقابله يوميَّاً ، ويحتكُّ به اليهُوديُّ الحديث الذي ترك عاداته القديمة يستخدم دماء الأطفال الصِّغار في فترات ثابتة ليُؤمِّن خلاصه ، لكنَّه يعتقد أنَّه ينتمي إلى عِرْق قد فرض هذه الأضاحي الطَّقْسيَّة من شدَّة بُغضه ليسُوع ، ويُعلن أنَّ اليهُوديَّ الحديث إنْ ترك هذه العادات الفظيعة السَّيِّئة ، إنَّما احتفظ بمشاعره .

فهُو لم يَعُدْ يُصيب القرابين ليأخذ الدّم[317] إنَّما يُهاجم المسيح في كنيسته ، ويتآمر ـ باستمرار ـ على تدمير الإيمان ، فيُثير البَلْبَلَةَ ، ويُبلبل النُّفُوس ، ما هي الحقيقة في هذه التَّصريحات؟

---

(315) تأسَّست في بافاريا عام 1814 ، فرقة مسيحيَّة اسمها الأُخوة والأخوات في الصَّلاة ، وكان الأتباع يُضحُّون برجال لله . وكان اسم المُؤسَّسة "بُوشل POESEHL" . كذلك في سويسرا عام 1815 ، أسَّس جُوزف غانس المُؤسَّسة نَفْسها .

(316) مجلَّة الدّراسات اليهُوديَّة نيسان ـ حزيران 1889 ، اقرأ تقرير "غانغانيللي ، الذي أصبح بابا لاحقاً باسم كليمان 14 يُبرِّئ فيه اليهُود من التُّهم الخاطئة المُوجَّهة لهم .

(317) كثرة الأساطير حول القرابين الدَّمويَّة تُظهر إلى أيِّ مدى كانت العُصُور الوُسْطى ماديَّة ، وهي ـ في الوقت نَفْسه ـ تُنتج التَّديُّن الأرقى . أمَّا اتِّهام اليهُود بأخذ دماء القرابين ؛ فهذا اتِّهام لا معقول . لأنَّ اليهُوديَّ لم يعتقد في حياته أنَّ المسيح موجود في القُربان ، ولو أنه اعتقد لاهتدى ، وهذا ما كان يحصل عُمُوماً .

لا نُنكر أنَّ اليهُوديَّ المُؤمن يُضمر العداء للمسيحيِّيْن، كما أنَّ المسيحيِّيْن يُكنُّون العداء له، كما أنَّ الكاثُوليك يُكنُّون للبرُوتستانت، والعكس صحيح، وتحديداً اليهُوديّ المُؤمن هُو مُحافظ.

أناتول لُوري - بُوليو كان مُحقّاً عندما قال: هل هُو اليهُوديُّ البُولُونيُّ، أو اليهُوديُّ الرُّوسيُّ، أو الرُّومانيّ هُو صانع الأحداث؟

انظرْ له جيِّداً. هل وأمثاله هُمْ الذين دفعوا العالم الحديث في طريق غير مُعبَّدة؟!. هل هُو الذي يتَّهمه بتدمير الحضارة المسيحيَّة؟ المسكين؛ إنَّه أقلُّ بكثير من أنْ يستطيع ذلك، إنَّه فقير جدّاً، وجاهل جدّاً، ومُحايد جدّاً تجاه صراعاتنا الدِّينيَّة أو السِّياسيَّة. اِسْتَجْوِبُوْهُ: إنَّه لن يستمع لكُم أبداً.

لكنْ؛ هذا ليس كُلّ شيء: إنَّه لذلك يهُوديٌّ جدّاً، مُتديِّن جدّاً، وَرِعٌ جدّاً، تقليديٌّ جدّاً، وبكلمة واحدة: مُحافظٌ جدّاً.[318]

في بلادنا الغربيَّة إن اليهُوديَّ المُتديِّن يُبرهن عن المُحافظة، فهُو مُتمسِّك بالقوانين وبأنظمة المُجتمع، فهُو يعرف كيف يُوفِّق بين يهُوديَّته وقوميَّته وحتَّى شُوفينيَّته، التي تذهب أحياناً إلى حَدِّ التَّطرُّف كما رأينا. إنَّهم أقلِّيَّة اليهُود المُتحرِّرون الذين يعملون في الثَّورة. هؤلاء اليهُود المُتحرِّرون حتَّى لو تركوا مُعتقداتهم، فهُمْ - مع ذلك - لم يستطيعوا أنْ يُغيِّبوا يهُوديَّتهم، لكنْ؛ كيف يستطيعون أنْ ينصهروا بالاهتداء؟ هذا ما فعله بعضهم، لكنَّ الأغلبيَّة رفضت، واعتبرت ذلك خُبثاً؛ إذْ إنَّ اليهُود المُتحرِّرين يُصبحون - بسُرعة - غير دينيِّيْن بشكل مُطلق، بقوا - إذاً - يهُوداً مُحايدين، على كُلِّ حال؛ كُلُّ هؤلاء الثَّوريِّيْن في النِّصف الأوَّل من هذا القرن قد أُنشئوا يهُوداً، ثُمَّ زالت عنهم اليهُوديَّة، بمعنى أنَّهم لم يعودوا يُمارسونها، لكنَّهم حافظوا على ذهنيَّة أُمَّتهم".

هذا اليهُوديُّ المُتحرِّر - الذي لم يَعُدْ مُتمسِّكاً بإيمان أجداده، ولم يَعُدْ له أيُّ ارتباط بأشكال المُجتمع القديم الذي عاش في وسطه منبوذاً - أصبح في الجمعيَّات الحديثة خميرة جيِّدة للثَّورة.

---

(318) أناتُول - لُوروي بُوليُو، اليهُود عند الأُمم، باريس 1893.

اليهُوديُّ المُتحرِّر بشكل ملحوظ من المسيحيِّ المُحايد، وعوضاً عن اعتبار أنَّ هذا المسيحيَّ لم يتحالف مع اليهُوديِّ إلاَّ لأنَّه هُو نَفْسه قد أصبح لا دينيَّاً، اعتقد المُحافظون اللاَّساميُّون أنَّ اليهُوديَّ - باحتكاكه - قد جرَّد المسيحي من مسيحيَّته، فجعلوا اليهُود مسؤولين عن زوال المُعتقدات. . (إذْ إنَّ اللاَّسامي لا يُقيم فرْقاً بين اليهُوديِّ المُمارس واليهُوديِّ المُتحرِّر). . وإضعاف عامٍّ للإيمان وغياب تامٍّ للتَّديُّن. غير أنَّ لكُلِّ مُراقب حياديٍّ موضوعيٍّ ليس اليهُوديُّ هُو الذي حطَّم المسيحيَّة، اختفت الدّيانة المسيحيَّة مثلما اختفت اليهُوديَّة، ومثلما اختفت أيُّ ديانة أُخرى نُشاهد نزاعها البطيء.

فهي ماتت تحت ضَرَبَات العقل والعلم، هي ماتت طبيعيَّاً؛ لأنَّها استجابت لمرحلة من الحضارة، وكُلَّما مشينا إلى الأمام تستجيب أقلّ، فنحنُ نفقد - يوماً بعد يوم - الحاجة إلى اللاَّمعقول والنَّافي للعقل، وبالتَّالي؛ الحاجة الدِّينيَّة؛ وخُصُوصاً الحاجة إلى المُمارسة، والذين مايزالون يعتقدون بالأُلُوهيَّة لم يعودوا يعتقدون بضرورة وفعاليَّة العبادة والطَّقْس.

هل ساهم اليهُوديُّ في بُرُوز الفكْر الحديث وانبثاقه؟ بالتَّأكيد؛ نعم، لكنَّه ليس الخالق ولا المسؤول، فهُو لم يُشارك إلاَّ بحجر ضعيف في البناء الذي بنته القُرُون: الغِ اليهُود الآن، لن تلقى الكَثْلَكَة والبرُوتستانتيَّة أقلّ تداعياً، ففي تاريخ اللِّيبراليَّة الحديثة في ألمانيا والنِّمسا وفرنسا وإيطاليا لعب اليهُودي دوراً كبيراً؛ لأنَّ اللِّيبراليَّة مشت - سويَّة - مع مُناهضة الأكليروس.

فاليهُوديُّ كان - بالتَّأكيد - ضدَّ الأكليروس: فهُو قد دفع الصِّراع الثَّقافيَّ في ألمانيا، ووافق على قوانين فيري في فرنسا، واعتقدوا أنَّ ليبراليَّته أتت من عدائه للمسيحيَّة، والعكس كان صحيحاً، فاليهُود اللِّيبراليُّون صحيح أنَّهم ساعدوا في إبعاد المسيحيَّة، أو - على الأقلِّ - كانوا حُلفاء الذين دفعوا إلى إزالة المسيحيَّة، وبالنِّسبة للأَساميِّيْن المُحافظين إزالة المسيحيَّة تعني إزالة القوميَّة. يُوجد - هُنا - التباسٌ من قبَل اللاَّساميِّيْن.

فمنهم يخلطون بين الأُمَّة والدَّولة. اللِّيبراليَّة المُناهضة للأكليروس لا تُخرِّب القوميَّة، إنَّما تقتل الدَّولة القديمة المسيحيَّة.

وقد شهد قرننا آخر مُحاولة لهذه الدَّولة المسيحيَّة للمُحافظة على سيطرتها. هذه النَّظرة للدَّولة الإقطاعيَّة التي تستند إلى وَحْدة المُعتقدات، ووَحْدة الإيمان، وإلى المنافع التي لا يُمكن للهراطقة وغير المؤمنين المُشاركة فيها، هي في تعارُض مع فكْرة الدَّولة المُحايدة العلمانيَّة، التي بُنيت عليها مُعظم المُجتمعات المُعاصرة، فاللاَّساميَّة تُقدِّم وتُمثِّل جانباً من الصِّراع بين شكلَيْ الدَّولة اللَّذَيْن تكلَّمنا عنهما آنفاً.

فاليهُوديُّ هُو الشَّاهد الحيُّ لغياب هذه الدَّولة التي كان في أساسها مبادئ لاهوتيَّة، دولة يحلم اللاَّساميُّون في إعادة بنائها اليوم. في اليوم الذي شغل فيه اليهُوديُّ وظيفة مَدَنيَّة أصبح الكيانُ المسيحيُّ في خطر. هذا صحيح، واللاَّساميُّون الذين يقولون إنَّ اليهُود هدموا فكْرة الدَّولة أجدى أنْ يقولوا إنَّ دُخُول اليهُود في المُجتمع كان رمزاً لتدمير الدَّولة المسيحيَّة طبعاً، ففي عيُون المُحافظين ليس من شيء له معنى مثل دُخُول اليهُود في المُجتمعات الحديثة، وبنَقْل بسيط لما هُو حَدَث يجعلون منه سبباً؛ لأنَّ هذا الحَدَث - بدوره - يُفعل وكأنَّه سبب.

هذا هُو مُلخَّص دوافع ومُحرِّكات اللاَّساميَّة السِّياسيَّة والدِّينيَّة، في البدء تفور، وأحكام مُسبقة وراثيَّة أساسيَّة، ثُمَّ - بفضل هذه الأحكام المُسبقة السَّلَفيَّة - نظرة مُتطرِّفة ومُبالغ فيها لدور اليهُود في تطوُّر وإقامة المُجتمعات الحديثة، نظرة تضع مُمثِّلي الفكْر الثَّوريِّ بمُواجهة مع الفكْر المُحافظ، والتَّحوُّل بمُواجهة التُّراث، وفي هذا العصر عصر التَّحوُّل يجعلهم مسؤولين عن سُقُوط المُنظَّمات القديمة والمبادئ السَّالفة.

الفصل الرَّابع عشر:

الأسباب الاقتصاديَّة لمُناهضة السَّاميَّة

بعد أنْ هاجموا اليهُوديَّ كونه سامياً أجنبيَّاً وثوريَّاً، وكأنَّه مُعادٍ للمسيحيَّة، هاجموه كونه عاملاً اقتصادياً. لقد كان الأمر كذلك مُنذُ الشتَّات. على أيِّ حال؛ وقبل عصرنا؛ كان الرُّومان واليُونان يحسدون الامتيازات التي تسمح لليهُود مُمارسة تجارتهم في ظُرُوف أفضل من القوميِّيْن، و في العُصُور الوُسْطى كُرِه المرابي - أيضاً - فوق كونه قاتل الإله.

وإذا تغيَّر وضع اليهُود في نهاية القرن الثَّامن عشر، فهُو تغيَّر بشكل مُؤات لمصلحتهم، حتَّى تعدَّلت المشاعر التي كانت ضدَّهم. ومُناهضة السَّاميَّة الاقتصاديَّة اليوم هي موجودة بشكل أقوى من أيِّ وقت مضى؛ لأنَّ اليهُوديَّ يظهر اليوم مُقتدراً وثريَّاً أكثر من أيِّ وقت مضى، في الماضي لم يكونوا يرونه، كان مُنغلقاً في محجره بعيداً عن أعيُن المسيحيِّيْن، ولم يكن عنده إلاَّ هَمٌّ واحد: تَخْبِئَةُ ذَهَبه.

كانت التَّقاليد وحتَّى التَّشريعات تنظر إليه وكأنَّه جامعٌ لهذا الذَّهَب، وليس مالكه.

وفي اليوم الذي حُرِّر فيه، وعندما سقطت كُلُّ المعوقات بوجه نشاطه، أظهر اليهُوديُّ نَفْسه: أظهر نَفْسه بتفاخُر، لقد أراد أنْ يظهر إنساناً بعد قُرُون الانغلاق وسنين العذاب، وصار له غُرُور ساذج للمُتوحِّش: كان ذلك طريقة رُدُود فعله ضدَّ الإذلالات المَدَنيَّة.

لقد تركوه عشيَّة 1789، مُتواضعاً، أهلاً للرِّثاء، موضع احتقار للجميع، عُرضة للشَّتائم والبَغْضَاء.

فوجدوه بعد العاصفة، مُتحرِّراً من كُلِّ قَيْد، وخادماً أصبح سَيِّداً، هذا الصُّعُود السَّريع صَدَمَهُم؛ بُهروا، وساءهم هذا الغنى الذي سمح اليهُوديُّ لنَفْسه بعَرْضه، وصاروا يتذكَّرون المطعن القديم، مطعن الآباء، ومطعن مُناهضة اليهُوديَّة الاجتماعيَّة:

إنَّ ذَهَبَ اليهُود قد استولى عليه من المسيحيِّين، لقد اكتُسِبَ بالغشِّ والخداع والنَّهْب، وبكُلِّ الوسائل، وخُصُوصاً بشكل رئيس بالوسائل المُدانة.

هذا ما يُمكن أنْ أُسمِّيه المطعن الأخلاقيَّ لمُناهضة السَّاميَّة، ويتلخَّص كما يلي: اليهُوديُّ هُو شرِّير أكثر من المسيحيِّ، فهُو معدوم الذِّمَّة، لا يعرف لا الأمانة ولا الصَّراحة، فهُو غريب عنها.

هل هذا المطعن له أساسٌ؟ نعم؛ كان له أساسٌ ومازال له حتَّى اليوم في جميع البلاد؛ حيثُ فيها اليهُوديُّ خارج المُجتمع؛ وحيثُ يتلقَّى - بشكل خاصٍّ - التَّربية التّلمُوديَّة؛ وحيثُ هُو عُرضة للاضطهادات والشَّتائم والإهانات؛ وحيثُ يُنكرون عليه الكَرَامة وذاتيَّة الكائن الإنسانيِّ.

إنَّ الحالة النَّفْسيَّة لليهُوديِّ قد كَوَّنها هُو بنَفْسه، وبالظُّرُوف الخارجيَّة، فتحجَّرت رُوحه بالقانون الذي فرضه على نَفْسه، وبالقانون الذي فرضوه عليه.

فهُو قد صار عَبْداً مُضاعفاً خلال قُرُون عديدة:

فكان عبداً للتّوراة وعبداً للجميع، لقد كان منبوذاً، لكنَّه منبوذ أمسكه أحبارُهُ وقُوَّاده في عُبُوديَّة أضيق من عُبُوديَّة مصر القديمة. ففي الخارج كان هُناك ألفُ عقبة تُعيق مسيرته، وتُوقف توسُّعه، وتقف حائلاً في وجه نشاطه:

لقد صادف أمامه نُظُماً عدوَّة وقواعد قاسية. وفي الدَّاخل اصطدم بنظام مُعقَّد من الدِّفاعات.

وفي الخارج، خارج المحجر (**Ghetto**) وجد الإكراه والضَّغط الشَّرْعيَّ، وفي المحجر وجد الإكراه التّلمُوديَّ.

فإذا حاول أنْ يهرب من واحدة كان تنتظره ألفُ عُقُوبة: فإذا أراد أنْ ينسحب من واحدة يتعرَّض للـ(هيريم) أيْ الحرمان والفَصْل عن الجماعة، وهذا شيء مُخيف؛ إذْ - بذلك - يُترك وحيداً في العالم. فلم يكن معقولاً التَّفكير بالمُهاجمة المُباشرة لهاتَيْن القوتَيْن، لكنَّ اليهُودي حاول أنْ يتغلَّب عليهما بالحنكة، والاثنان نمَّيا فيه غريزة المُراوغة والمكْر،

فأصبح ذا مهارة نادرة ونُعُومة قليلة أمثالها، "تطوُّرت رقَّته الطَّبيعيَّة، لكنَّها استُخدمت بدَنَاءة: لغشٍّ إله قاسٍ وحاكم لا يلين. أمَّا التّلمُود والتَّشريعات المُضادَّة لليهُود؛ فقد خرَّبوا اليهُوديَّ بعُمق، فهُو مُساق من الأحبار من جهة، ومن المُشرِّعين الأجانب من جهة أُخرى، ومن جهة عدَّة أسباب اجتماعيَّة - أيضاً - إلى مُمارسة التِّجارة الخاصَّة والرِّبا، لذلك؛ حُطَّ من شأن اليهُوديِّ. كذلك البحث عن الذَّهَب، بحث مُستمرٌّ دُون توقُّف جعله يتراجع، وأضعفت ضميره، وجعلته في أدنى المُستويات، وأكسبته عادات التَّحايُل. وفي هذه الحرب من أجل العيش سلَّم للعالم والقانون المَدَنيِّ والدِّينيِّ، فهُو لم يكن ليستطيع أنْ يخرج منها مُنتصراً إلاَّ بالحيلة والتَّآمر، فهذا البائس، الذي هُو عُرضة للإهانات والشَّتائم، ومُجبرٌ أنْ يُطأطئ رأسه تحت الضَّربات والمذلات وتحت هذا القدح لم يكن يستطيع الانتقام من أعدائه، والعذاب الذي لاقاه من جلاَّديه إلاَّ بالخديعة. فبالنِّسبة له؛ أصبحت السَّرقة وقلَّة الأمانة أسلحة، والأسلحة الوحيدة التي يُمكن له أنْ يستخدمها. فهُو - أيضاً - برع في شَحْذها وتعقيدها وإخفائها.

وعندما انهارت أسوار المحاجر بقي هذا اليهُوديُّ كما صنعه التّلمُود والظُّرُوف المَدَنيَّة والشَّرْعيَّة والاجتماعيَّة، فهُو لم يتغيَّر فجأة. فهُو بعد الثَّورة بقي كما كان عشيَّتها، فهُو لم يُعدِّل من عاداته ولا تقاليده وخاصَّة ذهنه، كما عدَّلوا فجأة في موقعه. معتوقٌ حافظ على نَفْسيَّة العَبْد، هذه الرُّوح التي يُضيِّعها كُلّ يوم، بينما تُنمِّي ذكريات الإذلال واحدة تلو الأُخرى. واليوم لكي نجد اليهُوديَّ الذي يُمثِّله لنا مُناهضو السَّاميَّة يجب أنْ نذهب إلى رُوسيا، ورُومانيا، وبُولُونيا؛ حيثُ ماتزال قوانين الاستثناءات سارية المفعول، وفي هنغاريا، وغلاسيا، وبُوهيميا؛ حيثُ تسيطر المدارس العبرانيَّة الصِّرفة. وفي أُورُوبا الغربيَّة، إذا كان هُناك يهُود من بعض الفئات، يهُود تُجَّار، يهُود مُخادعون، ويهُود ماكرون وميَّالون إلى الغشِّ بالوراثة، ونقلاً عن تصرُّفات الأسلاف، فهُمْ - بذلك - ليسوا أكثر من المُخادعين والتُّجَّار المسيحيِّيْن الذين فقدوا الدِّقَّة والنَّزاهة بفعل عادة التِّجارة.

وبوُجُود مثل هذه الإثباتات، أصبح لدى مُناهضي السَّاميَّة ردَّاً جاهزاً تماماً: لقد غشَّ اليهُودُ المسيحيِّيْن، وإذا شاهدنا عند الطَّبقة المالكة المُستغلَّة والمُتاجرة القساوةَ والشَّراسةَ والبُخلَ وعدمَ النَّزاهة تجاه المُستغلِّ، فالخطأ يعود لليهُود الذين هُمْ مسؤولون عن الوضع

الاجتماعيِّ الحاليِّ، وهُمْ ـ أيضاً ـ سببه، وهذا هُو المطعن الاقتصاديُّ بحَدِّ ذاته. وهُنا ـ أيضاً ـ وقع مُناهضو السَّاميَّة ضحيَّة وَهْم.

فاليهُوديُّ ليس سبباً للوضع الحاليِّ الذي هُو نتيجة لتطوُّر طويل الأمد. فهُو قد ساهم بالثَّورة الاقتصاديَّة؛ حيثُ كان تتويجها مجيء البُورجوازيَّة، لكنَّه هُو لم يُسبِّبها: لقد كان عاملاً من عوامل التَّحوُّلات، ولكنْ؛ ليس العامل الوحيد، ولا حتَّى العامل الرَّئيسي[319]، ولقد برهنْت عن ذلك سابقاً[320]، لقد وجدتْ البُورجوازيَّةُ في اليهُوديِّ ـ خلال العُصُور ـ مُساعداً رائعاً وموهوباً قويّاً. وخلال بضعة قُرُون، في المُجتمع البربريِّ للقُرُون الوُسْطى، كان اليهُوديُّ مُمثِّلاً للرَّأس مال التِّجاريِّ ورأس المال الرِّباوي الذي ساهم في تكوينه، ذلك كونه كان مُسلَّحاً بثقافة عالية، ويمتلك تجربة عريقة. إلاَّ أنَّ هذه الطُّرُق الرَّأسماليَّة لم تصل إلى السُّلطة إلاَّ عندما هيَّأ لوُصُولها عمل القُرُون، وحوَّلها إلى رأسمال صناعيٍّ ورأس مال مُخادع ماكر. لذلك؛ وجب حُصُول حركَتَيْ توسُّع وامتداد، وهي الحُرُوب الصَّليبيَّة، واكتشاف أمريكا، اللَّتَيْن أتمَّتا الاستعمارات العديدة لإسبانيا، والبُرتغال، وهُولندا، وإنكلترا، وفرنسا، وكُلّ جُهُود النِّظام التِّجاري، ووجب ـ لذلك ـ إنشاء التَّسليف العامِّ، وتوسُّع البُنُوك الكبيرة، ووَجَبَ ـ أيضاً ـ تطوُّر الصِّناعات التَّحويليَّة والتَّصنيعيَّة، ووَجَبَت التَّطوُّرات العلميَّة التي أدَّتْ إلى خَلْق وترقية الآليَّات، ووَجَبَ ـ أيضاً ـ استحداث تشريعات تتعلَّق بالرَّواتب إلى أنْ حَرِم العُمَّال من كُلِّ شيء، حتَّى من حقِّ التَّجمُّع والتَّحالُف.

وَجَبَ ذلك كُلُّه، مع أسباب كثيرة أُخرى، أسباب تاريخيَّة، دينيَّة، أو نَفْسيَّة، وأخلاقيَّة لصُنْع المُجتمع الحالي. والذين يُقدِّمون اليهُود على أنَّهم خالقوا هذا الوضع هُمْ لم يتوصَّلوا إلاَّ إلى إثبات مُطلق لجهلهم المُدهش.

غير أنَّه ذكرنا للتَّوِّ أنَّ دور اليهُود كان كبيراً، لكنَّه لم يكن معروفاً كثيراً، أو معروفاً بشكل غير كامل، خُصُوصاً من قِبَل مُناهضي السَّاميَّة، وليس لهذه المعرفة المنقوصة جدّاً للتَّاريخ الاقتصاديِّ لليهُوديَّة وَجَبَ أنْ ننسب مُناهضة السَّاميَّة.

ففي فرنسا، وفي عهد الإصلاح، وفي عهد حُكُومة تمُّوز، كانوا على رأس التَّمويل والتَّصنيع، وكانوا بين المُؤسِّسين لكُبرى شركات التَّأمين وخُطُوط سكك الحديد والأقنية.

---

(319) انظر فصل 5.

(320) انظر فصل 9.

وفي ألمانية كان عملهم ضخماً: لقد حرَّضوا وسبَّبوا في إصدار كُلِّ القوانين المُؤاتية لمصلحة تجارة الذَّهَب ومُمارسة الرِّبا والمُضاربة في البُورصة. هُمْ الذين استفادوا من إلغاء القوانين القديمة المانعة لنسبة الفائدة، وذلك عام (1867)، وهُمْ دفعوا باتِّجاه قانون حُزيران 1870، الذي حرَّر الجمعيَّات من مُراقبة الدّولة، وبعد الحرب الفرنسيَّة ـ الألمانيَّة أصبحوا من بين أجرأ المُضاربين في البُورصة، وفي حُمَّى التَّعاونيَّات الاشتراكيَّة التي استولت على الرَّأسماليِّيْن الألمان، فتصرَّفوا كما تصرَّف اليهُود الفرنسيُّون لعام 1830 إلى عام 1848 [321] وحتَّى إلى ما بعد الانهيار الماليِّ لعام 1872؛ حيثُ النُّبلاء الرِّيفيُّون والبُورجوازيُّون الصِّغار الذين تجرَّدوا من مالهم في هذه الفترة التَّأسيسيَّة [322]؛ أيْ فترة التَّأسيس؛ حيثُ ساد اليهُود أثناءها، ونشأت أعنف حالة لمُناهضة السَّاميَّة: التي ولَّدت المصالح المُتأذِّية، وعندما شاهدوا هذا الفعل الأكيد لليهُوديِّ استنتجوا أنَّ اليهُوديَّ كان مُتسلِّماً رأس المال بامتياز. فكان ذلك سبباً عدائيّاً إضافيّاً ضدَّه.

اليهُود يمتلكون كُلَّ شيء، هكذا كان يُعلن وهُو يهُوديٌّ بعد أنْ كان مُعادلاً ومُساوياً للخديعة والحيلة، والمُرابي أصبح مُرادفاً لثري، كُلُّ يهُوديٍّ هُو مالكٌ، هكذا كان المُعتقد العامّ. فهُنا يُوجد خطأ كبير وعميق. فالغالبيَّة العُظمى من اليهُود؛ أيْ ما يُقارب سبعة أثمان كانوا في فَقْر مُدقع. ففي رُوسيا، وغاليسيا، ورُومانيا، وصربيا، وتُركيا، كان بُؤسهم فظيعاً. فكانت أغلبيَّتهم حرفيِّين، وبهذه الصِّفة تألَّموا وعاشوا في الوضع الاجتماعيِّ الحاليِّ مثل كُلِّ المُوظَّفين المسيحيِّيْن. فهُمْ ـ أيضاً ـ من بين البرُوليتاريِّيْن الأكثر فَقْراً. وفي لُندُن وفي هذا التَّجمُّع اليهُوديِّ الكثيف في **East Eud** والمُؤلَّف من لاجئين بُولُونيِّيْن وخيَّاطين يهُود مُنشغلين في ورشات عمل يعملون فيها اثنتَيْ عشرة ساعة في اليوم، ويربحون وسطيّاً 62 سنتيم بالسَّاعة. أمَّا الغالبيَّة؛ فعاطلة عن العمل لثلاثة أيَّام بالأُسبُوع، وجُزء لا يعمل إلاَّ يومَيْن أو ثلاثة أيَّام، وفي كُلِّ الأوقات هُناك من عشرة إلى خمسة عشر ألف يهُوديٍّ لا يعملون، ويموتون من الجُوع في شقاء مُريع. وفي نيُو يورك، كان عددهم مائة ألف، وقبل تأسيس اتِّحاد الخيَّاطين والنَّحَّاتين كان كثير منهم يعملون إجباريّاً عشرين ساعة في اليوم،

---

(321) أوتو قلاكاو.

(322) فترة تأسيس.

ويربحون مُرتَّباً قدره من خمسة إلى ستَّة دولارات بالأُسبُوع، لكنْ؛ مُنذُ ذلك الوقت إذا لم يزداد مُرتَّبهم فإنَّ ساعات العمل تقلَّصت إلى ثمانية عشرة ساعة، وفي بعض المُؤسَّسات إلى ستَّة عشرة ساعة.[323]

وفي رُوسيا؛ كانت ظُرُوفهم أسوأ. في Vilna كان يكسب اليهُود أربعين كُوبيك[324] في اليوم لأربعة عشر ساعة عمل في معامل الجوارب: خمسون كُوبيك هُو مُرتَّب وَسَطيٌّ للرِّجال في جميع الصِّناعات لأيَّام يتراوح العمل فيها من أربعة عشر ساعة إلى عشرين ساعة، والغالبيَّة العُظمى من العُمَّال مُكدَّسين في المُدُن لا يجدون لهم عملاً[325]. وفي غاليسيا، لم يكن وضع الطَّبقة العُمَّاليَّة بأفضل، وكذلك الأمر في رُومانيا.

يبقى - حوالي - مليونان من اليهُود في أُورُوبا الغربيَّة وفي الولايات المُتَّحدة الأمريكيَّة ينتمون إلى الطَّبقة البُورجوازيَّة. وأكيد أنَّ هذَيْن المليونَيْن من اليهُود لم يكونوا شيئاً قبل مائة عام، لكنْ؛ اليوم أصبحوا الشَّيء الكثير. فتطوُّرهم وغناهم وموقعهم جعلهم يحتلَّون مكانة لا تتناسب مع أهمِّيَّتهم العَدَديَّة. ومُقارنة مع الجُمهُور الكبير، فهُمْ حفنة، لكنَّهم يحتلُّون مكانة كما نُشاهدهم في كُلِّ مكان. والواقع أنَّه يجب ألاَّ نُقارنهم بالجماهير العامَّة بما أنَّهم لا يسكنون الأرياف بشكل عامٍّ، ويعيشون في المُدُن ذات أهمِّيَّة نسبيَّة، وإذا أردنا الإحصاء الدَّقيق يجب أنْ نُقاربهم مع مَنْ مِنْ طبقتهم؛ أيْ البُورجوازيَّة التِّجاريَّة والصِّناعيَّة والماليَّة، وحتَّى إذا حوَّلنا المُقارنة إلى عُنصُرَيْن: يهُوديٍّ وبُورجوازيٍّ تبقى هذه المُقارنة لمصلحة اليهُوديِّ.[326]

لماذا هذا التَّفوُّق؟ يروق لبعض اليهُود القول إنَّ تفوُّقهم الاقتصاديَّ يعود إلى تفوُّقهم الذِّهني، لكنْ؛ هذا ليس صحيحاً، أو على الأقلِّ، يجب أنْ نُوضح هذا التَّفوُّق.

---

(323) "فان أتين"، اليهُود الرُّوس كمُهاجرين، 1893.

(324) الكُوبيك يُساوي أربعة سانتيم.

(325) ليون إيريرا، اليهُود الرُّوس.

(326) عادةً؛ يُقارنون مليونَيْ يهُوديٍّ مالكي رؤُوس الأموال بمُختلف درجاتهم، مع مجموع الجماهير المسيحيَّة. ويُهملون الأغلبيَّة العُمَّاليَّة اليهُوديَّة من حرفيِّيْن وبرُولتياريِّيْن، وإذا أردنا أنْ نعتبر اليهُود أُمَّة، أُمَّة بدُون أرض ثابتة يجب - أوَّلاً - أنْ نتفحَّص إذا كان لا يُوجد عندهم طبقة رأسماليِّيْن يهُود وطبقة مُوظَّفين برواتب، ثُمَّ نُقارن طبقة الرَّأسماليِّيْن اليهُود بالرَّأسماليِّيْن المسيحيِّيْن. بهذه الطَّريقة - فقط - يُمكن أنْ نتوصَّل لإحصاء مُقارن دقيق وتقييم صحيح للأُمُور.

في هذا المُجتمع البُورجوازيّ المُؤسَّس على الاستغلال لـرأس المـال والاستغلال بـرأس المال؛ وحيثُ قُوَّة الذَّهَب هي المُسيطرة، وحيـثُ الصّرافة والبُورصة والمُضاربات قويَّة جداً ومُسيطرة، فبالتّأكيد يكون اليهُوديُّ موهُوباً أفضل من أيِّ شخص آخر للنَّجاح. فإذا هُمْ أُذلُّوا بممارسة الميركنتيليَّة (التِّجارة الصّرفة) لكنَّ هذه المُمارسة قد قَوَّتهم وسلَّحتهم خلال العُصُور بصفات أصبحوا فيها مُتفوِّقين في النِّظام الجديد. فهُو بارد، ماهرٌ في التَّخطيط، نشيطٌ مرنٌ، مُواظبٌ وصبُور، نيِّر ودقيق، هذه الصِّفات كُلُّها ورثها من أجداده تُجَّار الذَّهَب. فهُو - إذاً - نشط في التِّجارة والمال، وقد استفاد من تربيته الوراثيَّة عبر الأجيال التي لم تجعله أكثر انفتاحاً، إنَّما أكثر صلاحيَّة لبعض المهامِّ.

وفي الصِّراع الصِّناعيِّ، هُو موهُوبٌ، لذلك - إفراديّاً - أفضل من مُنافسيه - وأتحدَّث عن ذلك بشكل عامٍّ - وهُو وَجَبَ أنْ ينجح ويتفوَّق؛ لأنَّ أسلحته أفضل، فهُو لم يكن بحاجة للخداع أكثر من مُحيطيه؛ لأنَّ مقدراته الخاصَّة والوراثيَّة كافية لتأمين النَّصر.

لكنْ؛ هذه المواهب الشّخصيَّة لا تكفي لشَرْح التَّفوُّق اليهُوديِّ.

فهُناك - أيضاً - سُلالة من التُّجَّار المسيحيِّيْن. جُزء من البُورجوازيَّة التي ورثت صفات قريبة ومُشابهة لصفات اليهُود، ويُمكن لها أنْ تخسرهم، هُناك أسباب أُخرى أكثر عُمقاً تقود للطَّبع اليهُوديِّ وتكوين الأُمم المُعاصرة.

إنَّ المُجتمع البُرجوازيَّ مُؤسَّس بشكل كامل على التَّنافُس الإفراديِّ، ففي ساحة العمل اليوميَّة من أجل العيش تُقدِّم لنا مشهداً من الأفراد الذين يُكافحون - بمرارة - الواحد ضدَّ الآخر في وحدات مُنعزلة، ويتحاربون - بقُوَّة - من أجل الانتصار وبوسائل إفراديَّة بحتة. في هذا المُجتمع؛ فإنَّ الكفاح الضَّيِّق من أجل الحياة (**Struggleforlife**) الكفاح الدَّاروينـي يُسيطر، فذهنه هُو الذي يحكم كُلَّ إنسان، ومعروف أنَّ الانتصار النِّهائيَّ من نصيب الأقوى والأفضل تنظيماً وذي العقل والجسد الأكثر صلاحيَّة وتكيُّفاً مع الظُّرُوف الحياة الاجتماعيَّة.

كُلُّ مجهود للتَّضامُن والاتِّحاد والتَّفاهُم يحصل خارج هذه الطَّبقة؛ حيثُ لا يُعتبر فيها إلاَّ المجهُود الشَّخصيُّ، هذا ما يراه المُؤرِّخون والفلاسفة والاقتصاديُّون.

كما أنَّ البُورجوازيَّة الرَّأسماليَّة والمالكة لا تجد هذه الغريزة في التَّضامُن إلاَّ ضدَّ الأعداء المُشتركين لجميع أعضائها، وضدَّ العُمَّال (البرُوليتاريا) وضدَّ الذين يُهاجمون رأس المال. افرضوا في هذه المُنظَّمات الأنانيَّة التَّعاونيَّات المُنظَّمة بشدَّة والمُواطنين المُجهَّزين مُنذُ عُصُور بذهنيَّة التَّعاونيَّات والجمعيَّات والذين تطوَّرت عندهم مشاعر الاتِّحاد والتَّعاون عبر العُصُور، ويعرفون بالوراثة هذه المُمارسة وكُلَّ الفوائد التي يُمكن أنْ يجنوها من هذا الاتِّحاد، فإنَّه من المُؤكَّد أنَّ هذه الاتِّحادات سوف تكون هي المُؤهَّلة لإحراز النَّجاح والانتصار بشكل أسهل من الذين يُمارسون النّشاط نَفْسه، ولكنَّهم يُمارسونه إفراديَّاً، ومُنفصلين عن بعضهم.

هذا هُو وضع البُورجوازيِّين اليهُود في الدُّول الحديثة.

فهُمْ يُريدون ربح البُورجوازيِّين المسيحيِّين نَفْسه، وينشطون في ميدان العمل نَفْسه، وعندهم الأطماع نَفْسها، وهُمْ - أيضاً - شرسون طمَّاعون مثلهم، راغبون بالتَّمتُّع، كذلك هُمْ كُلُّهم بعيدون عن العَدْل الذي ليس عَدْل الفئة، ولا عدل الدِّفاع ضدَّ الطَّبقات المُسيطرة، منهم أخيراً؛ لا أخلاقيِّين بشكل عميق؛ لأنَّهم لا يعتبرون إلاَّ الفوائد التي يُمكنهم جنيها، وإنَّ قاعدتهم الوحيدة في الحياة هي الرِّبح المادِّي الذي يسعى إليه كُلُّ واحد منهم، لكنْ؛ في هذه المعركة اليوميَّة انتصر اليهُوديُّ، ووَصَل قبل مُنافسيه إلى الهَدَف المنشود، بما أنَّه موهُوب كفَرْد أكثر منهم، ويُضاف لذلك فضائله التي تزيد في قُوَّته، فجعلها حزمة مُكثَّفة ساعدت في انتصاره، ففي وسط البُورجوازيَّة المُتفرِّقة غير المُتَّحدة؛ وحيثُ أفرادها في صراع مُستمرٍّ ظهر اليهُود كائنات مُتضامنة، وهذا هُو سرُّ نجاحهم. وهذا التَّضامُن كان قويَّاً بقدر ما كان قديماً.

لقد أنكروه غالباً، لكنْ؛ هُو موجود لا محال. لقد تلاحقت الحلقات عبر العُصُور، ومُنذُ قُرُون، وأصبحت مُمارسته طبيعيَّة لا واعية. ويُستحسن أنْ نرى كيف تشكَّل، وكيف استمرَّ.

يعود التَّضامُن اليهُوديُّ إلى زمن الشَّتات.

فاليهُود المُهاجرون والمُستوطنون الذين يصلون إلى بلد أجنبيٍّ يتجمَّعون في حارات خاصَّة، وأينما حلّوا يُؤلِّفون مُجتمعاً. اجتمعت مُتَّحداتهم حول دُور الصَّلاة التي بنوها في كُلِّ مدينة؛ حيثُ كانوا قد شكَّلوا فيها نُواة.

لقد كان عندهم امتيازات عديدة وهامَّة[327]. فاليهُود المُتَشتِّتُون كانوا عوناً ثميناً لليُونان في عمليَّة الاستعمار الشَّرقيَّة، وغريب شأن هؤلاء اليهُود الذين تَهَلّينوا، فقد ساهموا في هَلْيَنَة الشَّرق.

ومُقابل ذلك؛ اكتسبوا في كُلِّ مكان الحفاظ على حُكْمهم الذَّاتيِّ القوميِّ، وإدارتهم المُستقلَّة، وذلك في الإسكندريَّة، وإنطاكية، وآسيا الصُّغْرى وفي المُدُن اليُونانيَّة في إيونيا. ولقد شكَّلوا في المُدُن - جميعها تقريباً - جمعيَّات تعاونيَّة على رأسها والي أو بطريرك، يُمارس عليهم السُّلطة المَدَنيَّة والقضاء، وذلك بمُساعدة محكمة خاصَّة ومجموعة من القُدماء.

فكانت الكُنُس "جُمهُوريَّات حقيقيَّة صغيرة".[328] وبالإضافة لذلك؛ كانت مركز الحياة الدِّينيَّة والعامَّة، فكان اليهُود يجتمعُون في مُصلاَّهم، ليس - فقط - لسماع قراءة للشَّريعة، إنَّما - أيضاً - ليتحدَّثوا بأعمالهم، ويتبادلوا وُجُهات نَظَرهم العمليَّة، كُلُّ الكُنُس كانوا مُرتبطين الواحد بالآخر بشبكة واحدة فيدراليَّة واسعة، امتدَّت هذه الشَّبكة عبر العالم القديم، انطلاقاً واعتباراً من امتداد المقدُوني والهيلِّيني، فكانوا يتبادلون الرَّسائل، ويُطلعون بعضهم على آخر الأحداث التي كانت معرفتها هامَّة ومُفيدة لهم، وكانوا ينصحون بعضهم، ويتساعدون.

وفي الوقت نَفْسه؛ كانوا مُتحدِّثين برابط دينيٍّ قويٍّ جداً؛ فكانوا يُحافظون على استقلاليَّتهم، إنَّما كانوا يشعرون أنَّهم أُخوة، وكانوا جميعهم تتَّجه أنظارهم نحو (القُدس) أُورشليم ونحو المعبد؛ حيثُ يُرسلون - على الدَّوام - الضَّريبة السَّنويَّة، وكذلك الحُبّ الذي كانوا يشعرونه تجاه المدينة المُقدَّسة، والتَّعلُّق الذي كانوا يُبدونه للعبادة، ذلك كُلُّه كان يُذكِّرهم بأُصُولهم الواحدة المُشتركة، ويُقوِّي ويُلاحم وحدتهم وتحالُفهم.

هذه الكُنُس في المُدُن اليُونانيَّة، وهذه المُستوطنات القويَّة في أنطاكية، أو الإسكندريَّة، خلقت التَّضامُن المحلِّيَّ والعالميَّ لإسرائيل. ففي كُلِّ مدينة كان اليهُوديُّ مُساعداً من قِبَل الطَّائفة، وكان يُستقبَل أخويَّاً عندما يصل كمُهاجر، أو مُستوطن، فكانوا يُنجدونه، ويدعمونه. وكانوا يسمحون له بالاستقرار، وكان يستفيد من العمل الجماعيِّ الذي كان

---

(327) انظر فصل 11 و 111.

(328) رينان، حياة يسُوع، ص 142.

يضع كُلَّ إمكانيَّاته تحت تصرُّفه، فهُو لم يصل إلى البلد مثل أجنبيٍّ عليه البدء بالكفاح الصَّعب، إنَّما مثل إنسان جيِّد التَّسلُّح، يقف إلى جانبه مَنْ يحميه من أصدقاء وأُخوة، ففي كُلِّ آسيا الصُّغْرى وعبر الجُزء، وفي البلقان ومصر، كان باستطاعة اليهُوديِّ أنْ يُسافر بأمان، وفي كُلِّ مكان كان يُعامَل كضيف، وكان يذهب ـ مُباشرة ـ إلى بيت الصَّلاة؛ حيثُ كان يجد استقبالاً لطيفاً وراعياً. أمَّا اليهُود الآسينيُّون؛ فلم يختلف تعاملهم كذلك في دعايتهم، لقد أنشؤوا هُمْ ـ أيضاً ـ مراكز صغيرة للتَّضامُن، جمعيَّات صغيرة في قلب المُتَّحدات نَفْسها. وهكذا؛ كانوا يذهبون من مدينة إلى مدينة جوَّالين مُطمئنين على غدهم.

في روما؛ حيثُ كان عددهم كبيراً كان[329] اليهُود مُتَّحدين كما كانوا في مُدُن الشَّرق، فكانوا مُرتبطين الواحد بالآخر بارتباط منيع ورحمة قويَّة" على قول تاسيت.[330]

بفضل هذه الوحدة اكتسبوا في الإسكندريَّة قُوَّة عظيمة، لدرجة أنَّ الأحزاب كانت تستند إليهم، وتخشاهم.

"هل تعرف، يقول شيشرون[331] ما هي كثافة هؤلاء اليهُود؟ وما هُو اتِّحادهم، تفاهمهم ومعرفتهم بتدبير الأُمُور وسطوتهم على جماهير الجمعيَّات"؟.

عندما انهارت الإمبراطُوريَّة الرُّومانيَّة، واجتاح البرابرة العالم القديم، وعندما انتشرت الكاثُوليكيَّة المُنتصرة، المُتَّحدات اليهُوديَّة لم تتغيَّر.

لقد كانت عُضويَّات نشيطة جداًّ، وتحيا حياة تعاونيَّة نشيطة إلى حَدٍّ بعيد سمحت لهم بالاستمرار.

بالإضافة لذلك؛ حافظوا على وَحدتهم الدِّينيَّة والوحدة الاجتماعيَّة التي لا تنفصل الواحدة عن الأُخرى، وإليها يعود ازدهارهم، ذلك كُلُّه جرى وسط الانقلاب العامِّ. أعضاء الكُنُس اليهُوديَّة كُلُّهم تماسكوا أكثر فأكثر. وبهذا الدَّعْم المُتبادَل يعود عدم تأثُّرهم ومُعاناتهم من التَّغيُّرات الخارجيَّة، وعندما استقرَّت الممالك الغوثيَّة والجرمانيَّة حافظت

---

(329) يُقدِّر رينان عدد اليهُود الرُّومان في عهد نيرون بـ 20 أو 30000.

(330) تاسيت، تاريخ 7.5.

(331) شيشرون.

المُتَّحدات اليهُوديَّة ـ بعض الوقت ـ على حُكْمها الذَّاتيِّ، وتمتَّعت بقضاء خاصٍّ، وفي هذه المُنظَّمات الجديدة أُلِّفت تجمُّعات تجاريَّة استمرَّ فيها ـ أيضاً ـ التَّضامُن القديم . . وبمُجرَّد أنْ أصبحت الشُّعُوب أكثر عدائيَّة للإسرائيليِّين، وبمُجرَّد أنْ ازدادت بالنِّسبة لهم شدَّة التَّشريعات، وبمُجرَّد أنْ زاد الاضطهاد قوي التَّضامُن.

إنَّ العمليَّات المُتوازية؛ الأُولى في الخارج والثَّانية في الدَّاخل، أدَّت إلى تجميد إسرائيل داخل رحم يهُوديَّاتها، وإلى تقويَّة رُوح التَّعاوُن، انسحبوا من العالم، فزادوا من الرَّوابط التي تُوحِّدهم. والحياة المُشتركة زادت في رغبتهم وحاجتهم للأُخُوَّة، لقد طُوِّرت المحاجر التَّرابُطيَّة اليهُوديَّة، والكُنُس حافظت على سُلطتها. وإذا كان اليهُود خاضعين لقوانين قاسية تُمليها الممالك والإمبراطُوريَّات، فهُمْ كان لهم حُكُومة خاصَّة، ومجلس القُدماء، ومحاكم مُقرَّرة يخضعون لها، وكان سنودسهم العامون يُحرِّمون على إسرائيليٍّ تحت طائلة الحرمان بأنْ يُقاضي أخاً له دينه أمام المحاكم المسيحيَّة[332]. كُلُّ شيء دفعهم إلى الاتِّحاد خلال القُرُون الوُسْطى التي كانت قاسية جدَّاً ومُريعة جدَّاً بالنِّسبة لهم.

لو انعزلوا لكانوا تألَّموا أكثر، إنَّما بمُساعدة بعضهم استطاعوا أنْ يُدافعوا عن أنفسهم بشكل أسهل، ويتجنَّبوا الكوارث التي كانت تُهدِّدهم باستمرار في هذه الحياة الصَّعبة بالنِّسبة لهم، بسبب القواعد والنَّواهي التي كانوا يفرضُونها عليهم؛ سمح لهم العون الأخويُّ أنْ يُوفِّروا على أنفسهم أُلُوف التَّكاليف التي كانت تُثقل عليهم. كذلك حافظوا على علاقاتهم الاعتياديَّة من كنيس إلى كنيس، وارتبطت المُواطنيَّة العالميَّة بتضامُنهم، وتساعدت المُتَّحدات فيما بينها، وتكثر الأمثلة عن هذا التَّفاهُم مثل ما هُو جداً مُميَّز، فاتَّفق يهُود المشرق بعد مذبحة يهُود "أنكون" "**Ancône**" على أنْ يقطعوا كُلَّ علاقة مع تلك المدينة، وقادوا حركة تجاريَّة باتجاه بيرسارو "**Persaro**"؛ حيثُ استقبل "غيوده أو بالدّو اللاَّجئين من "أنكون" "**Ancône**" . لقد شجَّع الأحبار والحاخامات هذا التَّضامُن، وزاد منه التَّميز التّلمُوديُّ.

---

(332) هذه السّنودس اجتمعت اعتباراً من القرن الثَّاني عشر، وكانت أوَّل اجتماعات حاخاميَّة مُنذُ نهاية التّلمُود "يعقُوب تام" (رابينو تام) مُؤسِّس المدرسة "توسافيست" حرَّض على اجتماع السّنودس الذي أصدر طُرُقاً لمُقاومة الاضطهادات والتَّعذيب.

وقد ألزموا وأجبروا أتباعهم المُؤمنين على تنفيذ المصالح المُتبادلة. وفي القرن الحادي عشر منع السّنودس الحاخامي في "Worms فورمز" مالكاً يهُودياً أنْ يُؤجِّر "لغير يهُوديٍّ" أو إلى يهُوديٍّ، منزلاً يشغله أخ في الدِّين دُون مُوافقته.[333]

وسنودس في القرن الثّاني عشر منع يهُودياً تحت طائلة الحرمان أنْ يُقاضي أخاً في الدِّين أمام محكمة مسيحيَّة.

والمُتَّحد اليهُودي "الكحَّال" Kahal كان مُسلَّحاً ضدَّ الذين لا يقومون بواجب التَّضامُن. كانت تُعاقبهم بالحرمان، وكانت تُعلن ضدَّهم "الشّيريم ـ ها ـ كحال"[334] هذا الحرمان كان يطال كُلَّ الذين يتهرَّبون من واجباتهم تجاه التَّعاوُن الجموعيٍّ: الذين كانوا لا يُصرِّحون بمُمتلكاتهم حتَّى يتهرَّبوا من الضَّريبة (الاشتراك) التي كان يجب أنْ يدفعوها للكنيس، والذين لهم مُشكلة مع أخ في الدِّين لهم، لا يُسجِّلونه عند كاتب العدل الخاصّ بالمُتَّحد، والذين لا يرغبون أنْ يخضعوا لقرارات الكحَّال الذي يتَّخذها لمصلحة المجموع[335]. وأخيراً؛ كُلُّ الذين يُهاجمون بكتاباتهم التَّوراة والتّلمُود، ويعملون على هدم الوحدة اليهُوديَّة: مارُودُوشيه كُولكُوس، أوبيل أكُوستا، واسبينوزا، كانوا بين هؤلاء.

فالقُرُون، وفعل القوانين المُعادِيَّة، وتأثير الفُرُوض الدِّينيَّة، والحاجة للدِّفاع عن النَّفْس زادت عند اليهُود من حدَّة الشُّعُور بالتَّضامُن. وفي يومنا هذا حتَّى وفي البلاد؛ حيثُ يخضع اليهُود لنظام مُنفصل استمرَّ تنظيم الكحَّال القويّ.

أمَّا بالنِّسبة لليهُود المُتحرِّرين؛ فلقد قاطعوا كُلَّ الأُطُر الضيِّقة للكُنُس القديمة، وتركوا تشريع الطَّوائف السَّابق، لكنَّهم لم يتخلّوا عن التَّضامُن.[336]

فبعد أنْ اكتسبوا الحسَّ والمعنى، وبعد أنْ حفظوه بالعادة لم يستطيعوا أنْ يُضيِّعوه، حتَّى لو أنَّهم فقدوا إيمانهم؛ إذْ أصبح عندهم فطرة وغريزة اجتماعيَّة، والغرائز الاجتماعيَّة

---

(333) تاريخ اليهُود، برلين 1820، "جوست".

(334) حرمان المُتَّحد أو الطّائفة.

(335) مُوريس هارُون، تاريخ الحرمان اليهُوديّ، نيم كاتيلان، 1882.

(336) الحلف الإسرائيليُّ العالميُّ تأسَّس عام 1860 من قبَل كريميو، وكان عددهم ثلاثين ألفاً من المُنتسبين، وذلك قوَّى التَّضامُن اليهُودي. هدف الحلف إلى تحرير يهُود البلاد الشَّرقيَّة نَفْسياً وفكْرياً بتأسيس مدارس.

المُتشكِّلة ببُطء تذهب ـ أيضاً ـ ببُطء. ويجب أنْ نُلاحظ أنَّهم لو دخلوا في الأُمم بحُقُوق مُتساوية للقوميِّيْن، كانوا ـ عندها ـ أقلِّيَّة؛ إذْ إنَّ تطوُّر التَّرابُطيَّة في الأقلِّيَّات هُو قانون يُؤدِّي إلى المُحافظة، كُلُّ مجموعة بتواجُد مع كُتلة كبيرة، تفهم أنَّها إذا أرادت الاستمرار بحالة تجمُّع يجب عليها أنْ تتَّحد بكُلِّ قواها. ولكي تُقاوم الضَّغط الخارجيَّ الذي يُهدِّدها بالزَّوال يجب أنْ تُشكِّل كُلَّ مُتراصٍّ، وبكلمة واحدة؛ أنْ تُصبح أقلِّيَّة مُنظَّمة.

فالأقلِّيَّة اليهُوديَّة هي أقلِّيَّة مُنظَّمة، لكنْ؛ ليس لأنَّ عندها قُوَّاد وأُمراء لاهوتيُّون وحكُومة وقوانين، إنَّما لأنَّها اتِّحاد مجموعات صغيرة، مجموعات مُتَّحدة بشدَّة ومُتكافلة مُتضامنة. كُلُّ يهُوديٍّ يلقى الدَّعْم عندما يطلبه من أُخوته في الدِّين، بشرط أنْ يشعروا به أنَّه مُخلص للتَّعاوُن اليهُوديِّ؛ لأنَّه إذا بدا مُعادياً لن يقطف ويحصد ويلقى إلاَّ العداء، وحتَّى لما غادر اليهُوديُّ الكَنيس بقي مُنتمياً إلى الماسُونيَّة اليهُوديَّة والنِّظام اليهُوديِّ إذا أردنا التَّعبير.[337]

في المُجتمع الحاليِّ؛ التَّعب والمُتفسِّخ وجد اليهُود لأنفسهم فيه مكاناً بكُلِّ سُهُولة، كونهم مُؤلَّفين من جسم واحد مُتضامن.

لو أنَّ ملايين المسيحيِّيْن الذين يعيشون في وسطهم مارسوا الدَّعْم المُتبادَل عوضاً عن الصِّراع الأنانيِّ لكان التَّأثير اليهُوديُّ تضاءل فوراً، لكنَّهم لم يُمارسوا، وما كان على اليهُود إلاَّ أنْ يسُودُوا ويُسيطرُوا، وهذه هي حُجَّة مُناهضي السَّاميَّة، أنْ يكون لهم أكثر قدر مُمكن من الفوائد الاجتماعيَّة، ومُمارسة هذا النَّوع من التَّفوُّق الذي يحتجُّ ضدَّه مُناهضو السَّاميَّة دُون أنْ يستطيعوا إزالته؛ لأنَّه لا يتعلَّق ـ فقط ـ بالطَّبقة البُورجوازيَّة اليهُوديَّة، إنَّما ـ أيضاً ـ بالطَّبقة البُورجوازيَّة المسيحيَّة.

وعندما يرى الرَّأسماليُّ المسيحيُّ نَفْسه أنَّه استُبعد أو أُزيح من قبل الرَّأسماليِّ اليهُوديِّ، ينتج عن ذلك عداوة عنيفة، وتُتَرجَم هذه العداوة بالمطاعن التي عَدَّدْنَاهَا. إلاَّ أنَّ هذه المطاعن ليست الأساس الحقيقيَّ لمُناهضة السَّاميَّة الاقتصاديَّة، الأساس الذي أقمتُهُ سابقاً.

إذا كان ـ دوماً ـ في ذهننا فكْرة التَّضامُن اليهُوديِّ حاضرة، وحالة أنَّ اليهُود هُمْ أقلِّيَّة مُنظَّمة نستنتج أنَّ مُناهضة السَّاميَّة هي ـ جزئيّاً ـ صراع بين الأثرياء. صراع بين الذين بيدهم

---

(337) لا أتكلَّم عن الجمعيَّات الماسُونيَّة، أستعمل كلمة فرماسُونيَّة في معناها العامِّ.

رأس المال. في الواقع؛ فإنَّ المسيحيَّ الثَّريَّ والرَّأسماليَّ والتَّاجر والصِّناعيَّ الذين تضرَّروا من اليهُود، وليس البرُوليتاريِّيْن الذين لا يخضعون لربِّ عمل يهُوديٍّ أقسى من ربِّ عمل كاثُوليكيٍّ، على العكس، لأنَّ عدد الأرباب هُنا هُو الذي يهمُّ، وليس اليهُود هُمْ الذين يُشكِّلون هذا العدد. هذا ما يُفسِّر لماذا مُناهضة السَّاميَّة هي وُجهة نَظَر بُورجوازيَّة، ولماذا هي قليلة الانتشار في الشّعب وفي الطَّبقة العُمَّاليَّة، إلاَّ الذين هُمْ بحالة أفكار سَلَفيَّة مُبهمة.

هذه الحرب الرَّأسماليَّة لا تظهر بالأشكال أنفسها في الأماكن جميعها: فلها مظهران حسبما تكون آتية من تضادٍّ بين شكلَيْن لرأس المال، أو من مُنافسة بين ملاَّكي رأس المال الصِّناعيِّ والماليِّ.

أمَّا رأس المال العقاريّ في حربه ضدَّ رأس المال الصِّناعيِّ؛ فقد أصبح مُناهضاً للسَّاميَّة؛ لأنَّ اليهُوديَّ بالنِّسبة لمالك الأراضي هُو المُمثِّل النَّمُوذجيُّ لرأس المال التِّجاريِّ والصِّناعيِّ. ففي ألمانيا؛ كان الحمائيُّسون أعداء اليهُود الذين هُمْ في الدَّرجة الأُولى مع التَّبادُل الحُرِّ.

كما أنَّ اليهُود هُمْ مُناهضون بالأساس، وبالمصلحة للنَّظريَّة الفيزيُوقراطيَّة؛ أيْ مذهب الاقتصاديِّيْن الذين يعتبرون الزِّراعة مصدر الثَّروة الوحيد، وينسبون السِّيادة السِّياسيَّة لمالكي الأرض، ويدعمون النَّظريَّة الصِّناعيَّة التي تجعل من السُّلطة إقطاعاً للصِّناعة. ومن المُؤكَّد أنَّ هؤلاء واليهُود غير واعين للدَّور الذين يلعبونه في هذه المعركة الاقتصاديَّة، لكنَّ عداءهم المُتبادَل لم يأتِ - فقط - من ذلك. فالبُورجوازيُّ الصَّغير والتَّاجر الصَّغير الذي يلتهمه النَّقْدُ والصّرافة، فعنده وعيٌ أوضح لأسباب لاساميَّته. فهُو يعرف أنَّ المُضاربة الجامحة والانهيارات الماليَّة المُتتالية قد أفْقَرَتْهُ، وبالنِّسبة له؛ أفظع مُحتكري رأس المال الصِّناعيِّ والنَّقْديِّ هُمْ اليهُود، وهذا على أيِّ حال؛ صحيح جداً. وهؤلاء أنفسهم الذين لم تأت خسارتهم من المُشاركة في المُضاربات فقط، والتي كان مُمكن أنْ يخسروا فيها، إنَّما عزَوا، ونَسَبوا انهيارهم الماليِّ إلى الصّرافة والنَّقْد الذي أزال قسطاً كبيراً عن الرَّأسماليِّ التِّجاريِّ والرَّأس مال الصِّناعيِّ، لكنْ؛ كالعادة، يجعلون من اليهُوديِّ المسؤولَ عن أشياء هُو بعيد عن أنْ يكون السَّبب الوحيد فيها.

أمَّا الشَّكل الآخر لمُناهضة السَّاميَّة الاقتصاديَّة؛ فهُو أبسط من الأُولى: سببها من المُنافسة المُباشرة بين أصحاب الأموال والتُّجَّار والصِّناعيِّيْن اليهُود والمسيحيِّيْن.

فالرَّأسماليُّون المسيحيُّون معزولون إجمالاً، وجدوا أنفسهم تجاه رأسماليِّيْن يهُود مُتَّحدين، أو مُتحالفين مُتشاركين في حالة واضحة من الدُّونيَّة، وفي الصِّراع اليوميِّ كانوا - غالباً - يخسرون.

كان عليهم أنْ يُعانوا - مُباشرة - من تطوُّر الصِّناعة ومن تجارة اليهُود الكبيرة، ومن هُنا؛ صار عندهم عداء مُتطرِّف، والرَّغبة في إضعاف قُدرة مُنافسيهم السَّعيدين. هذا هُو المظهر الأعنف للاَّساميَّة والأشرس والأقسى؛ لأنَّه التَّعبير عن الدِّفاع عن المصالح المُباشرة والأنانيَّة.

ويُمكننا - أيضاً - أنْ نرى علامة اللاَّساميَّة على أثر المُنافسة المُباشرة والفوريَّة في التَّظاهُرات العُمَّاليَّة ضدَّ اليهُود في لُندُن أو نيُو يورك، لكنَّ ذلك ليس صحيحاً بالتَّمام. فالهجرة الرُّوسيَّة والبُولُونيَّة إلى إنكلترا والولايات المُتَّحدة هي هجرة جلبت إلى المراكز الصِّناعيَّة والتَّصنيعيَّة عدداً كبيراً من الحرفيِّيْن، كانت نتيجته انخفاض أقصى الرَّواتب، وتطبيقاً أقسى لنظام الورشات والمعامل في لُندُن ونيُو يورك.

فتنتج عن ذلك حركة ضدَّ العُمَّال اليهُود، وخُصُوصاً ضدَّ العُمَّال النَّحَّاتين الذين غالبيَّتهم من المُهاجرين، لكنَّ هذه الحركة ليست مُوجَّهة - بشكل خاصٍّ - ضدَّ اليهُود، هي حركة مُماثلة لكُلِّ الحركات التي يقودها العُمَّال القوميُّون ضدَّ العُمَّال الأجانب، في فرنسا مثلاً ضدَّ العُمَّال الإيطاليِّيْن والبلجيك الذين يُوظِّفهم ربُّ العمل بظُرُوف تكون أكثر ربحاً بالنِّسبة[338] له، ويحدث الأمر نَفْسه بالنِّسبة للمُنافسة البُورجوازيَّة. فإذا كانت ضدَّ اليهُود بشكل واضح، ليس - فقط - لأنَّ اليهُود يُشَكِّلون فرماسُونيَّة، فهُمْ أقلِّيَّة مُجهَّزة بشكل جيِّد جداً. وفي الواقع؛ إن البرُوتستانت - أيضاً - مُنظَّمين بشكل مُماثل، إلاَّ أنَّه هُناك بعض

---

(338) يُمكننا فَهْمُ اللاَّساميَّة الاقتصاديَّة بدراسة المسألة الصِّينيَّة في أمريكا، أقلِّيَّة عِرْقيَّة ودينيَّة وتصرُّفات مُختلفة عن الأمريكان، الصِّينيُّون مُتَّهمون بالتَّلاعب بالذَّهَب، وبإخفاض أُجُور العُمَّال. العداء ضدَّهم قد يُؤدِّي إلى إجراءات شَرْعيَّة تضعهم في وضع أدنى، وتُخفِّفُ من تأثيرهم، وتُقلِّل من استفادتهم، والحَدّ من هجرتهم. إجراءات مُماثلة اتُّخذت ضدَّ المُهاجرين الألمان والرُّوس.

حالات نادرة من مُناهضي البرُوتستانتيَّة، لكنَّها لا تفعل في فرنسا أكثر من مُناهضة الكاثُوليكيَّة في ألمانيا؛ حيثُ ـ بدورهم ـ الكاثُوليك هُمْ أقلِّيَّة قويَّة.

هُناك ـ إذاً ـ سبب آخر. نعم؛ هذا السَّبب هُو رئيسيٌّ. فاليهُود هُمْ أقلِّيَّة مثل البرُوتستانت الفرنسيِّيْن، ومثل الكاثُوليك الألمان، لكنَّهم أقلِّيَّة قوميَّة، بينما اليهُود مُعتبرين أقلِّيَّة أجنبيَّة، ولا نجد أنفسنا بوُجُود صراع بين أشكال رأس المال فقط، وتنافُس بين الملاَّكين الرَّأسماليِّيْن، إنَّما ـ أيضاً ـ نعيش صراعاً بين رأس المال القوميِّ ورأس المال المُعتبر أجنبيَّاً. هذا استمرار صراع الأجيال.

لقد بدأ هذا الصِّراع في العُصُور القديمة، عندما أرادت المُدُن الإيُونيَّة إجبار اليهُود المُقيمين فيما بينهم على إنكار إيمانهم، أو تحوُّل ثقل المصاريف العامَّة[339] واستمرَّ ذلك خلال العُصُور الوُسْطى عندما ظهر اليهُود في المُجتمعات النَّاشئة، وكأنَّهم شعب قد صَلَبَ الإله، فانتبهوا أنَّ هذه القبيلة الغريبة قد احتكرت رأس المال. وعندما نشأت التِّجارة المسيحيَّة أرادت ـ أيضاً ـ أنْ تُزيل من وجهها مُنافساً بدا لها خطراً، كونه ليس من سُكَّان البلاد الأصليِّيْن، فتوصَّلت ـ جُزئيَّاً ـ بتكليف هيئة المُحلّفين والشَّركات؛ أيْ بتنظيم رأس المال المسيحيِّ.

واليوم ـ أيضاً ـ ماتزال هذه الاحتياطات ضدَّ اليهُود احتياطات سرِّيَّة، وليست مُعلنة دوماً، وهي غريزيَّة أكثر من عقلانيَّة، ووراثيَّة ليست مُكتسَبة حديثاً. ويشعرون ـ دوماً ـ بجفاء تجاه قَتَلَة الإله، وينظرون إلى ثروتهم بريبة؛ لأنَّهم لا يعتقدون أنَّ هؤلاء الكُفَّار القَتَلَة الملعونين بإمكانهم أنْ يمتلكوا أشياء شَرْعيَّة، وكانوا يعتقدون ـ أيضاً ـ أنَّهم لا يُمكنهم أنْ يكسبوا شيئاً ومن غير سرقة أموال أبناء الأرض، وكُلُّ مُستلم (مالك) لأرض يُعتبر ابنها، وإذا نُظِر للاَّساميَّة الاقتصاديَّة على أنَّها هي التَّعبير عن صراعات داخليَّة معنويَّة لرأس المال، فيجب أنْ لا يغيب عن بالنا ـ أيضاً ـ أنَّها مظهر لتعارُض رأس المال القوميِّ ورأس المال الأجنبيِّ.

---

(339) مُومسن تاريخ رُوماني، باريس 1889.

الفصل الخامس عشر:

مصير اللاَّساميَّة أو (مُناهضة السَّاميَّة)

كما فرغنا من دراستها، فأسباب مُناهضة السَّاميَّة الحديثة هي أسباب قوميَّة، ودينيَّة، وسياسيَّة، واقتصاديَّة، إنَّها أسباب عميقة لا تتعلَّق باليهُود فقط، ولا بالمُحيطين بهم، وإنَّما - أيضاً - وخُصُوصاً بالوضع الاجتماعيِّ.

فالذين يُعلِّمون وينشرون مُناهضة السَّاميَّة يجهلون - إجمالاً - الأسباب الحقيقيَّة لمشاعرهم، فيشرحون حالتهم الذِّهنيَّة بمطاعن لا تتوافق مع الأسباب التي وجدناها: هذه المطاعن الإثنيَّة والمطاعن الدِّينيَّة والمطاعن السِّياسيَّة والمطاعن الاقتصاديَّة، كُلُّ هذه الزّخارف لمُناهضة السَّاميَّة ليس لها أساس، فبعضها مثل المطاعن الإثنيَّة مُتأتِّية من مفهوم خاطئ للأعراق، وبعضها الآخر مثل المطاعن الدِّينيَّة والمطاعن السِّياسيَّة نشؤوا من فكْرة منقوصة وضيِّقة عن التَّطوُّر التَّاريخيِّ، والأخيرة مثل المطاعن الاقتصاديَّة كانت نتيجة الحاجة لستْر إحدى صراعات رأس المال.

فلا هذه ولا تلك بالإمكان تبريرها. فليس دقيقاً أنْ يكون اليهُوديُّ سامياً صافياً، ولا الشُّعُوب الأُورُوبيَّة هي آريَّة صافية. حتَّى إنَّ فكْرة السَّاميِّ والآريِّ لا يُمكن شَرْعَنَتُهَا.

وقد رأينا أنَّه في المعنى الذي ننسبه إلى هذه الكلمة لا يُوجد أيُّ جنس ولا مجموعة بشريَّة هي سليلة جدَّين أوَّلَيْنْ، وتكاثروا دُون الافتراض بتدخُّل عِرْق أجنبيٍّ فيهم. إنَّ فكْرة نقاء الدَّم كأساس لوحدة في التَّجمُّع، وإنْ كان لها أسبابها في الوُجُود عندما كانت البشريَّة مؤلَّفة من عشائر صغيرة، غير مُتجانسة، أمَّا الآن؛ فلا يُمكن لا دَعْمها ولا تبنِّيها حالما تأهَّلت تلك العشائر لتُشكِّل مُدُناً. فهي استمرَّت، وأصبحت وَهْماً إثنياً.

جمَّلتها المُدُن القديمة بالأساطير بسَرْدها حياة أبطالها المُؤسِّسين، وهذا الوَهْمُ تحوَّل عندما تحالفت المُدُن، وشكَّلت الأُمم، لكنَّه استمرَّ مع ذلك، وأدَّى إلى ولادة تلك الأنساب التي لا نهاية لها، والتي كان - دوماً - هدفها إقامة نَسَب مُشترك لجميع أعضاء الدَّولة نَفْسها.

فإذا لم يكن اليهُود جنساً، فإذاً؛ ليس من الصّحيح - أيضاً - اعتبارهم سبباً للتَّحوُّلات الحديثة، فبذلك؛ يُعطونهم مكانة عالية جداً، وعالية لدرجة يظهر فيها مُناهضو السَّاميَّة وكأنَّهم يعملون عمل مُحبِّي السَّاميَّة.

جَعْلُ اليهُود مركزَ العالم، خميرةَ الشُّعُوب، مُحرِّكي الأُمم، هذا أمر غير معقول: إلاَّ أنَّ أصدقاء وأعداء اليهُود يعملون بهذه الطَّريقة. فهُمْ ينسبون لهُم أهمِّيَّة قُصوى، قبلها اليهُوديُّ بحُبِّ التَّفاخُر الغريزيِّ والغُرُور الوحشيِّ الذي يُميِّزه، وذلك سواء كان النَّاسب بوسويه Bossuet أو Drumont. إنَّما يجب في ذلك إعادة النَّظَر. فإذا انهارت الممالك، وإذا رأت الكنيسة القويَّة القادرة أنَّ سُلطتها تناقصت، وأنَّ جُهُود البُورجوازيَّة المُنهارة جميعها لا يُمكن لها أنْ يُحيوها، وإذا ازداد عدم الاكتراث الدِّينيِّ تزامُناً مع مسيرة الثَّورة، فالخطأ لا يقع على أبناء يعقُوب.

فاليهُود لم يخلقوا لأنفسهم - فقط - الوضع الحاليَّ، إنَّما تكيَّفوا بشكل أفضل، بفضل الميزات الوراثيَّة والعريقة التي يتمتَّعون بها - دوماً - عن غيرهم، فهُمْ لم يُؤسِّسوا هذا المُجتمع الرَّأس ماليَّ، ولا الماليَّ. لقد ساهمت أسباب عديدة في إنشائه.

لكنَّهم - على الرّغم من ذلك - قد استفادوا من ذلك أكثر من الجميع. لقد كسبوا فوائد هائلة ثمينة جداً، وعديدة جداً، وذلك ليس لأنَّهم استخدموا وسائل غشَّاشة وغير شريفة كما يتَّهمهم مُنافسوهم، إنَّما لأنَّ القُرُون والقوانين المُقيِّدة والفُرُوض الدِّينيَّة والظُّرُوف السِّياسيَّة والاجتماعيَّة التي عاشوا فيها هيَّأتهم - بشكل أفضل - للوسط المُعاصر، وسلَّحتهم للكفاح اليوميِّ بأسلحة أفضل. مع ذلك؛ لو أنَّ اليهُود ليسوا جنساً، فلقد كانوا - حتَّى يومنا هذا - أُمَّة. لقد استمرّوا بخصائصهم الذَّاتيَّة، ونمطهم المذهبيِّ، ونظامهم اللاَّهوتيِّ، والذي كان - في الوقت نَفْسه - نظامهم الاجتماعيَّ، فهُمْ، وإنْ لم يُحطِّموا المسيحيَّة، ولم يُحيكوا مُؤامرات دنيئة ضدَّ يسُوع، إنَّما أعطوا الأسلحة للَّذين حاربوهم، وفي الهجمات ضدَّ الكنيسة كانوا - دوماً - في الصَّفِّ الأوَّل. فهُمْ إنْ لم يُقوِّضوا العُرُوش المَلَكيَّة - كونهم مُؤلَّفين

من مُجتمع واسع سرِّيٍّ، تابعَ مُخطَّطاته عبر القُرُون، فهُمْ أمَّنوا مُساعدة هائلة للثَّورة. وكانوا في هذا القرن بين أنشط الدَّاعمين للأحزاب اللِّيبراليَّة والثَّوريَّة والاشتراكيَّة، وقدَّموا لهم رجالاً مثل لاسكر **Lasker**، وديسرايلي **Disraeli**، ومثل كريميو **Cremieux**، وماركس، ولاسال[340]، دُون أنْ نُعدِّد القطيع الغامض لمُروِّجي الدِّعاية، فسندوهم برُؤُوس أموالهم.

وأخيراً؛ كما قُلنا آنفاً، هُمْ، وإنْ لم يُقيموا لهم عرش البُورجوازيَّة الرَّأسماليَّة المُنتصرة فقط، وذلك على أنقاض النِّظام القديم، إنَّما ساعدوا في إقامته.

فهُمْ في قُطبَيْ المُجتمعات المُعاصرة. فمن جهة هُمْ يُساهمون ـ بشكل حيويٍّ ـ في المركزة القُصوى لرُؤُوس الأموال، التي ـ بدُون أدنى شَكٍّ ـ تُسهِّل اشتراكيَّتهم، ومن جهة أُخرى؛ فهُمْ أشدُّ مُنافسين لرأس المال.

ففي وجه اليهُوديِّ صرَّاف الذَّهب، ونتاج النَّفْي والتّلمُوديَّة والتَّشريعات والاضطهادات، يقف اليهُوديُّ الثَّوريُّ ابن التُّراث التَّوراتي والنَّبوي، هذا التُّراث الذي حرَّك مُجدِّدي العماد (مذهب يقول بإعادة التَّعميد) الفوضويِّيْن الألمان في القرن السَّادس عشر، وطُهَّريِّي كروميل. ففي خِضَمِّ كُلِّ هذه التَّحوُّلات التي مَهَرَتْ هذا القرن، لم يبقوا ساكتين، غير ناشطين، بل على العكس من ذلك، نشاطهم هُو الذي سبَّبَ استمرار اللاَّساميَّة؛ لأنَّ اللاَّساميَّة الحديثة هي وريثة مُناهضة اليهُوديَّة في العُصُور الوُسْطى.

في الماضي ـ أيضاً ـ وفي إسبانيا عندما كانوا يُحاربون المُوريسك، والماران، **Morisques, Marranes**، كانوا يُحاولون تقليص العناصر الغريبة عن الأُمَّة الإسبانيَّة: في الماضي اعتُبر اليهُود وكأنَّهم قبيلة أجنبيَّة، عشيرة قَتَلَة الإله، يُريدون تبشيرهم ونفخ رُوحهم إلى المسيحيِّيْن، وبالإضافة لذلك؛ مُحاولين احتكار هذا الذَّهَب الذي بدأت أهمِّيَّته تظهر خلال السِّنين الأُولى للعُصُور الوُسْطى.

إنَّ التَّظاهُرات في مُناهضة السَّاميَّة الحاليَّة هي ـ الآن ـ في أُورُوبا الغربيَّة[341] مُختلفة عن تظاهُرات الماضي، لقد تغيَّرت الطُّعُون؛ أيْ عبَّروا عنها بشكل آخر، فدعموها بنظريَّات

---

(340) لا يُمكن مُناقشة القيمة الشَّخصيَّة لجميع هؤلاء النَّاس المُختلفين، إنَّما نُذكِّر بأعمالهم فقط.

(341) في أُورُوبا الشَّرقيَّة وإيران ومراكش عندنا قائمة تقريبيَّة للاساميَّة في القُرُون الوُسْطى. أحكام مُسبَقَة، تشريعات مانعة، إذلالات، تحقيرات، قَتْل، شَغَب، طَرْد، لا شيء ينقص. أعتقد أنِّي شرحتُهُ في رُومانيا ورُوسيا في الفصل الثَّامن من هذا الكتاب.

علميَّة وأنترُوبُولُوجيَّة وإثنيَّة، لكنَّ الأسباب لم تتغيَّر بشكل محسوس، ومُناهضو السَّاميَّة المُعاصرون لا يختلفون عن مُناهضة اليهُوديَّة القديمة، إلاَّ أنَّهم أكثرُ وعياً، وأكثرُ عَقْلَنَة، وأكثرُ وُثُوقاً، وأقلُّ تحريضاً، وأكثرُ تفكيراً.

ففي قاعدة لاساميَّة أيَّامنا هذه، مثلما في قاعدة مُناهضة اليهُوديَّة في القرن الثَّالث عشر، يُوجد فظاعة وبُغض الأجنبيّ. هُنا يكمن السَّبب الأساسيُّ لكُلِّ مُناهضة ساميَّة، هُنا الدَّافع المُستمرّ والدَّائم الذي نجده في الإسكندريَّة في عهد بطليمُوس، وفي رُوما في عهد شيشرُون، وفي المُدُن اليُونانيَّة في أيونيا، وفي أنطاكية، وفي البلقان، وفي أُورُوبا الإقطاعيَّة، وفي الدُّول المُعاصرة التي يُحرِّكها مبدأ القوميَّات.

والآن؛ لنترك جانباً مُناهضة اليهُوديَّة القديمة، ولنهتمَّ ـ فقط ـ بمُناهضة السَّاميَّة الحديثة. وهذا نتاج الخُصُوصيَّة القوميَّة، ونتاج ارتكاس الذِّهن المُحافظ ضدَّ المُيُول النّاجمة عن الثَّورة، وكُلُّ الأسباب التي أدَّت إليها، أو حافظت عليها، يُمكن أنْ نردَّها لسبب واحد:

اليهُود لم ينصهروا بَعْدُ، يعني ذلك أنَّهم مازالوا يعتقدون بقوميَّتهم. فهُمْ مُستمرُّون بالاختلاف والتَّميُّز عن الذين يُحيطون بهم، وذلك بالختان، والقواعد الصِّحِّيَّة الخاصَّة، والنَّواهي الغذائيَّة، فهُمْ استمرّوا بصفتهم يهُوداً، وليس أنَّهم ناقصو وطنيَّة، فاليهُود في بعض البُلدان ـ مثل ألمانيا مثلاً ـ ساهموا أكثر من أيِّ أحد آخر في تحقيق الوحدة القوميَّة، لكنَّهم يحلُّون مُعضلة يبدو أنَّها عصيَّة على الحلِّ؛ وهي أنْ يكُونُوا جُزءاً مُندمجاً في قُوَّتَيْن اثنتَيْن، فإنْ هُمْ كانوا فرنسيِّيْن، وإنْ هُمْ كانوا ألمان[342]، هُمْ ـ أيضاً ـ يهُود، وإنْ رضوا بهم تواضُعاً أنْ يكونوا ألماناً أو فرنسيِّيْن، فيلومونهم ـ بشدَّة ـ كونهم يهُوداً، فيعتبرونهم في جميع الدُّول كما يعتبر الأمريكان الصِّينيِّيْن، وكقبيلة أجانب اكتسبت الامتيازات نَفْسها التي للسُّكَّان الأصليِّيْن، ورفضت أنْ تختفي وتزول، فيُشعرونهم بأنهم مُختلفين، وكُلَّما تجانست الأُمم، ظهرت الاختلافات أكثر، وفي هذه الحركة الكبيرة التي أدَّت بكُلِّ شعب إلى تناغُم العناصر المُكوِّنة له بقي اليهُود عُصاة كالحصاة، بقوا ـ دوماً ـ الأُمَّة المُتصلِّبة التي يقذفها المُشرِّع بلعناته وتحريماته.

---

(342) اللاساميُّون الألمان يأخذون على اليهُود أنَّهم يُغذُّون مشاعر العداء لألمانيا، ويُقوُّون المصالح الفرنسيَّة، لكنَّ اللاَّساميِّيْن الفرنسيِّيْن يلومون ـ بدورهم ـ اليهُود أنَّ لهم تعاطُفاً مع ألمانيا، إنَّ هذا يُثبت أنَّ اليهُود أجانب، أو غير مُنصهرين.

فهُمْ يتعلَّقون بأشكال اجتماعيَّة بائدة؛ حيثُ خُرِّبت ذاتيَّتها مُنذُ زمن بعيد، ونستطيع أنْ نقول إنَّهم أُمَّة عاشت بعد أنْ ماتت قوميَّتها، ومُنذُ قُرُون تُقاوم الموت.

لماذا؟ لأنَّ كُلَّ شيء ساهم في حفظ خصائصهم كشعب، لأنَّهم امتلكوا ديانة قوميَّة كان لها هدف من وُجُودها عندما كانوا يُشَكِّلون شعباً، وتوقَّفت عن فعْلها في أنْ تكون كافية بعد الشَّتات، لكنَّها عَزَلَتْهُم جانباً، ولأنَّهم أسَّسوا في كُلِّ أُورُوبا مُستوطنات غيورة على امتيازاتها مُرتبطة بعاداتها وطُقُوسها وتقاليدها؛ ولأنَّهم عاشوا سنوات طوال تحت سيطرة نظام لاهوتيٍّ جمَّدهم؛ ولأنَّ قوانين البلاد المُختلفة والمُتعدِّدة التي نصبوا فيها خيامهم مع الأحكام السَّلَفيَّة والاضطهادات منعتهم من الاختلاط، ولأنَّه مُنذُ الخُرُوج الثَّاني؛ أيْ مُنذُ رحيلهم عن الأرض الفلسطينيَّة رفعوا، وغيرهم رَفع لهم من حولهم، حواجز قاسية ومنيعة، وكوَّنوا أنفسهم ببُطء، وقد خلقوا لأنفسهم كما خلقوا لهم كائنهم الفكْريَّ والأخلاقيَّ، وجهدوا لجَعْلهم مُختلفين، وهُمْ - أيضاً - ثابروا لزيادة هذا الوضع، لقد خافوا من التَّدنُّس، كما أنَّ غيرهم خاف أنْ يتدنَّس منهم، رفض أحبارهم أنْ يتركوهم ليتَّحدوا مع المسيحيِّين، والمُشرِّعون المسيحيُّون رفضوا ومنعوا كُلَّ وحدة مع اليهُود، فاتَّجهوا لتجارة الذَّهَب، فمنعوهم من مُمارسة أيَّة مهنة أُخرى، ابتعدوا عن العالم، فأجبروهم على البقاء داخل المحاجر **Ghettos**.

لقد كانوا مُختلفين عن الذين يعيشون في وسطهم، ولكنْ؛ قبل تحرُّرهم كانوا يهربون من الأنظار، فكانوا يعيشون وحدهم، لا أحد كان يتَّصل بهم، خَطَّوا لهم عالمهم، وخصَّصوا، وأقرّوا لهم نصيبهم، فكانوا يعيشون على هامش المُجتمعات دُون أنْ يُعيقوا أو يُزعجوا في شيء المسيرة العامَّة؛ لأنَّهم لم يكونوا يُشَكِّلون جُزءاً من الكيان الاجتماعيِّ، وعندما حُرِّروا انتشروا في كُلِّ مكان، وظهروا بشكلهم كما صنعتهم الدُّهُور، فشعروا تجاههم وكأنَّهم قد يتأثَّرون لو رأوا فجأة غَجَرَ العالم، انضمّوا إلى الحضارة، وطالبوا بمكانهم؛ إذْ إنَّه قد تغيَّرت الظُّرُوف التي كان يعيش فيها اليهُود مُنذُ زمن طويل.

لكنَّهم لم يُغيِّروهم هُمْ، ولا عدَّلوا فيها أيَّ شيء، وكان يلزم لمثل هذا الفعْل شيء آخر غير قرار الجمعيَّة الوطنيَّة، فاليهُود كونهم نتاج ديانة وشَرْع، لم يُمكنهم أنْ يتحوَّلوا إلاَّ إذا تحوَّلت هذه الدّيانة وهذا الشَّرْع.

هُنا نجد أنفسنا تجاه رفض رئيسيٍّ، فمُناهضو السَّاميَّة لا يكتفون بالقول إنَّ اليهُوديَّ ينتمي إلى عِرْق مُختلف، وإنَّه أجنبيٌّ، لكنَّهم يُؤكِّدون أنَّه عُنْصُر غير قابل للانصهار، ومُتعذِّر تبسيطه، وإذا افترض أحدهم أنَّ اليهُوديَّ بإمكانه أنْ يدخل في تكوين الشُّعُوب، فيزعمون عندها أنَّه يدخل في أذيَّة وإضرار هذه الشُّعُوب، وأنَّ السَّاميَّ يقتل ويُضلِّل الآريَّ، وهذا أمر مُتناقض مع النَّظريَّة المُناهضة للسَّاميَّة التي بحسبها كُلُّ عِرْق مُتفوِّق يجب أنْ يُخضعَ العِرْق المُنحطَّ دُون أنْ يتأذَّى منه.

هل فعلاً اليهُود غير قادرين على الانصهار؟ أبداً؛ فكُلُّ تاريخهم يُثبت العكس، لقد برهن[343] لنا التَّاريخ كم من يهُود دخلوا في الأُمم بواسطة المعمُوديَّة، وكم كانت الهدايات عديدة في القُرُون الوُسْطى.

وأخيراً؛ كم من اليهُود اختفوا وامتُصّوا من المُحيطين بهم، فأتوا بإرادتهم إلى المسيح، أو قُبلوا ـ بالقُوَّة ـ بواسطة النُّسَّاك، أو المُلُوك المُتعصِّبين، يهُود لا يُمكننا ـ اليوم ـ أنْ نقتفي أثر الغُوتيِّيْن والألِيمان والسّويف الذين امتزجوا واتَّحدوا بشُعُوب أُخرى أيضاً، وساهموا في تشكيل الشَّخصيَّة الفرنسيَّة في كُلِّ زمن ومثل كُلِّ السَّاميِّيْن، اتَّحد اليهُودي بالآريِّ، وفي كُلِّ زمن حصل تداخل مُتبادَل في هذَيْن الجنسَيْن، وإثبات هذا الانصهار هُو من أسهل الأشياء.

على أيِّ حال؛ لكي نُبرهن أنَّ اليهُود غير قابلين للانصهار، يجب أنْ نُبرهن أنَّهم غير قابلين للتَّعديل، وكُلُّ كائن غير قابل للتَّعديل والتَّغيير لا يُمكن له أنْ ينصهر في تجمُّع إنسانيٍّ، مثله مثل أيِّ غذاء مُقاوم كتيم لا يُمكن أنْ يدخل في حساب الجسد، لكنَّهم تحوَّلوا ـ باستمرار ـ بفضل الأوساط التي عاشوا فيها، فإذا وجدنا بين يهُودي إسبانيٍّ ويهُوديٍّ رُوسيٍّ[344] تشابُهاً، فإنَّنا نجد ـ أيضاً ـ اختلافات وفُرُوقات، وهذه الفُرُوقات لم تكن ـ فقط ـ ثمرة انضمام شُعُوب أجنبيَّة انجذبت واهتدت من قِبَل اليهُود، إنَّما كانوا نتاج الوسط الطَّبيعيِّ، والوسط الاجتماعيِّ، والوسط الأخلاقيِّ والفكْريِّ الذي يعيشون فيه.

---

(343) فصل X.

(344) أتحدَّث عن اليهُود المُمارسين طبعاً.

فالنَّمط اليهُوديُّ أو النَّموذجُ اليهُوديُّ لم يتغيَّر ـ فقط ـ في المكان، إنَّما ـ أيضاً ـ تغيَّر في الزَّمان، إنَّه بديهي القول بأنَّ يهُودي المحاجر (Ghettos) في رُوما ليس هُو نَفْسه يهُودي جماعات بارقُوكيبا.

كذلك؛ فإنَّ يهُوديَّ عواصمنا الأُورُوبيَّة الكبيرة هُو ليس مُماثلاً ليهُودي العُصُور الوُسْطى.

وإنَّ هذه الفُرُوقات والتَّمايُزات التي أُشير إليها بين يهُود مُختلف البُلدان ومُختلف العُصُور هي أقلُّ بُرُوزاً وحُدُوديَّة من التَّشابُهات، وهذا يُثبت أنَّ الوسط الاصطناعيَّ الذي جعلوا اليهُوديَّ يعيش فيه كان أقوى من الوسط الطَّبيعيِّ، هذا ما يحصل ـ دوماً ـ للإنسان، فهُو أقل حساسيَّة للأوساط المناخيَّة التي يرتكس تجاهها باستمرار أكثر من الأوساط الاجتماعيَّة، فاليهُوديُّ لم يستطع أنْ ينجو من هذه القاعدة الإنسانيَّة، فلم تكن ثُلُوج بُولُونيا، ولا شُمُوس إسبانيا المُحرقة، هي التي كانت قولباته الأساسيَّة، لقد تحجَّر من القوانين السِّياسيَّة للأُمم، ومن الدِّيانة القويَّة والرَّهيبة مثلها مثل كُلِّ الدّيانات الطَّقْسيَّة التي تضع جُملة شرائع بدلاً (الميتافيزيقيا) الماوراء، هذه القوانين وهذه الدّيانة كانت ـ دوماً ـ هي نَفْسها بالنِّسبة لليهُودي؛ في كُلّ الأمكنة، وفي كُلِّ الأزمنة، كانت بالنِّسبة له ثوابت خارجيَّة وثوابت داخليَّة.

إلاَّ أنَّه مُنذُ مائة عام تغيَّرت هذه الثَّوابت[345] وزالت القوانين الخارجيَّة التي كانت تحكم اليهُود، فأُلغي التّشريع الخاصُّ والمُوحَّد الذي كان يخضع له، وأصبحوا ـ الآن ـ خاضعين لقوانين البلاد التي هُمْ فيها مُواطنون، وكون هذه القوانين مُختلفة حسب المناطق، فأصبحت عوامل للاختلاف والتَّميُّز، فمع القوانين زالت العادات؛ فلم يَعُدْ اليهُود يعيشون مُنعزلين على حدة، فهُمْ يُشاركون في الحياة العامَّة، فهُمْ لم يعودوا أجانب وغُرباء عن الحضارات التي استقبلتهم، ولم يَعُدْ لهم أدبهم الخاصُّ، ولا تقاليدهم الخاصَّة الفريدة والمُميَّزة، فقبلوا هُمْ أساليب حياة الأُمم المُختلفة التي يعيشون في وسطها، ومُوزَّعين فيما بينها، وبما أنَّ هذه الأساليب مُختلفة، فاختلف معها اليهُود، ونشأت أكثر فأكثر فُرُوقات فيما بينهم، فهُمْ

---

(345) أُذكر أنَّني لم أرَ إلاَّ اليهُود في أُورُوبا الغربيَّة الذين حصلوا على حُقُوق المُواطنيَّة في البلاد التي يسكنونها، وليس اليهُود الشّرقيِّين الذين مايزالون يعيشون في ظلِّ قوانين الاستثناءات في رُومانيا، ورُوسيا، ومراكش، وإيران.

يبتعدون كُلَّ يوم عن هذا النَّموذج المهنيِّ والمذهبيِّ الذي مايزال موجوداً، لكنَّه ـ قَدَرِيَّاً وحتميَّاً ـ آيل إلى الـزَّوال، وهُـو لـم يستمرّ إلاَّ بـالثَّوابت الدَّاخليَّـة؛ أيْ بالدّيانـة والطُّقُـوس والعـادات المُتعلِّقة بهم.

إلاَّ أنَّه ـ اليوم ـ اختلفت هذه المُمارسات الدِّينيَّة لليهُود من بلد إلى آخـر، فبينما تجد في غاليسيا مثلاً أنَّه لا تـزال أدقُّ مُمارسـات العبادة مـاتزال مُمارَسـة، بينما في فرنسا وإنكلترا وألمانيا؛ تراجعت إلى الحَدِّ الأدنى، وإذا كانت دراسة التّلمُود هي لا تزال مُشـرِّفة في بُولُونيا ورُوسيا وبعض أجزاء ألمانيا والنِّمسا وهنغاريا، لكنَّها بَطُلَتْ بفعل التَّقادُم في البلدان الأُخرى جميعها، فبين اليهُوديِّ الفرنسيِّ المُتحرِّر واليهُوديِّ الغاليسيِّ التّلمُوديِّ تُحفـر الـهُوَّة كُـلَّ يـوم أعمق، وبـهذه الطَّريقـة؛ تنشـأ اختلافـات بـين اليـهُود، اختلافـات نجدهـا ـ أيضـاً ـ بـين يـهُود الكُنُس الإصلاحيَّة وبـين يـهُود الكُنُس الأرثُوذُوكسيَّة، لكـنْ؛ مـا هُـو مُـهمٌّ هُـو أنَّ الذِّهنيَّـة التّلمُوديَّة تزول ببُطء، فالمدارس التّلمُوديَّة الباقية تُغلق كُلَّ يوم في أُورُوبا الغربيَّة، فاليـهُوديُّ المُعاصر حتَّى إنَّه لا يقرأ العبريَّة.

وكون الكَنيس قد تخلَّص من الرَّوابط الحاخاميَّة، فهُو لا يُعلِّم إلاَّ شكلاً مـن الوحدانيَّـة الاحتفاليَّة، وهذا الإيمان بالإله الواحد يخبت أكثر فأكثر عند اليهُوديِّ الحديث، كُـلُّ يـهُوديٍّ مُتحرِّر هُو جاهز للعقلانيَّة، كما أنَّه ليس ـ فقط ـ التّلمُود هُو الذي يموت، إنَّها الدّيانة اليهُوديَّة الموجودة، ويبدو أنَّـها يجب أنْ تكـون أوَّل مَـنْ يـزول، فـهي ـ بالتَّمـاس المُباشـر مـع المُجتمـع المسيحيِّ ـ تحلَّلت، واختفت، وقد بقيت لفترة طويلة مثلما تبقى الأجسام التي يُبعدونـها عـن النُّور والهواء.

لقد فتحوا نوافذ سـرداب الدَّفْن الـذي كـانوا ينـامون فيـه، ودخلـت الشَّـمس، ودخـل الهواء، فذابت وانحلَّت (الديانة)، مع الدّيانة اليهُوديَّة يُصاب الذِّهن اليهُوديُّ بالإغماء، هذا الذِّهـن حـرَّك ـ أيضـاً ـ هانيـه، وبوزنـه، ومـاركس، ولاسـال، لكنَّـهم أُنشئوا علـى الطَّريقـة اليهُوديَّة، لقد تَهَدْهَدُوا بالتَّقـاليد التـي يجهلـها اليـوم الشَّـباب، ويحتقرونـها، والآن لـم يَعُـدْ يُوجد أو يُحاول ألا يُوجد الشَّخصيَّة اليهُوديَّة.

وهكـذا؛ فـإنَّ اليـهُود المُؤلَّفـين مـن عـدَّة طبقـات مُختلفـة والتـي وحَّدتـهم ظُـرُوف الحيـاة الخارجيَّة المُماثلـة والاهتمامـات الفكْريَّـة المُتشـابهة والأشـكال الدِّينيَّـة والأخلاقيَّـة والاجتماعيَّـة

المُتماثلة، عادوا ـ الآن ـ إلى التَّنوّع وعدم التَّجانُس، فالثَّوابت التي كوَّنتهم أصبحت مُتغيِّرات، والشَّكل الوحدانيّ الاصطناعيّ زال؛ لأنَّ الإيمان اليهُوديَّ قد زال، والمُمارسات اليهُوديَّة ـ أيضاً ـ قد زالت، وزال معها الفكْر اليهُوديُّ، ومع زوال هذا الفكْر وتلك المُمارسات، وهذا الإيمان، اضمحلَّ الإسرائيليُّون أنفسهم، وتلاشوا، الذي لم تستطع الاضطهادات أنْ تفعله ضعف المُعتقدات الدِّينيَّة، اعتباراً من المُعتقدات القوميَّة، أتمَّ ذلك وفَعَلَهُ.

فاليهُوديُّ المُتحرِّر والخارج من النُّظُم الخاصَّة الاستثنائيَّة ومن التّلمُوديَّة المُتحجِّرة هُو عُنْصُر مُتقمِّص، ولكنَّه بعيد عن أنْ يمتصَّ هُو أحداً، في بعض البُلدان مثل الولايات المُتَّحدة، فإنَّ التَّمييز بين يهُوديٍّ ومسيحيٍّ يختفي بسُرعة[346]، وهُو يختفي أكثر فأكثر من يوم إلى يوم؛ لأنَّ اليهُود يتركون أفكارهم السَّلَفيَّة القديمة، وطُقُوسهم الانفصاليَّة، ونواهيهم الصِّحِّيَّة والغذائيَّة، وهُمْ لا يعتقدون أنَّهم مُؤهَّلون للاستمرار كشعب، فهُمْ لا يتصوَّرون بعد الآن (وهذا تصورٌّ مُؤثِّر ربُّما) لكنَّه غير معقول، أنَّ لهم دوراً أزليَّاً يقومون به، وسوف يأتي زمن؛ حيثُ يكونون فيه قد زالوا نهائيَّاً، وبشكل كامل، ؛ حيثُ سيذوبون في قلب الشُّعُوب مثل الفينيقيِّيْن الذين بعد أنْ بذروا بسلعهم ومتاجرهم في كُلِّ أُورُوبا، اختفوا، ولم يتركوا أيَّ أثر، وفي هذا الوقت تكون مُناهضة السَّاميَّة قد انتهت، لكنَّ الوقت ليس بقريب، إذْ إنَّ عدد اليهُود المُتَيَهْودين هُو عدد كبير، طالما استمرّوا يبدو أنَّ مُناهضة السَّاميَّة سوف تستمرُّ، إلاَّ أنَّ مُناهضة السَّاميَّة لا يُثيرها ـ فقط ـ إسرائيل، فهي نتاج أسباب دينيَّة وقوميَّة واقتصاديَّة، أسباب مُستقلَّة عن اليهُود، هذه الأسباب هي ـ أيضاً ـ قابلة للتَّغيير والتَّعديل وحتَّى إلى الزَّوال، نستطيع ـ اليوم ـ أنْ نُشاهد ضعفها وتراجعها.

فإذا كانت اليهُوديَّة تضعف، فلا الكاثُوليكيَّة ولا البرُوتستانتيَّة تقوى، ويُمكننا أنْ نقول إنَّ أيَّ شكل إيجابيٍّ للدّيانة يفقد قُدرته، ويعتقدون أنَّهم بإمكانهم إثبات العكس بالنِّسبة للدّيانة المسيحيَّة، لكنَّهم ضحيَّة وَهْمٍ أوَّلاً، ثُمَّ يُساقون بالمصالح الخاصَّة، وكما قال غُويُو Guyau[347]: (لقد وجد مُدافعين ارتيابيِّيْن يدعمونه تارةً باسم الشِّعر والجمال الفنِّيِّ

---

(346) هنري جُورج، تطوُّر وفَقْر، باريس 1887، ترجمة فرنسيَّة.

(347) غُوريُو، لا ديانة في المُستقبل، باريس 1893 XI.

للأساطير، وتارةً أُخرى باسم حصيلة هذه الحاجة إلى الشِّعر وإلى الجمال الفنّيّ الـذي يعتقـد أنّه لا يُستكمل ويُرضي إلاّ بالوَهْم الدِّينيّ.

أمّا بالنِّسبة للفائدة العمليّة للدِّين؛ نراها مدعومة من قِبَل البُورجوازيّـة الرّأسـماليّة التي هاجمت المُعتقدات الدِّينيّة، طالما أنّها دَعَمَتْ أتباع الأنظمة القديمة، أمّا الآن؛ فهي تدعو إلـى الإيمان لنجدتـها وتقويـة سُلطتها، والدِّفـاع عـن امتيازاتـها، لكـنّ ذلـك ليـس إلاّ تظـاهُرات اصطناعيّة، والشُّعُور الدِّينيّ الإيجابيّ والمُحدَّد والمُقرَّر ينطفئ يوماً بعد يوم، فنسير - من جهـة - باتّجاه نوع من لا دينيّ مـاديّ ضيِّق الأُفـق وغبـيّ، ومـن جهـة أُخـرى؛ نصـل إلـى لا دينيّـة فلسفيّة وأخلاقيّة سوف تُصبح (درجة عالية من الدِّين والحضارة نَفْسها)[348] ففي الوقت التي تُثبت فيه هذه التَّوجيهات، تسير فيه الأحكام السَّلَفيّة الدِّينيّة نحو الاندثـار، والحُكْـم السَّـلَفيّ ضدّ اليهُوديّ الذي هُو مُستمرّ مثـل الحُكْـم السَّـلَفيّ للكـاثُوليكيّ ضـدّ البرُوتسـتانتيّ، وحُكْـمُ اليهُوديّ ضدّ المسيحيّ لا يُمكن له أنْ يستمرّ وحده، فهُو يتناقض بالشِّدَّة قريباً، وبـدُون أدنـى شَكّ سوف لـن يستوقفوا يـهُوديّاً لمسؤوليّته عـن آلام يسُـوع علـى الجُلْجُلَـة، ومـع الانخمـاد التَّدريجيّ للأحكام الدِّينيّة يزول سبب من أسباب مُناهضة السَّاميّة التي - بذلك - تفقد عُنقها، لكنّها تبقى وتستمرّ طالما استمرّت الأسباب القوميّة والأسباب الاقتصاديّة.

لكنّ الخُصُوصيّة والأنانيّة القوميّـة مـهما كـانت قويّـة قـادرة فـهي تُعَـدّ علامـات ودلائـل انهيار وسُقُوط.

لقد وُلدت أفكار جديدة تكتسب يوماً بعد يوم قُوّة أكثر، فهي تمهر العُقُول، وتنطبع فـي الأذهان، وتُولِّد مفاهيم جديدة وأشـكالاً لأفكـار جديـدة، وإذا كـان مـايزال مبـدأ القوميّـات مبدأ قائد ومُوجِّه للسِّياسة، لكنْ؛ لم يَعُدْ هُناك من بُغض ضدّ الأجنبـيّ كعقيـدة رعنـاء وغير عاقلة.[349]

لقد نشأت ثقافة مُشـتركة للشُّعُوب المُتمدِّنـة، ثقافـة إنسـانيّة هـي فـوق الثَّقافـة الفرنسـيّة وفوق الثَّقافة الألمانيّة والثَّقافة الإنكليزيّة، وأصبحت العُلُوم والآداب والفُنُـون عالميّـة، لكنّـها

---

(348) غويو IO,CIT، ص XV 15.

(349) عدا القوميِّيْن المُتحمِّسين الذين عندهم وَهُم الإنكليز، وَهُم الجرمانيّة أكثر من العقلانيّة.

لم تفقد خصائصها وميزاتها التي هي جمالها وقيمتها، ولم تهدف إلى شكل مُوحَّد مُعيب، إنَّما أصبح يُحرِّكها الذّهن نَفْسه، والرُّوحيَّة نَفْسها، فأُخُوَّة الشُّعُوب - التي كانت فيما مضى وَهْماً وخُرافة - لا يُمكن تحقيقها، لكنْ؛ الآن الحُلم بها بدُون جُنُون.

قَوِيَ شُعُور التَّضامُن الإنسانيّ، وازداد عدد المُفكِّرين والكُتَّاب الذين يعملون على تقويته كُلَّ يوم، واقتربت الأُمم من بعضها البعض، فيُمكنها - الآن - أنْ تعرف بعضها البعض بشكل أفضل، وأنْ تُحبَّ بعضها البعض، وتحترم بعضها البعض بشكل أقوى، كما أنَّ سُهُولة الاتِّصالات والعلاقات نشطت بتطوُّر المُواطنة العالميَّة، هذه المُواطنة العالميَّة سوف تُوحِّد - ذات يوم - الأعراقَ المُختلفة، وتسمح لها بالاتِّحاد والتَّحالُف بوحدات سلميَّة، فيحلّ مكان الأنانيَّة الوطنيَّة (الغَيْريَّة العالميَّة).

وفي تناقض هذه العُنْصُريَّة القوميَّة سوف يُستنفذ اليهُود أيضاً، بقدر ما يترافق معهم ضعف طبائعهم التَّميُّزيَّة، وتطوُّرات وارتقاء العالميَّة سوف يُؤدُّون إلى انهيار اللاَّساميَّة.

وفي الوقت نَفْسه الذي يُشاهد فيه اليهُود تناقُصَ القوانين القوميَّة، سوف يُشاهدون تناقُصَ قُوَّة الأسباب الاقتصاديَّة لُمناهضة السَّاميَّة، إنَّهم يُحاربون اليهُود؛ لأنَّهم يُمثِّلون رأس المال يقولون عنه إنَّه أجنبيٌّ، فيُمكننا - إذاً - أنْ نفترض أنَّه في اليوم الذي يزول فيه العداء ضدَّ الأجنبي لن يكون بعد الآن الرَّأسمال اليهُوديُّ عُرضة للمُهاجمات من قِبَل الرَّأسمال المسيحيِّ.

رغم ذلك؛ لن تزول المُنافسة نهائيّاً، فاليهُود الذين تماسكوا واستمرّوا، عليهم أنْ يُعانوا من مشاعر عدائيَّة تُحرِّكها المُنافسة ضدَّهم.

لكنَّ هُناك أحداثاً أُخرى وتحوُّلات أُخرى يُمكن لها أنْ تُؤدِّي إلى زوال هذه الأسباب الاقتصاديَّة. ففي الصِّراع المُلتزم بين البرُوليتاريَّة والمُجتمع الصِّناعيِّ والماليِّ رُبَّما سوف نشهد الرَّأسماليِّيْن اليهُود والمسيحيِّيْن ينسون تباغُضهم، ويتَّحدون ضدَّ الأجنبيِّ المُشترَك، أمَّا إذا استمرَّت الظُّرُوف الاجتماعيَّة الحاليَّة؛ لن يكون ها هُنا إلاَّ هُدنة، لكنْ؛ من المعركة الجارية الآن، لا يبدو أنَّ رأس المال سوف يخرج منها مُنتصراً. فالمُجتمع الحاليُّ مُعَدٌّ للزَّوال والاندثار كونه مبنيّاً على الكذب والمصلحة والأنانيَّة والظُّلم والغشِّ.

فمهما ظهر هذا المُجتمع برَّاقاً ومُضيئاً ومصقولاً فاخراً ورائعاً، إنَّه مضروب حتَّى الموت؛ لأنَّه مُدان أخلاقيّاً. فالبُورجوازيَّة التي تمتلك القوَّة السِّياسيَّة؛ لأنَّها تمتلك القُوَّة الاقتصاديَّة سوف تستغلُّ صلاحيَّاتها سُدىً، وسُدىً سوف تستدعي كُلَّ الجُيُوش للدِّفاع عنها، وكُلَّ المحاكم لتحرسها، وكُلَّ الأنظمة والمعايير لحمايتها، فهي لن تستطيع أنْ تُقاوم القوانين الثَّابتة الصُّلبة التي تسعى من يوم ليوم إلى استبدال الملكيَّة الرَّأسماليَّة بالملكيَّة العامَّة المُشتركة.

الكُلُّ يتسابق للحُصُول على هذه النَّتيجة. والطَّبقة المالكة سوف تتمَزَّق بأيديها هي نَفْسها. وإذا أرادت فئة من الملاَّكين أنْ تُدافع عن نَفْسها وأنانيَّتها، فهي تُحارب - بشكل لا واعٍ - ضدَّ نَفْسها ولقضيَّة أعدائها.

كُلُّ صراع داخليٍّ لمالكي رأس المال لا يُمكن إلاَّ أنْ يكون مُفيداً للثَّورة. فبوشايتهم عن الرَّأسماليِّين اليهُود، يشي الرَّأسماليُّون المسيحيُّون عن أنفسهم، ويُساهمون في هَدْم أُسُس هذا الكيان، الذين هُمْ أنشط المُدافعين عنه. سُخرية الأشياء والقَدَر أنَّ مُناهضة السَّاميَّة التي كان يبثُّها - خُصُوصاً - المُحافظون والذين يلُومون اليهُود، وينتقدونهم، لأنَّهم ساعدوا "الجاكُوبان" عام 89، والأحرار "ليبيرو"، والثُّوَّار في هذا القرن، فأصبحت مُناهضة السَّاميَّة حليفة هؤلاء الثُّوَّار أنفسهم.

فالسَّيِّد "درُومُون" في فرنسا، وباتاي في هنغاريا، و"ستُوكر" و "بُوكل" في ألمانيا، يعملون لهؤلاء الدِّيماغُوجيِّين وهؤلاء الثُّوَّار الذين يزعمون أنَّهم يُحاربونهم. هذه الحركة الرَّجعيَّة في أساسها تحوَّلت لصالح الثَّورة، فمُناهضة السَّاميَّة تُحرِّض الطَّبقة الوُسْطى والبُرجوازيَّ الصَّغير، والفلاَّح - أحياناً - ضدَّ الرَّأسمالي اليهُوديِّ، لكنَّها - بذلك - تُوصلهم بلُطف إلى الاشتراكيَّة، وتُهيِّئهم للفوضى، وتأخذهم لبُغض كُلِّ الرَّأسماليِّين، وخُصُوصاً رأس المال.

هذه هي المصائر المُحتملة لمُناهضة السَّاميَّة المُعاصرة. لقد حاولتُ أنْ أُظهر كيف أنَّها كانت مُتعلِّقة بمُناهضة اليهُوديَّة القديمة، وكيف استمرَّت بعد تحرُّر اليهُود، وكيف كبُرت، وما هي أعراضها وتظاهُراتها.

وحاولتُ أنْ أُحدِّد الأسباب بعد أنْ وضعتُهَا، وأردتُ أنْ أستشرف مُستقبلها.

في الأحوال جميعها؛ يبدو لي أنَّ مصيرها الزَّوال، وسـوف تـزول مـن أجـل الأسباب جميعها التي أشرتُ إليها؛ الظُّرُوف الدِّينيَّة والسِّياسيَّة والاجتماعيَّة والاقتصاديَّة تتغيَّر، لكنَّها سوف تزول، خُصُوصاً لأنَّها مظهر من المظاهر الأخيرة والباقية من العقليَّة (الذِّهنيَّة) القديمة، عقليَّة رُدُود الفعْل، والمُحافظة الضيِّقة التي تُحاول ـ سُدىً ـ أنْ تُوقف التَّطوُّر الثَّوريَّ.

من منشورات
الأوائل
للنَّشْر والتَّوزيع والخدمات الطِّباعيَّة

1) اليهُوديَّة والغَيْريَّة غير اليهُود في منظار اليهُوديَّة ، ألبيرتو دانزول ، تر : د . ماري شهرستان ، 2004

ألبيرتو دانزول كاتب فرنسي ذُو خلفيَّة ثقافيَّة علمانيَّة ، وهُو - في هذه الدّراسة - يرمي إلى إلقاء الضّوء على هيكليَّة خفايا التّفاسير اليهُوديَّة والتّلمُود ، ويُعرِّي دور التّلمُود الآثم في بناء شخصيَّة اليهُودي ، حتَّى غدا اليهُودي أشدَّ المخلوقات عداوة لبني البشر ، كما أنَّه وضَّح البنى الذّهنيَّة للأحبار والحاخامات ودأبهم المُستمرّ لتكريس انعزال وانغلاق اليهُودي وتكبُّره وتغطرُسه ، ممَّا أدَّى إلى عدم تفاعله مع المُجتمعات الإنسانيَّة قاطبة ؛ فالذي اعتمده اليهُودي هُو الكنيس والتّوراة المنحولة والتّلمُود ، وهُم وطن اليهُودي وقضاء يَهْوَه وأوامره على الأرض من قَتْل وإبادة جماعيَّة . هُناك بشر غير قادرين على مُقاربة الله : إنَّهم نوع البشر الذين ليس لديهم أيُّ مُعتقد ديني ولا علمي ولا تقليدي مثل آخر الأتراك في أقصى الشّمال ، والزُّنُوج في أقصى الجنوب والذين يُشبهونهم في مناخاتها . هؤلاء يُعدُّون مثل حيوانات غير عاقلة : فأنا لا أُصنِّفهم في مُستوى البشر ؛ إذْ إنَّهم من بين الكائنات الحيَّة صنفٌ أدنى من البشر وأعلى من القرد . بما أنَّ لديهم وجه وملامح الإنسان وفطنة أعلى من القرد ، هذا ما قاله ابن ميمُون ، وهُو عَلَمٌ من أعلام اليهُوديَّة الحاخاميَّة . فلنُبحر معاً لاستكشاف ما خفي .

2) مُناهضة السَّاميَّة تاريخها وأسبابها ، برنار لازار ، تر : د . ماري شهرستان ، 2004

يُشكِّل هذا الكتاب مُساهمة أساسيَّة في سعة مراجعه ومنهجيَّته . وإنَّ تغييب هذا النّصِّ وعدم معرفته تُشكِّل - بحَدِّ ذاتها - فضيحة . قال اليهُود عنه - وهُو يهُودي أيضاً - إنَّ لازار مُناهض للسّاميَّة . لكنَّه يقول : اقرؤوا . وستجدو أنِّي كتبتُ بتجرُّد - بحياديَّة - دراسة تاريخيَّة اجتماعيَّة . تحدَّث فيه المُؤلِّف عن أسباب مُناهضة السّاميَّة الحقيقيَّة مُنذُ القديم حتَّى العصر الحديث . فتكلَّم عن الهكسُوس والرّواقيِّين ورُوما وأنطاكية واصطدام الدّيانة الرُّومانيَّة باليهُوديَّة ، ومن ثَمَّ بالمسيحيَّة ، ثُمَّ اصطدام الكنيسة في القرن الثّامن باليهُوديَّة ، ثُمَّ تحدَّث عن محاكم التّفتيش ، عن اليهُود وتعذيبهم وقَتْلهم ردّاً على ما كانوا يفعلون من جرائم لعلَّ أبسطها تسميم المياه كي يموت المسيحيُّون في الغرب... ثُمَّ فصَّل في الأدب المُناهض لليهُوديَّة ، ثُمَّ تحدَّث عن الثّورة الفرنسيَّة والثّورة الرُّوسيَّة وأثر اليهُود فيهما... وفصَّل المُؤلِّف في حديثه عن العرْق اليهُودي وعن القوميَّة ومُناهضة السّاميَّة وعن الرُّوح الثّوريَّة في اليهُوديَّة وعن اليهُود وتحوُّلات المُجتمع... وختَمَ بالحديث عن مصير مُناهضة السّاميَّة (إنَّه كاتب يهُودي حيادي يفضح اليهُوديَّة) .

3) خارقيَّة الإنسان الباراسيكُولُوجي من المنظور العلمي ، د . صلاح الجابري ، 2004

مُنذُ القرن السّابع عشر وحتَّى بدايات القرن العشرين فَقَدَ العلمُ شفافيَّته ، وراح ينأى مُبتعداً عن كُلِّ همسة رُوحيَّة أو لمسة شاعريَّة للكون ، والتصق - أكثر فأكثر - بأقسى جوانب الطّبيعة صلابة ، وبأكثر قوى العقل البشري بُعْداً عن المواهب الحدسيَّة النّافذة إلى صميم الأشياء . كان لتلك الرُّؤية نتائج فلسفيَّة وخيمة على الإنسانيَّة ؛ لأنَّها جمَّدت عواطف الإنسان ، وأغلقت منافذه الرُّوحيَّة بجُدُر صلبة ، فأفقدتْهُ طابعه الإنسانيَّ الحقيقيَّ ، فكان لذلك انعكاسات نَفْسيَّة سُلُوكيَّة ، نما في إطارها الدّافع العُدواني المدفوع بمُيُول حُبِّ الذّات المُوجَّهة باقتصاديَّات السُّوق وحُبِّ الثّراء السّريع على حساب القيَم الرُّوحيَّة التي بدأت تتراجع مكانتها في نَفْسيَّة الإنسانيَّة ، وحلَّت محلَّها قيَم اللِّيبراليَّة ، التي تفتقر إلى أيِّ أسلوب أو آليَّات لمُعالجة الانحراف الإنساني وإيقاف قَتْل الإنسان لأخيه . علم السّاي من العُلُوم الجديدة التي ظهرت

حديثاً على السّاحة العلميّة، والاسم الشّائع لهذا الحقل هُو الباراسيكُولُوجي، ويُسمِّيه بعضهم السّيكُوترُونيك، والقُوَّة الأساسيَّة التي يُفترض أنَّها تُسبِّب ظواهره تُسمَّى قُوَّة ساي Psi. تظهر قُوَّة ساي بأشكال مُتعدِّدَة، ففي بعض الأحيان تتَّخذ شكل قُوَّة إدراكيَّة - تخاطر، جلاء بصري (استشفاف)، تنبُّؤ بالمُستقبل - وأحياناً؛ تتَّخذ شكل التّأثير على الأشياء المادِّيَّة بكُلِّ أشكالها. والقُوَّة الإدراكيَّة لـ ساي هي نوع من الاتِّصال بين الأحياء على شكل تخاطر، أو بين الأحياء والبيئة على شكل استشفاف (جلاء بصري)، وقد يأتي التّخاطر والجلاء البصري على شكل تنبُّؤ بالأحداث قبل وُقُوعها. يهدف الكتاب إلى إيضاح طبيعة الدّليل الذي يُقدِّمه الباراسيكُولُوجي لإثبات واقعيَّة ظواهر ساي، ويُؤكِّد - علمياً وفلسفياً - أنْ ليس كُلُّ المُتنبِّئين موهُوبين حقيقة، بل يدخل ضمنهم المُشعوذُون والدَّجَّالون والسَّحَرَة، علماً أنَّ السِّحْر لا يدخل في إطار القوى أو المَلَكَات الباراسيكُولُوجيَّة، وأنَّ الباراسيكُولُوجي - كأيِّ علم آخر - انتزع نفسه من رُكام هائل من الظّواهر المُختلفة وأعمال السِّحْر والكَهَانة بفضل الطّريقة العلميَّة والتّحقُّق التّجريبي.

4) القَتْل من أسفار اليهُود وبرُوتُوكُولات حُكماء صهْيَوْن إلى فارس بلا جواد، مازن النّقيب، 2004

من نُقطة التّفريق بين أمٍّ يهُوديَّة تحمل طفلاً يهُودياً بريئاً، رفض حافظ (مُحمَّد صُبحي) في مُسلسل فارس بلا جواد أنْ يُفجِّر مكاناً اجتمع فيه حاخامات اليهُود؛ لأنَّ فيه طفلاً بريئاً، من هذه النُّقطة وُلدت فكرة الكتاب، يشرح الكتاب - بشيء من التّفصيل - القَتْل، العُنْصُريَّة، سَلْب حُقُوق وأرواح غير اليهُود، من خلال الغوص في التّوراة، والتّلمُود، وبرُوتُوكُولات حُكماء صهْيَوْن، فاليهُود - وحدهم - بشر، والشُّعُوب الأُخرى حيوانات مُسخَّرة لخدمتهم، ولا يترتَّب أيُّ عقاب على يهُودي يقتل غير يهُودي، قَسَمُ اليهُودي لغير اليهُودي غير مُلزم، ألم يقل شارون يوماً: أُمنيتي احتلال القاهرة ودمشق، وأتنزَّه - عسكرياً - في لُبنان، الفلسطينيُّون من السّهل مُحاصرتهم وإبادتهم، إنَّهم في فمنا، أمَّا المصريُّون والسُّوريُّون فمازالوا خارج أيدينا، ويجب أنْ يكونوا في أيدينا أوَّلاً، ثُمَّ في فمنا ثانياً، بعدها؛ يُمكن أنْ نقول (إسرائيل) قد حقَّقت أمنها؟، يقولون: إنَّ الصّهاينة لديهم 24 برُوتُوكُولاً، نفَّذوا منها 19 برُوتُوكُولاً، انتهت بأحداث 11 أيلول في الولايات المُتَّحدة، كما يتعرَّض الكتاب إلى البرُوتُوكُولات ويشرحها - بشيء من الاختصار - ويُقارن بينها وبين مدى مُطابقتها لما قد تحقَّق منها خلال القرن العشرين وبداية القرن الواحد والعشرين.

5) نهاية التّاريخ في الفكر الإسلامي الحديث، علي سكيف، 2004

هل وصل سُكَّان الأرض إلى حضارة تفوق حضارتنا الحاليَّة؟ - هل شهد كوكب الأرض حضارة مُتقدِّمة أكثر من حضارتنا الحاليَّة اندثرت نتيجة حرب كونيَّة؟ - هل هُناك مخلوقات بشريَّة على كواكب أُخرى؟ - هل صحيح أنَّ الكون يتمدَّد ويتوسَّع: وما هي نهاية هذا التّوسُّع؟! - هل كان أصحاب الكهف في عصر الرُّومان؟ وهل كان الكهف على هذا الكوكب أم كان خارج الأرض؟! - هل الخُلُود في الجنَّة والنار أبدي؟ - هل صحيح أنَّ يعقوب بن إسحاق هُو إسرائيل وذُرِّيَّته من بعده هُم بنو إسرائيل؟! - هل هُناك علامات عن قُرب يوم القيامة لسُكَّان هذا الكوكب؟ - هل نشأت المخلوقات البشريَّة على هذا الكوكب أم جاءت وافدة من كواكب أُخرى؟ - هل عرف العالم قبلنا الاستنساخ بكافَّة أشكاله وأنواعه؟ - هل كان نُوح يعيش في العصر الحجري؟ أم كان عالماً مُتخصِّصاً بعلم الاستنساخ؟ - هل هُناك - فعلاً - جنٌّ وشياطين وأبالسة غير مرئيِّين؟ أم أنَّ هذَيْن المُصطلحَيْن يُعبِّران عن مُصطلحات توراتيَّة.

6) نَزْع فتيل الإرهاب الدَّولي إسلام السَّلام وأمان العالم، مُحمَّد مُنير إدلبي، 2004

من تاريخ الاضطهاد الدِّيني؛ دم المسيح، عذابات وآلام الشُّهداء المسيحيِّيْن، التَّعذيب عبر العُصُور، محاكم التَّفتيش، دم مُوسى، إرهاب أرباب الحضارة الحديثة، الهُنُود الحُمر، إفريقيا، ...، فرعون والمُسلمون، النّبي سُليمان، المسيح وحواريُّوه، دعوة الإسلام إلى أُخُوَّة عالميَّة حقَّة غير مشروطة بالدُّخُول فيه، لا إكراه في الدِّين، قَتْل

المُرتدِّ جريمة حرَّمها الإسلام، الجهاد الحقُّ في الإسلام، البُرهان على عدم جواز فَرْض الشَّريعة الإسلاميَّة بالقُوَّة كقانون دولة، حقيقة فناء جهنَّم، خَلْق الله جميعهم يدخلون الجنَّة، الخلاص ليس حكْراً على المُسلمين، ما هي دولة الإسلام؟ الإرهاب المُوجَّه ضدَّ العَرَب والمُسلمين من أتباع مُحمَّد، من وقائع الإرهاب الإسرائيلي في وعي الوُجدان العالمي، بشارة التَّوراة(فلسطين للعَرَب) خطأ "إسرائيل" العقائدي القاتل، "إسرائيل" ذبيحة الله في فلسطين؛ هذا هُو وعد التَّوراة، الإرهاب الدَّولي بين مُعضلة التَّعريف وواقع المُمارسة، فلسطين وسُؤال الدَّم.

7) تاريخ الخطِّ العَرَبي وغيره من الخُطُوط العالميَّة، آن زالي وآني بيرثييه
تر: سالم سُليمان العيسى، 2004

لقد جمع هذا الكتاب أسمى الصِّفات المُبدعة للخطِّ العَرَبي الذي يفتخر به كُلُّ العَرَب، وخُطُوط بلاد ما بين النَّهرَيْن، ومصر، والصِّين، وأمريكا قبل العهد الكُولُومبي، وإفريقية، وتحدَّث مُؤلِّفاه فيه عن الحضارة الغربيَّة وعن خطِّ بلاد ما بين النَّهرَيْن / المسماري و ... / وعن القُدرة السِّحْريَّة للخطِّ، وعن خطِّ الفراعنة، والأبجديَّة الهيرُوغليفيَّة وخطِّها الخطِّ الدِّيمُوطي والقبطي، وأساطير ولادة الأحرف الصِّينيَّة وأحرفها، مُرُوراً عبر فيتنام، واللُّغة اليابانيَّة المُعقَّدة، ومدينة الأزتيك اللاَّمعة، ومصير الخُطُوط المُدوَّنة قبل تأسيس كُولُومبيا، وإفريقية من الكلام فيما يتعلَّق بالرَّسْم إلى الخطِّ، وُصُولاً بالقارئ إلى ثورة الأبجديَّة، بدءاً بالفينيقيَّة ونُقُوشها، ومُرُوراً بالآراميِّين وهُم النَّاشرون للأبجديَّة، وُصُولاً إلى الخُطُوط في العَرَبيَّة الجنوبيَّة، وفي الحبشة، وُصُولاً إلى القُرآن، وبيان أنَّ الخطَّ العَرَبي ارتقى من الفينيقيَّة عن طريق الآراميَّة مُتخلِّلاً بين الفارسيَّة والهندُو أُورُوبيَّة (مثل التُّركيَّة). . وكيف وصل الخطُّ إلى الهيلِّلينيِّين، وابتكار الأحرف الصَّوتيَّة، وكيف وُلدت من الأبجديَّة اليُونانيَّة، ومُرُوراً من اليُونانيَّة، ووُصُولاً إلى اللاَّتينيَّة، وبيان أنَّ الخطَّ هُو مرآة الكلام. كتاب جدير بالقراءة. هذا أقلُّ ما يُمكن أنْ يُقال عنه.

8) لماذا الاغتيالات السِّياسيَّة؟! مازن النَّقيب، 2004

الاغتيال السِّياسي موضوع هامٌّ شغل ألباب المُفكِّرين على مرِّ العُصُور؛ حيث كَتَبَ عنه عُلماء النَّفْس والاجتماع والسِّياسة والدِّين، ما هي النَّظريَّات العلميَّة في تفسير الاغتيال السِّياسي؟ ما هُو الاغتيال السِّياسي للدَّولة؟ اليهُوديَّة الصِّهْيَوْنيَّة والاغتيال السِّياسي. القصَّة الحقيقيَّة لكيفيَّة اغتيال (أبُو جهاد؛ خليل الوزير). اغتيال الشَّهيد زُهير مُحسن. اغتيال د. فتحي الشّقاقي مُؤسِّس الجهاد الإسلامي. اغتيال (أبُو علي مُصطفى، علي حسن سلامة، وفاء إدريس، وغيرهم من شُهداء فلسطين). كيف تمَّت اغتيالات: حُسني الزَّعيم، سامي الحنَّاوي، أديب الشِّيشكلي، عدنان المالكي، الملك عبد الله الأوَّل، هزَّاع المجالي، وصفي التَّلّ، نُوري السَّعيد، الملك فيصل الثَّاني ملك العراق، أنور السَّادات، أنطُون سعادة، رشيد كرامي، كمال جُنبلاط، عبَّاس الموسوي، رينيه مُعوَّض، بشير الجميِّل، إيلي حبيقة، إسحق رابين، رحبعام زائيفي، مُحمَّد بُو ضياف، المهدي بن بركة، مُحمَّد فرح عيديد، عبد الفتَّاح إسماعيل، إبراهيم الحمدي، جُون كينيدي، باتريس لُومُومبا، د. مارتن لُوثر كينج، تشي غيفارا، أنديرا غاندي، شهبور بختيار، بعض السُّفراء الأتراك، المُونسينيُور دُوراتي.

9) تشنيف السَّمْع في انسكاب الدَّمْع (من جميل تُراثنا) صلاح الدِّين خليل بن أيبك الصَّفدي
تحقيق: مُحمَّد عايش، 2004

كتاب فريد في بابه، وليس له نظير، فهُو الوحيد الذي يُفصِّل القَوْل في الدَّمْع، من ناحية لُغويَّة ونَقْليَّة وعَقْليَّة وأدبيَّة، ويربط بينها بصيغة منطقيَّة، ويُشكِّل الكتاب حلقة وَصل بين دواوين مفقودة لكثير من الشُّعراء، بل هُو يُضيف بعض الشِّعر إلى دواوين مطبوعة. إنَّه - بحقٍّ - دُرَّة من دُرَر تُراثنا.

10) أبناء آدم من الجنّ والشّياطين ، مُحمَّد مُنير إدلبي ، 2004

دراسة تحليليَّة مُوثَّقة من القُرآن الكريم والحديث الشّريف ، يجد القارئ فيها بياناً علمياً جديداً يتعلَّق بحقيقة ما يُسمَّى جنَّ الملك سُليمان ، والنَّملة التي حادثته ، والهُدهُد الذي أتاه بالأخبار من سبأ ، وحقيقة مفهوم إحضار عرش بلقيس ، وحقيقة هاروت وماروت ، وحقيقة مفهوم إبليس والشَّيطان ، وجنَّة آدم ، وشخصيَّته ، وحقيقة خَلْق الإنسان ، وتطوُّره ، وخُرافة تحضير الجنِّ والأرواح ، وغيرها من الموضوعات التي يحتاجها كُلُّ مُسلم مُعاصر ؛ كي يفهم دينه حقَّ الفَهْم .

11) الإسلام ونُبُوءات المسيح والقرن الحادي والعُشرون ، عبد الوهاب نُوشاد ، 2004

يبحث المُؤلِّف في نُبُوءات المسيح المذكورة في العهد الجديد ، ومُقارنة هذه النُّبُوءات مع الواقع ، ومعرفة مقدار ما تحقَّق منها . الإنجيل وأعمال المسيح ، نُبُوءة المسيح عن مَلَكُوت السَّموات ، نُبُوءة المسيح عن المُعين رُوح الحقِّ ، نُبُوءة المسيح عن عودته من السَّماء . كما تمَّ في هذا البحث الاستعانة بالنُّبُوءات الموجودة في العهد القديم (التَّوراة) ، لتوضيح نُبُوءات المسيح بشكل دقيق .

12) التَّقاليد والعادات الدِّمشقيَّة خلال عُهُود السَّلجُوقيِّيْن - الزِّنكيِّيْن - الأيُّوبيِّيْن 490 - 690 هـ / 1096 - 1291 م ، د . فراس سليم حياوي السَّامرَّائي ، 2004

إنَّ دراسة المُجتمع العَرَبي الإسلامي في هذه المُدَّة يُعدُّ من أكثر الدِّراسات تعقيداً ؛ لأنَّ في دمشق طوائف مُتعدِّدة . درس الباحث - بداية - جَغرافيَّة دمشق ، وأهمَّ التَّطوُّرات السِّياسيَّة ، ثُمَّ عرَّج على دراسة فئات المُجتمع الدِّمشقي (حُكَّام ، رجال دين ، أرباب الفكر والعُلماء ، تُجَّار ، أصحاب الفُنُون الجميلة ، وغيرهم) ثُمَّ فصَّل في الطَّعام ، والشَّراب ، والملابس ، والحمَّامات ، والخانات ، والصِّحَّة العامَّة ، والأسواق ، ووسائل الرُّكُوب ، ومُستوى المعيشة ، والأسعار ، والأعياد ، والمُناسبات ، ووسائل التَّسلية ، والعائلة الدِّمشقيَّة ، ومُفرداتها ، وعلاقاتها بغيرها ، وأوصاف قُصُور الأُمراء والميسورين .

13) تاريخ مدينة دمشق وعُلماؤها خلال الحُكْم المصري 1426 - 1256 هـ / 1831 - 1840 م

خالد أحمد مفلح بني هاني ، 2004

تتناول هذه الدِّراسة فترة تاريخيَّة هامَّة ، نُظر إليها على أنَّها من أهمِّ فترات التَّاريخ الحديث لبرِّ الشَّام . بدأ الباحث دراسته بالعُلماء والأعيان الدِّمشقيِّيْن ، وشُيُوخ الطُّرُق الصُّوفيَّة ، والأشراف ، والعَسْكَر ، والحِرَفيِّيْن ، والعامَّة ، والملاَّكين ، والفلاَّحين ، ثُمَّ تحدَّث عن دمشق قُبيل الحُكْم المصري ، وعن الفتنة الدَّاخليَّة (1831 م) وعن المسيحيِّيْن والمُسلمين ، كما تحدَّث عن الإصلاحات المصريَّة في برِّ الشَّام (الإدارة ، والقضاء ، والزِّراعة ، والصِّناعة ، والتِّجارة ، والتَّعليم ، وعن المُتغيِّرات الرُّوحيَّة والاجتماعيَّة) وبحث - بالتَّفصيل - موقف العُلماء والأعيان في دمشق من الحُكْم المصري ، ورُدُود الفعل والمواقف المحلِّيَّة الدِّمشقيَّة ، ثُمَّ تناول أساليب الحُكْم المصري في التَّعامل مع العُلماء والأعيان ، ثُمَّ دَرَسَ نهاية الحُكْم المصري ، وآثاره السِّياسيَّة ، والاقتصاديَّة ، والاجتماعيَّة ، وكيف انسحب المصريُّون ، ثُمَّ أورد مُقارنة لتقييم أحكام بعض المُؤرِّخين لآثار الحُكْم المصري لبرِّ الشَّام .

14) الاستبداد والمرجعيَّة في الخطاب الإسلامي دراسة الحالة المُعاصرة

أ . د . خالد مدحت أبو الفضل ، 2004

بمَوْت الرَّسول الكريم أصبح المُسلمون وحدهم ، مُنفردين بأنفسهم ، فقد كان الرَّسول الكريم الصِّلة الوحيدة المُباشرة بالله ، حينها ؛ لم تتحطَّم الولاءات السِّياسيَّة فحسب ، بل تحطَّمت - أيضاً - تلك الرَّابطة الفريدة والضَّروريَّة بالمشيئة

الإلهيَّة، ومن ثمَّ بدأ علم الشَّريعة. إنَّ في أعناق المُسلمين المُعاصرين أمانة تفرض عليهم واجبات العمل على صيانة تُراثنا وإنمائه، إنَّ سياسات إبراز الهُويَّة هبطت بالشَّريعة إلى مُستوى الشِّعار السِّياسي، وكان الأحرى أنْ ترتفع بها إلى مُستوى المكانة الثَّقافيَّة الرَّفيعة التي تبوَّأتها في عُهُود أسلافنا الفُقهاء المُشرِّعين. ما هي إشكاليَّة السُّلطة؟ النَّص والسُّلطة، الفتوى، حديث أنس حول الوُقُوف، حديث مُعاوية، علم منهج الحديث وحديث السُّجُود، بنية الاستبداد بالرَّأي.

15) نساء في قُصُور الحُكَّام (ومن الجنس ما قتل)، مازن النَّقيب، 2004

بعض الرجال - سياسيِّين كانوا أم أُدباء، مُلُوكاً أم رُؤساء، عُلماء أم من العامَّة ... - لا يستطيعون مُقاومة عُيُون النساء، ولا دلعهنَّ، ولا أصواتهنَّ، ولا ... ولا ... ولا ...، حُكَّام ونساءٌ من الشَّرق والغرب، بعضهم رحل وأصبح في عالم النِّسيان، وبعضهم مازال يقف على الشُّطآن، يحلم بأنْ يكون إنساناً ليصطاد حُوريَّة من البحر، يتعرَّض الكتاب إلى عيِّنة من البشر تخلَّت عن المبادىء والقيَم والعادات والأخلاق والتّقاليد من أجل لحظة فساد ونشوة عابرة، فمَنْ منَّا لا يذكر الملك فاروق وناريمان، وقصص بيل كلينتون، والأميرة ديانا ودُودي الفايد، وجُون كينيدي وزوجته ومارلين مُونرُو، وشاه إيران مُحمَّد رضا بهلوي، والمُشير عبد الحميد، والرّئيس ميتيران ومازارين، والملك إدوارد الثّامن وأليس سيمبسُون، والملكة أليزابيث الثّانية، والأمير فيليب، والأميرة مارغريت وعاشقها المُطلَّق، والأمير آندرو وسارة، وجواهر لال نهرو واللّيدي مُونتباتن، وبانازير بُوتُو وزَرَادي، وأُوناسيس وجاكلين كينيدي، والأميرة كارولين وفينسان ليندُون، والأميرة مارتا وآري بين، . . . ، يربط الكتاب بين قصص حُبٍّ وعشق هؤلاء مع الخفايا والأسرار التي كانت تُحاك خلف أسوار القُصُور والمنازل، وعلاقة ذلك كُلِّه - في النّهاية - بالسِّياسة.

16) برُوتُوكُولات حُكماء صِهْيَوْن، (النُّصُوص الكاملة) دراسة تحقيقيَّة تاريخيَّة ومُعاصرة رجا عبد الحميد عُرابي، 2004

17) سِفْر التَّايخ اليهُودي اليهُود تاريخهم عقائدهم فرَقهم نشاطاتهم سُلُوكيَّاتهم الحركة الصِّهْيَوْنيَّة والقضيَّة الفلسطينيَّة، رجا عبد الحميد عُرابي، 2004

تزعم - دار الأوائل - أنَّه الكتاب الأشمل في ما أُلِّف عن اليهُود؛ حيثُ يتحدَّث المُؤلِّف فيه عن تاريخ اليهُود وتشتُّتهم وانتشارهم في العالم، وعن كُتُبهم الدِّينيَّة وعقائدهم وفرَقهم وطوائفهم قديماً وحديثاً، وعن تعاليم حُكَمَائهم، وعن نشاطاتهم السّياسيَّة، وعن سُلُوكيَّاتهم وأخلاقيَّاتهم، كما يتحدَّث عن الحركة الصِّهْيَوْنيَّة والقضيَّة الفلسطينيَّة. ممَّا يتناوله المُؤلِّف: جنَّة عَدَن في التّوراة، وفكرة الفردوس عند السُّومريِّين، وآدم وجنَّته، مصادر التّاريخ القديم لليهُود، النّظريَّة السّاميَّة، العبريَّة والعبرانيُّون، القُرآن والعبريَّة، إبراهيم، العبرانيُّون والإسرائيليُّون والموسويُّون واليهُود، أسباب انحراف اليهُود، الخَلْطُ بين اليهُود وبني إسرائيل، يعقوب والرّحيل، الهكسُوس، مُوسى، أخناتون والتّوحيد، مُوسى والتّوحيد، بُرهان أنَّ مصر هي مصران الجزيرة، الأمر بغزو فلسطين، تابوت العهد وخيمة الاجتماع، يُوشع بن نُون، عهد القُضاة، عهد المُلُوك، داود، سُليمان، بلقيس، سبأ، انقسام المملكة اليهُوديَّة، مملكة دمشق الآراميَّة، الأسباط العشرة، التّوراة، السّبي البابلي، الفُرْس الإخمينيُّون، اليهُود والرُّومان، تشتُّت اليهُود، انتشار اليهُود في العالم، الخَزَر، اليمن، الجزيرة العَرَبيَّة، الحبشة، الأشكناز، السّفارد، الدّيانة اليهُوديَّة، ترجمة التّوراة، التّلمُود، القرَّاءون، السّنهدرين، الكَتَبَة، السّامريُّون، الصّدوقيُّون، الفرِّيسيُّون، الإسينيُّون، المسيح المُنتظَر، الدُّونمة، الصِّهْيَوْنيَّة، الأحزاب الدِّينيَّة اليهُوديَّة، الهسكالا، برُوتُوكُولات حُكماء صِهْيَوْن، الماسُونيَّة، بنّاي بريت، إله اليهُود،

اللاّسامية، حاخامات اليهُود، هرتزل، ألمانيا وفرنسا واليهُود، إسرائيل وفلسطين بالتّفصيل الدّقيق، العلاقة الأمريكيَّة الإسرائيليَّة، وغيرها من المعلومات المُهمَّة التي لا غنى عنها لكُلِّ عَرَبيٍّ ومُسلم وغير يهُوديٍّ.

18) أساطير وكالة الاستخبارات المركزيَّة الأمريكيَّة، فيليب آجي وآخرون، تر: حمدي الصّاحب، 2004

يبحث هذا الكتاب الهامُّ جداً في كيفيَّة انشقاق بعض زُمر مُوظَّفي وكالة الاستخبارات المركزيَّة الأمريكيَّة على مدى سنين عديدة. وخاصَّة بعد حرب فيتنام؛ حيثُ ترك العديد منهم هذه الوكالة وهُم ساخطون. وبدلاً من الانشقاق والذّهاب إلى الاتّحاد السُّوفيتي فعلوا الأخطر؛ وهُو إبلاغ أسرارهم إلى العالم أجمع؛ وخاصَّة إلى الشّعب الأمريكي. بدأ بكيفيَّة تحديد مكان الجاسُوس وكيفيَّة هَتْك أسرار الـ سي آي إيه، ومَنْ هُم رُؤساء المركز. ومَنْ هُو الجاسُوس السُّوبر (كُوردمير). والـ سي آي إيه في البُرتغال والتّغييرات فيها. ثُمَّ انتقل إلى نُقطة التّحوُّل ومسألة ريتشارد ويلتسن، وُصُولاً إلى أثينا وبيان مُنظَّمة 17 نُوفمبر الثّوريَّة. وماذا تفعل الـ سي آي إيه في أُورُوبة الغربيَّة. إسبانيا بعد فرانكو. عمليَّات الاستخبارات في اليُونان. العامل الأمريكي في اليُونان. مُونتغمري. إيطاليا ومارتشيني. الاستخبارات في فرنسا. في ألمانية الغربيَّة. وكيف تنتزع أموالُ الـ سي آي إيه أسنانَ الاشتراكيَّة البريطانيَّة، وكيف تدعم الـ سي آي إيه السُّوق المُشتركة. كيف تصنع الـ سي آي إيه الأخبار. سويسرا. ثُمَّ يُختتم الكتاب بمقاييس معنويَّات الـ سي آي إيه، ثُمَّ الـ سي آي إيه الجديدة. كتاب جدير جداً بالقراءة والتّدبُّر، وُصُولاً إلى مُحاولة استشفاف ما بين السُّطُور أكثر ممَّا على السُّطُور.

19) الفرَق والمذاهب المسيحيَّة مُنذُ ظُهُور الإسلام حتَّى الآن، سعد رُستُم، 2004

20) الفرَق والمذاهب الإسلاميَّة مُنذُ البدايات النَّشأة التَّاريخ العقيدة التَّوزُّع الجغرافي سعد رُستُم، 2004

عرض تاريخي تحليلي لقصَّة نُشُوء الفرق والمذاهب الإسلاميَّة، وأسباب انقسامها، مع شرح أهمِّ العقائد التي ميَّزت كُلَّ فرقة، وبين التّوزُّع الجَغرافي لأتباعها، والأسباب الحقيقيَّة الكامنة وراء انفصالها، وأسرار انقساماتها مع التّعرُّف - بدقَّة - وموضوعيَّة إلى أهدافها ونواحيها، والوقُوف على عقائدها الحقيقيَّة التي تميَّزت بها، برُوح موضوعيَّة علميَّة ومُتجرِّدة، أوَّل اختلاف بين المُسلمين، الخوارج، مأساة كربلاء، الانقسامات الكلاميَّة والفقهيَّة ضمن أهل السُّنَّة، المُعتزلة، الحشويَّة، الحنابلة، الأثريَّة، والأشاعرة، الماتريديَّة، النّزاع بين الرّأي والحديث، المذاهب: الحنفي، المالكي، الشّافعي، الحنبلي، التّصوُّف، الإباضيُّون، الشّيعة: اليزيديُّون، الإماميَّة الاثنَيْ عشريَّة (الجعفريَّة)، الشّيعة الجعفريُّون العلويُّون، الشّيعة الإسماعيليَّة، الحوشبيَّة، الخلفيَّة، الفاطميُّون، الصّليحيُّون، المُستعلية، النّزاريَّة، المُوحِّدون (الدُّروز)، الآغا خانيَّة، القاديانيَّة (الجماعة الإسلاميَّة الأحمديَّة) جمعيَّة أهل القُرآن (أصحاب الفَهْم العصري للقُرآن ورفض السُّنَّة والحديث)، وغيرها من الموضوعات التي تُؤكِّد أنَّ جُلَّ المذاهب والفرَق الإسلاميَّة لا تعدو وُجهات نظر مُختلفة في فَهْم الإسلام، وكُلُّها نابعة من الإسلام الحنيف، تتحرَّك فيه، وتتمسَّك بأُصُوله، حسب فَهْمها، وترجع إليه، الكُلُّ مُسلمون ينتمون لأُمَّة واحدة هي أمَّة مُحمَّد بن عبد الله (صلَّى الله عليه وسلَّم)، ويعبدون إلهاً واحداً هُو الله الواحد الأحد، الفرد الصّمد، الذي لم يلد، ولم يُولد، ولم يكن له كُفُؤاً أحد، ويُؤمنون بكتاب واحد هُو القُرآن الكريم، ويستقبلون قبلة واحدة هي بيت الله الحرام.

21) لُورنس والقضيَّة العَرَبيَّة 1888 - 1935، حسام علي مُحسن المدامغة، 2004

حفلت المنطقة العَرَبيَّة في فترة الحُكْم العُثماني بنشاط من الرَّحَّالة والمُستشرقين الأُورُوبيِّين والأمريكان الذين اختلفوا في مغزى نشاطهم، فمنهم مَنْ جاء بحثاً عن معلومات جديدة تُغني معرفته، وتُرضي فُضُوله، ومنهم مَنْ جاء بناءً على

توجيه من حُكُومته لأهداف استخباريَّة يقصد من ورائها جَمْعَ معلومات سياسيَّة أو عسكريَّة. وتُوماس إدوارد لُورانس من الذين عملوا في المنطقة العَرَبيَّة بتوجيه خارجي، فتحدَّث المُؤلِّف عن ولادته ونشأته الأُسَريَّة وصفاته الشّخصيَّة، وكيف انخرط لُورنس في الجيش البريطاني عند اندلاع الحرب العالميَّة الأُولى، وكيفيَّة عمله في عمليَّات الثّورة العَرَبيَّة. اعتمد المُؤلِّف ـ فضلاً عن الوثائق العَرَبيَّة والإنكليزيَّة غير المنشورة والمنشورة ـ على الكثير من المصادر العَرَبيَّة والأجنبيَّة وفي مُقدِّمتها مُؤلَّفات لُورانس نفسه والتي أهمّها (أعمدة الحكمة السّبعة) ممَّا جعل الكتاب غنيّاً جداً بمصادره وتحليلاته واستنتاجاته.

22) العبادات في الدّيانات القديمة المصريَّة ـ العراقيَّة ـ الرُّومانيَّة ـ الهندُوسيَّة ـ البُوذيَّة ـ الصّينيَّة ـ الزرادشتيَّة ـ الصّابئيَّة، عبد الرَّزَّاق رحيم صلاَل المُوحي، 2004

عبادة قُرص الشّمس عند المصريِّيْن القُدماء، ودعوة أخناتون إلى التّوحيد وصيام الكَهَنَة ـ ربُّ الأرباب عند العراقيِّيْن القُدماء (أنُو إله السّماء، وأنليل سيِّد الرّيح العاصفة) ـ الدّيانة اليُونانيَّة القديمة والفلسفة والإشراك، وصيامهم ـ الرُّومان القُدماء وآلهتهم وصيامهم ـ الهندُوس والبُوذيُّون والصّينيُّون والزّرادشتيُّون والصّابئيُّون وصلاتهم وصيامهم وزكاتهم وحجُّهم و ......

23) العبادات في الدّيانة اليهُوديَّة، عبد الرَّزَّاق رحيم صلاَل المُوحي، 2004

الله في الفكر اليهُودي ـ النُّبُوَّة عند اليهُود ـ الصّلاة (الطّهارة الوُضُوء) صلاة الصّباح ـ صلاة المساء ـ الصّلاة الجماعيَّة ـ صلاة الظّهيرة أو العصر ـ صلاة المغرب ـ صلاة الغُفران ـ صلاة القمر ـ صلاة السّبت ـ صلاة عيد شعوت ـ صلاة عيد المظال ـ صلاة العشاء الخاصَّة بالافتتاح بيوم الغُفران ـ الزّكاة ـ الصّدقة ـ الصّوم (فَرْدي وجَمَاعي) صوم الصّمت ـ الحجُّ (إلى بيت المقدس) ـ الأعياد: الفصح ـ المظال ـ الأسابيع (العُنْصُرة) ما هُو رأي الإسلام في العبادات اليهُوديَّة ـ وما هُو تأثير الدّيانات القديمة على العبادات اليهُوديَّة ـ وما هي التّأثيرات الإسلاميَّة في العبادات اليهُوديَّة مُتمثِّلة بالصّلاة وغيرها من الموضوعات التي يجهلها عامَّة الناس.

24) العبادات في الدّيانة المسيحيَّة، عبد الرَّزَّاق رحيم صلاَل المُوحي، 2004

الأُلُوهيَّة والنُّبُوَّة ـ الصّلاة (عقليَّة فَرْديَّة ـ لفظيَّة جَمَاعيَّة) ـ صلاة المساء وصلاة الصُّبح وصلاة الظّهيرة ـ التّسابيح ـ صلوات الاستغاثة والثّقة والحمد ـ مزامير التّعليم ـ الزّكاة ـ الصّيام (صوم الصّمت ـ الصّوم عن أنواع الطعام) الصّيام عند الكاثُوليك ـ الصّيام في الكنيسة الأرثُوذُكسيَّة الشّرقيَّة ـ صوم الأربعين ـ صوم الميلاد ـ صوم العُنْصُرة ـ صوم العذراء ـ صوم نينوى ـ صيام طائفَتَيْ الأرمن والقبط ـ الحجُّ ـ أثر الدّيانات القديمة على العبادات المسيحيَّة ـ ومُقارنة بين السَّيِّد المسيح وبُوذا ـ أوجه التّشابه بين المسيحيَّة وعَبَدَة بَعْل ـ تأثُّر الدّيانة المسيحيَّة بالدّيانة الميثيريَّة ـ العبادات المسيحيَّة الواردة في القُرآن الكريم ورأي الإسلام فيها.

25) مؤامرة الصّمت ختان الذُّكُور والإناث عند اليهُود والمسيحيِّيْن والمُسلمين الجدل الدّيني الطِّبِّي الاجتماعي القانوني، د. سامي الذّيب، تقديم: د. نوال السّعداوي، 2003

تعريف الختان وأهميَّته ـ الجَدَل الدِّيني ـ الختان في الفكر الدِّيني اليهُودي ـ في الفكر الدِّيني المسيحي ـ في الفكر الدِّيني الإسلامي ـ الختان والجَدَل الطِّبِّي ـ الآلام النّاتجة عن ختان الذُّكُور والإناث ـ الأضرار الصِّحِّيَّة لختان الجنسَيْن ـ المضارُّ الجنسيَّة لختان الجنسَيْن ـ الفوائد الصِّحِّيَّة المزعومة لختان الجنسَيْن ـ الختان والجَدَل الاجتماعي ـ الختان والجَدَل القانوني ـ مع الختان بين المُثُل والإمكانيَّات. تقول الدُّكتورة نوال السّعداوي في تقديمها لهذا الكتاب: هذا الكتاب من الكُتُب

الضّروريَّة للمكتبة العَرَبيَّة. لـهذا؛ أودُّ أنْ يُنشَر في بلادنا العَرَبيَّة. وأنْ يكون في مُتناول الشُّبَّان والشَّابَّات والتّلاميذ والتّلميذات في المدارس والجامعات. إنَّه أحـد الأسلحة في مجال الثّقافة العامَّة؛ حيثُ تُحرم الأغلبيَّة السّاحقة من الثّقافة الحقيقيَّة؛ حيثُ يفشل نظام التّعليم في تدريب الشُّبَّان والشَّابَّات على تشغيل عقُولهم. تُؤدِّي الهزيمة العقليَّة إلى هزيمة سياسيَّة وعسكريَّة واقتصاديَّة. إنَّ الثّقافة غير مُنفصلة عن السِّياسة أو الدِّين أو الحرب، والعقل هُو الذي يُوجِّه اليد التي تُمسك السّيف أو البُندقيَّة.

26) العراق أوّلاً حرب إسرائيل الخاطفة على نفط الشّرق الأوسط عملية (شيخينا)

جُو فيالز، تر: مروان سعد الدِّين، 2003

إنَّ فكرة سرقة المخزون النِّفطي لشعب آخر ليست ابتكاراً إسرائيليّاً، بل ربَّما تعود إلى عام **1941**، عندما فرض رُوزفلت حظراً كاملاً على تزويد اليابان بالنِّفط خلال (الحرب على الإرهاب الأمريكيَّة الأُولى)، ويأتي هذا الكتاب ليفضح عملية «شيخينا» التي خطَّطت لها (إسرائيل) لتُسيطر على نفط العراق، وسعت لتحقيقها، لولا الهجمات على مركز التِّجارة العالمي في أيلول **2001**، وذلك بعد أنْ عقدت (إسرائيل) العزم على شنِّ اعتداء مُباغت على جنوب العراق، لإحكام السَّيطرة على حقُوله النّفطيَّة الجنوبيَّة، ومن ثَمَّ استخدام خطِّ أنابيب نقل النّفط العَرَبي الموجود سابقاً (التّابلاين) لضخِّ النّفط إلى مصافيها في حيفا، كما يُوضِّح الكاتب الأمريكي بأنَّه من أجل تنفيذ هذا المُخطَّط سعت (إسرائيل) إلى التّسلُّل إلى جنوب العراق وشمال السُّعُوديَّة، وكيف منحت بعض المُسلمين الشّيعة - دُون أنْ يدروا بأنَّ (إسرائيل) وراء هذا التّخطيط - ممرّاً مجَّانيّاً إلى بُلدان أُخرى، بعيداً عن عدوِّهم صدَّام حُسين، ويُبرز الأمريكي فيالز كيف تمَّ التّخطيط لما سُمِّي بعملية «حُرِّيَّة العراق»، وهي الجُزء الثّاني من عملية «شيخينا»، وكيف سيتمُّ قَطْعُ رأس صدَّام حُسين وتعيين جي غارنر الذي هُو عُضو في المعهد اليهُودي لشُؤُون الأمن القومي، ليكون حاكماً عسكريّاً للعراق، ثُمَّ سيأتي دور أحمد الشّلبي كإداري مُؤقَّت للعراق، على أنْ يتمَّ - فيما بعد - إبدال الرّئيس السُّوري بشَّار الأسد بالأخ الأصغر لأحمد الشّلبي، وإذا رفضت سُوريَّة هذا، فإنَّه سيجري تدميرها وإعادتها إلى العصر الحجري، ولكنْ؛ لم تسر الأُمُور كما خُطِّط لها. . ، تفاصيل دقيقة ومُثيرة وسرِّيَّة يكشفها الكاتب الأمريكي جُو فيالز في ثنايا هذا الكتاب المُدعَّم بالصُّور والخرائط اللاّزمة.

27) الحُكْمُ بالسِّرِّ التّاريخ السِّرِّيُّ بين الهيئة الثُّلاثيَّة والماسُونيَّة والأهرامات الكُبرى مَنْ يحكم أمريكا والعالم سرّاً؟ جيم مارس، تر: مُحمَّد مُنير إدلبي، 2003

في هذا الكتاب المُذهل يقوم الكاتب الأمريكي المشهور وكاتب صحيفة نيُو يُورك تايمز والمبيعات الحائزة على أفضل المبيعات جيم مارس باستكشاف وتمحُّص أكثر أسرار العالم خفاء. وذلك بكَشْف الأدمغة المُسيطرة المُختبئة، من خلال مُحاولة للوُصُول إلى جذُور الحقيقة؛ حيثُ يقوم بإماطة اللّثام عن البراهين بأنَّ أصحاب الأمر الحقيقيِّين ومُحرِّكي الأحداث في العالم هُم الذين يتمكّنون - عادةً - من التّسبُّب باندلاع الحُرُوب وإيقافها. كما يتحكَّمون بأسواق الأسهم الماليَّة ونسَب الفوائد على العُملات. كما يُحافظون على تفوُّقهم الفئوي، حتَّى إنّهم يُسيطرون على الأخبار اليوميَّة. وهُم يقومون بذلك كُلِّه تحت رعاية وأنظار مجلس العلاقات الخارجيَّة الأمريكي والهيئة الثُّلاثيَّة، والمُخابرات الألمانيَّة والـ **CIA**، وحتَّى الفاتيكان. من خلال تقصِّيه للبراهين التّاريخيَّة، ومن خلال بحثه المُحكَم، يقوم مارس - بعناية - بتقصِّي الألغاز التي تربط بين هذه المُؤامرات المُعاصرة لنا بالتّاريخ القديم للبشريَّة. والنّتيجة المُذهلة هي تحليل رائع لمُعطيات تاريخيَّة (كثير منها كان مخفيّاً عن جُمهُور النّاس) وهي تُلقي ضوءاً على المُنظَّمات السِّرِّيَّة التي تحكم شُؤُون حياتنا. من الأشياء المُثيرة في الكتاب: ما هي مُنظَّمة الهيئة الثُّلاثيَّة السِّرِّيَّة. ما هي مُنظَّمة المعهد المَلَكي البريطاني. ما

هي مُنظَّمة الإليوميناتي. ما مُنظَّمة دير صهيَوْن. ما هي علاقة اليهُود وأساطين عائلاتهم المصرفيَّة الثَّريَّة بهذه المُنظَّمات. وما هي الماسُونيَّة، وما علاقتها بهذه المُنظَّمات. ومَنْ يحكم ـ فعليّاً ـ أمريكا. ما هي مُنظَّمة مجلس العلاقات الخارجيَّة الأمريكي. آل رُوكفلر. آل مُورغان. آل رُوتشيلد. أسرار المال ونظام الاحتياط الفيدرالي. المعهد الملكي للشؤُون الدّوليَّة (المائدة) المُستديرة، رُوديس ورَسكين، ما هُو جبل الحديد، الخليج العَرَبي والحُرُوب للسّيطرة عليه، حرب الخليج 1991، وأسبابها الحقيقيَّة. بُوش الجَدُّ وبُوش الأب وبُوش الابن والنّفط. فيتنام. كينيدي وأسباب اغتياله، الحرب الكُوريَّة. النّازيَّة. برُوتُوكُولات حُكماء صهيَوْن. هتْلَر. اليابان. الحرب العالميَّة الثّانية. الحرب العالميَّة الأُولى. الثّورة الرُّوسيَّة. برُوز الشّيُوعيَّة. الحرب بين الولايات الأمريكيَّة. مُنظَّمة الفُرسان السِّرِّيَّة. الماسُونيَّة. الثّورة الفرنسيَّة. اليعقُوبيُّون، الجيمسيُّون. فرانس بيكُون وأتلانتيس الجديدة. الثّورة الأمريكيَّة. الإليُوميناتي (المُستنيرون). الماسُونيَّة ضدَّ المسيحيَّة. الرُّوزيكروشيُّون. فُرسان الهيكل المُقدَّس. الحشّاشُون. مصرفيُّو وبُناة فُرسان الهيكل. الكاثاريُّون. الحرب الصّليبيَّة. مُنظَّمة دير صهيَوْن. الميرُوفينجينيُّون. الطّريق إلى رُوما. القَبَالاة. الغنُوسطيَّة. الإيسيُّون. الأسرار والألغاز القديمة. التّناسُخ في العالم القديم (زمن نُوح). أصل الإنسان. مُوسى. كُلُّ الطُّرُق تؤدِّي إلى سُومر. الأناكيُّون. الطُّوفان والحُرُوب و. . و. .

هذا الكتاب (الحُكْم بالسِّرِّ) بما فيه من طبيعة مُقلقة ومُثيرة وحافزة بشدَّة ومُجبرة على التّفكير يُقدِّم لنا رُؤية عالميَّة فريدة بإمكانها أنْ تُفسِّر لنا حقيقة عالمنا. وما هي أُصُولنا. وإلى أين نتَّجه؟. .

28) الماسُونيَّة والمُنظَّمات السِّرِّيَّة ماذا فعلت؟ ومَنْ خدمت؟ عبد المجيد همُّو، 2003

الكَهَنُوت الأعلى في طيبة ـ القُوَّة الخفيَّة اليهُوديَّة ـ جماعة الآلهة ميترا وعبادتها ـ الغنُوصيَّة العرفانيَّة ـ الحشّاشُون ـ النُّورانيُّون ـ البابيَّة ـ البهائيَّة ـ فُرسان الهيكل ـ الغاردُونا ـ جماعة الصّليب الوردي ـ الفحَّامون ـ أحباب الملاك الحارس ـ الخصَّاؤن ـ الماسُونيَّة: أصلها ـ نُشُوءها ـ تعريفها ـ من أين اسمها؟ ـ محافلها ـ وأسماء ماسُونيَّة عالميَّة وعَرَبيَّة ـ اليمين التي يُقسمها المُنتسب للماسُونيَّة ـ ما الامتحانات وما الاختبارات التي يخضع لها؟ الماسُونيَّة والسّياسة ـ التّجنيد لصالح اليهُود ـ علاقة الماسُونيَّة بالقَبَالة وبالتّلمُود ـ مُحاربة الأديان ـ التّوراة ولا شيء غيرها ـ مُحاربة الأُمم ـ كيف سقطت الإمبراطُوريَّة الرُّوسيَّة ـ كيف تفجَّرت الثّورة الفرنسيَّة ـ إعادة اليهُود إلى فلسطين ـ بناء الهيكل ـ الماسُونيَّة والتّنظيم ـ الماسُونيَّة الرّمزيَّة ـ كيف أُقيم أوَّل محفل ـ محافل أُورُوبة ـ محافل أمريكا ـ محافل البلاد العَرَبيَّة ـ مشاهير الماسونيِّين من الشّرق والغرب ـ اللُّوثريَّة ـ البيُوريتانيَّة ـ أحبَّاء صهيَوْن ـ شُهُود يَهْوَه ـ الرُّوتاريَّة ـ بَنَاي بريت ـ الدُّونمة ـ الاتِّحاد والتَّرقِّي ـ العلمانيَّة ـ الاشتراكيَّة العلميَّة ـ الاتِّحاد اليهُودي العامّ ـ الرّيفُورم ـ بلُوتُو ـ أنوشيت ـ ثرُويد رست. كتاب يجمع مُعظم المُنظَّمات السِّرِّيَّة العالميَّة، ويشرح كيف يتمُّ الانتساب لهذه الجمعيَّات. كتاب يسدُّ فجوة في المكتبة العَرَبيَّة، ويُعرِّي ويفضح اليهُود الذين كانوا السّبب الأهمَّ وراء تأسيس مثل هذه المُنظَّمات السِّرِّيَّة.

29) دراسات توراتيَّة، حنًا حنًا، 2003

يُميط الكاتب اللِّثام عن بعض القضايا الوثَنيَّة السُّوريَّة القديمة، منها مازال راسخاً في سماويَّات اليوم، كالحيَّة والقُربان والصّليب، ومنها ما اندثر. . ، ثُمَّ يغوص الكاتب ليُعرِّي عيُوب وفضائح شعب الله المُختار الذي تتبارك في نسله جميع الأُمم دُون استثناء. . وبعدها يربط المُمارسات الصّهيُونيَّة من قَتْل وإبادة واحتقار الأغيار بآيات توراتيَّة، يعمل اليهُود على تحقيقها إلى الآن. . ، اليهُود وعبادة الأصنام (التّرافيم) ـ البُخُور ـ القُربان، الخصاء والرَّهْبَنَة، الدَّيْر، الجنس في التّوراة، طُقُوس جنسيَّة وعلاقات زواج، عشتار ربَّة الجنس، نشيد الإنشاد (نجوى حُبٍّ في هيكل الرَّبِّ)، القمر وعباداته، الثّالُوث المُقدَّس، الصّليب، القرن، الثّور المُجنَّح (الكيروب). . ، الإله رامون، جنَّة عدن، أساطير

التّكوين، الطُّوفان، قايين وهابيل، الشّيطان، صفات إله العبرانيِّين، الأسفار السَّاقطة، المسيح والعذراء، بعض الأخطاء الواردة في التّوراة، أخطاء نَسَب المسيح، بابل وسُقُوطها، وغيرها من الموضوعات التي تدحض وتُفنِّد وتُعرِّي كتاباً اسمه التّوارة.

30) الحقيقة بين النُّبُوءة والسّياسة، التّوراة، الأناجيل، نُوسترادامُوس، القرآن الكريم، محمد نضال الحافظ، 2003

هل كان انهيار بُرجَيْ مركز التّجارة العالمي نُبُوءة؟ ما مصير مَنْ دعا إلى ضرب مكَّة المُكرَّمة بقُنبلة نوويَّة؟ ما هي العلاقة بين العراق الآن وبابل زمن نبُوخذ نصَّر؟ ما قصَّة النُّبوءات في آخر الزّمان؟ ما هي تلك النُّبوءات الإنجيليَّة والتّوراتيَّة والقُرآنيَّة؟ وما علاقتها بالسّياسة العالميَّة؟ ماذا يفعل اليهُود والمسيحيُّون والمُسلمون تجاه نُبُوءاتهم؟ كيف تبدو نهاية اليهُود و(إسرائيل) من خلال التّوراة والتّلمُود والأناجيل ونُوسترادامُوس والقُرآن الكريم، العراق وبابل واليهُود ونُوسترادامُوس، هل نسي اليهُود كيف أسرهم نبُوخذ نصَّر وسباهم إلى بابل؟ هل يُحاول اليهُود (أمريكا - بريطانيا) الانتقام من العراق؟ هل من المُمكن أنْ تكون هُناك ضربة نوويَّة للعراق؟ المسيحيَّة الصِّهْيَوْنيَّة - نشأتها ومشاهيرها، برُوتُوكُولات حُكماء صِهْيَوْن، السّياسيُّون الأمريكيُّون ونُبُوءات التّوراة والأناجيل ونُوسترادامُوس، معركة هرمجدون والحرب العالَميَّة النَوويَّة الثّالثة، المُؤامرات اليهُوديَّة الأمريكيَّة، فلسطين واليهُود والتّوراة والتّلمُود ونُوسترادامُوس، هل بدأ يوم القيامة؟! لنتعرَّف الحقيقة المُذهلة من خلال كتاب الحقيقة بين النُّبُوءة والسّياسة.

31) الفقه السِّياسي الإسلاميُّ، د. خالد الفهداوي، 2003

في هذا الزّمن وفي هذا الوقت بالذّات غدت الحاجة مُلحَّة جداً جداً من أجل وضع قواعد لتأسيس فقه سياسيٍّ إسلاميٍّ. بعد أنْ أُشبع الفقه العادي إنْ صحَّ التّعبير؛ أيْ فقه المُعاملات وفقه العبادات، تأسيساً ومنهجيَّة. يتناول الباحث - تاريخيَّاً - السّياسة الإسلاميَّة مُنذُ عُمَر بن الخطَّاب، مُرُوراً بأبي حنيفة وابن خلدون والشّاطبي وابن تيميَّة والماوردي والغزالي، وُصُولاً إلى المدرسة التّجديديَّة المُعاصرة. ويُعلِّل لماذا الحاجة إلى قواعد فقه سياسيٍّ إسلاميٍّ. ثُمَّ يُوضِّح ما هي أسباب تعطيل الفقه السّياسي الإسلامي ومظاهره. ويُعرِّج على العلمانيَّة والاستشراق والخلافة والمُلك وإلى دَور الجامعات الإسلاميَّة في إغناء الفقه السّياسي. كما يرتدُّ الباحث إلى بحث فقه السّياسة عند الأنبياء نُوح وإبراهيم ومُوسى وعيسى، ويبحث في نحو قواعد مُؤصِّلة للتّفسير السّياسي للقُرآن الكريم. ومن ثَمَّ يصل إلى فقه هذه المرحلة التي نعيشها؛ أيْ قواعد الحرب والسّلام. ويبحث في مُصطلحات عديدة مثل: الجهاد - القتال - السّلام - الحرب - وكيفيَّة ضبط كُلٍّ من هذه المُصطلحات في القُرآن والسُّنَّة. كما يتطرَّق - بشيء من التّفصيل - إلى قواعد السّلام والحرب في مرحلة الاستضعاف (مثال السّلام مع الكيان الصِّهْيَوْني بين الشّرع والواقع). ويصل إلى بحث قواعد الحرب والسّلام في مرحلة العالميَّة، ويبحث في الدِّيمقراطيَّة والمجالس النّيابيَّة وحُقُوق الإنسان والسّلام العالمي من ميزان الفقه السّياسي الإسلامي. ويُعرِّج إلى قواعد الحرب والسّلام في ضوء المُتغيِّرات السّياسيَّة، ويُبيِّن قواعد الفقه السّياسي الإسلامي بين الثّوابت والمُتغيِّرات. ويتناول العولمة والآخر، وهل ما يحدث الآن هُو حوار حضارات أم صدام حضارات؟ كما يبحث في المُجتمع المَدَني والإرهاب والمُنظَّمات الدّوليَّة والفقه السّياسي والسُّلطات الثّلاث، مُفصِّلاً في الخلافة والإمامة والسُّلطان والملك، وأهل الحلِّ والعقد ومجلس الشُّورى والنّظام الوراثي، والطّائفيَّة والأمَّة ودولة المُؤسَّسات والمرأة والحُقُوق السّياسيَّة والدُّستور وولاية الفقيه وفقه الدّولة وفقه الفَرْد، والنّظام القَبَلي والحوار القومي الإسلامي والحرب الحضاريَّة والحُرِّيَّات العامَّة والتّعدُّديَّة السّياسيَّة ومعالم النّظام الإسلامي العالمي، والدِّين والسّياسة. ثُمَّ يُعدِّد القواعد التي ارتآها تصلح لتأسيس فقه سياسي إسلامي.

32) نزار قبَّاني وقصائد كانت ممنوعة في الدِّين السِّياسة الجنس ، نضال نصر الله ، 2003

نزار قبَّاني طفل بردى. طفل البساتين التي نشرت وردها وعطرها ذات يوم بين سُور الصِّين ومدريد. / سُليمان العيسى/ - إنَّ عُمَر بن أبي ربيعة شاعر من قافلة شُعراء التّاريخ العَرَبي؛ لكنَّ نزار قبَّاني هُو مدرسة الشّعر العَرَبي الحديث، يعيش على رُوحها آلاف الشُّعراء وأجيال من الشّباب المُثقَّف. / سميح القاسم/ . هذا الكتاب يضمُّ بين دفَّتيْه قصائد مُنعت لنزار قبَّاني حين نظمها، ثُمَّ تحت ضغط الجماهير العَرَبيَّة وحبِّها لهذه القصائد أُجيزت. كما يحكي هذا الكتاب قصَّة المَنْع أو المُصادرة وقصَّة الإجازة. من هذه القصائد: خُبز وحشيش وقمر - هوامش على دفتر النّكسة - المُهرولُون - المُستحمَّة - مُحاكمة غير شرعيَّة - بلقيس - وغيرها... فمنها قصائد مُنعت بحُجَّة الأخلاق، ومنها بحُجَّة الدِّين، ومنها بحُجَّة المُجتمع والسِّياسة و...

33) لوعة الشَّاكي ودمعة الباكي (من جميل تُراثنا) ، المنسوب لصلاح الدِّين خليل بن أيبك الصَّفدي ، تحقيق : مُحمَّد عايش ، 2003

العشق والغرام وما يُصاحب ذلك من الوله والهُيام. هذه هي المادَّة الأساسيَّة للكتاب الذي جمع فيه مُؤلِّفه كُلَّ مُفردات الحُبِّ والعشق والغرام وما يتعلَّق بها بأُسلُوب السّجع المُوسيقي الجميل، مُستخدماً من ذلك الألفاظ البليغة والمُعبِّرة للحالة التي يصفها. ثُمَّ يُلخِّص ذلك بأبيات من الشّعر التي لا تخلو من البراعة ومن مُحسنَّات الشّعر وفُنُونه. يحكي المُؤلِّف ذلك كُلَّه من خلاله قصَّة يرويها تبدأ بنظرة، وتنتهي بلقاء، ولكنْ؛ ما بين النّظرة واللّقاء آهات وأشجان وزفرات وعبرات وأحداث ومُجريات، ووصف بليغ وصادق لكُلِّ ما يُحيط بالقصَّة يشدُّ القارئ، ويجعله يستمتع بالقراءة. ذلك هُو كتاب: لوعة الشّاكي ودمعة الباكي الذي يُعَدُّ صورة واضحة لواقع الأدب في ذلك العصر. نقول ذلك لأنَّ المُؤلِّف الصّفدي - فضلاً عن كونه مُؤرِّخاً وهُو ما اشتهر به من خلال كتابه: الوافي بالوفيات - فقد كان شاعراً وأديباً رقيقاً، فقد وُصف من قبَل بعض مَنْ ترجم له بأنَّه: أديب الزّمان والشّاعر المُجيد، وغير ذلك من الألقاب.

34) سيرة السُّلطان النَّاصر صلاح الدِّين الأيُّوبي (النَّوادر السُّلطانيَّة والمحاسن اليُوسُفيَّة) بهاء الدِّين ابن شدَّاد ، تحقيق : د. أحمد إيبش ، 2003

تبقى سيرة البطل الخالد صلاح الدِّين الأيُّوبي وجهاده وحُرُوبه مع الصّليبيِّين، وانتصاره الأكبر في حطِّين، وفَتْحه للقُدس، تبقى واحدة من أنصع صفحات تاريخنا العَرَبي الإسلامي الوضَّاء. في هذا الكتاب الرّائع «النّوادر السُّلطانيَّة والمحاسن اليُوسفيَّة» ينقل لنا المُؤلِّف بهاء الدِّين ابن شدَّاد صُورة حيَّة ورواية مُباشرة عن حياة بطلنا الكبير وأعماله وبُطُولاته. . ويُصورِّ لنا، كشاهد عيان ثَبْت صادق، مشاهد مُؤثِّرة وعبَراً بليغة عن المزايا العظيمة التي تحلَّى بها السُّلطان النّاصر صلاح الدِّين الأيُّوبي، حتَّى احترمه الأعداء، بَلْهَ الأصدقاء، فارتفع اسم صلاح الدِّين عالياً ليقترن بأمجاد جهاده، وليقترن بالقُدس الشّريف، وليغدو صاحبه - بكُلِّ جدارة - واحداً من أعظم الشّخصيَّات التي أنجبَتْها أمَّتنا العَرَبيَّة الإسلاميَّة، لا، بل البشريَّة جمعاء على امتداد تاريخها. وكفى سُلطاننا صلاح الدِّين فخراً أنَّ الشّهادة بفضله ونُبله وتسامحه، فضلاً عن شجاعته وقُوَّته وحكمته، كانت قد صدرت عن أعدائه قبل أصدقائه وأتباعه. إنَّ سُلطاننا النّاصر صلاح الدِّين واحد من الذين يُقال فيهم: إنَّهم نسيج وحدهم.

35) السّيف الأحمر دراسة في الأُصُوليَّة اليهُوديَّة المُعاصرة ، د. جمال البدري ، 2003

الصِّهْيَوْنيَّة انعكاس لليهُوديَّة، و(إسرائيل) انعكاس للصِّهْيَوْنيَّة ... - الأحزاب الدِّينيَّة الإسرائيليَّة هي القاسم المُشترك بين اليهُوديَّة والصِّهْيَوْنيَّة و (إسرائيل). . - إنَّ الوظيفة القوميَّة لهذه الأحزاب تجسيد لجوهر الرُّؤية اليهُوديَّة الصِّهْيَوْنيَّة،

وليس - هُناك - فرق استراتيجي بين اليسار / اليميني/ الوسط، فكُلُّها تتبنَّى الرُّؤية التّلمُوديَّة. - ما هي السّمات والاتّجاهات التّاريخيَّة للدّيانة اليهُوديَّة؟ ما هي السّمات الأساسيَّة للفكر الدِّيني الإسرائيلي؟ - ما هي الاتّجاهات اليهُوديَّة الحديثة قبل الحركة الصّهْيَوْنيَّة؟ - نشأة وتطوُّر الأحزاب الدِّينيَّة الإسرائيليَّة. - نشأة الحركة الصّهْيَوْنيَّة في أورُوبا. - التّطبيقات الإيديولوجيَّة للأحزاب الدِّينيَّة الإسرائيليَّة. - حركة غوش ايمُونيم الثّيوقراطيَّة والدِّيمُقراطيَّة الصّهْيَوْنيَّة. - ما هي الوظيفة القوميَّة للأحزاب الدِّينيَّة الإسرائيليَّة في إطار الصّراع العَرَبي الصّهْيَوْني؟ - التّهجير والاستيعاب - الوظيفة الأمنيَّة والعسكريَّة.. - تعداد الشّخصيات الدِّينيَّة الرّئيسيَّة اليهُوديَّة الإسرائيليَّة. - المُنظّمات الدِّينيَّة الجديدة وصُعُود العُنصُر الدِّيني بعد 1967. - توسُّع الجيش الإسرائيلي في تجنيد المُتطرّفين اليهُود. - تعداد أحزاب الكيان الصّهْيَوْني التي تخوض انتخابات الكنيست.

36) مُثلّث الدّم شارُون أمس، اليوم، غداً، د. جمال البدري، 2003

إنَّ اريك شارُون أو اريل أو ارئيل بقدر ما هُو فَرْد واحد في المُؤسَّسة الإسرائيليَّة الحاكمة، فهُو - أيضاً - رمز لهذه المُؤسَّسة؛ رمزٌ سلبي بالنّسبة لنا، ورمزٌ إيجابي « ماشيح » بالنّسبة لهم. - الماشيح اليهُودي، والعصر الماشيحاني. - المجموعة الماشيحانيَّة « مُواطنو الدّرجة الأُولى ». - حاييم وايزمن - إسحاق بن زفي - زالمان شازار - افرام كاتزر - إسحاق نافون - حاييم هيرتروغ - ديفيد بن غُوريُون - مُوشي شاريت - ليفي أشكُول - غُولدا مائير - إسحاق رابين - مناحيم بيغن - إسحاق شامير - شيمُون بيريز - نتنياهُو - براك - اريل شارُون - اريل شارُون من الوحدة 101 حتَّى الكيلو 101. - شارُون فوق القانون !! - شارُون و(إسرائيل) الكُبرى. - الظّاهرة الشّارُونيَّة ومُستقبل (إسرائيل).

37) هندسة القُرآن دراسة فكريَّة جديدة في تحليل النّصّ، د. جمال البدري، 2003

- القُرآن هُو صوت الله الخالد الذي يُلائم الطّبائع البشريَّة المُتّزنة مع الحياة، وإنَّ وُجُود القُرآن استمرار للنُّبُوَّة. - التّفسير والتّأويل. - القُرآن أُنزل من أجل الإنسان، وليس للملائكة والجان. - خصائص التّحليل القُرآني بـ عُلُوم القُرآن. - لماذا الدّائرة في هندسة القُرآن؟ وما هي نماذج هذه الدّائرة؟ - سُورة الشّمس - سُورة اللّيل - سُورة الضُّحى. - كيف نُطوِّر الرّبْطَ بين الرَّقْم والكلمة؟ - ما هي العلاقة بين الدّائرة والرَّقْم؟ - نماذج تطبيقيَّة من التّحليل القُرآني. - سُورتا الفاتحة والبقرة - سُورة الإخلاص - سُورة العَلَق. القُرآن والمُستقبل. إذنْ؛ الهندسة هي تفاعل أصيل بين الكلمات والأرقام مُكوِّناً صُورة مُعبِّرة ومُنظَّمة، صُورة فيها جماليَّة الكلمات ودقَّة الأرقام، ولكنّها ليست كلمة ولا رَقْماً، بل هي هندسة بموجب مفهومنا في هذا المجال، فإذا كانت الهندسة كلاماً كانت هندسة كلاميَّة، أو كلاماً مُهندَساً، والقُرآن كلام الله هندسة مُقدَّسة، فيه مُواصفات الجمال والدِّقَّة.

38) كيف صَنَعَ اليهُود الهُولُوكُوست؟ نُورمان فنكلشتاين، تر: د. ماري شهرستان، 2003

قال الحاخام آرنولد جاكوب فُولف مُدير جامعة دي يال: "يبدو لي أنّهم يبيعون الهُولُوكُوست عوضاً عن أنْ يُعلِّموه". إنَّ هذا الكتاب هُو في - آن واحد - تشريح واتّهام لصناعة الهُولُوكُوست. إنّه يُؤكِّد أنَّ الهُولُوكُوست هُو تقدمة إيديولُوجيَّة للهُولُوكُوست النّازي. إنَّ إحدى أكبر القُوَّات العسكريَّة وأعظمها في العالم؛ وحيثُ إنَّ فيها انتقاصات حُقُوق الإنسان هائلة قدَّمت نفسها كبلد ضحيَّة. وقد جنت أرباحاً وفوائد هائلة عن هذا الوضع - الضّحيَّة الذي لا مُبرِّر له. وخُصُوصاً الحصانة في مواجهة النَّقْد حتَّى الأكثر ثُبُوتاً وسناداً. يقول فنلكشتاين: كان أهلي يندهشون - غالباً - عندما يجدون أنّني مُستنكر - إلى حدٍّ كبير - تزوير واستغلال الإبادة النّازيَّة - الجواب الوحيد والأبسط هُو التُّهَ[م] التي يستعملونها لتبرير السّياسة الإجراميَّة لدولة (إسرائيل) ودَعْم الولايات المُتّحدة لهذه السّياسة. هُناك - أيضاً - داف[ع] شخصي؛ إنَّه الحملة الحاليَّة لصناعة الهُولُوكُوست الهادفة إلى ابتزاز المال من أُورُوبة على حساب الضّحايا المُحتاجي[ن]

للهولُوكُوست، وضعت استشهادهم في مُستوى أخلاقي لكازينو مُوناكو. نورمان ج. فنكلشتاين يهُودي يفضح كيف صَنَعَ اليهُود الهُولُوكُوست، وكيف يستثمرونه، وكيف يخدعون به الدُّنيا وأُورُوبة وأمريكا.

39) التّمييز ضدَّ غير اليهُود في (إسرائيل) مسيحيِّيْن كانوا أم مُسلمين، د. سامي الذّيب تر: د. ماري شهرستان، 2003

إنَّ هذا الكتاب يُساهم في فَهْم أفضل لألم الشّعب الفلسطيني، ويُؤكِّد أنّه لن يكون لدورة العُنف (النّضال الفلسطيني) نهاية مادامت سياسة (إسرائيل) مُتمثِّلة ومُتجسِّدة بقوانين ومُمارسات قضائيَّة، التي هي باستمرار ضدَّ غير اليهُود لن تُعدَّل. إنَّ هذه الدّراسة تجعلنا نتلمَّس بالإصبع نَهْج الاعتداء المُستمرّ على حُقُوق الإنسان، فيُؤكِّد - في البداية - مفهوم الحُرِّيَّة الدِّينيَّة، ثُمَّ يتحدَّث عن التّرحيل والتّدمير بعد 1948م و 1967م، ويتحدَّث عن حُقُوق غير اليهُود 1948م و1967م، وكيف يُحرِّف اليهُود العدالة، ويتَّخذون القمع وسيلة ضدَّ غيرهم، ثُمَّ يتساءل أيّ مُستقبل منشود لغير اليهُود؟

40) تطوُّر العُلُوم عند العَرَب (الشّيخ والقارورة)، د. إسماعيل الرُّبيعي، 2003

يتحدَّث هذا الكتاب عن نشاط العُلُوم والمُؤثِّرات. وعن نُشُوء الفكر الفلسفي في المجال العَرَبي الإسلامي. كما يتحدَّث عن الطِّبِّ العَرَبي، ويُعدِّد أهمَّ الأطبَّاء العَرَب والمُسلمين. وعن الرّياضيَّات وأهمِّ عُلمائها من العَرَب والمُسلمين. وعن الكيمياء وعُلمائها، والفَلَك وعُلمائه.

41) تحوُّلات الذَّات الثَّقافي العَرَبي مُقاربات معرفيَّة، د. إسماعيل الرُّبيعي، 2003

ما من أمَّة شغوفة بلَعْن الظّلام مثل العَرَب. فالجميع حانق وغاضب يُمارس عادة كيل الشّتائم، وجَلْد الذّات، والبُكاء على الأطلال، وفوات الفُرص، وغياب العدالة الاجتماعيَّة، وانعدام الحُرِّيَّات، والتّفرقة العُنْصُريَّة والطّائفيَّة. إنَّ استمرار الوعي الذّاتي لدى العَرَب يجعلهم يعيشون خارج السّياق التّاريخي. فالتّصوُّرات والرُّؤى عالقة في مداها من دُون إحساس بعناصر التّغيُّر والتّحوُّل، فالتّقليد هُو الموئل الذي لا فكاك ولا خلاص منه. إذنْ؛ أين العَرَب من أسئلة اللّحظة الرّاهنة؟! يبحث المُؤلِّف في نقد العقل، وتحوُّلات الذّات (العالم وفواصل التّغيير)، ومُحدِّدات التّغيير. (الطُّغاة والطُّغيان). فاتورة الأحقاد. قياس درجة الكراهية. الوعي بالخُصُوصيَّات. ترسُّبات الماضي. ما يُنتجه الواقع. مُوجِّهات التّغيير (في صُلب الوظيفة المفاهيميَّة). سيمُولُوجيا الوطنيَّة. ما بعد الوطنيَّة. مُعيقات التّغيير. كيف نستخدم التّاريخ؟ الوعي مُتَّهماً. من الأحداث إلى التّأمُّل. معيارا الذّاتي والموضوعي. بعيداً عن الأحداث؛ قريباً من الخطاب. الحَدَث تمثيل للتّاريخ ومُحرِّك له. تفكيك الخطاب الثّقافي العَرَبي (الحَدَث الكبير يُولِّد الأسئلة الكُبرى). الحادثات تترى، واللّوك لا ينقطع. ما بعد المُثقَّف. الجاحظ. ترميم بُرج بابل. الرّجل الذي فَقَدَ أزرار معطفه. تداخلات الوظيفة النَّقْديَّة. محنة المُثقَّف. مُحاولة الاقتراب من مُكوِّنات الخطاب الثّقافي العراقي المُعاصر (المحنة موقعاً). سيل من أسئلة جارفة ومُحاولات جادَّة للإجابة عنها؛ هذا هُو الكتاب الذي بين أيدينا.

42) مائير كاهانا وغُلاة التّطرُّف الأصولي اليهُودي، تأليف: رفائيل ميرجي وفيليب سيمون تر: عائدة عم علي، 2003

من أقوال كهانا: الدِّيمقراطيَّة والصِّهْيَوْنيَّة لا تتعايشان معاً. اليهُوديَّة مُختلفة - كُلِّيَّاً - عن الدِّيمُقراطيَّة. النّاس في هذا البلد (إسرائيل) مرضى، مرضى فكريَّاً، وبالنّسبة لي لا يُوجد هُناك إسرائيليُّون، يُوجد يهُود، بعضهم يعيش في (إسرائيل) وآخرون يعيشون في ... إنَّ هُناك شعباً يهُوديَّاً، ولأنَّ هُناك شعباً يهُوديَّاً فإنَّ لدينا الحقّ في المجيء إلى هذا البلد وسَلْبه من العَرَب. إنَّ شارُون سيِّئ جداًّ جداًّ، إنَّه كاذب، ولا يملك أيَّة مبادئ أخلاقيَّة، ولا أيَّة مُثُل، بإمكانه أنْ

يفعل أيَّ شيء، وأنا أخافه تماماً كما يخافه اليساريُّون. سُؤال إلى كهانا: إذنْ؛ فأنت تتقبَّل حقيقة قَتْل المَدَنِيِّين العَرَب؟ بالطَّبع؛ بالتّأكيد، بالطّريقة نفسها التي أُوافق فيها الإسرائيليِّين على قَصْف لُبنان.

43) ما بين مُوسى وعزرا كيف نشأت اليهُوديَّة؟ عبد المجيد همُّو، 2003

مُوسى وبنُو إسرائيل - القُرآن الكريم لم يُشرْ إلى اليهُوديَّة في زمن مُوسى - العهد القديم لم يُشرْ إلى اليهُوديَّة في زمن مُوسى - حقيقة رسالة مُوسى - هل العهد القديم كتاب سماوي؟ متى تمَّ نَسْخُ التّوراة وتدوينها؟ توراة مُوسى - الألواح وهل هي غير التّوراة؟ الزّبور وداود - سُليمان الحكيم - إثبات عدم يهُوديَّة إبراهيم وأبنائه - وإثبات عدم يهُوديَّة مُوسى والأسباط وداود وسُليمان - متى ظهرت اليهُوديَّة في الكتاب المُقدَّس؟ كيف نشأت اليهُوديَّة؟ - عزرا ونحميا أنشأا اليهُوديَّة - سمات اليهُوديَّة.

44) اليهُوديَّة بعد عزرا وكيف أُقرَّتْ؟ عبد المجيد همُّو، 2003

تاريخ تدوين الأسفار كُلّها - التّوراة والأخلاق - المُعتقدات - هل هُناك إله واحد يعبده اليهُود أم هُم يعبدون آلهة عدَّة؟ الطُّقُوس - الوصايا - الوصايا الأخلاقيَّة - المُحرَّمات من النّساء - وصايا حول الزّنى - وصايا مُختلفة - الإيمان باليوم الآخر.

45) مفاهيم تلمُوديَّة نظرة اليهُود إلى العالم، عبد المجيد همُّو، 2003

متى كُتب التّلمُود؟ تعريفه - جمعه - تأليفه - ترجمته - أهمِّيَّته - الرُّدُود عليه - التّلمُود والأُمم الأُخرى - التّلمُود والمسيحيَّة - مسيح اليهُود المُخلِّص - التّلمُود والعَرَب - موضوعات تلمُوديَّة - موقف التّلمُود من يَهْوَه - موقف التّلمُود من فلسطين - التّلمُود والآخرة - التّلمُود والقَبَالة (تطوُّر التّلمُود) ...

46) الله أم يَهْوَه؟ أيُّهما إله اليهُود؟ عبد المجيد همُّو، 2003

تعدُّد الآلهة عند اليهُود - إيل - يَهْوَه - بعل - آلهة أُخرى - إيل إله إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب - ما صفاته؟ يَهْوَه إله اليهُود: من أين أتى؟ ما صفات يَهْوَه؟: التّسلُّط - الجهل - حُبُّ الجنس - الحُزن - الكذب... إلخ. هل اليهُود مُوحِّدون؟

47) الفِرَق والمذاهب اليهُوديَّة مُنذُ البدايات، عبد المجيد همُّو، 2003

اليهُود وفِرَقُهُم قبل الإسلام - نُشُوء اليهُوديَّة وانقسامها - السّامريَّة - الصّدوقيَّة - الحسيديُّون. الفريسيُّون - الأسنيُّون - الغنوصيُّون - الكَتَبَة - المُتعصِّبون - الرَّبَّانيُّون - التّلمُوديُّون - القرَّاءون - مُوسى بن ميمُون - الفاءون - القَبَالة - يهُود الخَزَر - الأشكناز - اللُّوثريَّة - المسيحيَّة اليهُوديَّة - شُهُود يَهْوَه - الصِّهْيَوْنيَّة ونشأتها - وموضوعات أُخرى مُفصَّلة تفصيلاً دقيقاً تُبيِّن موقف اليهُود من المسيحيَّة، وكيف اضطهدوا المسيح وأتباعه..

48) المجازر اليهُوديَّة والإرهاب الصِّهْيَوْني مُنذُ نُزُول التوراة، عبد المجيد همُّو، 2003

هذا الكتاب يشرح - بوُضُوح - ما أحدثه اليهُود من مجازر وإرهاب قديماً وحديثاً من خلال كتاب العهد القديم ووقائع الحال على مُرُور التّاريخ حتَّى العصر الحديث، من هذه المجازر: مجازر ما قبل مُوسى - مجازر نُسبت إلى مُوسى - مجازر يشوع - القُضاة - صموئيل - مجازر نُسبت إلى داود - مجازر يَهْوَه - مدين - العجل - سنحاريب - الطُّوفان - إيزابيل - ياهو - مجازر المكابيِّين - يهُوديت - استر - الثّورة الفرنسيَّة - البلاشفة - مجازر فلسطين قبل الدّولة المُصطنعة - الاغتيالات اليهُوديَّة الإسرائيليَّة لزُعماء فلسطين - تدمير القُرى في فلسطين من قبل **1948** حتَّى **2000** - عبث الصّهاينة بقرارات الأُمم المُتَّحدة، وغيرها كثير. كتاب توثيقي من التّوراة ومن كُتُب اليهُود التي يُؤمنون بها، يُوثِّق القتل والإرهاب اليهُوديِّين، وهُو وصمة عار من وُجهة نَظَر الإنسانيَّة في جبين اليهُود، وسجلٌّ مُشرِّف من وُجهة نَظَر اليهُود في جبينهم.

49) أضواء على ظلال الخليج ، مروان القبلان ، 2003

- ودارت عجلة الأحداث حتَّى ما عاد بإمكان أحد أنْ يُوقفها... - وأصبح الملك أمام خيارَيْن أحلاهما مُرٌّ؛ إذا ساند التّحالف مَنْ يضمن له أنَّ (إسرائيل) لن تُهاجم العراق، أمَّا إذا اختار الوُقُوف إلى جانب صدَّام حُسين، فإنَّ العالم كُلَّه سيغضب عليه، وسيحرمه الخليج من المُساعدات السّخيَّة التي كانت تُقدِّمها له. - لكنَّ الأمر غير الصّحيح - البتَّة - هُو أنَّ إيران هي منبع التّطرُّف الدِّيني كما يظنُّ الكثيرون، وإذا أردنا العودة إلى أُصُول التّطرُّف الإسلامي في العصر الحديث فإنَّ ذلك سيقودنا إلى أفغانستان والقرن التاسع عشر، وليس إلى إيران والرُّبع الأخير من القرن العشرين.

- ومن مظاهر التّناقض - أيضاً - في الشّرق الأوسط الصّراع بين أنصار القوميَّة العَرَبيَّة وأنصار القُطريَّة، بين المُحافظين والرّاديكاليِّين، بين حُلفاء الغرب وأصدقاء مُوسكُو، وأهمُّ من ذلك كُلِّه الصّراع بين أغنياء العَرَب وفُقراؤهم.

- وبتحوُّل مُجريات الأُمُور إلى هذا المنحى الخطير، فقد يحدث ما كان صدَّام حُسين يأمل - حقيقة - بحُدُوثه، وهُو قيام انقلاب يُطيح بالعائلة المالكة في السُّعُوديَّة. - ففي 17 تمُّوز 1979، خلع صدَّامُ حُسين الرَّئيسَ البكرَ، وتسلَّم القيادة في بغداد، مُتَّهماً سُوريَّة والرَّئيس الأسد - تحديداً - بمُحاولة قَلْب نظام الحُكْم العراقي. - بدأ المؤتمر أعماله يوم 30 أيَّار 1989، بحُضُور جميع الزُّعماء العَرَب، باستثناء لُبنان الذي ظلَّ مقعده شاغراً؛ لأنَّ سُوريَّة رفضت اقتراحاً يدعو إلى حُضُور رئيسَيْ الحُكُومتَيْن المُتنافستَيْن. - ولأنَّ الموقف في الخليج لم يكن قد اتَّضح بَعْدُ، ولأنَّ أيّاً من العَرَب لم يكن قد حدَّد موقفه بَعْدُ، ولأنَّ السّفير اليمني لدى الأُمم المُتَّحدة لم يتلقَّ تعليمات مُحدَّدة من حُكُومته، فقد فضَّل عبد الله الأشطل التّغيُّب عن جلسة مجلس الأمن.

50) الخديعة الكُبرى هل اليهُود - حقّاً - شعب الله المُختار، د. مُحمَّد جمال طحَّان، 2003

بماذا وصف مُفكِّرون أُورُوبيُّون وأمريكيُّون اليهُود؟ ما مدى العداء الذي يُكنُّه الصّهاينة للسَّيِّد المسيح أو لنبي الإسلام؟ تقول نيستا ويبستر: إنَّ المفهوم اليهُودي السّائد عن فكرة شعب الله المُختار هُو مفهوم سياسي محض ابتكره الحاخامات لحَضِّ اليهُود على السّعي الدّؤوب للسّيطرة على العالم، ويُعتبر هذا الشّعار أساس الدّيانة الحاخاميَّة التّلمُوديَّة، ويأخذ اليهُود بتعاليم التّلمُود كدُسْتُور لهم في الحياة. - مَنْ هُم اليهُود؟ - مَنْ هُو إسرائيل؟ وصف اليهُود في التّوراة والأناجيل والقُرآن الكريم - الماسُونيَّة - الدّولة العالميَّة - رسالة الحاخام الأكبر في إستانبول لليهُود في أُورُوبا والعالم - الأسلحة اليهُوديَّة الرّهيبة... - الكتاب مُوجَّه إلى الذين لا يعلمون حقيقة اليهُود، وإلى الذين يعلمون حقيقتهم من أجل أنْ يُقاوموا ويُحاولوا ....

51) وحدة الوُجُود من الغزالي إلى ابن عَرَبي، مُحمَّد الرّاشد، 2003

يبدأ المُؤلِّف بتعاريف عديدة تُهيِّئ لقراءة الكتاب، ثُمَّ يتحدَّث عن أبعاد وحدة الوُجُود، ووحدة الأديان، ثُمَّ يُفصِّل ينابيع وحدة الوُجُود في المُعطى الإسلامي (القُرآن والحديث ...) ثُمَّ يتحدَّث عن الصّياغات الأُولى لوحدة الوُجُود، (الغزالي - الجيلاني - السّهروردي - العطَّار ...)، ثُمَّ يتحدَّث عن المُراوحة بين الاتِّحاد والوحدة (أبو مدين - ابن الفارض - المكزون السّنجاري)، ليصل المُؤلِّف عبر تسلسُل منطقي إلى الصّياغة النّهائيَّة لوحدة الوُجُود (ابن عَرَبي - فُصُوص الحكَم).

52) نظريَّة الحُبِّ و الاتِّحاد في التَّصوُّف الإسلامي من الحُبِّ الإلهي إلى دوامات الاتِّحاد المُستحيل، مُحمَّد الرّاشد، 2003

يُقدِّم المُؤلِّف في هذا الكتاب مشروع رُؤية مُعاصرة للتّصوُّف الإسلامي، مُنطلقة من هدي الوحي، مُتمثِّلاً بالقُرآن الكريم أوَّلاً.. وعلى ضوء المنطق العقلي ثانياً.. ومُستأنساً بالمُعطى العلمي ثالثاً.

53) امنحوني فُرصة للكلام، د. مُحمَّد جمال طحَّان، 2003

ـ اتركْ السِّياسة لأهلها، والثّقافة لأهلها، والحُرِّيَّة لأهلها، واكتف بالعيش، ولا تَنَمْ إلا بعد عشاء ثقيل، ولا تنسَ.. اخلع الوعي قبل النّوم. لا.. لستُ غبيّاً.. كُلُّ ما أرجوه منكم أنْ تُقاوموا فكرة إقامة نصب تذكاري لي بعد أنْ أموت.. لماذا؟ لأنَّني لا أريد أنْ أغدو مكاناً أميناً يلجأ إليه مَنْ يريد أنْ يبول.. أنا أكتب.. أنت تقرأ.. هُم يُقتلون.. وهُو يشجب بنصف صوت، أنا أكتب نَدَمي لأنِّي لم أحترف القتال، وأنت تقرأ وتتألَّم؛ لأنَّ الفعل بيد ذلك الذي يهزأ من نَدَمي ويسخر من ألمك.. ـ ألم يَحنْ وقت استخدام حقِّ الفيتو على العقل ليتوقَّف بُرهة عن المُسالمة والاستسلام؟! وإذا كان العقل والعقلانيَّة لم يعودا مُجْدِيَيْن، ألا يحقُّ لنا أنْ نُمارس الجُنُون؟! ـ ما الذي جعل الحضارة العَرَبيَّة الإسلاميَّة تذوي؟ ـ هل بإمكاننا إيقاف تبادُل التُّهم والإدانات لنعمل جميعاً على إعادة نهجنا الحضاري الذي انبنى على توفير الحُرِّيَّات الفكريَّة، والتّعدُّديَّة، وتعميق القيَم الإنسانيَّة الخالدة؟! ـ ما المقدار الذي يحمله الإعلام المُعاصر من مسؤوليَّة التّضليل؟! ـ ألا فلنبدأ هُنا والآن وبكم، ثُمَّ ليَكُن ما يكون....

54) الرَّحَّالة ك طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، عبد الرَّحمن الكواكبي

تح: د. مُحمَّد جمال طحَّان، 2003

تأتي أهميَّة الكواكبي وأهمِّيَّة كتابه طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد من أجل أنْ نتعلَّم من الماضي كي لا نُلدغ من الجحر مرتَّيْن، ويأتي نَشْر الطّبائع استكمالاً لدراسة أفكاره التي بدأت في أمِّ القُرى. ويقول: تمحَّصَ عندي أنَّ أصل الدّاء هُو الاستبداد السِّياسي ودواؤه دَفْعُهُ بالشُّورى الدُّسْتُوريَّة. ويقول: (ويُراد بالاستبداد عند إطلاقه استبداد الحُكُومات خاصَّة؛ لأنَّها أعظم مظاهر أضراره). ويقول: إنَّ خوف المُستبدِّ من نقمة رعيَّته أكثر من بأسه؛ لأنَّ خوفه ينشأ عن علمه بما يستحقُّه منهم، وخوفهم ناشئ عن جهل؛ وخوفه عن عجز حقيقي، وخوفهم عن توهُّم التّخاذل فقط؛ وخوفه على فَقْد حياته وسُلطانه، وخوفهم على لُقيمات من النّبات وعلى وطن يألفون غيره في أيَّام، وخوفه على كُلِّ شيء، تحت سماء مُلكه، وخوفهم على حياة تعيسة فقط.

55) أمُّ القُرى مُؤتمر النَّهضة الإسلاميَّة الأوَّل، عبد الرَّحمن الكواكبي

تح: د. مُحمَّد جمال طحَّان، 2002

الكواكبي واحد من أجدادنا الأفذاذ؛ رُوَّاد النّهضة الذين حاولوا النُّهُوض بالواقع إيماناً منهم بمسؤوليَّة العُلماء في توعية النّاس ليقدروا على المُطالبة بحُقُوقهم بعد أنْ يُدركوا أنَّهم بشر أحرار في صُنْع مصائرهم. ممَّا نادى به الكواكبي في كتابه هذا: يجب ألاَّ يُصرَّ أحد على رأيه الذّاتي، وألاَّ يُمانع في العُدُول عن خطئه ـ سبب الفُتُور هُو تحوُّل السِّياسة الإسلاميَّة من ديمُقراطيَّة إلى ملكيَّة مُقيِّدة، ثُمَّ إلى ملكيَّة مُطلقة ـ إنَّ البليَّة هي فَقْدُنا الحُرِّيَّة، حُرِّيَّة التّعليم والخطابة والمطبوعات والمُباحثات ـ كأنَّ مُجرَّد كون الأمير مُسلماً يُغني حتَّى عن العدل، وكأنَّ طاعته واجبة ولو كان يُخرِّب البلاد، ويظلم العباد ـ إنَّ طاعة أُولي الأمر واجبة، ولكنْ؛ مع العدل، فالحاكم العادل الكافر أفضل من المُسلم الجائر وأَوْلى بحُكْم المسلمين ـ صرنا نتبع الأشخاص بدلاً من التّمسُّك بديننا الحنيف ـ إنَّ المنشأ لكُلِّ فساد هُو انحلال السُّلطة القانونيَّة وتسلُّط فَرْد عليها، فضلاً عن دُخُول ديننا تحت ولاية العُلماء الرّسميِّيْن؛ أي الجهَّال المُتعمِّمين ـ إنَّ الاقتصار على العُلُوم الدِّينيَّة يُضعفُ المُسلمين، ولابُدَّ من دراسة العُلُوم الرّياضيَّة والطّبيعيَّة أيضاً ـ إذْ ترك الخُطباء التّحدُّث في الأمور العُمُوميَّة، وعدّوا ذلك لغواً. وهكذا تأصَّل فينا فَقْدُ الإحساس ـ إنَّ السّبب الأكبر للفُتُور هُو تكبُّر الأمراء وميلهم إلى العُلماء المُتملِّقين المُنافقين الذين يُزيِّنون لهم الاستبداد ـ إنَّ أفضل الجهاد هُو الحَطُّ من قدر العُلماء المُنافقين عند العامَّة، وتحويلهم لاحترام العُلماء العاملين حتَّى لا يلبث أنْ يحترمهم الأُمراء أيضاً، ويأخذوا بآرائهم. وهكذا؛

نجد أنَّ أمَّ القُرى واحد من الكُتُب المُذهلة، إنْ حذفنا منه تاريخ تأليفه، فلن نشكَّ لحظة واحدة، في أنّه قد أُنجز تواً، وخُصُوصاً أنَّ صاحبه قد وقَّعه باسم السيِّد الفُراتي.

56) المُثقَّف وديمقراطيَّة العبيد، د. مُحمَّد جمال طحَّان، 2002

في هذا الكتاب بعض الأحاديث عن المتاهات والمفازات، فيه ما يُؤلم ويُرهق، وفيه ما يدعو إلى المُكابدة، ويحثُّ على المُعاناة. الجوُّ مُكفهر والغيُوم داكنة وكذلك الهُمُوم، من أجل ماذا؟! من أجل الدِّيمقراطيَّة، ومن أجل الثّقافة.. ولكنْ، فيه إلى جانب ذلك كُلِّه، وفوق ذلك كُلِّه تجربة قلم حيٍّ، وتجربة إنسان نابض بالبراءة والنّزاهة، إنّه الأمل في استمرار الدّفاع عن الوطن، وعن المُواطن فيه، الآن وفي المُستقبل.

57) الولايات المُتَّحدة الأمريكيَّة من الخيمة إلى الإمبراطوريَّة. مُرفق خريطة شاملة للولايات المُتَّحدة، إعداد: ديب علي حسن، مُراجعة وتدقيق: إسماعيل الكردي، 2002

قليلون هُم الذين يعرفون أنَّ الولايات المُتَّحدة كان الاستعمار يجثم فوق صدرها، وأنَّ حرباً أهليَّة دامية جرت فيها بين الشّماليِّين والجنوبيِّين، وقليلون يعرفون ما هُو دُستُورها؟ وما ولاياتها؟وما مُدُنها؟و ما ثرواتها؟ وما قوانينها؟ وما تنوُّع سُكَّانها؟ وما.... ؟ وما.... ؟! ما الجيش الأمريكي - الاستخبارات - الدِّين والسّياسة فيها - السّياسة الأمريكيَّة وأهمّ السّياسيِّين الحاليِّين - الكتاب يسدُّ فجوة في المكتبة العَرَبيَّة، ويُبيِّن كيف تمَّ طَرْد الهُنُود الحُمْر وإبادتهم. وكيف نشأت دولة أمريكا.. ويُعَدِّدُ رُؤساءها مُنذُ الرَّئيس الأوَّل إلى الآن.. يجب على كُلِّ عَرَبي أنْ يقرأ ما هي الولايات المُتَّحدة؟ وكيف نشأت؟ وكيف وصلت إلى ما وصلت إليه الآن.

58) الفِرَق والمذاهب المسيحيَّة مُنذُ البدايات حتَّى ظُهُور الإسلام، نهاد خيَاطة، 2002

لمحة إلى الأناجيل - الأناجيل غير المُعتمدة - أناجيل الطُّفُولة - اليهُوديَّة المسيحيَّة - الأبيونيَّة - النّصارى - الدُّوكتيَّة - المرقيونيَّة - هل تزوَّج يسُوع؟ مجمع نيقية والفرَق المسيحيَّة الآريوسيَّة - إليهة الرُّوح القُدس - السّابليانيَّة - المسيحيَّة بعد نيقية - النّسطوريَّة مدرسة نصيبين - برصوما - نرسيس - باباي الأكبر - خلقيدونية والفرَق المسيحيَّة بعد خلقيدونية - المُونُوفيزيَّة - القول بالمشيئة الواحدة في المسيح - التّثليث في المسيحيَّة والإسلام - الآب - ثالوث أم رابوع - التّوحيد والتثليث بين الظّاهر والباطن - التثليث في الفكر الإسلامي - الابن - الرُّوح القُدُس.

59) أبو حيَّان التَّوحيدي إنساناً وأديباً، مُحمَّد رجب السَّامرَّائي، 2002

يتناول المُؤلِّف في كتابه سيرة حياة التّوحيدي، والظُّلم الذي لحق به من ذوي الجاه والسُّلطان، وتفضيلهم مَن هُو أدنى منه مرتبة أدبيَّة وعلميَّة، كما يتعرَّض إلى التّوحيدي كأديب فارس لايُشَقُّ له غبار في ميادين عديدة كالأدب والفلسفة.

60) رمضان في الحضارة العَرَبيَّة الإسلاميَّة، مُحمَّد رجب السَّامرَّائي، 2002

يرسم المُؤلِّف صُورة عن رمضان في ذاكرة الإنسان العَرَبي في الزّمان والمكان، ويسرد سيرته العطرة في المظانِّ العَرَبيَّة القديمة والمُعاصرة عن طريق التّدوين لهذه المظاهر الاحتفاليَّة به، وتدوين المظاهر الاحتفاليَّة بعيد الفطر السّعيد ومأكولاته وحُلوياته في أكثر من 22 بلداً عَرَبيّاً وإسلامياً.

61) المسيحيَّة وأساطير التَّجسُّد في الشَّرق الأدنى القديم (اليُونان - سُوريَّة - مصر)

دانييل. إ. باسُوك، تر: سعد رُستُم، 2002

يُؤكِّد المُؤلِّف الباحث الأمريكي باسُوك في كتابه هذا أنَّ عقيدة التّجسُّد في المسيحيَّة عقيدة خُرافيَّة، وفكرة وَثَنيَّة دخيلة، نفذت إلى المسيحيَّة من وَثَنيَّة اليُونان والرُّومان. ويرى أنَّ رسالة المسيح بذاتها كانت رسالة أخلاقيَّة توحيديَّة

بسيطة، لا تعقيد فيها، فالمسيح نشأ يهُوديّاً، مؤمناً، وترعرع في بيئة توراتيَّة مُتديِّنة، من ركائزها الأساسيَّة التّأكيد على وحدانيَّة الله تعالى الخالصة، والفصل التّامّ بينه وبين مخلوقاته من البشر. إنَّ المسيح هُو عبد الله، وليس ابناً لله، هُو نبي الله، وليس ابناً لله...

62) التّوحيد في الأناجيل الأربعة وفي رسائل القدّيسَيْن بُولُس ويُوحنّا، سعد رُسْتُم، 2002

يُؤكِّد المُؤلِّف من الأناجيل الأربعة ومن رسائل بُولُس ويُوحنّا أنَّ المسيح عيسى - عليه السّلام - أكّد أنَّ الله هُو الإله الواحد الأحد وأنَّه - أيْ المسيح - بشر وإنسان، ويُؤكِّد المُؤلِّف أنَّ مَنْ يقرأ الأناجيل قراءة مُتمعِّنة لن يجد عبارة واحدة صريحة لسيِّدنا المسيح نفسه يدعو فيها أتباعه للإيمان بأُلُوهيَّته، وبلُزُوم عبادته، أو يُصرِّح فيها لهم بأنَّه ربُّ العالمين وإله الخلائق أجمعين المُتجسِّد الذي انقلب بشراً، أو يُصرِّح لهم فيها بعقيدة التّثليث...

63) الذّات الإلهيَّة والمجازات القُرآنيَّة والنَّبويَّة وإزالة شُبهة التّشبيه والتّجسيم من أساسها سعد رُسْتُم، 2002

إنَّ جماعة من قُدماء أصحاب الحديث، عُرفوا - تاريخيّاً - باسم الحشويَّة، لكثرة ما حَشَوا به الدِّين من أحاديث وأخبار آحاديَّة فرديَّة غريبة، وجعلوها حُجَّة في العقيدة والإيمان! فاغترّوا بظاهر ما وَرَدَ في بعض الأحاديث والأخبار وقليل من الآيات القُرآنيَّة، من تعبيرات أُضيف فيها اسم عُضو من أعضاء الإنسان كالوجه أو الجَنْب أو اليد أو السّاق أو القَدَم لله تعالى... إنَّ الغرض من الكتاب هُو توضيح المعنى الصّحيح للآيات التي اشتبه فَهْمُها على الحشويَّة المُجسِّمة، توضيحاً ينكشف به - بجلاء - التّنزيه المُطلق لله سُبحانه وتعالى، وليس الغرض - أبداً - اتِّهام أحد في عقيدته أو تكفيره أو تضليله.

64) نحو تفعيل قواعد نقد متن الحديث دراسة تطبيقيَّة على بعض أحاديث الصَّحيحَيْن إسماعيل الكردي، 2002

بمُرُور الزّمن، وكما يحدث في كُلِّ تُراث ديني مُقدَّس، تكوَّنت هالة مهيبة مُبالغ بها حول صحيح مُسلم وصحيح بُخاري، فصار أيُّ تحفُّظ على عبارة وردت فيهما، أو ردٍّ لسند أو حديث فيها، أو التّشكيك بصُدُوره عن النّبي صلّى الله عليه وسلَّم مهما أقام صاحبه على رأيه هذا من الدّلائل العلميَّة والبراهين العقليَّة، واتَّبع في قوله سَلَفاً أو أسلافاً من العُلماء المُتقدِّمين، وعمل بما وضعوه من قواعد وشُرُوط لقبول المتن، يُعَدّ زيفاً وضلالاً وعُدواناً على السُّنَّة!! وسنرى - يقيناً - أنَّه وعلى الرّغم من الدِّقَّة التي اتّبعها الإمامان البُخاري ومُسلم في انتخاب الحديث واجتهادهما في تحرِّي صحيح السّند منه، لم يخل كتاباهما من عدد من الرّوايات المُنتقدَة سنداً، أو التي لا يُمكن القبول بصحَّتها مَتْناً، طبقاً لقواعد نقد المُتون التي قرَّرها عُلماء الحديث.

65) حلُّ الاختلاف بين الشِّيعة والسُّنَّة في مسألة الإمامة، مُصطفى حُسيني طباطبائي تر: سعد رُسْتُم، 2002

هل الإمامة أمر مُنفصل عن الإمارة والحُكُومة أم لا؟ كيف كان سُلُوك أئمَّة أهل البيت عليهم السّلام مع وُلاة الأمور وحُكّام المُسلمين في عصرهم؟ كيف كان سُلُوك أئمَّة الشّيعة من أهل البيت تجاه فُقهاء وأئمَّة أهل السُّنَّة وعامَّتهم؟ وما هي التّعليمات التي كان الأئمَّة يقولونها لتلامذتهم ومُحبِّيهم في هذا الشّأن؟ هل الخطأ في موضوع الإمامة يُوجب حقّاً الخُسران العظيم في الآخرة والمصير إلى النّار أم لا؟

66) حوادث دمشق اليوميَّة غداة الغزو العُثماني للشَّام 926 - 951 هـ صفحات مفقودة تُنشر للمرَّة الأُولى من مُفاكهة الخلاَّن في حوادث الزَّمان ، ابن طولُون الصَّالحي الدِّمشقي

تحقيق : د. أحمد إيبش ، 2002

هذا الكتاب يُقدِّم لنا صُورة حيَّة وصادقة عن حياة المُجتمع وحركته السِّياسيَّة والاقتصاديَّة وحوادثه وغرائبه وطرائفه ، فضلاً عن وصفٍ وافٍ للعادات والتَّقاليد ولأنماط الحياة السَّائدة آنذاك في الفترة التي يُغطِّيها الكتاب . ويُمثِّل جُزءاً وافياً من القسم الضَّائع من كتاب (مُفاكهة الخلاَّن في حوادث الزَّمان) للمُؤرِّخ الدِّمشقي الشَّهير بابن طُولُون الصَّالحي ، وهذا القسم يُعَدُّ - دُون شكٍّ - المصدر الأوَّل لتأريخ مدينة دمشق في مطلع العهد العُثماني بين عامَيْ 926 - 951 هـ وهي فترة غامضة المعالم لم تصلنا عنها مصادر ووثائق كافية . فيأتي هذا الكتاب اليوم لِيَسُدَّ ثغرة هامَّة ، وليُضيف جُزءاً هامَّاً إلى مكتبة المصادر المُختصَّة بتاريخ دمشق وبلاد الشَّام ، وليرسم - فوق ذلك - صُورة حيَّة وطريفة ودقيقة للحياة السِّياسيَّة والاجتماعيَّة والثَّقافيَّة والاقتصاديَّة لدمشق إبَّان دُخُولها تحت حُكْم بني عُثمان في عهد السُّلطان سُليمان خان القانوني .

67) نَقْدُ الدِّين اليهُودي ، جميل خرطبيل ، 2002

أُسطُورة العهد القديم - الدِّين - يَهْوَه - الخُرُوج - الأساطير - الخليقة والطُّوفان - ولادة إبراهيم ومُوسى - داود - سُليمان - اصطفاء اليهُود - لا أخلاقيَّات شخصيات العهد القديم - يَهْوَه وأخطاؤه - صراعه وندمه - إبراهيم - راحيل - ثامار - يشُوع ...

68) إسرائيل والعَرَب حرب الخمسين عاماً ، أهرون بريغمان و جيهان الطهري

تر: سالم العيسى ، ط1 2002 ، ط2 2004

من أهمِّ الكُتُب التي صدرت عالميَّاً ، والتي تتناول الصِّراع العَرَبي الإسرائيلي . عبد النَّاصر والاتِّصال الأوَّل بين العَرَب و(إسرائيل) . كيف قُسِّمت فلسطين؟ الاتِّصالات السِّرِّيَّة في باريس . التَّخريب في مصر - المُجابهة - حرب الأيام السِّتَّة - السَّادات يُدهش العالم بالمُصالحة - كامب ديفيد - أيلول الأسود - شارُون والجميل - الحرب في لُبنان . مَكْرُ صدَّام حُسين - مُؤتمر مدريد - الطَّريق الطَّويلة - المُحادثات السِّرِّيَّة في أُوسلُو .... الحلقة المُفرغة؟ النِّقاش مع سُوريَّة . وغيرها من الأسرار التي تُكشَف للمرَّة الأُولى .

69) استراتيجيَّة الأمن المائي العَرَبي ، د.إبراهيم أحمد سعيد ، 2002

يُعَدُّ كتاب استراتيجيَّة الأمن المائي العَرَبي من أهمِّ الكُتُب التي تُضاف إلى مكتبتنا العَرَبيَّة ، كونه يعالج بالدِّراسة والبحث مُشكلات استثمار وتنمية الموارد المائيَّة العَرَبيَّة وفق منهج علمي سلس ومُبسَّط .

70) أمريكا . إسرائيل و 11 أيلول 2001 ، ديفيد ديُوك ، تر: سعد رُسْتُم ، ط1 2002 ، ط2 2003

يُؤكِّد مُؤلِّف الكتاب الأمريكي أنَّ إرهاب وتجسُّس (إسرائيل) هُو الأشدُّ خطراً على أمريكا ، ويُعَدِّدُ أهمَّ العمليَّات الإرهابيَّة التي قامت بها (إسرائيل) ضدَّ أمريكا . ويتَّهم الإسرائيليِّين والمُوساد بإخفائهم معلومات هامَّة عن المُخابرات الأمريكيَّة حول التَّخطيط لتفجيرات 11 أيلول 2001 .

71) مُخيَّم جنين من النَّكبة إلى الانتفاضة ، علي بدوان ، 2002

دراسة سياسيَّة وتوثيقيَّة بالتَّواريخ والأرقام والأسماء لما تعرَّضت له مدينة جنين ومُخيَّمها على وجه الخُصُوص من همجيَّة وتدمير من قبَل الاحتلال الإسرائيلي . كما يعرض إلى قصَّة لجنة التَّحقيق الدَّوليَّة وبالتَّفصيل ، وإلى مُداخلات هذا التَّحقيق ...إلى أنْ تمَّ إلغاء تلك اللَّجنة ، ومُحاولة طَمْس المجزرة الإسرائيليَّة في مُخيَّم جنين .

72) إشكاليَّة وحدة الوُجُود في الفكر العَرَبي الإسلامي (الله والإنسان والعالم في الحضارات الإنسانيَّة) دراسة تحليليَّة رُؤيويَّة، مُحمَّد الرَّاشد، 2002

ما هُو موقف العقل البشري من تلكم المحاور الكفيلة بتحقيق شرطه الوُجُودي في الحياة وفي الممات والمُتمثِّلة برُؤيته إزاء الله والإنسان والعالم؟ هذا ما سعى المُؤلِّف إلى إبرازه على ضوء التّساؤلات الأزليَّة. لماذا خَلَقَ الله الكون وما فيه؟ كيف تمَّ الخَلْق الأوَّل؟ لماذا خُلقنا؟ وإلى أين المصير؟ ما السّبيل إلى تحقيق خلاص فَرْدي وجَماعي في الحياة ويوم البعث والنُّشُور؟

73) القُرآن وتحدِّيات العصر رحلة الشَّكّ والإيمان، مُحمَّد الرَّاشد، 2002

لا يكتفي المُؤلِّف بمُناقشة عدد من المُستشرقين والمُفكِّرين الغربيِّين الذين أساؤوا إلى القُرآن عن سُوء فَهْم أو عن سُوء طويَّة فحسب، وإنَّما يُسارع إلى تأكيد السُّقُوط الأمريكي الموعود على ضوء المُستقبل المنظور، من خلال رُؤيته لمنطق التّاريخ واستلهامه لأبجديَّات القُرآن...

74) الدِّبلُوماسيَّة القديمة والمُعاصرة، د. علي عبد القوي الغفَاري، 2002

إنَّ الدِّبلُوماسيَّة الجديدة - بعد أحداث سبتمبر - تُنبىء - بما لا يدع مجالاً للشَّكّ - أنَّها دبلُوماسيَّة القُوَّة، التي فاقت توقُّعات العُلماء والخُبراء، والمعاهد الاستراتيجيَّة المُتخصِّصة في القضايا القانونيَّة والدِّبلُوماسيَّة والعسكريَّة، والكتاب يتناول الدِّبلُوماسيَّة مُنذُ القديم وإلى الآن، وقواعد اختيار السُّفراء والقناصل، وشُرُوط التَّبادُل الدِّبلُوماسي بين الدُّول، وكُلّ ما يتعلَّق بالبرُوتُوكُولات الدِّبلُوماسيَّة.

75) الدَّليل إلى ألفيَّة ابن مالك في النَّحْو والصَّرْف والإعراب (تبويب وتوضيح) مُحمَّد بن عبد الله بن مالك الأندلسي، إعداد: باسمة درمش، 2002

هذا الكتاب يحوي قواعد اللُّغة العَرَبيَّة، نَحْوها وصَرْفها، في ألف بيت وبيتَيْن من الشّعر الموزون، كما يحوي تبويباً مُفصَّلاً لكُلّ قاعدة نَحْويَّة وصرفيَّة لمباحث الألفيَّة التي بلغت الأربعة والسّبعين مبحثاً. الكتاب: أُسلُوب شعري يُسَهِّلُ حفظ قواعد لُغتنا العَرَبيَّة؛ استحضار سريع ومُكثَّف لقواعد لُغتنا العَرَبيَّة.

76) قَتلُ المُرتدّ الجريمة التي حَرَّمها الإسلام، مُحمَّد مُنير إدلبي، 2002

إنَّ بيت الدِّين هُو في أعماق القلب. إنَّه فوق حُكْم وسيطرة السّيف. وكما أنَّ السُّيُوف لا تستطيع تحريك الجبال، كذلك فإنَّ القُوَّة لا يُمكنها أنْ تُغيِّر القُلُوب. وفي الوقت الذي كان فيه الاضطهاد باسم الدِّين هُو الموضوع المُتكرِّر في تاريخ العُدوان الإنساني، فإنَّ حُرِّيَّة الاعتقاد والضّمير هُو الموضوع المُتكرِّر في القُرآن الكريم. قال ربُّنا عزَّ وجلَّ: لا إكراه في الدِّين، قد تبيَّن الرّشد من الغي. وقال أيضاً: قُل الحقُّ من ربِّكم، فمَنْ شاء فليُؤمن، ومَنْ شاء فليكفر. (ومَنْ يرتدد منكم عن دينه، فيمت وهُو كافر فأُولئك حبطت أعمالهم في الدُّنيا والآخرة وأولئك أصحاب النّار هُم فيها خالدون). فهل يصحُّ أنْ نُعارض القُرآن الكريم ونُفتي بقَتْل المُرتدِّ؟!

77) انتبهوا... الدَّجَّال يجتاح العالم، مُحمَّد مُنير إدلبي، 2002

دراسة تحليليَّة علميَّة موثُوقة تُثبت بُطلان الزّعم القائل بأنَّ الدَّجَّال إنسان واحد. وتُثبت - في الوقت نفسه - أنْ ما يُسمَّى بالأعور الدجَّال قد ظهر في الأرض وأنَّه يجتاح العالم، ويعيث فيه فساداً!!! ما تفسير الحديث الشّريف: تغزون جزيرة العَرَب، فيفتحها الله؟ ثُمَّ تغزون فارس، فيفتحها الله؟ ثُمَّ تغزون الرُّوم، فيفتحها الله؟ ثُمَّ تغزون الدَّجَّال فيفتحها الله؟

78) أسرع الحاسبين ملامح جديدة للإعجاز العَدَدي في القُرآن الكريم ، عاطف صليبي ، 2002

مُرفق مع الكتاب قرص كُمبيُوتر يحتوي على برامج التّراميز وبرامج القسمة . الاكتشاف المُعجز في القرن الواحد والعشرين . فهُو دَرَسَ الحُرُوف المُقطّعة التي كَشَفَتْ أنَّ القُرآن الكريم مُرمَّز (مُشَفَّر) ، ثُمَّ درس كيفيَّة اكتشاف التّراميز القُرآنيَّة الثّلاث (الشّيفرات) .

79) إشارات حمراء ، رزان المُغربي ، 2002

مقطوعات شعريَّة تسمو وترتفع بالنَّفْس البشريَّة إلى سماء العاطفة النّبيلة .

80) الجياد تلتهم البحر ، رزان المُغربي ، 2002

قَصَصٌ قصيرة تُعبِّر عمَّا يشوب حياة النّاس من تقلُّبات سريعة على مُختلف الصُّعُد الاجتماعيَّة والفكْريَّة .

81) الحلقة المفقودة في سلسلة الحضارات القديمة للجزيرة العَرَبيَّة ، علي سكيف ، 2002

اكتشاف جديد لم يصل إليه أيُّ عالم أو مُستشرق أو مُؤرِّخ غربياً كان أم شرقياً ! ! الأمر الذي سيُؤدِّي إلى الكَشْف عن حقائق هامَّة جداً ، ومنها على سبيل المثال لا الحصر : أ ـ مَنْ هُو أوَّل مُكتشف للحرف والكتابة العَرَبيَّة ؟ وما هُو المصدر الذي استُقيت منه الحُرُوف ؟ ! ب ـ وثائق إيبلا المكتَشَفَة في سوريَّة تُبيِّنُ أنَّ إسرائيل ليس هُو يعقوب ، وأنَّ بني إسرائيل ليسوا هُم أولاده أو مَنْ تكاثروا عنه . ج ـ حقائق أو دلائل تُؤكِّد أنَّ طُوفان نُوح كان نتيجة لحرب كونيَّة استُخدمت فيها أسلحة تدمير شاملة تفوق بقُدرتها التّدميريَّة ما توصَّل إليه العالم اليوم . وأنَّ العالم ربُّما يكون قد عرف الاستنساخ في زمن نُوح عليه السّلام . د ـ هل كان مُوسى عليه السّلام ساحراً يستطيع أنْ يجعل العصا تنقلب إلى أفعى ، ويُفجِّر بها الصُّخُور ، فتنبع منها المياه ، ويشقّ بها البحر ، فتظهر اليابسة ، ليمرَّ عليها هُو وأتباعه ؟ أم أنَّ الحقيقة مُخالفة لهذه الخُرافات والأساطير ؟

82) المرأة في حياة وشعر الجواهري ، ديب علي حسن ، 2002

مَنْ لا يقرأ الجواهري الشّاعر المُحبَّ ، فسوف يبقى بعيداً عن تذوُّق روائعه التي نظنُّ أنَّها من أجمل الشّعر العَرَبي . في هذا الكتاب باقة نضرة من بُستان الجواهري آثرنا أنْ تكون فوَّاحة بعطر مَنْ أحبَّ من بغداد إلى لندُن إلى . . إنَّه الشّاعر الذي لا تغيب الشّمس عن مملكته الشّعريَّة نضالاً وحُبَّاً وإيماناً وتفاؤلاً بالقادم .

83) ظاهرة النَّصِّ القُرآني تاريخ ومُعاصرة ردٌّ على كتاب النَّص القُرآني أمام إشكاليَّة البنية والقراءة للدكتُور طيِّب تيزيني ، تأليف : سامر إسلامبولي ، 2002

كيف جُمع النّصُّ القُرآني ؟ ! توحيد القراءات والرّسم للنَّصِّ القُرآني . كيف نشأت القراءات ؟ بيان أنَّ اختلاف القراءات لا يُؤثِّر على الأحكام . توثيق النّصِّ القُرآني من التّاريخيَّة إلى الواقعيَّة . وهميَّة وُجُود النّاسخ والمنسوخ في القُرآن الكريم ؛ وذلك لأنَّه كتاب أُحكمت آياته . الكتاب دراسة علميَّة تحليليَّة تُثبت أنَّ القُرآن الكريم ثابت مُنذُ نزوله ، ولم يتعرَّض إلى الاختراق أبداً . والدَّليل الأقوى على هذا هُو أنَّه بين أيدينا وهُو قابل للدّراسة والتّأكُّد من صحَّة مضمونه على صعيد الآفاق والأنفس ، وكيفيَّة إثبات أنَّ مضمونه لا يُمكن أنْ يكون خطأ ومُناقضاً لمحلِّ خطابه أبداً ؛ لأنَّ النّصَّ الرَّبَّاني لا يُمكن أنْ يتناقض مع محلِّ خطابه ، ولا بأيِّ شكل من الأشكال .

84) الآحاد ـ النَّسخ ـ الإجماع (دراسة نقديَّة لمفاهيم أُصُوليَّة)، سامر إسلامبولي، 2002

ما فائدة الخبر الظَّنِّي؟ ما موقف القُرآن من خبر الآحاد الظَّنِّي؟ ما موقف الصّحابة والعُلماء من الخبر الظَّنِّي؟ نقاش رسالة الألباني في أنَّ حديث الآحاد حُجَّة بنفسه. ما خُطُورة وُجُود فكرة النّاسخ والمنسوخ في القُرآن؟ هل النّسخ مُمكن للنَّصِّ الخاتمي؟ نماذج من الآيات التي قيل إنَّها منسوخة وردُّ ذلك. ما تفسير: (ما ننسخ من آية أو ننسها)؟ (يمحو الله ما يشاء ويثبت)؟ (وإذا بدَّلنا آية مكان آية)؟ (اتَّبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربِّكم)؟ إثبات أنَّه لا ناسخ ولا منسوخ في القُرآن؛ ذلك الكتاب الذي أُحكمت آياته... ما هُو الإجماع؟ وما مصدريَّته؟ وما مفهومه كمصدر ربَّاني؟ مُناقشة الإجماع عند الإمام الشّافعي... نماذج من إجماع الصّحابة وآل البيت وعُلماء الأمَّة. نَقْد قاعدة (الأصل في الأفعال التّقيد). ماذا ترتَّب على الادِّعاء بأنَّ الإجماع مصدر شرعي إلهي؟

85) العبادات في الأديان السَّماويَّة (اليهُوديَّة ـ المسيحيَّة ـ الإسلام والمصريَّة والعراقيَّة واليُونانيَّة والرُّومانيَّة والهندُوسيَّة والبُوذيَّة و الزَّرادشتيَّة والصَّابئيَّة)

عبد الرَّزَّاق رحيم صلاَّل المُوحي، ط1 2001، ط2 2003

هذا الكتاب هامٌّ جداً جداً، لأنَّه يسدُّ ثغرة كبيرة في مكتبتنا العَرَبيَّة الإسلاميَّة، بل والعالميَّة. والباحث في دراسته هذه، والمُوثَّقة توثيقاً دقيقاً، يتناول مفهوم العبادات في الأديان الثّلاثة وفي ديانات مُندثرة مثل ديانة المصريِّين القُدماء والعراقيِّين القُدماء واليُونانيِّين القُدماء والرُّومانيِّين القُدماء، وفي ديانات مازال لها مُعتنقون ومُؤيِّدون إلى الآن؛ مثل الدّيانة الهندُوسيَّة والبُوذيَّة والصّينيَّة والزّرادشتيَّة والصّابئيَّة. فكم من النّاس والمُثقَّفين يعرف كيف يُصلِّي اليهُود؟ وكيف يُزكُّون؟ وكيف يتطهَّرون؟ وإلى أين يحجُّون؟ وكيف يصومون؟ وكيف يتوضَّؤون؟ وما هي أعيادهم؟ وكذلك الأمر بالنّسبة للمسيحيّين و... هذه الدّراسة دراسة مُقارنة هامَّة تُبيِّن ـ وبالنّصوص المُوثَّقة من التّوراة والأناجيل والقُرآن الكريم والسُّنَّة النّبويَّة ـ ما أصاب بعض الدّيانات السّماويَّة من تحريف وابتعاد عمَّا نزل أصلاً في كُتُبها السّماويَّة، حتَّى وصل بعضهم إلى تحليل ما حُرِّمَ في كُتُبهم، وتحريم ما أُحِلَّ؟ وتبديل ما ليس يُبدَّل، رغم وُجُود دلائل قاطعة في كُتُب تلك العبادات حُرِّفَت فيما بعد. ولا شكَّ أنَّه ـ وبعد قراءة الدّراسة ـ سيتَّضح ـ تماماً ـ جانب هامٌّ من جوانب تاريخ العبادات المُقارَن في العالم.

86) المرأة اليهُوديَّة بين فضائح التَّوراة وقبضة الحاخامات

ديب علي حسن، ط1 2000، ط2 2001، ط3 2002

المرأة في التّوراة (إبراهيم وسارة وهاجر، يعقوب وراحيل والزّواج من أُختَيْن، يهوذا يزني بكنَّته ثامر، أمنون يغتصب أخته ثامار) سالومي ورأس يُوحنَّا المعمدان، المرأة اليهُوديَّة في الحياة الدِّينيَّة المُعاصرة. المرأة في الجيش الإسرائيلي، حاخامات يهُود يُديرون شبكات الدّعارة و المُخدِّرات في العالم. كيف حاولت (إسرائيل) تصدير عبادة الشّيطان إلى مصر؟ تفاصيل العمليَّة القذرة لاتِّهام سفير مصر في (إسرائيل) بمُحاولة اغتصاب راقصة إسرائيليَّة. الكتاب دراسة موثُوقة تُبيِّن وتفضح وتُعرِّي كيف لعب حاخامات يهُود بالنّساء اليهُوديَّات وعن طيب خاطرهنَّ مُنذُ وُجد اليهُود إلى الآن.

87) المسؤوليَّة في القانون الجنائي الاقتصادي دراسة مُقارنة بين القوانين العربيَّة والقانون الفرنسي، محمُود داوود يعقوب، 2001

هذا الكتاب (المسؤوليَّة في القانون الجنائي الاقتصادي) هُو دراسة مُقارنة بين القوانين العَرَبيَّة في سُوريَّة ومصر مع الاستشهاد المُطوَّل ـ أحياناً ـ بالقوانين الجنائيَّة في لُبنان والعراق والكُويت واليمن والأُردن والجزائر والسُّودان والمغرب والسُّعُوديَّة والإمارات وقطر والبحرين وليبيا.. وبين القانون الجنائي الفرنسي.

88) تاريخ مدينة دمشق خلال الحُكْم الفاطمي ، د. مُحمَّد حسين محاسنة ، 2001

هُو دراسة لفترة غفل عنها المُؤرِّخون تماماً، حتَّى بدت ضبابيَّة، وهي من أهمِّ الفترات في تاريخ مدينة دمشق؛ لأنَّها كانت في مُعظمها صراعاً مذهبيّاً بين السُّنَّة والإسماعيليَّة، وهي فترة استجلى فيها المُؤلِّف الدُّكتُور مُحمَّد حُسين محاسنة خفايا صراعات كثيرة؛ من الفاطميِّين إلى القرامطة، إلى الأتراك والتُّركُمان، إلى جماعات الأحداث الدِّمشقيَّة، وقد تناول الباحث - بدايةً - جَغرافيَّة المدينة وخُططها وبداية بنائها ومناخها ومياهها. ثُمَّ انتقل إلى الفَتْح الفاطمي لها، وإلى الأحداث الخطيرة التي رافقت هذا الفَتْح، ثُمَّ تحدَّث عن التّنظيمات الإداريَّة والماليَّة، ثُمَّ الحياة الاقتصاديَّة، ثُمَّ الثّقافيَّة.

89) الحياة هي في مكان آخر ، ميلان كُونديرا ، تر : معن عاقل ، 2001

لم تستسلم من قَبْلُ لأيِّ جسد آخر بهذه الطّريقة، ولم يستسلم أيُّ جسد آخر لها من قَبْلُ بهذه الطّريقة. كان بوسع العاشق أنْ يستمتع ببطنها، إلا أنَّه لم يسكنه قطُّ، وبوسعه أنْ يلمس نهدها، إلا أنَّه لم يشرب منه قطُّ. آه؛ يا للإرضاع! راحت تُراقب بشَغَف حركات الفم الخالي من الأسنان الشّبيهة بحركات السّمكة، وتتخيَّل أنَّ ابنها - وهُو يشرب حليبها - يشرب - في الوقت ذاته - أفكارها وتصوُّراتها وأحلامها. إنَّها حال فردوسيَّة. كانت تسهر - بحرص - على جشاء ابنها وبوله وبرازه، وليس هذا اعتناء مُمرِّضة مُهتمَّة بصحَّة طفل، إنَّما كانت تسهر على نشاطات الجسد الصّغير بشَغَف.

90) القصر المسحور (سيِّد الباب السّابع) إيفلين بريزو بيللين ، تر : فاطمة عابدين ، 2001

هي رواية رائعة من عُيُون الأدب العالمي للفتيان، والرّواية من جهة تُحاول: أنْ تكون خياليَّة، ومن جهة أُخرى؛ فإنَّ ما فيها من إغناءات فكريَّة تفتح آفاق فكر الفتيان، وتُدخل القيَم التي فيها إلى خيالهم بصُورة سلسة، لتُصبح مُعتقدات تترسَّخ في وُجدانهم وعقُولهم.

91) بين ابن المُقفَّع ولافونتين (مدخل إلى دراسة مُقارنة) فاطمة عابدين ، 2001

الكتاب مُقتطفات من كليلة ودمنة لابن المُقفَّع، ومُقتطفات من أعمال لافونتين الشّعريَّة، شاعر فرنسا العظيم، والهدف من إبراز هذه المُقتطفات هُو إثبات أنَّ الأفكار واحدة لدى الإنسانيَّة، وإنْ اختلفت وسائل التّعبير عنها. والكتاب مُوجَّه لليافعين والتّلاميذ والمُدرِّسين.

92) المرأة مفاهيم ينبغي أنْ تُصَحَّحَ ، سامر إسلامبولي ، ط1 1999 ، ط2 2001

تفسير آيات : غضُّ البصر. حفظ الفُرُوج. إبداء الزّينة. ضرب الخمار. هل حقّاً أنَّ الرّسول الكريم قال : إنِّي رأيتُ أكثر أهل النّار من النّساء؟ أنتنَّ ناقصات عقل ودين؟! كيف يكون إذنها سُكُوتها وهي لم تنطق بحَرْف؟! السّياسة والنّساء ومنصب الرّئاسة. ما قصة ما أفلح قوم ولَّوا أمرهم امرأة؟! ماذا اشترط الله لتعدُّد الزّوجات؟ وكيف أهمل المُسلمون شُرُوط الله تعالى؟! ملك اليمين، المُتعة، ....

93) تحرير العَقْل من النَّقْل وقراءة نقديَّة لمجموعة من أحاديث البُخاري ومُسلم
سامر إسلامبولي ، ط1 2000 ، ط2 2001

هل نعتمد العَقْل أم النَّقْل؟! ما الفرق بين السُّنَّة والحديث؟! ما هي العصمة؟ وهل هُناك أئمَّة معصومون؟! هل سَحَرَ اليهُود الرّسولَ الكريمَ؟ هل حقّاً أنَّ الرّسول الكريم نسي آيات، ثُمَّ تذكَّرها؟! هل حقّاً أنَّ الرّسول الكريم قال: إنَّما الشُّؤم في ثلاثة؛ في الفرس والمرأة والدّار؟! **هل** صحيحا البُخاري ومُسلم مُقدَّسان لايجوز المساس بهما أو نَقْدهما؟!

94) الأُلُوهيَّة والحاكميَّة دراسة علميَّة من خلال القُرآن الكريم ، سامر إسلامبولي ، 2000

كيف ندرس مفهومَيْ التّوحيد والإيمان باليوم الآخر؟ما هي الأهمِّيَّة الكُبرى لهذَيْن المفهومَيْن اجتماعيَّاً وتعبُّديَّاً؟ لمَ دَمَجَ المُسلمون ما هُو بشري بما هُو ربَّاني في السِّياسة؟! مَنْ أعطى الحقَّ لهم بالحُكْم بتكفير فُلان وتَزَنْدُق فُلان وارتداد فُلان؟! ما الأُلُوهيَّة؟ ما الرَّبَّانيَّة؟ما الحاكميَّة؟ ما حاكميَّة الله؟ما حاكميَّة الإنسان؟ ما معنى (الرّحمن على العرش استوى)؟

95) الوصايا المغدورة (التَّرجمة الكاملة) ميلان كُونديرا ، تر : معن عاقل ، 2000

هذه الدّراسة النَّقْديَّة مكتوبة بشكل رواية على مدى تسعة أجزاء مُستقلَّة ، تتقدَّم الشّخصيَّات ذاتها وتتلاقى : سترافينسكي وكافكا وأنسير ميه وبرود ، همنغواي مع كاتب سيرته . . وفنُّ الرّواية هُو البطل الرّئيس للكتاب ، والذي يبحث الحالات الهامَّة في عصرنا : الدّعاوى الأخلاقيَّة التي أُقيمت ضدَّ فنِّ هذا العصر من سيلين إلى ماياكُوفسكي . . الحياء بوصفه مفهوماً جوهريّاً لعصر مُؤسَّسٍ على الفرد . . القُوَّة الغامضة لإرادة الموت ، الوصايا ، الوصايا المغدورة . وُلد ميلان كُونديرا في تشيكُوسلُوفاكيا ، واستقرَّ في فرنسا عام 1975 ، ويُعَدُّ من أشهر الرّوائيِّيْن في هذا القرن ، وكَتَبَ هذا الكتاب باللُّغة الفرنسيَّة . وهُو من الرّوائيِّيْن المُثيرين للجَدَل في العالم .

96) المُحاورة ، ميلان كُونديرا ، تر : معن عاقل ، 2000

وضعتْ ـ بعد ذلك ـ كفَّيْها على وركَيْها ، وزلقتْهُمَا على امتداد الجذع . رفعتْهُمَا فوق الرّأس ، ثُمَّ تسلَّقتْ يدُها اليُمنى على امتداد ذراعها اليُسرى المرفوعة ، ويدها اليُسرى على امتداد ذراعها اليُمنى ، وأنهتْ حركة الذّراعَيْن . أعادتْ ـ بعد ذلك ـ يدَيْها إلى وركَيْها ، وزلقتْهُمَا على امتداد السّاقَيْن ، رفعت السّاق اليُمنى ، ثُمَّ السّاق اليُسرى وهي مُنحنية ، ثُمَّ نظرتْ إلى المُدير ، وحرَّكتْ الذّراع اليُمنى مُلقيةً إليه بتنُّورتها الوَهْميَّة . مَدَّ المُدير يده وأحكم قبضته ، وأرسل بيده الأُخرى قُبلة . كانت مُتفاخرة بعُريها الوَهْمي ، ولم تَعُدْ تنظر إلى أحد ، راحت تنظر إلى جسدها المُتموِّج ، وعيناها نصف مُغمضتَيْن ، ورأسها مائل جانباً... تحطَّمت ـ بعد ذلك ـ وضعيَّة الزُّهُو . .